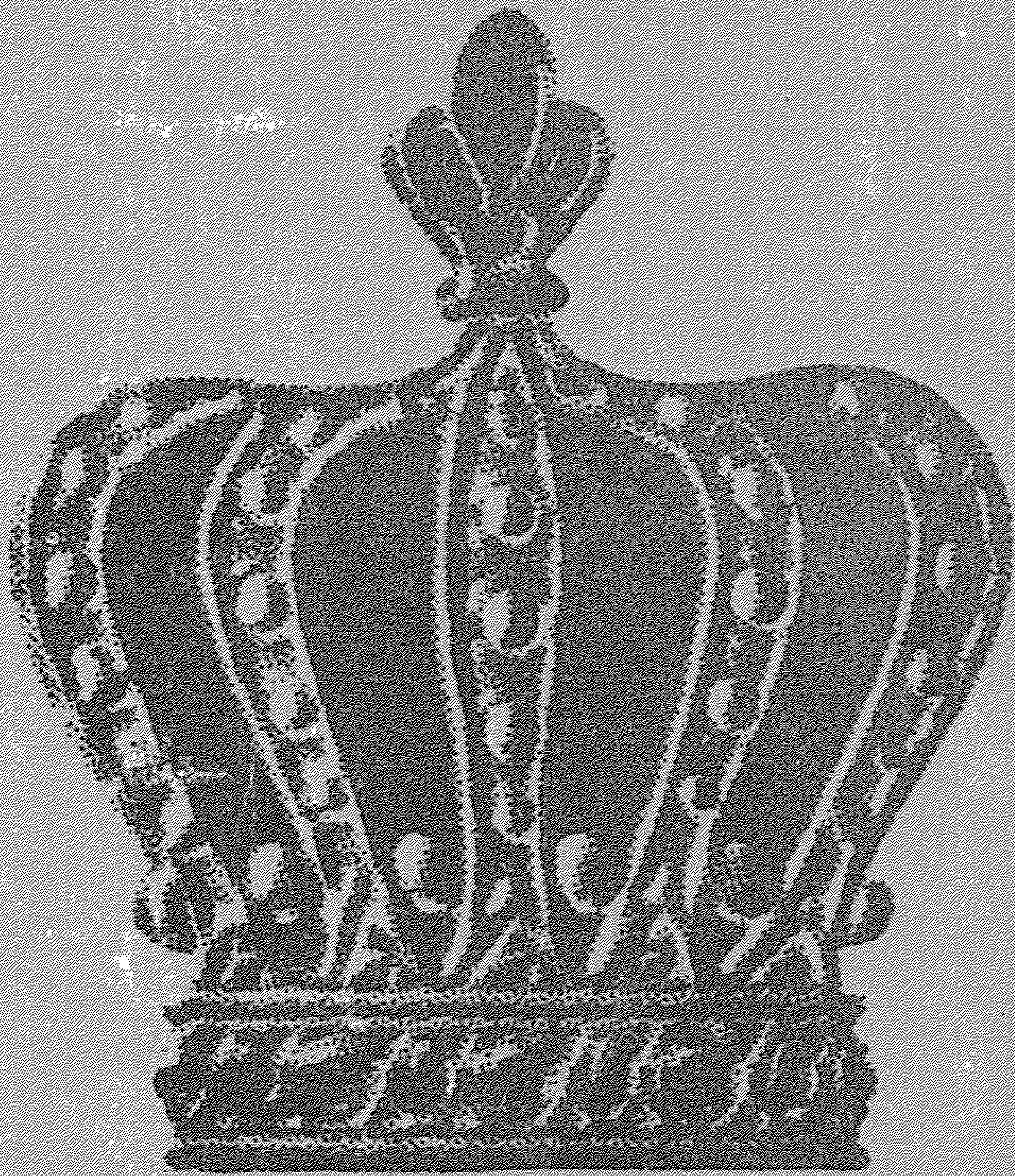
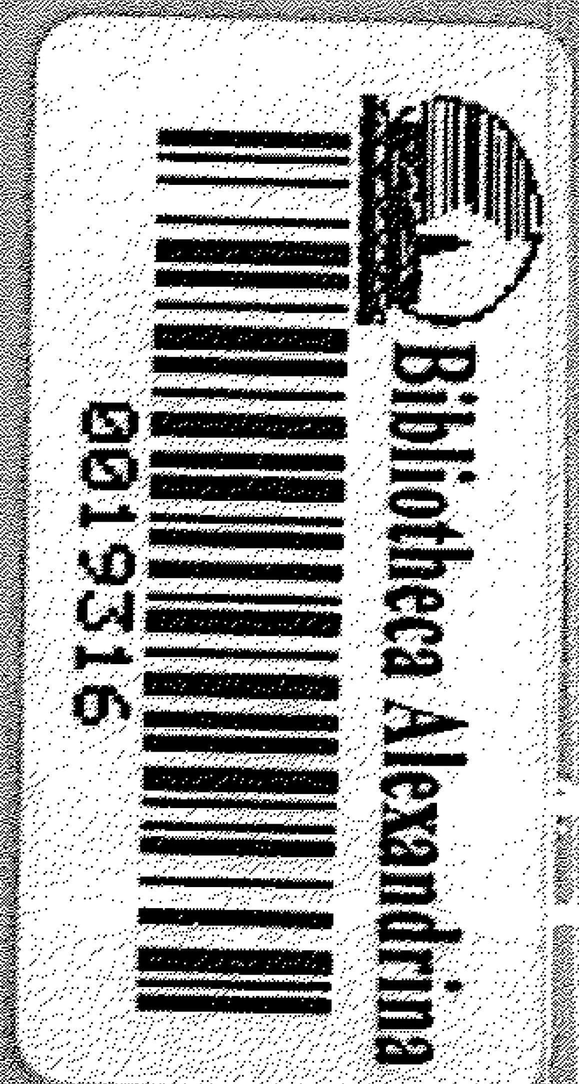
الخواجة نظام الملك الطوسي



# سياست نامة

## سير الملوك



# سياست نامة

## سير الملوك

الخواجة نظام الملك الطوسي

ترجمة الدكتور
يوسف حسين بكار

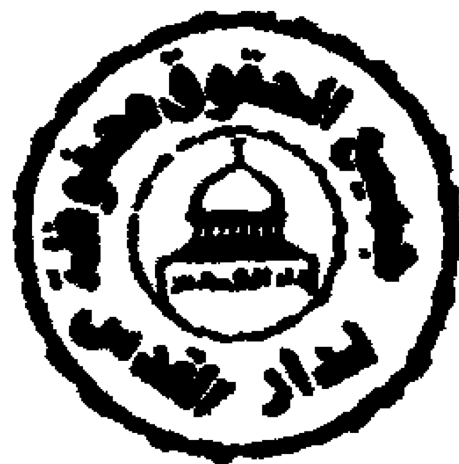
# سياست نامة

## سير الملوك


**دار القدس**

المكاتب :
• بناية الزهراء - الجامعة العربية
• بناية مكرزل - شارع بشارة الخوري

هاتف : ٢٩١٤١١ - ٣١٤٥٠٠
برقياً : مقدسبرس
ص.ب : ٢٤٨٩ - ١١
بيروت - لبنان

الـى «ليـلاي» الصغيرة التـي تجمـع
بـين عمومـة العـرب وخؤولـة الفـرس
اهـــدي هـــذه التـرجمـــة

يـوسف

## بسم الله الرحمن الرحيم

## بين يدي الترجمة

الترجمة ضرورة انسانية وفكرية وحضارية لا غنى عنها لكل امة حية تنشد الكمال الانساني او الاقتراب منه على الاقل . ان ترجمة الآثار الفكرية من اجدى انواع الترجمة واهمها لانها تفسح المجال واسعا امام ابناء مختلف امم الارض للاطلاع على ميراث بعضها والافادة منه ، وربما التأثر به ايضا .

ولست اراني في حاجة للعودة الى الوراء لأقلب صفحات التاريخ قديمه والحديث واستعرض تاريخ الصلات الثقافية والعلمية ، وفيها الترجمة ، بين الثقافتين العربية والفارسية ، فقد كتبت في هذا الموضوع دراسات رصينة جادة ، ولكن لا بد من الاشارة الى أن الترجمة من الفارسية الى العربية ، وربما العكس ايضا ، كانت من اقدم وسائل تلك الصلات واوسعها واكثرها نشاطا . ولم يقف بها الزمن عند القرون الاولى للحضارة العربية الاسلامية ، انما واصلت مسيرتها الطويلة على مر الاعصر الى أن توقفت عجلتها ، مع ما توقف ، حينا من الدهر في عهود العتمة والانحسار والركود التي رانت على العالم الاسلامي قاطبة . لكنه ما ان افاقت امم الشرق من سباتها الطويل العميق واخذت تعاود اتصالاتها ببعضها وبغيرها من دول العالم أيضا ، استأنفت الصلات العربية الفارسية انشطتها المختلفة من جديد ، ووصلت حاضرها بماضيها ، فآتت أكلها يانعة طيبة ، اذ الف رعيل من ابناء الامتين في تراث الامة الاخرى وترجم ، وما تزال كوكبة من المحققين والباحثين والدارسين تواصل السير على هذه الطريق العلمية المباركة .

ولايماني العميق بهذه المسيرة الخيرة التي كان لي شرف الاسهام في التاريخ للجانب الادبي (١) منها ، والمشاركة بنصيب (٢) ضئيل فيها ، رحبت باقتراح ترجمة

كتاب « سير الملوك » المعروف بـ « سياست نامه » اثر الوزير الايراني العظيم نظام الملك الطوسي الى لغة الضاد ، لما له من اهمية كبيرة ، لا من الناحية التاريخية (٣) ، بل من حيث انه يعد دستورا قيما في كيفية سياسة البلدان وتسيير دفة الامور فيها بالمنطق والحزم والعدل والحكمة .

ليس في نيتي أن اتحدث هنا عن الكتاب وصاحبه ، لان صديقي العلامة الدكتور غلام حسين يوسفي قد كفاني مؤونة هذا في تصديره القيم الذي وشح به هذه الترجمة ، فعرض فيه بتفصيل نقدي موضوعي ثاقب لحياة نظام الملك ، وتحدث عن موضوعات الكتاب وحللها تحليلا دقيقا منصفا — على عادته في كل تواليفه وبحوثه واعماله — وفاه حقه ، ولم يترك مجالا لمزيد . الا أنني سأقتصر كلامي على ناحيتين فقط : الاولى تتصل بنواحي اخرى من الكتاب غير التي عرض لها الدكتور يوسفي ، وتشتمل ايضا على العناية الكبيرة التي احرزها هذا الكتاب من لدن الايرانيين والمستشرقين تحقيقا وترجمة . أما الاخرى فستدور حول ترجمتي هذه وما يدور في فلكها من أمور .

اما عن الناحية الاولى ، فعلى الرغم من ان الكتاب « يعز نظيره بين الكتب الفارسية (٤) » ، فقد كان الى زمن قريب — وما يزال تقريبا — مثار جدل كبير ، بين الايرانيين خاصة ، خلاصته ان الكتاب لا يمكن ان يكون النسخة الاصلية التي

---

(١) للمترجم في هذا المجال :

١ - جهود عربية معاصرة في خدمة الادب الفارسي ، وهو بحث طويل القي بدعوة من جامعة مشهد ( الفردوسي حاليا ) ، في مؤتمر التحقيقات الايرانية الثاني ( ٢-٧ ايلول عام ١٩٧١م ) ، ونشر في المجلد الثاني لاعمال المؤتمر ( مشهد ١٩٧٣م ) . وقد ترجمه الى الفارسية الاستاذ الدكتور جعفر شعار ونشرته مجلة « سخن » الطهرانية في ثلاثة اعداد متتالية هي السادس والسابع والثامن من دورتها الثالثة والعشرين لعام ١٣٥٣ شمسي .

٢ - الفارسية وادابها في البلاد العربية ، مقال طويل نشر في مجلة كلية الآلهيات والمعارف الاسلامية بجامعة الفردوسي - مشهد . العدد الثاني عشر ١٣٥٣ شمسي (١٩٧٤م).

(٢) للمترجم فيهذا المجال أيضا :

١ - دور الفرس في الثقافة العربية في نظر الدارسين العرب المعاصرين ( مقال ) مجلة الاخاء « طهران » السنة (١١) . العدد (١٨٦) كانون الثاني ( يناير ١٩٧١م ) .

٢ - شعراء فرس في الادب العربي ( مقال ) . مجلة كلية الآلهيات والمعارف الاسلامية بجامعة مشهد . العدد الثاني ١٣٥١ شمسي .

٣ - خراسان في التراث العربي ( بحث ) . مجلة كلية الآلهيات والمعارف الاسلامية بجامعة الفردوسي . العدد السادس ، اب ١٩٧٣ م .

٤ - ترجمة بحث « العالم المنشود في بستان سعدي الشيرازي » للدكتور غلام حسين يوسفي . مجلة البيان . الكويت ، العددان ١٤و١٦ كانون الثاني واذار ١٩٧٤م .

(٣) ان الذين حققوا كتاب « سياست نامه » او كتبوا عنه لا يعدونه كتاب تاريخ محض لما جاء فيه من اخطاء تاريخية ، ولان نظام الملك لم يكن يهدف الى تأليف كتاب تاريخ ، بل وجه همه الى بيان الطريق المستقيم في سياسة الدول والالتفات الى كل ما من شأنه ان يكون عظة وعبرة، وغير ذلك من الامور .

(٤) عباس اقبال ، مقدمة سياست نامه ص ط .

خطتها يد نظام الملك نفسه ، لانه ظل فترة ليست قصيرة بعد مقتل صاحبه وديعة عند محمد المغربي كاتب السلطان الخاص الذي لا يستبعد بأن يده — او يد غيره — قد امتدت اليه وعبثت به . وقد قدم المرحوم الاستاذ عباس اقبال ادلة على هذا من طبعته للكتاب التي اعتمد في تحقيقها على بضع نسخ خطية متأخرة (١) . غير ان طبعة المستشرق دارك الثانية وطبعة الدكتور جعفر شعار اللذيـن اعتمدا في نشرهما على نسخة خطية جديدة عثرا عليها في « تبريز » تخلوان خلوا تاما مـن الادلة التي اتكأ عليها عباس اقبال واتخذها شواهد على ما ذهب اليه حتى اضحت للاخرين حقائق شبه مسلمة . ويصف دارك النسخة الخطية الجديدة بقوله : « انها نسخة اصيلة ، وهي اصح النسخ الاخرى واكثرها اعتبارا . يعود تاريخ كتابتها الى عام ٦٧٣هـ ، وهي مكتوبة بخط حسين بن زكريا بن الحاج الدهستاني ... كما انها تخلو من عيوب النسخ الخطية الفارسية الاخرى ، وان كاتبها لم يطلق لخياله وذوقه العنان فيعبث بالنص حذفا او اضافة او تغييرا (٢) . ثم « انها اقدم نسخ الكتاب الخطية » (٣) . ومهما قيل ويقال في هذه المسألة ، فان الكتاب ، فيما يقول الدكتور يوسفي في تصديره الآتي : « لأهم ذكرى واحسن وثيقة عن عصر نظـام الملك ، وطريقة تفكيره ، وكيفية حكمه » .

كانت هذه أولى المشكلات التي ظهرت لي وانا افكر في ترجمة الكتاب ، والتي تنعكس بجلاء في التباين الظاهر بين طبعات الكتاب المختلفة . ومن هنا اي من تعدد طبعات الكتاب انبجست المشكلة الثانية ، واظنها تعرض لكل مترجم يقدم على ترجمة كتاب طبع بضع طبعات متباينة . غير ان الاهتمام بـ « سياست نامه » وطبعه مرات يحمل اكثر من دلالة ، لعل من اهمها قيمة الكتاب وتعدد مخطوطاته واختلافها .

فلقد طبع « سياست نامه » عدة طبعات ، وترجم الى اكثر من لغة اجنبية . وكان المستشرق الفرنسي شارل شفر اول مـن نشر نصه الفارسـي بباريس عام ١٨٩١م ( ١٣٠٩هـ ) بالاعتماد على مخطوطات باريس ولندن وبرلين ، ومقايستها — الى حد — بمخطوطتي لينينغراد . وفي عام ١٨٩٣م ترجمه الى الفرنسية ، وفي عام ١٨٩٧م اصدر ملحقا لترجمته بمباحث الكتاب التاريخية .

واتخذت طبعة شفر مع انها ، فيما يقول دارك « ليست مرضية » (٤) أساسا لبضع طبعات وترجمات أخر . ففـي عام ١٣٣٠ اعيد طبعها بالحجـر في بومباي بالهنـد (٥) .

ثم اخذت طبعات الكتاب تترى في ايران نفسها ، ففي عام ١٣١٠ شمسي طبع طبعة منقحة باهتمام عبد الرحيم خلخالي . وفي عام ١٣٢٠ شمسي اصدر المرحوم عباس اقبال طبعة جديدة منه لتدرّس في المدارس الايرانية ، وقد عورضت بطبعتي شفر وخلخالي . تمتاز هذه الطبعة بمقدمتها الجيدة وحواشيها المفيدة التي ظلت

---

(١) المرجع السابق ، المقدمة ص ا — ب .

(٢و٣) مقدمة الطبعة الثانية ( بالفارسية ) ص ١١ — ١٢ .

(٤) مقدمتـــه ص ١٩ .

(٥) مقدمة عباس اقبال ص ي .

موردا ينهل منه كل من حقق الكتاب ونشره او كتب عنه بعده . وفي عام ١٣٣٤ شمسي نشره على أساس طبعة شفر مرتضى مدرسي جهار دهي محلى بتصحيحات وحواشي العلامة محمد قزويني . وفي عام ١٣٤٠ شمسي نشره المستشرق الانجليزي هيوبرت دارك معتمدا على عدد كبير من مخطوطاته التي جمعها من شتى بقاع العالم (١) ، ثم ترجمه عام ١٩٦١ الى الانجليزية . غير انه لما عثر على نسخة النخجواني في تبريز بعد سبع سنوات من طبعته الاولى ، اعاد طباعته ثانية عام ١٣٤٧ شمسي ( ١٩٦٢م ) لما لهذه المخطوطة من ميزات وخصائص هي التي نقلتها عنه سابقا ، وهي نفسها التي حملته على أن يقول بثقة واطمئنان : « ان طبعة شفر ، بالاهتداء الى ما بين ايدينا من نسخ معتبرة ، فقد فقدت اهميتها » (٢) .

اخر طبعات الكتاب ، الطبعة التي أصدرها على اساس مخطوط النخجواني ، في الدرجة الاولى ، الاستاذ الدكتور جعفر شعار عام ١٣٤٨ شمسي اي بعد عام واحد من طبعة دارك الثانية . ان هذه الطبعة لا تختلف في متنها عن طبعة دارك الثانية في شيء لاعتماد المحققين — في الدرجة الاولى — على مخطوطة تبريز نفسها، كما انهما تمتازان بما اضاف اليهما المحققان من تعليقات وملاحق لغوية واصطلاحية وفهارس مختلفة وقد افاد كلاهما — وخاصة في التعليقات — من حواشي طبعة المرحوم اقبال ، وقد اشار الدكتور شعار نفسه الى هذا في مقدمته (٣) .

كانت تلك هي طبعات الكتاب ، أما ترجماته ، فقد ترجم — الى الآن — الى اربع لغات حية ، اذ تقدمت الاشارة الى أن شفر ترجمه الى الفرنسية ، ودارك الى الانجليزية . وترجمه — على اساس طبعة شفر والافادة من نسختي لينينغراد — ب.ن. زاخورد الى الروسية ، وصدرت الترجمة بموسكو عام ١٩٤٩م ، كما ترجمه ، على اساس طبعة شفر أيضا والاستفادة من الترجمة السابقة ، ك.أ. شابنكر الى اللغة الالمانية ، ونشرت هذه الترجمة بميونيخ عام ١٩٦٠م (٤) .

تلكم هي التركة الثقيلة التي وجدت نفسي أمامها وجها لوجه ، وانا اقدم على ترجمة « سياست نامه » ، لكنني أيقنت ، بعد طول تأمل أن لا مفر لي من اعتماد طبعة من طبعات الكتاب أصلا للترجمة ، وانكانلا بد من الاختيار ، فلا مندوحة من اختيار واحدة من اثنتين — طبعة دارك الثانية او طبعة الدكتور شعار لانهما — لاعتمادهما على مخطوطة تبريز — أوفى الطبعات واكملها على الاطلاق ، وانقاها من الشوائب التي حملت محققيها على الجزم بتلاعب النساخ بالكتاب والبعد به عما دبج نظام الملك . وكان ان اخترت طبعة الدكتور شعار لان الرجل ايراني وواحد من ذوي الفضل في الفارسية وعلومها ، ومن أساتذتها المعروفين ايضا ، وأبناء اللغة المتخصصين فيها أدرى دائما بشعابها ومضايقها واصطلاحاتها وامثالها ومجازاتها واقدر على فهمها من غير اهل اللغة المتخصصين فيها ، مهما أوتي هؤلاء

---

(١) انظر وصفه لهذه المخطوطات وكلامه عليها في مقدمته ١٥–١٨ .
(٢) المرجع السابق ص ١٩ .
(٣) ص ١٢ .
(٤) انظر أيضا : مقدمة طبعة دارك الثانية ص ٢٠ .

من فضل ومقدرة وسعة اطلاع . وعلى الرغم من ثناء الدكتور شـعار على دارك وطبعته بقوله : « ان طبعته الثانية تفضل طبعة شفر وتتفوق عليها ، اذ نحا في التحقيق النحو المعروف عن علماء الغرب من دقة النظـر » فانه يقول عنه « ان المحقق على الرغم من دقته تنقصه المعرفة بخصائص التراكيب في الفارسيـة ، مما أدى الى وقوعه في عدد من الاخطاء » ثم ذكر نماذج مـن هذه الاخطاء (١) .

لكن اختياري هذا لم يصرفني عن طبعتي دارك وعباس اقبال اللتين كنت افزع اليهما بين الحين والحين اذا ما اعترضني عارض للتثبت من حقيقته . ومن المفيد جدا أن اشير هنا الى الامور التاليـة :

١ ــ اعتمدت في تسجيل القسم الاكبر من اخطاء المؤلف التاريخية في الهوامش على حواشي عباس اقبال التي كانت ــ فيما ذكرت ــ المورد الثرّ الذي استقى منه بقية المحققين بعده . لكنني اكتشفت اخطاء وتصحيفات جديدة فاتت المحققين الافاضـل (٢) .

٢ ــ لما بدا لي ان في بعض عبارات طبعتي الدكتور شعار ودارك شيئا من تصحيف او أنها لا تنسجم مع سياق الكلام والمعنى الذي وضعت له ، فرجعت اليهما في نسخة اقبال وتراءى لي انها اصح واكثر انسجاما ، ترجمتها عنه .

٣ ــ جارى الدكتور جعفر شعار المرحوم عباس اقبال في حذف بعض الحكايات والاخبار لاسباب اخلاقية واجتماعية ، لكن دارك لم يحذف من المتن شيئا ، فترجمت الاشياء المحذوفة عن طبعته حرصا على امانة الترجمـة .

٤ ــ يخلو الكتاب في الاصل ، كغيره من اكثر المؤلفات القديمة ، من العناوين الفرعية في الفصول ، لكن الدكتور شعار رغبة منه في التفريق بين محتويات الكتاب وتوضيحها ــ خاصة قصصه التي تبدأ كل منها بعنوان ( حكاية ) ــ جعل لها عناوين من عنده ، فتابعته في صنيعه هذا وزدت عليه تسهيلا للقارىء ودرءا لملالته . فالعناوين الموضوعة بين قوسين ( ) من وضعي انا ، أما العناوين الاخرى فللدكتور جعفـر شـعار .

فضلا عما تقدم ، فلقد راعيت في ترجمة الاصطلاحات التاريخية والامثال ولغة ذلك العصر الدقة المتناهية ما حالفني التوفيق ، واحتفظت بالالفاظ والاصطلاحات الفارسية التي استعملتها كتب التاريخ العربية كما هي ونبهت الى المعرّب منها . ثم زودت الترجمة بهوامش توضيحية موجزة للاعلام والاماكن مما اعتقدت بوجوب ذلك فيهـا .

لكل ما تقدم طالت رحلتي في ترجمة هذا الكتاب الى ما يقرب من ثلاث سنوات لم اضن فيها بجهد او وقت في التنقيب عن شيء هنا ، واخر هناك ، لكنني لست ادري ــ مع هذا ــ الى اي مدى وفقت في ترجمة هذا الاثر الجليل النافع ، ومهما يكن فبحسبي انني اردت ان أقدم ، بترجمته ، خدمة صغيرة لتراثين عريقين ثريين

---

(١) انظر مقدمتـه ١٢-١٣ .

(٢) من الامانة العلمية ان اذكر انني لم اطلع على طبعات شفر والهند وخلخالي لعدم توفرها .

لرّين هما عمدة ما بقي من تراثنا الاسلامي في اصقاع المعمورة .

انه لمن الواجب والحق بعد انتهاء هذه الرحلة ان اتقدم بالشكر الجزيل الى الاستاذ الصديق الدكتور غلام حسين يوسفي رئيس قسم اللغة الفارسية وآدابها بكلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة الفردوسي بمشهد على عونه لي في حل بعض معضلات الكتاب وتوضيحها وتوجيهها ، وعلى تفضله بكتابة تصديره القيم عــن السياسي العجوز نظام الملك وكتابه « سياست نامه » .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

**يوســف بكار**

# السياسي العجوز
## تصدير بقلم : الدكتور غلام حسين يوسفي

ان حياة الخواجة (١) نظام الملك من حيث التجارب التي استقاها من خلال ادارته دفة الحكم ، ومن حيث طول مدة وزارته ، وسعة آفاق حكومته خاصة ، جلية جدا ، ونادرة المثال . وبحسبنا ان نقول انــه كان الوزير القدير لألــب ارسلان وملكشاه السلجوقي ثلاثين سنة ( ٤٥٥ — ٤٨٥هـ ) (٢) ، وانه « وسع آفاق دولة ايران توسعة لم ير لها في ايران نظير في هذه الالــف والثلاثمائة سنــة من تاريخ الاسلام ، وانه لــم يكن في شتــى انحاء كاشغــر ، واوزجنــد ، وبلاساغــون وما وراء النهر ، وخوارزم ، وخراسان وسجستان ، وكرمان ، وفارس ، وعراق العجم ، وعراق العرب ، ومازندران ، واذربيجان ، وارمينية ، وآران ، والشام ، وبيت المقدس ، وانطاكية ، من يتأخر في تنفيذ أوامره وتطبيقها قيد انملة . لقد كان السلطانان المذكوران — وقد كانا من أعظم ســلاطين السلاجقة — يطيعان آراءه ويقران تصرفاته و . . . ، ولم يكن خلفاء بني العباس ، في الغالب ، يميلون برؤوسهم

---

★ المترجم : كتب الدكتور يوسفي هذا التصدير بالفارسية ، فنقلته الى العربية .

(١) المترجم : الخواجة لقب نظام الملك .

(٢) راجع : نسائم الاسحار من لطائم الاخبار . تحقيق مير جــلال الدين أرموي « محدث » . منشورات جامعة طهران ١٣٣٨ شمسي ، واثار الوزراء ص ٢٠٧ تأليف سيف الدين حاجي بن نظام عقيلي ، تحقيق محدث ، منشورات جامعة طهران ١٣٣٧ شمسي ، وتاريخ ادبيــات در ايران ( تاريخ الادب في ايران ) ٢ : ٩٠٥ للدكتور ذبيح الله صفا ، طهران ١٣٣٦ شمسي .

عن رغبته وارادته . لقد كان أباطرة الروم وحكام غزنين يعيشون في ظل حمايته ، أما سلطان العرب ، فسار في ركبه ماشيا ، وقبّل حافر جواده ، وأما ملوك الاطراف، فكانوا يضعون كتبه ورسائله على رؤوسهم واعينهم ، ويعدون ارتداء خلعته شرفا لهم » (١).

عمّر الخواجة سبعا وسبعين سنة ، تولى في صباه الكتابة لأبي علي بن شاذان حاكم بلخ ، واصبح من بعد كاتب الب أرسلان الى اخر العمر ، وبتعبير اخر انه قضى عمدة حياته بالسياسة . لقد كانت أمور الدولة كلها ابان وزارته تحت نظره ، وعلى يديه تمت انجازات واعمال عزيت اليها شهرة السلاجقة الاتراك وتقدمهم ، سواء في عهد نظام الملك (٢) أم بعده (٣) .

لقد وصل نظام الملك الى هذا المقام الرفيع من مرتبة عادية . فقد كان — فيما يقول هو نفسه — لا يملك في ايام شبابه سوى ثلاثة دنانير مما اضطره الى ان يقترض أربعة اخرى ليتمكن من شراء حصان بسبعة دنانير ، لكنه لما نقل اليه أيام وزارته نبأ غرق جياده العربية الخمسمائة لم يأبه لهذا الخطب الذي نزل به ولم تبد عليه سيما تأثر قط (٤) .

وتروى في ترجمته القصة التالية : انه لما تقرر ان ينضم الى موكب السلطان في سفره ، وكان ذلك في بدء خدمته في ظل الب أرسلان ، وقبل أن يصل الى منصب الوزارة « انتابه غم شديد ، لانه لم تكن لديه الآلة التي تمكنه من مواكبة الموكب في سفره » . الى أن استطاع في نهاية الامر أن يعثر في أحد المساجد على ذهب لأعمى ذلل به مشكلته (٥) .

---

(١) مجتبى مينوي : « خواجه نظام الملك طوسي » نقد حال ، ص ١٩١ منشورات الخوارزمي ، طهران ١٣٥١ ، وراجع أيضا : الدكتور عبد الحسين زرين كوب ، فرارار مدرسة ( الفرار من المدرسة ) ص ٥٤–٥٥و٣١٤ منشورات دائرة الآثار الوطنية ، طهران ١٣٥٣ شمسي .

(٢) يقــول المعزي :

★ انت الوزير الميمون الذي رفعت بكفايتك دولة السلاجقة رأسها الى عنان السماء ★
( ديوان معزي ٦٠٢ ) .

المترجم : المعزي هو امير الشعراء عبد الله محمد بن عبد الملك ، ومن كبار شعراء العصر السلجوقي . كان أبوه عبد الملك شاعر بلاط ألب أرسلان . أما المعزي فكان يعيش في كنف ملكشاه الى وفاته ، وهو الذي لقبه بأمير الشعراء . وبعد مدة صار الى خدمة سنجر بن ملكشاه وظل يعيش في بلاطه الى اخر عمره ( زهراي خانلري : فرهنك ادبيات فارسي ٤٢٩ - ٤٧٠ ) .

(٣) راجع : عباس اقبال ، سياست نامه ( مقدمة ج - د ) . منشورات وزارة الثقافة ، طهران ١٣٤٠ شمسي ، وتاريخ ادبيات در ايران ٢ : ٩٠٥ .

(٤) تجارب السلف ٢٦٨ - ٢٦٩ تأليف هندوشاه بن سنجر بن عبدالله الصاحبي النخجواني . تحقيق عباس اقبال . طهران ١٣١٧ شمسي .

(٥) تجارب السلف ٢٧٨ ودستور الوزراء ١٥٢ - ١٥٣ تأليف غياث الدين بن همام الدين المعروف بخولدمير . تحقيق سعيد نفيسي ، طهران ١٣١٧ هـ شمسي .

كان أبو علي الحسن ابن دهقان (١) ، وكان جده اسحاق دهقانا في بيهق . ولما ارتقى المقام بأبيه ابي الحسن علي في خدمة ابي الفضل سوري بن المعتز حاكم خراسان من قبل الغزنويين ، اسند اليه أمر ضرائب طوس ومكوسها ، أو فيما يقول هندوشاه النخجواني « لقد عمل والده ، غير ان دخله لم يكن يفي بنفقاته » (٢) .

ولم يمض طويل وقت حتى أضحى ابن هذا الدهقان الخراساني اعظم رجل سياسي في عصره ، لكن عاقبة أمره كانت عبرة للآخرين ، اذ انتهت قدرته بمقتله . ومهما يكن ، فقد طوى المراحل كلها ، فكان ذا معرفة بالعالم وناسه ، وقد كتب له التوفيق في ادارة دفة الحكم والدولة .

ولد الحسن نظام الملك سنة ٤٠٨ هجرية في « نوقان » احدى قرى « الرادكان » بطوس ، وفيها تعلم وقرأ القرآن ، ومن ثم تعلم العربية وفقه الشافعية والحديث في مدن خراسان الاخرى من مثل : طوس ، ومرو ، ونيسابور . وفي ذكائه في طفولته وصباه أحاديث كثيرة . وقد استطاع في سن العشرين ان يظفر بنصيب وافر من العلوم الشرعية ، ولقد كان ايضا ، كاتبا قديرا كفؤا . اذ تمكن من ان يلفت اليه نظر جغري بك اخي طغرل السلجوقي ، وصار بعد ذلك كاتب ابنه الب ارسلان ، ومتصدى كل شؤونه . لقد عين الب ارسلان في اثناء حكومته بخراسان الخواجة وزيرا له عام ٤٥١ هـ ، ولما اصبح سلطانا عهد اليه عام ٤٥٥هـ بوزارة ممالك آل سجلوق بدلا من عميد الملك الكندري (٣) . وظل نظام الملك يشغل هذا المقام العظيم الى اخر لحظات حياته .

لقب الخواجة بـ « تاج الحضرتين » لانه وزر لسلطانيين « ولقد منح من دار الخلافة لقب « رضي أمير المؤمنين » في حين ان الخلفاء لم يمنحوا لقبا لأي وزير غيره » (٤) .

لم يكن نظام الملك بارعا في السياسة وصاحب قلم حاذق حسب ، انما كان ، فضلا عن ذلك ، « ذا خبر واطلاع على أكثر العلوم » (٥) . وكان « يسهم في

---

(١) كانت طبقة الزراع في ايران قبل الاسلام ولعدة قرون في الاسلام ، عبارة عن ملاكي الدرجة الثانية ، الذين كانوا يعدون من الاحرار والاصلاء والشرفاء • مجتبي مينوي : نقد حال ١٩٣ وراجع أيضا : الدكتور ذبيح الله صفا ، حماسه سرايي در ايران ( فن الملحمة في ايران ) ٦٤-٦٣ طهران ١٣٣٣ شمسي ، و Lambton : Dinkan,' EI (2), 11, 253-254:

(٢) تجارب السلف ٢٦٦ •

(٣) تجارب السلف ٢٦٦-٢٦٧ ، ودستور الوزراء لخوندمير ١٥٠-١٥١ ، وتاريخ ادبيات در ايران ٢ : ٩٠٥ •

(٤) اثار الوزراء ٢٠٧ ، ودستور الوزراء لخوندمير ١٥٨ • ومدحه لامعي الجرجاني بهذا اللقب، فقال:
« أي نظام الملك المحمود ، يا شمس العصر ٥ وزين الدنيا والزمان وزينته »
« الناس يهتفون : رضي امير المؤمنين بحر اذا تحرك ، طور اذا سكن » •
( ديوان لامعي ١٥٣ )

(٥) اثار الوزراء ٢٠٧ •

تدبير شؤون الديوان والولاية ، ويقوم على تنظيم العساكر وتعبئة الجيوش » (١) ، حتى انه في الحروب كان يقاتل في طليعة الجيش جنبا الى جنب مع ابنائه وغلمانه ويواجه الاخطار بعزم الرجال ومضائهم (٢) .

كان لنظام الملك اثنا عشر ولدا ، وعدد كبير من الاصهار وذوي القربى . ولقد عهد الى كل واحد من ابنائه وأقاربه وغلمانه بولاية وحكومة ، كما انه أوصل انصاره الى مصاف الجاه والنعمة ، فكان سلطان السلاجقة من أقصاه الى أقصاه تحت نفوذه وسيطرته ، وكان أمره نافذا في كل مكان (٣) .

وقصة الحوالة المشهورة — اي الكتابة الى والي انطاكية بالشام لدفع أجرة الملاحين بجيحون — التي وردت في أغلب المصادر (٤) ، والتي أراد نظام الملك ان يعرض من ورائها سعة المملكة ونفاذ أمر السلطان ، أو نفاذ أمره هو في الحقيقة — نموذج اخر من نماذج اهمية نفوذه ومقامه .

ومن أعمال نظام الملك الهامة الاخرى ، تأسيسه المدارس النظامية . صحيح ان احداث المدارس في دنيا الاسلام كان سابقا لنظام الملك ، وانه لم يكن مبتكره ، لكنه — وفي نظر الجميع — كان أول من سن نظاما جديدا في حقل التربية والتعليم ، هو تعيين رواتب وتخصيص مساكن لطلاب العلم ، وتأمين سكن ونفقات للمدرسين . لقد كانت تعد المدارس النظامية — في الحقيقة — من المدارس المجهزة ليل نهار ، اذ كانت اسباب فراغ البال والمطالعة وتحصيل العلم متوفرة فيها للمعلمين وطلاب العلم على حد سواء .

كان من اشهر هذه المدارس ، نظامية نيسابور ، ونظامية بغداد . فقد كان يحضر في الاولى ثلاثمائة طالب يوميا ، وعلى مدى ثلاثين سنة ، للاصغاء الى درس امام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني ( ت ٤٧٨هـ ) ، وكان من بين هؤلاء الامام محمد الغزالي الذي وصل الى أوج الشهرة (٥) .

اما نظامية بغداد ( أسست بين عام ٤٥٧ و ٤٥٩ ) فكانت لها موقوفات كثيرة من اسواق وحمامات ودكاكين وضياع ، لتأمين أجور العمال والاساتذة ، ونفقات الطلبة . وكان فيها ايضا مكتبة قيمة لها منصة ، واساتذة ، ومعيدون ، وكتبة ، وحراس ، وخدم كثيرون . لقد كانت نفقات الاساتذة والطلاب خمسة عشر الف دينار سنويا ، وكان عدد طلابها ستة آلاف طالب يدرسون النحو واللغة والفنون الادبية ، والفقه ، والتفسير ، والحديث ، وغير ذلك من العلوم الشرعية .

---

(١و٢و٣) نسائم الاسحار ٥٠ ، واثار الوزراء ٢٠٧ .

(٤) تجارب السلف ٢٦٧ ، واثار الوزراء ٢٠٧ ، ودستور الوزراء لخوندمير ١٥٦ ، ودستور الوزراء للواعظ الاستر آباذي ص ٢٠ ، تصحيح اسماعيل واعظ جوادي ، طهران ١٣٤٥ ، وتاريخ نكارستان للقاضي احمد غفاري ص ١٤١ . تحقيق مرتضى مدرسي كيلاني . طهران ١٣٤٠ شمسي .

(٥) تاريخ ادبيات در ايران ٢ : ٢٣٥ — ٢٣٦ .

واوجد نظام الملك نظاميات اخرى في البصرة ، واصفهان ، وبلخ ، وهراة ، ومرو ، والموصل . وكان اكثر اساتذة وكتبيي وطلاب النظاميات من مشاهير علماء القرن الخامس والسادس والسابع ومعروفيهم .

لقد دعا عمل نظام الملك كبار معاصريه الى تأسيس المدارس ايضا ، طلبا لثواب الآخرة ، او تدعيما لمكانتهم الاجتماعية ، او منافسة لنظام الملك ، ومن هؤلاء منافس نظام الملك المعروف تاج الملك القمي ( ت ٤٨٦هـ ) الذي اسس المدرسة « التاجية » مضاهاة لنظامية بغداد ، وملكشاه السلجوقي نفسه الذي شاد مدرسة اخرى في منطقة « كران » بأصفهان . وثمة اخرون غيرهما ممن اوجدوا مدارس ببغداد ومدن اخرى (١) .

ان تأسيس النظاميات في المدن الاسلامية المهمة في ذلك العصر ، وتأمين نفقات عيش مدرسيها وطلبتها ، وانتخابهم ، واستخدامهم ، وتعيين برنامج (٢) دراسي معين — وقد كان في حقيقة أمره وفق عقائد الشافعية وخاصا بها — ، ان كل هذا ، وان كان نابعا من عقيدة نظام الملك الدينية ، ورغبته في نشر الثقافة الاسلامية ، فقد كان يزيد من نفوذه بين طبقة المتعلمين لأن المدرسين والتلاميذ كانوا — في الحقيقة — ينتخبون وفق رأيه ، وكانوا يتسلمون رواتبهم منه ، وكانوا مطيعي أوامره (٣) ، وخلاصة الامر ، انه كان يربي في كل سنة فريق كبير من طلاب العلم على اساس البرنامج الذي اراده واقره .

ومن ناحية اخرى ، فقد كان ابناء نظام الملك انفسهم يتولون ادارة نظامية بغداد . اما النظاميات الاخرى ، فكان يتولى دفة الامور فيها اولياء نعمة نظام الملك الذين كان لهم حتى حق تعيين المدرسين . وكانوا يسيرون هذه المراكز الهامة المؤثرة وفقا لآراء الخواجة وميوله (٤) . وبعبارة اخرى ، فان نظام التعليم في

---

(١) تاريخ ادبيات در ايران ٢ : ٢٣٩ و ٢٤١-٢٥٠ .

(٢) المترجم : لفظة « برنامج » معرب « برنامه » الفارسية .

(٣) حتى لو وجد بينهم اشخاص مثل ابي اسحق الفيروز ابادي مدرس النظامية الذي كتب بصراحة في جواب استفتاء خطي حول حسن اعتقاد نظام الملك وايمانه : « حسن خير الظلمة » . راجع : تجارب السلف ٢٧٧ ودستور الوزراء لخوندمير ١٦٧-١٦٨ .

(٤) راجع في النظاميات : تاريخ ادبيات در ايران ٢ : ٢٣٤ ، وابن خلكان ، وفيات الاعيان ١ : ٣٩٦ ( تحقيق محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٣٦٧ هـ ) ، والسبكي ، طبقات الشافعية ٣ : ١٣٧ ( طبعة مصر ) ، وسعيد نفيسي : نظامية بغداد ، مجلة مهر ٢ : ١١٧-١٢٧ ، والدكتور ذبيح الله صفا ، تاريخ تعليم وتربيت در ايران ( تاريخ التربية والتعليم في ايران ) مجلة مهر ٤ : ٤٢ - ٤٣ ، و Johns Pedersen EI (1), 111, 404 وتجارب السلف ٢٦٩-٢٧١ ، ودستور لخوندمير ١٦٠ - ١٦٢ .

المترجم : ترجم مقال سعيد نفيسي عن « نظامية بغداد » الى العربية مرتين ، الاولى ترجمة الدكتور حسين على محفوظ التي نشرت بمجلة المجمع العلمي العراقي المجلد الثالث . الجزء الاول ١٩٥٤م ، والاخرى ترجمة السيد حسن حمزة المنشورة في « الدراسات الادبية » التي كانت تصدر عن قسم اللغة الفارسية بالجامعة اللبنانية . السنة التاسعة العدد ( ١و٢ ) عام ١٩٦٧ م .

الملكة ، كغيره من الامور الاخرى ، ظل يدار في عهد وزارة نظام الملك الطويل وفق مشيئته ، ويعلم الناس المعتقدات والموضوعات التي كان يعينها بنفسه .

وعلى ما لتاسيس النظاميات من اهمية ، الا انه لا يمكن التغاضي عن أن الفكر الحي فيها كان اقل رشدا ونموا . ان ايجاد المدرسة أمر عظيم طبعا ، ولكن الاهم منه ما يدرس فيها والى اي مدى يفتق الافكار والاذهان ، ويخدم الحقيقة . لقد دعا قصر النظاميات على المعلمين والتلاميذ من المذهب الشافعي الى ايصاد أبوابها في وجه المذاهب الاخرى ، وحمل الآخرين على تأسيس مدارس خاصة بمذاهبهم (١) .

كان نظام التعليم في النظامية ضربا من التعصب للمذهب الشافعي الذي يتأتى عنه رد المذاهب الاخرى في نفوس التلاميذ . فضلا عن هذا « فان تعليم العلوم العقلية وتعلمها في المدارس التي انشئت بخراسان في القرن الخامس وما بعده ، ثم في العراق وسائر البلاد الاسلامية كان محظورا ، اذ لم يكن يدرس فيها ويتعلم سوى الآداب والعلوم الدينية ، وكان هذا ــ بطبيعة الحال ــ يقلل من رواج العلوم العقليــة واهتمام المتعلمين بها ، ويذهب بهاءها (٢) . هكذا كانت حال المدارس النظامية ، وكانت نتيجة ذلك أن طلابها كانوا محرومين من كل ما من شأنه انارة الفكر ، وايجاب البحث واظهار النظر والاستدلال . لقد كانوا يربون بنوع من محدودية الفكــر في مستوى العلوم النقلية الى أن نصل في النهاية الى فترة ابتلى فيها فضلاؤنا ، فيما يقول المرحوم محمد علي فروغي ، بالجمود والركود اللذين عانى منهما الاوروبيون في القــرون الوسطى (٣) .

بهذه الطريق ، ومن شتى الوجوه ، استولى نظام الملك على نبض الملكــة ، حتى لقد كان « السلطان طوع اشارته » (٤) . ومن البديهي أن ملكشاه لم يستطع ان يصبر على هذا القدر من الاقتدار والتدخل والاختيار ، خاصة أن منافسي نظام الملك ومناوئيه لم يكونوا ليتركوه وشأنه ، بل كانوا في سعاية مستمرة ضده لــدى السلطان . ومن جملة أولئك « تركان خاتون » زوج السلطان التي كانت تسعى بعد موت ابنها الاكبر ملــك احمد ــ الـي كان وليا للعهد ــ لكي ينتخــب ابنها الصغير محمود وليا للعهد خلفا له ، غير أن الخواجة نظام الملك كان يرى أن من مصلحة الملكة تنصيب بركيارق ابن زبيدة ــ الذي كان أكبر أبناء السلطان ــ وليا للعهد . وكان ملكشاه يناصر نظام الملك في الباطن ، غير ان تركان خاتون كانت تسعى جادة للاطاحة بوزارة نظام الملك واستبدالها بوزارة يتولاها تاج الملك الذي كان ينحاز الى جانبها وجانب ابنها (٥) . وكان مخالفو نظام الملك يحذرون السلطان منه

---

(١) من هذه المدارس : مدرسة « سوق العميد » ومدرسة « نتشيه » التي كانت خاصة بحنفية بغداد ( تاريخ ادبيات در ايران ٢ : ٢٤٦ ) .

(٢) تاريخ علوم عقلي در تمدن اسلامي ( تاريخ العلوم العقلية في التمدن الاسلامي ) ١ : ١٣٦ ــ ١٣٧ للدكتور ذبيح الله صفا . منشورات جامعة طهران ١٣٣٦ شمسي .

(٣) سير حكمت در اوروپا ( سير الحكمة في اوروبا ) ١ : ١١١ .

(٤) تجارب السلف ٢٦٨ .

(٥) نسائم الاسحار ٥٠ــ٥١ واثار الوزراء ٢٠٩ ونقد حال ٢٤٦ .

يوميا بحجة انه سلم قومه واعوانه زمام الامور ، ولم يبق للسلطان اي اختيار . ولم يكن هذا الكلام خلافا للواقع ايضا . واخذت عنايـــة ملكشاه بنظام الملك تقل تدريجيا ، اذ شرع بتنحية أنصاره عن مناصبهم أولا بأول ، وراح اذا ما جاءه ــ بين الحين والحين ــ شخص متظلما يعزي الظلم الذي لحق به الى تقصير نظام الملك ومن لف لفه ، هذا شيء ، وشيء اخر ان الاسماعيلية واعوانحسن الصباح ازدادوا قوة في ايران ، وبثوا بقتلهم مخالفيهم الرعب في القلوب ، حتى ان نظام الملك الذي كان يعدهم اعداء الدين والملك ، ارسل اليهم جيشا ليدفع اذاهم . واضيفت الى هذه العلل ايضا عوامل الشيخوخة والضعف والعجز التي كانـــت تثير في نفس نظام الملك تمني الانتحاء جانبا واختيار زاوية منعزلة يركن اليهـــا ، والذهاب لاداء فريضة الحج ، والانقطاع للعبادة . لكنه على الرغم من عداوات المخالفين وبلوغه من العمر عتيا ، وفقدانه القدرة والطاقة ، لم يزح العبء عن كاهله . « ربما كان ذلك لانه كان يدرك ان قوام الملك ونظام امور الدين والدولة منوطة بوجوده هو نفسه ، وأنه كان على يقين من انه اذا ما اخلى الساحة ، فان الدولة ستنفصـــم عراها . وربما يضاف الى هذه الملاحظة العامة ، شدة علاقته بأولاده ورجالـــه الذين سينحون طبعا بعد استعفائه ويواجهون بالنفرة والصدود . ومن المسلم به ان ابناءه واصهاره وذوي قرباه ــ الذين كانوا يعدون وجود الخواجة واقتداره حماية لمنازلهم ومحافظة عليها ــ لم يكونوا ليرضوا بأن ينسحب من الميدان » (١) .

واخذ ملكشاه ــ وقد كان يرى سلطانه وقدرته بيد الخواجة ورجاله ــ يستعد تدريجيا لعزله . لكن من بين الامور التي كانت تحول دون تحقيق هذا الهدف « علاقة جماعة من الجيش الشديدة بأسرة نظام الملك ، ومنهم فريق كانوا يعرفون بغلمان النظامية ، وقد كانوا على وفاء تام بالنسبة الى مخدومهم للحفاظ على سوابق نعمته عليهم ، وكانوا مستعدين للقيام بالفتنة والاضطراب واعلان العصيان والتمرد لادنى سوء تصرف يتخذ بحق الخواجة ورجاله » (٢) .

وظل الوضع على هذا المنوال الى أن وقع نزاع بين شمس الملك عثمان ابن الخواجة ــ الذي كان حاكما على مرو ــ وشحنة مرو (٣) الذي كان من عبيد السلطان الخاصين ، فقبض عثمان عليه ونال منه . فشكا الشحنة أمر ، الى ملكشاه الذي بعث الى نظام الملك بكتاب يقول : « ان تكن شريكي في الملك فلذلك حكم آخـــر ، وان تكن تابعا لي فلم لا تلزم حدك وتؤدب ابناءك واتباعك الذين اضحوا مسلطين في الورى حتى انهم لا يحفظون لموالينا حرمة « ان تشأ آمر بنزع الدواة (٤) مـــن

---

(١) نقد حال ٢٥١ .

(٢) عباس اقبال : سياست نامه ( المقدمة ص د ) .

(٣) المترجم : الشحنة ( بكسر الشين ) في البلد من فيه الكفايـــة لضبطها من جهـــة السلطان ( القاموس المحيط . فصل الشين ، باب النون ) .

(٤) كانت الدواة تستعمل بمعنى ( المقلمة ) . وقد جرت العادة ان تكون « مقلمة الوزارة » علامة عند تعيين امرىء في هذا المنصب فترسل اليه ، وعلامة عند عزله فترفع من امامـــه ( نقد حال . حاشية ( ص ٢٥٣ ) .

أمامك » . فتألم الخواجة واخذته سورة الغضب ، فقال للرسول : قل للسلطان انك لا تدري أنني شريكك في الملك ، وانك لم تصل الى ما أنت فيه الآن الا بتدبيري ... ان دولة ذلك التاج منوطة بهذه الدواة ، فأنى ترفعها يرفع . وبعد ان سكن عنه الغضب قال لمن احضروا كتاب السلطان : « لم اقل هذا الكلام الا من هول الصدمة. وأنتم ، اما ان تنقلوا الى السلطان هذا الكلام بعينه ، واما ان تقولوا — ان شئتم — ما ترونه مناسبا ومع انهم اظهروا الطاعة من جانب الخواجة ، أمام السلطان ، الا أن احدهم عرض حقيقة جوابه على مسامعه خفية » . وكان بديهيا ان يكفهر جو العلاقات بين السلطان والخواجة ، لكن ملكشاه لم يعزله وان قيل انه سلبه بعض سلطاته وقدرته (١) .

وفي السنة نفسها ( ٤٨٥هـ ) سافر ملكشاه من أصفهان الى بغداد . وبعد ايام من تحرك السلطان ركب الخواجة — بعد أن اتم انجاز أعماله وكتابة وصاياه (٢) — محفته (٣) ولحق به. وبالقرب من « كرمانشاهان » (٤) تظاهر رجل كان يرتدي لباس الصوفية بتقديم رسالة للخواجة ، فاقترب منه وطعنه بسكين فقتله ( في العاشر من رمضان سنة ٤٨٥هـ ) . لقد كانت الفاجعة كبيرة الى حد « ارتفع فيه العويل في المعسكر ، وتجمع الناس ، فركب السلطان اليهم وهدأ من روعهم وسكنهم (٥) » . وهكذا كانت مغبة رجل كان يوما يصدر الاوامر بقدرة أية قدرة !

وقيلت في مقتله آراء متفاوتة . فمن قائل ان ابا طاهر الاراني أحد فدائيي الاسماعيلية هو الذي قتله . وظن بعضهم ان قتله كان بأمر من ملكشاه . وذهب اخرون الى أن تاج الملك كان عاملا مؤثرا فيه والى هذا أشار الشعراء أيضا (٦) . وثمة ما ينص على ان غلمان نظام الملك تمكنوا بعد ذلك من تقطيع منافسه تاج الملك القمي بالسكين اربا اربا (٧) . اما فيما يرتبط بموت ملكشاه الذي حدث بعد مدة يسيرة من قتل نظام الملك ، فقيل : « لقد ودع السلطان ملكشاه الدنيا بعد شهر . وكانت وفاة السلطان المهين بعد قتل الخواجة حتى قيل : لتجن اليوم ما قدمت يداك بالامس (٨) » . وظن بعضهم ان غلمان النظامية هم الذين سموا السلطان انتقاما (٩) . ونظم الامير المعزي في موت الخواجة وملكشاه أشعارا فيها

---

(١) تجارب السلف ٢٧٩-٢٨٠ ودستور الوزراء لخوندمير ١٦٥-١٦٦ ونسائم الاسحار ٥١ - واثار الوزراء ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٢) جهار مقاله ١٣٦ كما أشار الاستاذ مينوي في « نقد حال ص ٤٥٦ » .

(٣) المترجم المحفة مركب للنساء كالهودج الا انها لا تقبب ( القاموس المحيط : فصل الحاء . باب الفاء ) وجملة « ركب محفته » لابن خلكان ( وفيات الاعيان ١ : ٣٩٧ ) .

(٤) المترجم : واختصرت الى « كرمانشاه » في الوقت الحاضر ( بلدان الخلافة الشرقية ٣٦ ) .

(٥) تجارب السلف ٢٨٠ .

(٦) راجع : عباس سياست نامه ( المقدمة ص و ) .

(٧) وفيات الاعيان ١ :٣٩٨ ونسائم الاسحار ٥١ .

(٨) نسائم الاسحار ٥١ .

(٩) راجع : عباس اقبال : سياست نامه ( المقدمة ص و ) .

اشارات خفية الى ارتباط هذه الحوادث ببعضها (١) . وفيما يقول سيف الدين العقيلي « لقد تحققت صحة ما قال الخواجة في حق ملكشاه : ان عمامتي وتاجك زوجان (٢) » . وبعد ذلك اخذ نجم الاتراك السلاجقة بالافول ، لكنه على الرغم من بقاء مبغضين ومناوئين لابناء نظام الملك وعقبه ، فقد ظلوا يحتفظون بمنصب الوزارة لمدة لا يستهان بها في عهد عدد من السلاطين (٣) .

وهذا قسم من وصية الخواجه ـ كان الاستاذ مجتبى مينوي اول من عثر عليها وعرّف بها ـ يستحق الذكر هنا : « لي في هذه الدولة خدما تجليلة وآثار مشهورة . لم اخالف أولياء نعمتي ممن لهم عليّ حقها ، أو اخنهم قط ، ولم اقصر عن لأي في محبتي وخدمتي . لقد انعشت الرعية ، وعمَّرت الخزانة ، واستأصلت مخالفي الدولة من جذورهم ، ونشرت العدل والانصاف والامن في الارض . لقد كان كل ما فعلته في مصلحة الدولة ، وصلاح الرعية كافة ، وسيتضح هذا جليا بعدي حين تناط الامور بشخص آخر . وفي تقديري وحدسي وظني انه لن يتمكن أي شخص بعدي أن يسيِّر شؤون الملك على النظام الصحيح شهرا واحدا (٤) » .

هذه خلاصة سيرة نظام الملك ، أمـا حصيلـة تجاربه في ادارة زمام الدولة فتنعكس في كتابه القيم « سير الملوك » المعروف بـ « سياسـت نامه » ( كتـاب السياسة ) . فمن خلال سطور هذا الكتاب يمكن أن نتعرف على صاحبه جيدا ، لأن هدف هذا المقال الاصلي هو البحث في موضوع الكتاب وما يحتوي عليه .

يضم « سياست نامه » عصارة افكار نظام الملك وتجاربه في أخريات حياته . انه مذكرات سياسي ووزير عظيم ابتعد فيها عن التصدي لحوادث حياته الخاصة ، وانصرف في الاكثر الى تعليم السبل التي تدار بها الممالك والارشاد اليها . نحن نعلم أن ملكشاه أمر في عام ٤٧٩ هجرية بضعة من « مشاهير الدولة ، والمسنين والحكماء » بأن ينعموا النظر في أمور المملكة ويتأملوها جيدا ، ويكتبوا عن كل ما هو غير محمود فيها او انه لا يجري في نصابه ، وعن سنن الملوك السابقين الحميدة، ثم يعرضوها عليه ليجعلها دستوره ، ويضعها نصب عينيه . فنفذ اولئك العظماء ما أمرو به ، واختار السلطان من بين ما كتب جميعا كتاب نظام الملك ، وقال : « لقد تخذت هذا الكتاب اماما لي ، وعليه سأسير (٥) .

---

(١) انظر : عباس اقبال : سياست نامه ( المقدمة ص و ـ ز ) وديوان المعزي ٤٠٥ ـ ٦٠٤ و ٤٧٦.

(٢) اثار الوزراء ٤١١ ، وراجع في نظام الملك أيضا : وفيات الاعيان ١ : ٣٩٥ وطبقات الشافعية ٣ : ١٣٥-١٤٥ و : Harold Bowen, E1 (1) III, 997-1000

(٣) راجع : تاريخ ادبيات در ايران ٢ : ٦٣ .

(٤) راجع : مجتبى مينوي « از خزاين تركية » ( من خزائن تركية ) مجلة دانشكده ادبيات طهران ( مجلة كلية الآداب . طهران ) . السنة الرابعـة . العدد الثاني شهر دي ١٣٣٥ شمسي . ص ٦٨ ـ ٦٩ .

(٥) سير الملوك ( سياست نامه ) ص ٣و٤ . تحقيق هيوبرت دارك . منشورات لجنـة الترجمة والنشر . طهران ١٣٤٠ شمسي . وارقام الصفحات الموضوعة بين قوسين في المتن تعود كلها الـى هـذا الكتـاب .

واخذ الخواجة بعد ذلك يعيد النظر في الكتاب ــ الذي كان في تسعة وثلاثين فصلا اول الامر ــ ويكمله ويضيف اليه الى ان وصل الى خمسين فصلا . وفي اخر سفر له الى بغداد اودعه عند محمد المغربي كاتب كتب السلطان الخاصة ليكتبه بخط واضح ، ويعرضه على السلطان كاملا اذا ما جاء نظام الملك اجله ( ١٠ ، ٣٠٧ ). من هنا قيل ان الكتاب يضم بين دفتيه عصارة أفكار صاحبه وسلائقه ، خاصة انه اعاد فيه النظر وتأمله بما فيه الكفاية . ان محمدا المغربي ــ بطبيعة الحال ــ هو الذي أعد الكتاب ، وعرضه ــ بعد مقتل الخواجة وموت ملكشاه ــ على محمد بن ملكشاه ( ٤٩٢ ــ ٥١١ هـ ) لان الزمان كان يقتضي ذلك . فالكتاب اذن لم يكن ما كتبه نظام الملك عينه ، بل ان المغربي احدث فيه بضعة تغييرات ، وفي الحقيقة انه دوّن بعد مقتل نظام الملك . وعلى أية حال ، فان ما بقي لنا منه اليوم ، على ما بين ثناياه من تغييرات ، لأهم ذكرى، وأحسن وثيقة عن عصر نظام الملك ، وطريقة تفكيره ، وكيفية حكمه .

يقع الكتاب في خمسين فصلا في موضوعات شتى . وانه لمن الطبيعي الا ينظر اليه على أنه كتاب تاريخ محض ، خاصة ان جاءت فيه بعض الاخطاء التاريخية (١) ، ولكنه يمكن أن تستنبط منه فوائد تاريخية جمة (٢) ذات اهمية اكثر من أهمية آثار نظام الملك الاخرى من مثل : وصاياه ، او « دستور الوزارة » ، و « قانون الملك » الذي ينسب اليه .

ان كل فصل من فصول كتاب « سير الملوك » الخمسين وموضوعاته المختلفة تكشف بوضوح تام عن ناحية من أوضاع الحكم ، واجهزة الادارة ، والطبقات الاجتماعية ، ورسوم ذلك العصر ، وتقاليده وآدابه . فالكتاب من هذه الناحية غنيمة كبرى . من هذا القبيل ما ورد فيه عن المسائل التالية : مسألة الاقطاع (٤١)، أهمية عمل القضاة وحدود اختياراتهم ( ٥٣ ، ٥٦ ) ، المحتسب واعماله (٥٦) ، المشرفون (٣) وواجباتهم (٧٨) ، أهمية عمل صاحب الاخبار والعيون ( ٧٩ ــ ٨٠ )، ارسال الجواسيس ( ٩٤ ) ، ارسال الرسل ( ١١٠ ) ، الحيطة في اصدار الاوامر السلطانية في السكر والصحو ( ١١١ ) ، الوكيل الخاص ( ١١٢ ) ، الندمان وشروط المنادمة ( ١١٣ ــ ١١٥ ) ، المغاوير الافذاذ واسلحتهم ومعداتهم ( ١١٨ ) ، الاسلحة المرصعة من اجل المراسم الخاصة ( ١١٩ ) ، احوال الرسل ودقة مهامهم ( ١٢١ ــ ١٢٢ و ١٢٤ ) ، الرهائن والاحتفاظ بهم في القصر ( ١٣٠ ) ، تربية

---

= المترجم : هذه الطبعة التي اعتمدها الدكتور يوسفي هي الطبعة الاولى . وقد طبع الكتاب طبعة ثانية ـ بعد ان عورض على نسخة خطية جديدة ـ عام ١٣٤٧ شمسي ( ١٩٦٢م ) ، وهي الطبعة التي استعنت بها أيضا في ترجمتي للكتاب .

(١) المترجم : أشرت في هوامش ترجمتي هذه الى كل الاخطاء التاريخية التي اخذت على المؤلف، ونبهت الى ما استخلصته أنا نفسي .

(٢) عباس اقبال : سياست نامه ( المقدمة . ص ط ) ، وتاريخ ادبيات در ايران ٢ : ٩٠٦ .

(٣) المترجم : راجع الفصل التاسع من هذه الترجمة وتعريف « المشرف » هناك .

غلمان السراي ( ١٣٣ ) ، تنظيم المقابلات الخاصة والعامة ( ١٥١ ) ، تنظيم وقوف العبيد والخدم حين الخدمة ( ١٥٥ ) ، تجمل المعروفين ( ١٥٦ ) ، أمير الحرس ومكانته عند الناس ( ١٧٢ ) ....

علينا – بطبيعة الحال – أن نأخذ بعين الاعتبار ان ما نقرأ في هذا الكتاب ليس الا نموذج لنمط فكر نظام الملك وٌرايه ، وبعبارة اخرى ادراكه واستنباطه لمسائل ذلك العصر السياسية والاجتماعية . معنى هذا أن الرجل نظر الى كل موضوع من وجهة نظره الخاصة ثم ابدى فيه رأيه . فالحقيقة اذن أنه يمكن رؤية انعكاسات افكاره في كل ناحيـــة وموضـــوع .

وأكثر من هذا ، فلقد قيل ان نظام الملك كان رجلا ذا تربية دينية يتمســك بعقائده هو . ولقد ذكر كل من كتبوا عنه أنه كان من أهل الطاعة والعبادة ، وانه كان يوصي ابناءه بهما وبتعظيم علماء الدين والاعتناء بهم (١) . حتى انه عدّ في حديث له مع ملكشاه – فيما تذكر احدى الروايات – الانفاق على الفقراء والمساكين والعلماء والفضلاء اكثر تأثيرا في بقاء الملك واتساعه من زيادة رواتب الجند (٢) . لقد كانت المسائل الدينية عادة منشأ كثير من احداث هذا العصر الهامة ، من تحالف واختلاف ، حتى الخصومات ونزيف الدم والحروب . ولقد كان هوى نظام الملك ، من هذه الناحية ، مع ما كان يعتقد به أي مذهب الشافعية واصول الاشعرية . قال هندوشاه النخجواني : « كان الخواجة نقي الاعتقاد جدا ، ومسلما حقيقيا يفكر في آخرته أكثر من دنياه » . واذا صح ما قيل عنه : « انه خطر بباله أن يكتب وثيقة عن كيفية عيشه مع عباد الله تعالى يشهد عليها العلماء وائمة الدين ، ثم توارى هذه الشهادة معه في التراب (٣) » يكون لنا فيه شاهد اخر على نمط تفكيره . ان اكثر ما يروى عنه من حكايات واخبار تحمل صبغة دينية ، وان أحواله وتصرفاتـــه فيها تجعل منه شخصا مذهبيا تقيا كان يتمنى – وهو في أوج قدرته – حياة البقالين وعيشهـــم (٤) .

لم يكن نظام الملك متمسكا بما كان يعتقد به حسب ، انما كان متعصبا ضيق المشرب ينفي كل شيء يخالف عقائده الدينية ويرده ، وكان يرى وهو في كرسي الوزارة ان مصلحة الملك والامة في السعي لمحو أتباع الفرق الاسلامية الاخـــرى خاصة الشيعة الاسماعيلية . وكانت حياته العملية أيضا كفاح ثلاثين سنـــة في سبيل تحقيق افكاره والوصول الى أهدافه . انه لصحيح ان التعصب الشـــديد في هذا العصر أرخى سدوله على كل شيء ، اذ كان كل من يسير في طريق معينـــة يحسب الآخرين على خطأ . فناصر يخسرو ايضا ، على ما له من مقام رفيع في أدبنا

(١) نسائم الاسحار ٤٩ واثار الوزراء ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٦ .
(٢) دستور الوزراء ١٩–٢٠ للواعظ الاستر أباذي .
(٣) تجارب السلف ٢٧٧ ودستور الوزراء ( خوندمير ) ١٦٧ – ١٦٨ .
(٤) راجع مثلا : السبكي ، طبقات الشافعية ٣ : ١٤١ وتجارب السلف ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ودستور الوزراء ( خوندمير ) ١٦٢ – ١٦٣ و ١٦٤ .

وثقافتنا ، ليس براء من التعصب الشديد لعقائده . ولكنه ثمة فرق ــ في الحقيقة ــ بين شخص مثله قوي الايمان كان يصارع ضد قوى عصره ، وبين نظام الملك الذي كان يعمل تعصبه في حق مخالفيه لا في منطقة محدودة ، بل في اهم الممالك الاسلامية في ذلك العصر بكل ما كان متوفرا لديه من ضروب القدرة ومقومات الحكومة . ترى ، اكان الاسماعيليون وانصار ناصر خسرو يسلكون مسلك نظام الملك مع مخالفيهم لو تيسّر لهم ما كان لديه من قوة ؟ ليس هذا ببعيد .

كان نظام الملك يعد الشيعة أو « الرافضة » ــ على حد قوله ــ والاسماعيلية، سياسيا ومذهبيا ، من خصوم الملكة والدين الذين لا سبيل الى مهادنتهم ، وذهب الى ان أصلهم واصل المزدكية والخرمدينية واحد . وهكذا قضى عمره كله سعيا في دفعهم . ولقد عدهم في كتابه ــ ما اتيح له المجال وواتته الفرصة ــ ضالين غواة ، ولم يتورع عن سبهم والصاق شتى أنواع التهم بهم (١) ، وان تصرفه مع فقهاء الشيعة في الري لنموذج على شدة مسلكه في هذا الامر . تأمل هذه الرواية : « ولما كان عهد ملكشاه الكريم ــ سقاه الله رحمته ــ استطاع نظام الملك ابو علي الحسن بن علي بن اسحق ان يتبين سر عقيدتهم ــ اي فقهاء الشيعة ــ فأذلهم جميعا ، وكان كلما ادعى احدهم في الري انه عالم من مثل : حسكا بابويه ، وابي طالب بابويه ، وابي المعالي الامانتي ، وحيدر الزيارتي المكي ، وعلي العالم ، وابي تراب الدوريستي ، وابي المعالي بخارجر ، وغيرهم من الرافضة ، كان يأمر باصعادهم الى المنابر حاسري الرؤوس ، وان يقال لهم باستخفاف ودون أن تراعى لهم اية حرمة : أنتم أعداء الدين الذين يلعنون السابقين في الاسلام . ان شعاركم شعار الملحدين ، آمنوا . فكانوا يؤمنون طوعا أو كرها ، ويعلنون نفرتهم من مقالة الرافضة (٢) » . من هذه الخشونة يتضح السبب الذي كان نظام الملك من أجله يضع الشيعة ايضا في مصاف المجوس واليهود من حيث عدم لياقتهم وصلاحيتهم لأن يكونوا في سلك خدمة الدولة ( ٢٠٣ ) . لقد كانت آفاق دولة السلاجقة محظورة على الشيعة . حتى في عهد الب ارسلان ، لما ظن رسول « خان » سمرقند خطأ ان نظام الملك رافضي ، ونقل هذا الى مخدومه ، كتب الخواجة : « وعلى الرغم من براءتي التامة ، فقد انفقت ثلاثين الف دينار طوعا ، وبذلت هدايا واعطيات كثيرة حتى لا يصل هذا الكلام الى السلطان » ( ١٢٤ ) ، اذ كان ممكنا ان يبتليه السلطان بالبلاء عينه الذي كان ينزله الوزير نفسه بالرافضة . لذا نجد الخواجة يطري مسلك محمود ومسعود الغزنوي وطغرل والب ارسلان ، الذي يقضي بابعاد الشيعة عن القصر ( ٢٠٣ ــ ٢٠٥ ) ، ثم انه ــ بهذه المناسبة ــ يجد مجالا واسعا لنقل روايات كثيرة ضد الرافضة ( ٢٠٥ ــ ٢٠٨ ) ، حتى قيام يعقوب بن الليث ــ

---

(١) راجع الكتاب خاصة ص ٢٦٠ ـ ٢٩٨ .

(٢) كتاب النقض ١٠٥ لعبد الجليل القزويني الرازي . تحقيق سيد جلال الدين حسيني « محدث » . طهران ١٣٣١ شمسي .

الذي خرج على الخليفة العباسي ــ يمكن ان تكون له ــ في زعمه ــ صبغة شيعية وباطنيــة ( ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ) .

وبازاء هذا فان نظام الملك يذكر تصرفه واحترامه لمحمد الغزالي ــ الــذي هيأ له بحضوره هو مناظرة مع الفقهاء ، ودعاه وهو في سن الخامســة والثلاثين للتدريس في نظامية بغداد (١) ــ نموذجا لاحترامه علماء اهل السنة ، ويعتقــد في كتابه فضلا خاصا في « التحقيق والتحري في امور الدين » (٢) ويوصي ملكشــاه باكبار علماء الدين ومعاشرتهم ، وتعلم احكام الشريعة ، وتنفيذ اوامر الدين حتــى « لا يستطيع اي مبتدع او صاحب اعتقاد خبيث ان يحرفه عن الطريق السوي » ( ٧٤ ــ ٧٦ ) .

ان الخواجة في « سير الملوك » يؤيد محمودا الغزنوي ــ الذي كان سلوكه مع اتباع المذاهب الاخرى يقوم على الشدة التامة (٣) ــ وسياسته المذهبية التعصبية بكل ضروب التأييد كلما تحدث عنه ، وهو انما يكشف في الحقيقة ، عن طريقتــه المفضلة هو ( ٨١ ، ٨٢ ، ١٤٩ ) . لقد كان يسعى للحفاظ على تشكيلات عهد الغزنويين واستمرارها ، فكان التوفيق يحالفه (٤) . وفي رايه ان « ليس في العالم كله افضل واقوم من مذهبي ابي حنيفة والشافعــي ، رحمة الله عليهما ، امــا المذاهب الاخرى فبدع واهواء » (١٢٢) . ولربما اورد الحنفية لان ملكشاه كان حنفيا . والا ، فقد كان بين ملكشاه ونظام الملك اختلاف في الراي حول مدرســة محلة « كران » بأصفهان ــ التي أوجدها السلطان ليتعلم فيها الحنفيون والشافعيون ــ ، ثم ان نظام الملك لم يكن يسمح بأن يكتب اسم الامام ابي حنيفة قبل اسم الامام الشافعي (٥) . وعلى هذا النحو من التفكير يتضح السبب الذي جعله يعقد خمسة فصول طوال في كتابه ( من الفصل الثالث والاربعين الى السابع والاربعين ) للكلام على اصحاب « المذاهب السيئة » ، ثم يكتب عن الاوضاع بقلق : « وفي الدولــة اليوم ، ممن يتسنمون المقامات الرفيعة ولهم فيها دالــة ، من يطلون برؤوسهــم من اقبية الشيعة وليسوا منهم ، بل هم في حقيقة امرهم من هؤلاء القوم (الاسماعيلية) يدبرون شؤونهم سرا ، ويدعمونهم ، ويدعون لهم ، في حين أنهم يغرون سيد الدنيا ويخدعونه بأنهم انما يعملون على الاطاحة بالخلافة العباسية . ان اكشف عــن القدر غطاءها تبن فضائحهم واعمالهم الشائنة للعيان » (٢٣٧) . بهذه المقدمات تتضح لنا وجهة نظر الخواجة . ولقد كان يرى أن دوام الدولــة وراحة الخلق لا

---

(١) تاريخ ادبيات در ايران ٢ : ٩٢١ .

(٢) المترجم : هو الفصل الثامن من هذا الكتاب .

(٣) راجع : فرخي سيستاني ( فرخي السجستاني ) ١٢٨–١٧٧ لكاتب هذه السطور - اي الدكتور يوسفي - مشهد ١٣٤١ شمسي .

(٤) تاريخ ادبيات در ايران ٢ : ١١٩ .

(٥) تجارب السلف ٢٧٨ .

يتحققان الا في ظل المذهب الشافعي فقط ، وان الاطاحة بكل من يعتقد بغير هذا لهي من صميم الحق والعدالة . اما انه كان محقا في هذا او غير محق ، فذا امـر اخر . وعلى اية حال ، فانه لا بد عندالنظر في كتابه ومطالعته من اعتبار رايـه جملة دينيا وسياسيا . ثمة شيء اخر في هذا الكتاب يستحق النظر ، هو نظـرة نظام الملك الانتقادية لأوضاع زمانه . فقد كان لا تعجبه اشياء كثيرة من رسوم عصره وتقاليده ، وهي التي رماها بسهام نقده . فهو تارة يكتب عن أمراء زمانه : « انهم لا يخشون ، لدينار حرام واحد ، تحليل عشرة محارم ، وجعـل عشرة حقـوق باطلة دون النظر في العواقب » ( ٢٨ ) ، وطورا يقول : « ولقد غدا منصب الوكيل الخاص باليا جدا في هذه الايام » ( ١١٢ ) أو « وفي هذه الايام من يتسنم سده عشرة مناصب دون ان تكون فيه اية كفاية تذكر . واذا ما جد منصب جديد ، فانه لا يألو جهدا في اتخاذه لنفسه ولو ادى الامر الى دفع المال مقابل ذلك ، فيولاه دون ان يحسب مولوه حسابا لما اذا كان اهلا لهذا العمل أم لا » ( ٢٠٢ ) . ويتحدث في مكان اخر عن امتهان الالقاب : « ان اقل غلام تركي شأنا ممن لا يوجد ثمة أسوأ منهم مذهبا ، وممن أحدثوا في الدين والملك الف مفسدة وخلل ، يلقب نفسه معين الدين وتاج الدين » ( ١٩٩ وراجع ايضا ١٨٩ و ١٩٨ ) . اما عن ضعف جهاز القضاء في ملك آل سلجوق ، فيقول : ( لو امر احد ملوك هذا الزمان ادنى « فرّاش » او « ركابدار » بأن : امثل في مجلس القضاء مع « عميد » بلخ و « رئيس » مرو لما صدع لأمره ، او اعاره ادنى اهتمام !! ) ( ٣٠٣ ) . اعرض نظام الملك لهذه النقائص لان ملكشاه أراد منه ذلك (٤) أم لانه راي في اواخر ايامه نفوذ مخالفيه يزداد، ونفوذه يتناقص تدريجيا ؟ بعبارة اخرى ، هل هذه اشارة الى مقولة متنطسي العيـوب — القائمة في عصرنا نحن أيضا — الذين لا يجري على السنتهم — وهم بعيدون عـن المنصب — سوى الكلام الذي تهش له القلوب ، ولكنهم حين يتبوأون سدة عمل ما ويصلون الى السلطة ، يرتكبون أسوأ مما كانوا يعدونه قبيحا مذموما ، وكأنهم في هذا الجانب غيرهم في ذاك ؟ خاصة ان نظام الملك لم يكن في مدة الثلاثين سنة من وزارته المقتدرة دون تاثير في ظهور هذه الاوضاع ، اوانه لم يستطـع اصلاحها . وليس ببعيد انه كنى عن نفسه في نقده الذي اورده في قصة البتكين وسبكتكين حيث يقول : « لقد هدفت من وراء هذه الحكاية أن يعلم سيد العالم — خلد الله ملكه — كيـف يكون العبد الجيد ، الذي اذا ما قام بخدمات نافعة ، ولم تبدر منه اية خيانة او ينكث عهدا قط ، بل كان الملك به ثابت الاساس مستحكما ، فكان بركة على المملكة ونفعا لها ، فينبغي الا يكلم في فؤاده او يصغي الى أقاويل الناس المغرضة فيه » ( ١٥٠ ) . ويؤكد في مواطن أخرى ايضا حسن تفكيره وحبه خير المملكة في صراحة، فيقول : « سيتذكر سيد العالم — ادام الله سلطنته — مقالة مولاه حين يـرمي هؤلاء القوم ( الخرمدينية وذوو المذهب السيئة ) عظماء الناس وأعزتهم في البئر ، وحين تقرع أصوات طبولهم الاسماع ، ويظهـر شرهم وفتنتهـم واضحا للملأ ، وسيتذكر ابان هذا الفساد أن ما قلته هو الصواب عينه ، وانني لم اضن — مـا

امكنني ذلك — في تقديم النصح ، واظهار الحدب والخشية . ولم آل جهدا في تنفيذ شروط طاعتي وهواي لهذه الدولة القاهرة ، ثبت الله اركانها » ( ٢٩٨ ) .

* * *

كان نظام الملك يرى ان بنيان المملكة والحفاظ عليها لا يقوم الا على العدل المطلق ، وقد نبه الى هذه الناحية مرات بصور شتى . وهو يرى ان رضى الحق تعالى ، وقوة سلطان ملكشاه ، وصلاح الجيش والرعية منوطة كلها بالعدل والاحسان ، ويعتقد بأن « الملك يبقى مع الكفر ، ولا يبقى مع الظلم » ( ١٧ ، ٦١ ). ان الرعية — في نظره — تطيع راعية الملك ( ٣٢ ) ، فها هوذا يقول لملكشاه في صراحة : « وفي الحقيقة ان سلطان العالم — خلد الله ملكه — يدرك انه سيسئل في ذلك اليوم العظيم عن جواب هذه الخلائق التي تحت امرته ، وانه لن يسمع منه شيء اذا ما احال الامر على شخص اخر . فما دام الامر كذلك ، فعلى الملك الا يعهد بهذه المهمة لاحد ، والا يغفل عن شؤون الخلق » ( ١٨ وانظر ٢٨ ايضا ). ويقول : « ليس ثمة ذنب اعظم من ذنوب الملوك عند الله تعالى . ان معرفة حق نعمة الله على الملوك انما تكون في المحافظة على الرعية وانصافها وكف ايدي الظالمين عنها » (٥٤) . لقد شغل هذا الاصل الهام نظام الملك واسترعى اهتمامه في كل مكان ، وكان يفكر في سبل مختلفة لكيفية التوصل الى تحقيقه . انه يوصي السلطان بأن يجلس للمظالم يومين في الاسبوع ، وان يستمع الى شكاوى المتظلمين دون وساطة . ثم يذكر بسنن السالفين من ملوك العجم الذين كانوا يقفون على نشز في الصحراء ممتطين جيادهم ليتمكنوا من رؤية كل شخص ، والتصدي للظالمين الذين يمنعون طلاب العدل من المثول بين ايديهم . ولم يفته ان يشير الى الملك الثقيل السمع الذي امر بأن يرتدي المظلومون ثيابا حمرا تميزهم عن غيرهم ليراهم ( ١٩ — ٢٠ ثم انظر ٢٨ ايضا ) . وينقل عن انوشروان قوله : « لماذا يفتح باب قصرنا للظالمين ويوصد في وجه المظلومين ؟ » ( ١٤٩ ) ثم يورد قصة « سلسلة عدالته » ( ٥٠ ) وينقل رأي عمر بن الخطاب من أن العمال اذا ما عرفوا « ان لا حجاب بين الملك ورعيته ، فان احدا لن يقدم على الحاق الظلم بها ، وعلى اخذ اموال الناس بغير حق » (٧٥) ، انه يعتقد — كما هو في تعبيرنا المعاصر — انه كان على ملكشاه أن يكون على اتصال اكثر برعيته : « واستمع الى كلام الرعية بنفسك دونما وساطة » ، وكن على علم بأحوالهم وما يعتصر في افئدتهم من آلام ، ثم انصفهم لكي « يخاف الظالمون ، ويكفوا ايديهم عن الناس ، ولا يجرؤ احد على الظلم والتمادي خشية العقاب » ( ١٩ ) ، ولكي يظل الملك ثابت الاساس . وبعد كل ما كان يقضي به نظام الملك من الحيلولة دون تجمع المتظلمين في القصر — في الوقت نفسه — تدبيرا اخر تجلى به الرجل في سياسة تسيير شؤون المملكة . يقول في هذا الموضوع: « يغص القصر دائما بالمتظلمين الذين لا يغادرونه قبل ان يتسلموا أجوبة شكاياتهم . ان هذا قد يبعث كل رسول او غريب يفد اليه على الظن ، عندما يسمع صراخ

المتجمعين وجلبتهم ، بان ظلما عظيما ينزل بالناس . فحتى يوصد الباب دون هذا ، ينبغي ان تجمع شكاوى اهل كل مدينة وناحية على حدة ، وتثبت في مكان واحد . ثم يحضر خمسة منهم الى القصر لبيان أمرهم وعرض احوالهم . ثم يتلقون الجواب ويتسلمون الحكم ... وذلك للقضاء علـى الجلبة والضوضاء والصراخ التي لا اســاس لها » ( ٣٠١ ) .

ومن البديهي ان ملكشاه لم يكن ليستطيع ان يتعهد شؤون الملك وحيدا . فعبء الوزير ثقيل اذن ، و « صلاح الملك والمملكة وفسادهما منوطان به أيضا » ( ٣٠ ) لانه « راس كل العمال والمتصرفين » . وينبغي ان يكون الوزير حســن الاعتقاد ، حنفيا او شافعيا ، نقيا ، كفؤا ، حسن المعاملة ، صاحب قلم ، محبـا للملك ، وان يكن ابن وزير فذا افضل . لانه « متى كان الوزير سيئا وظالما ، فان كل العمال سيكونون كذلك ، بل اسوا » ( ٢١٤ ، ٢١٨ ) ومن اجل استقرار العدالة في المملكة ، فان نظام الملك ، يعير اهتمامه لكـل وظائف متصدي امـور الدولة وواجباتهم ، ويبدي آراءه في كل موضوع . فالعمال اي مأمورو ايصال عائـدات الدولة ، ينبغي ان يسلكوا مع الناس سلوكا حسنا « والا يحصلوا منهم غير ما يترتب عليهم ، وذلك بالمداراة والمجاملة » وفي وقت جني المحاصيل لئلا يضيق عليهم ، ويكون سببا في تشتيت شملهم . فاذا ما سلك عامل ما غير هذا ، يجب « استبداله بآخر اليق ، وان كان غصب الناس شيئا دون حق فينبغي ان يسترد منه ويعاد الى اصحابه ... ثم يجب عزله وعدم اسناد اي عمل اليه بعد ذلك ، لتكون فيه عبرة للآخرين » ( ٢٩ — ٣٠ ) .

وكان نظام « الاقطاع » من رسوم عصر نظام الملك الهامة ايضا . وكانـت عادة الملوك القدامى ان يدفعوا رواتب الجيش نقدا من خزانة الدولة اربع مرات في السنة ( ١٢٦ ) . أما السلاجقة فكانوا يعطون للاشخاص قطعة ارض يرثهـا ابناؤهم من بعدهم ، وكان يسمى هذا اقطاعا . لكنه من الناس من كان يقطـع — احيانا — قطعة ارض فيقوم على اصلاحها واعمارها على ان يدفع عشر دخلها الى خزانة السلطان ، ويفيد منها ما دام حيا . اما بعد وفاته ، فتعاد الى السلطان (١) ، غير ان الاقطاع الذي يورث هو الذي كان رائجا على عهد دولة آل سلجوق (٢) . لهذا خص الخواجة نظام الملك « المستقطعين » بفصل خاص ، وذهب الى انه لا شأن لهم على الرعايا سوى تحصيل ما أسند اليهم فقط و « بالحسنى » طبعـا . وحين تدفع هذه الاموال يجب ان يكون الناس آمنين على انفسهم واموالهم ونسائهم وابنائهم . ولا يحق للمستقطعين ، كذلك ، ان يمنعوا الرعايا من الذهاب الى قصر

---

(١) المترجم : هذا هو الذي يقال له « اقطاع ارفاق لا تمليك » .

(٢) راجع : نقد حـال ٤٣٣ ، و :
Lambton (Ann. K. 8.), The Evolution of the Iqta' in Medieval Iran : Iran (Journal of Persian Studies), Vol. 5, pp. 41-50, 1967.

السلطان وطلب العدل . وكل من يتصرف بخلاف هذا يجب نزع اقطاعيته منـــه ومجازاته « ليعتبر به الاخرون » (١) ويورد مثالا على هذا قصـــة أنور شروان ، فيقول : « وكان الملوك يفكرون في حق الضعفاء دائما ، ويحتاطون في أمر المسؤولين والمستقطعين والعمال ، للسمعة الحسنة في الدنيا ، والفوز بثواب الآخرة » ( ٥١ ـــ ٥٢ ) . فضلا عن هذا ، فان نظام الملك يرى ان يغير العمال والمستقطعون كل سنتين او ثلاث « حتى لا يثبتوا اقدامهم ويحصنوا انفسهم ... ، وحتـــى يعاملوا الناس بالحسنى » (٥٢) . أما في خلال حكاية « بهرام جور وراست روشن » (٢) فيعرض لشيء من الاذى الذي يلحقه عمال الدولة بالناس نموذجا لبعض انــــواع الاغراض الشخصية والاهداف الخاصة ( ٣٤ ـــ ٣٦ ) . وعمل القضاة عند نظام الملك أيضا « هام ودقيق لان دماء المسلمين واموالهم موكولة بهـــم » ، فينبغي ـــ والحال هذه ـــ « ان يكون لكل منهم راتب شهري يكفيه امور معاشه حتى لا تكون به حاجة الى الخيانة » (٥٣) و « القضاة كلهم نواب للملك الذي يجب عليـــه ان يشد أزرهم ويسندهم ، ويحفظ لهم حرماتهم ومنازلهم كاملة » ، و « كذلك ، ينبغي تعيين محتسب في كل مدينة لمراقبة الاوزان والاسعار والتأكد من صحتها ، ومعرفة المبيعات والمشتريات للسير بموجبها والتقيد بها ، ولمراقبة البضائع التي يؤتي بها من الاطراف لتباع في الاسواق مراقبة تامة من ان تغش او يقسط فيها ، وللامـــر بالمعروف والنهي عن المنكر . ومن واجب الملك وولاته مؤازرة المحتسب والاخـــذ بيده ، لان مهمته ركيزة من ركائز المملكة ، وهي نتيجة العدل ، والا فسيضيق على الفقراء ، ويشتري التجار ومن يتعاطون البيع والشراء في الاسواق ويبيعون على هواهم » ( ٥٦ ) .

وفضلا عن الظفر بهذه المقاصد ، فان يقظة السلطان ملكشاه ومعرفته بكل ما يجري في المملكة ـــ في رأي نظام الملـــك ـــ ضرورية ، اذ لا منـــدوحة له ـــ أي السلطان ـــ من « اصحاب البرد ومنهي الاخبار » . وها هوذا يكتب عن احـــوال ذلك العصر : « من واجب الملك تحري احوال الرعية والجيش وكل بعيد وقريـــب ، ومعرفة كل كبيرة وصغيرة في المملكة ، فان لم يفعل ، فسيكون ذا عيبا ومأخذا يأخذه الناس عليه ، ويحملونه محمل الغفلة والتهاون والظلم » . ويشير الى ان كان للملوك القدامى اصحاب برد ليكونوا « على علم بما يحدث من خير وشر ، حتى لو غصب شخص شخصا اخر دجاجة او مخلاة تبن على بعد خمسمائة فرسخ ، فان الملـــك كان يعلمه ، فيأمر بتأديبه ومعاقبته ، ليعرف الاخرون انه يقظ ، وان له مخبريـــن في كل مكان ، وانه يضرب على ايدي الظالمين ، فينصرف الناس الـــى الكسب والاعمار والبناء في ظل الامن والعدل » ( ٧٩ ) . ويضيف في هذا الموطن بأنـــه بينغي الا يناط هذا العمل ـــ صاحب البريد ـــ بذوي المطامع والمآرب الخاصـــة لما ينجم عنه من اضرار (٨٠) . لكنه ينقل في الوقت نفسه آراء اشخاص من مثل الب

---

(١) سير الملوك ٤١ وقد اشار الاستاذ مينوي الى هذه الناحية أيضا .

(٢) المترجم : راجع هذه الحكاية في الفصل الرابع من هذه الترجمة .

ارسلان الذي لم يكن يرى ضرورة لمنهي الاخبار . بل كان يظن ان اصدقاءه — اي الب ارسلان — اعتمادا على صداقتهم له لن يقيموا له وزنا ، وان اعداءه سيصادقونه ، ويغرونه بالمال ، فتكون نتيجة هذا ان لا مناص له من ان ينقل اليه الاخبار السيئة عن الاصدقاء ، والحسنة من الاعداء . غير ان نظام الملك يعود فيدلي برأيه هو ، فيقول : « ان اتخاذ صاحب البريد لقاعدة من قواعد الملك ، واذا ما كان معتمدا على النحو الذي ينبغي ان يكون ، فان بال الملك لن ينشغل بأي امر من الامور التي ذكرنا ( ٨٨ — ٨٩ ) .

ومن المسائل الدقيقة التي لم تفت نظام الملك وجوب تأمين معيشة اشخاص من مثل المشرفين (١) ، واصحاب البريد ، ومنهي الاخبار ، وغيرهم من مسؤولي الدولة « حتى لا تكون لهم ثمة حاجة لخيانة ورشوة » ( ٧٨ ، ٨٠ ) ، لانه اذا كان الامر على غير هذا النحو ، فان اعمالهم ، تبعا لتقاريرهم الباطلة المشبوهة ، ستكون خطأ كلها . فضلا عن هذا ، فانه يجب التمعن في كل خبر « حتى يتبين الصدق من الكذب . فالعجلة من صفات الضعفاء لا المقتدرين » ( ١٦٩ ) . اما الموضوع الذي يتطرق اليه الخواجة في خلال حديثه عن دخول البتكين « زابل » — وهو انه امر جنده : « يجب الا يأخذ احدكم من اي شخص شيئا دون أن ينقده ثمنه ، وسأعاقب كل من يخالف هذا » — فليس الا تحذير للكشاه ايضا لكي يحول دون تعدي جيشه على اموال الناس . واما قصة الغلام التركي الذي كان اخذ من الناس مخلاة تبن ودجاجة ظلما فأمر البتكين بشله نصفين وتعليقه على قارعة الطريق والمخلاة معه ، فقصة ذات عبرة ( ١٤٥ — ١٤٦ ) .

ان نظام الملك في تسييره دفة الامور في المملكة لعلى معرفة دقيقة بجزئيات السياسة ودقائقها ، وهو كفيل بأن يجد باشارة اصبع حلولا وتدابير لكثير من المشكلات . ونذكر هنا بضعة من آرائه واساليبه في عدد من الامور نماذج على هذا.

فمن الاصول الهامة التي يلح عليها نظام الملك الا يسند منصبان او اكثر الى شخص واحد ، والا يناط عمل واحد باثنين ايضا . ففي الحالة الاولى ، لن يستطيع ذو العملين القيام بهما ، اما في الحالة الاخرى ، فان « وجود سيدتي بيت في المنزل مدعاة تذارته ، ووجود كبيرين لقرية واحد فمدعاة دمارها » . يسلط الخواجة سهام نقده على كثرة مناصب فئة معينة متنفذة في ذلك العصر ، لان هؤلاء تسببوا « في حرمان الاكفاء واللائقين وذوي الجلد والمعتمدين والمجربين ممن لزموا بيوتهم عاطلين دون ان يخطر ببال احد او يسأل نفسه : لماذا يعهد بعدة مناصب واعمال الى المغمورين ممن لا كفاية لهم ولا اصل ، ويحرم الاصلاء والمعتمدون — خاصة اصحاب الحق على الدولة ممن قدموا لها خدمات جليلة ، واظهروا فيها كفاية ولياقة

---

(١) راجع في المشرفين ومهامهم : فرخي سيستاني ٣٢٣ .

(٢) المترجم : يختلف هذا المثل في النسخة التي اعتمدها الدكتور يوسفي عنه في النسخة التي اعتمدتها .

فائقتين — حتى من عمل واحد ؟ » . ولكي يبين مضار القعود دون عمل ، وعدم رضى مثل هؤلاء العاطلين الذين قد يتصلون بالمخالفين وينضمون اليهم ويسعون الى قلب الاوضاع ، يضرب نظام الملك مثلا بحادثة من عهد فخر الدولة ووزيره الصاحب ابن عباد ، هي كيف ان « الكتّاب والمتصرفين » وغيرهم من الاشخاص ، الذين كان أمر معاشهم مختلا ، قد قطعوا الامل من ملك فخرالدولة ، وراحوا يتطلعون بآمالهم الى الدولة المحمودية (١) . وينقل قول فخر الدولة للصاحب : « فاذا ما ولي شخص واحد عملين او ثلاثة ، فان سبل العيش تضيق على الآخرين ، وان حكام الاطراف ومتسقطي عيوب دولتنا سيقولون : ألم يبق في مملكتهم رجال حتى يعهدوا بعملين الى رجل واحد ؟!. ويحملوننا على عدم الكفاية والجدارة (٢) » . ( ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١١ — ٢١٤ ) . على هذا الاساس ، يرى نظام الملك انه ينبغي الا تترك الاسرات القديمة وسلالة الملوك محرومة ، بل يجب أن تؤمن لهم اسباب معاشهم ليقل عدد الساخطين وغير الراضين ( ١٧٩ ) ، ويوصي كذلك بايجاد عمل لابناء التركمان السلاجقة وجعلهم ضمن غلمان السراي « مهما تكن الملالة والنفرة منهم » لما « قدموه للدولة ابان قيامها من خدمات ، وما تحملوه في سبيلها من متاعب ومشاق، فضلا عن انهم من ذوي القربى (٣) » . علاوة على هذا فانه يمكن عن هذه الطريق، الافادة من خدماتهم ، « وازالة ما وقر في نفوسهم من نفرة » (١٣١) .

ولما كان « ذوو الاغراض والمآرب الخاصة » في ذلك الزمان يجدون مجالا للتدخل في شؤون الحكم مفيدين من نفوذ سيدات بلاط السلطان ملكشاه، فان رأي نظام الملك في هذا المجال يقضي — وفقا لمقتضيات ذلك العهد — باقصاء النساء عن ميدان السياسة . ثم ينقل حكايات في هذا الموضوع (٤)

ولاجل استحكام بنيان حكومة ملكشاه يوصي الخواجة بانه « اذا لم يكن ثمة أمر هام ينبغي الا يصدر عن الديوان العالي اي امر خطي البتة ، واذا ما صدر شيء يجب ان تكون له حرمته الى حد لا يجرؤ احد على وضعه من يده قبل ان يطيع كل ما فيه من اوامر ويلبيها » (٩٠) . ويؤكد على ان ليس من حق رجال السلطان ان ينزلوا بالناس العقوبات التي هي من حقه وحده ، واذا ما ارتكب احدهم شيئا من هذا « ينبغي ان يعاقب ليعتبر الآخرون ويعرفوا انفسهم » (٩١) .

لم يكن للجند ، في ذلك العصر ، شكل جيش وطني ، ولم تكن الجندية واجبا قوميا اجباريا ، بل كان اكثر الجنود مرتزقة يكسبون معاشهم عن هذه الطريق ، وربما كانوا من اجناس وملل مختلفة . لذا فسياسة نظام الملك — وفقا لرسوم ذلك العصر وسننه — منشؤها « بما ان اتخاذ الجيش من جنس واحد مدعاة لظهور الخطر والتخريب والفساد وعدم الجدية والبلاء في الحرب ، ينبغي أن يؤسس من

---

(١) المترجم : نسبة الى محمود الغزنوي .

(٢) وبحث الاستاذ مينوي هذا الموضوع ايضا راجع : نقد حال ٤٣٨ — ٤٣٩ .

(٣) المترجم : انظر حاشية الفصل السادس والعشرين من هذه الترجمة .

(٤) وعرض السيد مينوي لهذا الموضوع أيضا . نقد حال ٤٣٧ — ٤٣٨ .

كل جنس وملة ، ثم يضرب مثلا بجيش محمود الغزنوي الذي كان مؤلفا من الترك والخراسانيين والعرب والهنود والغوريين والديالمة . فكان كل فريق يرقب الفريق الآخر . ولم يكونوا يستطيعون ان يتفقوا جميعا او يتواطؤا به أما في الحرب ، فكانوا ينافسون بعضهم ببعضا ، وكانت كل فئة تسعى للتفوق على الفئات الاخرى (١) ( ١٢٨ ) .

ويعير نظام الملك اهتماما كبيرا لشؤون الجيش وتأمين معاشه ورواتب جنده ، وغير هذا من المسائل المتعلقة به ( ١٢٦ ) . ولقد تطرق للحديث عنها مرات عدة في مناسبات مختلفة ، ولا عجب ، فهو يرى ان الجيش أس المملكة وركن هام من اركانها ، تجب تقويته . ولهذا أبدى مخالفته لمن اقترح على ملكشاه (٢) بأن « العالم صاف ، وان ليس فيه مكان لعدو ومخالف يستطيع المقاومة . فليس من حاجة اذن الى اربعمائة الف خيال يرتزقون من هذه الدولة . بحسبها سبعون الف فارس يدخرون للحوادث الجسام ويندبون لها ، أما الآخرون ، فينبغي ان توقف رواتبهم وجراياتهم مما يوفر لخزانة الدولة بضعة آلاف دينار سنويا ويفضي الى امتلائها في مدة يسيرة » ، وقال للسلطان : « يجب أن يكون ثمة سبعمائة الف رجل بدلا من اربعمائة الف ، فكلما كثر عدد الرجال اتسعت الولاية وامتد نطاقها (٣) » (٢٠٩).

وتظهر دراية نظام الملك بخوالج الناس وميولهم وافكارهم وطريقة سلوكه معهم واضحة في خلال كثير من أوامره التي كان يصدرها ، وبهذا النحو استطاع ان يدير مملكة ممتدة الاطراف مدة طويلة . من هذا القبيل مثلا ، قوله : « يجب الا يسند للنديم اي عمل ، لانه لما له في رحاب السلطان من حظوة ، قد يتطاول ويتسبب في ايذاء الناس وارهاقهم » ( ١١٣ و ١٥٤ أيضا ) ، وقوله أيضا : « يجب أن يكون عدد من هم اهل لحضور مجالس السلطان الخاصة محدودا » (١٥٣).
أما عن الفائدة من استدعاء الجند وتسليمهم اطماعهم (٤) بحضور السلطان ، فيقول نظام الملك : « ... لا أن يحالوا الى الخزينة لاستلامها — أي الاطماع — من هناك دون ان يراهم الملك . فما احسن أن يسلمها الملك اليهم بنفسه مما يبعث على زرع المودة والالفة والاتحاد بينهم وبينه ، ويفضي بهم الى بذل اقصى الجهود في اثناء الخدمة ، والى الثبات في القتال ( ١٢٦ ) .

وفي جلوس الملك للناس يوصي نظام الملك ملكشاه بأن : « تضييق النطاق على الناس في الوصول الى الملك ومقابلته يؤدي الى تردي احوالهم وبقائها خافية عليه ، ثم الى تفاقم امر المفسدين وتماديهم ، وسوء حال الجيش ومعاناته » لانه « ليس اشد وطأة على الكبراء والرؤساء من حضورهم الى القصر وعودتهم دون

---

(١) راجع ايضا : قابوس نامه ٢٣٣ ، تحقيق كاتب هذه السطور أي الدكتور يوسفي • طهران ١٣٤٥•
المترجم : ترجم الدكتور امين عبد المجيد بدوي ( بالاشتراك مع المرحوم صادق نشأت ) كتاب « قابوس نامه » الى العربية بعنوان « كتاب النصيحة » ( القاهرة ١٩٥٨ ) •
(٢) المترجم : كان نظام الملك يقصد منافسة تاج الملك •
(٣) ونقل الاستاذ مينوي هذا الموضوع أيضا • راجع : نقد حال ٢٤١ •
(٤) المترجم : الاطماع مفرد طمع وهو رزق الجند •

ان يروا السلطان » ( ١٥١ وانظر ١٥٣ ايضا ) واذا ما بدر خطأ من الاشخاص الذين اخذ السلطان بيدهم فقربهم ورقاهم ووصل بهم الى مراتب العظمة « فعوتبوا جهارا ، فان ماء وجوههم يراق ، ولا يرد لهم اعتبارهم وحرمتهم الا بقدر كبير من الاحسان والمكافئة والتقدير . انه لأولى ، اذا ما ارتكب احدهم خطأ ، ان يغض الطرف عنه في حينه ، ثم يستدعى سرا ، ويقال له : لقد فعلت كذا وكذا ، لكننا رغبة في عدم الاطاحة والايقاع بمن تربيناهم واوصلناهم الى هذه المنزلة قد تجاوزنا عن ذلك . ان عليه (١) ان يتجنب الوقوع في الخطأ ، والا يجرؤ على ارتكاب شيء من هذا القبيل فيما بعد » ( ١٥٨ ) . ومع هذا فان الخواجة ليس بغافل عن مكافئة او مجازات الاشخاص ، كل بما يستحق ، او العفو عنهم في الوقت المناسب » ( ١٦٦ و ١٤ ) . أما توصياته بأن يكون للمكشاه « خوان » عظيم ، وان يتكلف كثيرا في اعداده اعدادا جيدا ، وتذكيره بعادات طغرل السلجوقي وسخاوته في هذا الموضوع ، وذكره تذمر الجكليين (٢) وسكان ما وراء النهر من ملكشاه « بأننا لم نأكل لقمة واحدة على خوا نالسلطان في المدة الطويلة التي كان يتردد فيها هنا ! » . كل هذه نماذج لطريقة نظام الملك في ادارة الناس والاعتناء بهم ، لانه يعتقد بأن عظمة السلطان وهمته ومرؤته وخوانه وصلاته يجب ان تكون على اعلى الدرجات كثرة وحسنا (٣) ( ١٦٢ ) . كما انه يشير الى هذه المسالة مشفوعة بدقائق اخرى كثيرة في رسالة الى ابنه بأن « الانسان عبد الاحسان » (٤) . ومما يدخل في هذا الباب أيضا ، أمر ما ابنه بتقسيم ساعات ليله ونهاره على الاعمال الضرورية المختلفة ، والاختلاط بمختلف طبقات الناس ومعاشرتهم ورعاية احوالهم ، واخذ اي شيء منهم بتؤدة ورفق ولين (٥) .

ان تكن قصة الصرر الذهبية الثلاث التي وهبها نظام الملك بائع خضروات ، جاء ، بثلاث هيئات مختلفة يطلب حاجة وهو يعرفه في كل مرة ، ان تكن صحيحة ، فهي دليل على سخائه وحسن سلوكه مع الناس، وعلى ذكائه أيضا (٦). ومما يستحق الذكر كذلك الرواية التالية المذكورة في تجارب السلف ( ص ٢٧٠ ) التي تدل على نمط تصرف نظام الملك وتدابيره ، تقول : « لما فرغ — اي نظام الملك — من بناء النظامية — نظامية بغداد — عين الشيخ ابا زكريا الخطيب التبريزي خازنا لدار الكتب فيها . وكان التبريزي يشرب الخمر ويأتي بالنساء كل ليلة . فكان ان كتب احد بوابي المدرسة — فيما هي العادة — رسالة الى نظام الملك يعرض عليه فيها حال الشيخ أبي زكريا . فقال الخواجة : انني لا أصدق هذا الكلام ابدا !. لكنه

---

(١) المترجم : انتقل نظام الملك هنا - فيما هي عادته احيانا - من ضمير الخطاب الى الغيبة .
(٢) المترجم : انظر في الجكليين .
(٣) وعرض السيد مينوي لهذا الموضوع ايضا : نقد حال ٢٤٢ .
(٤) راجع : اثار الوزراء ٢١٤ — ٢١٥ .
(٥) اثار الوزراء ٢١٢ ، ٢١٤ .
(٦) المصدر السابق ٢٠٨ — ٢٠٩ .

مضى الى المدرسة متنكرا ذات ليلة واعتلى سقف دار الكتب وراح ينظر من طاقة هناك ، فرأى الشيخ ابا زكريا منهمكا بما أخبر به عنه . فلم يقل شيئا ، وانصرف الى بيته . وفي الصباح طلب سجل النظامية وضاعف راتب الشيخ أبي زكريا وأجره وارسل اليه حوالة بذلك ، وقال للرسول : اقرىء الشيخ سلامي ، وقل له : والله انني لم اعرف بأن نفقات الشيخ كثيرة ، والا لما كنت راضيا بهذا القدر من الراتب . فعرف الشيخ أبو زكريا بوقوف الخواجة على حاله ، واعتراه الخجل وتاب توبة نصوحا ، ولم يعد الى ذلك قط . ان هذا لفعل العظماء حقا » (١) .

ونستطيع ان نستنبط معرفة نظام الملك بالطبائع والنفسيات وواقع حياة ذلك العصر ايضا من قوله التالي في الندامى : « ينبغي ان يكون النديم موافقا للملك وان يردد « بخ » و « احسنت » كلما يقول الملك شيئا او يفعله ، والا ينصب من نفسه معلما كأن يقول مثلا : افعل هذا ، ولا تفعل ذلك . فهذه أمور ثقيلة على الملك ، وهي تجر الى الكراهية » (١١٤) .

ولنظام الملك — في ادارة البلاد والحفاظ عليها — عناية تامة بالعمران والاعمار فها هوذا يوصي الملك باعمار المملكة بمثل : « شق القناوات ، وايجاد الجداول الجيدة ، وانشاء الجسور والقناطر على معابر المياه العظيمة ، واعمار القرى والمزارع ، واقامة الاسوار ، وتشييد المدن الجديدة ، وايجاد الابنية الشامخة الرفيعة ، والمقرات البديعة » ، واقامة الربط على الطرق الرئيسية ، وبناء المدارس لطلاب العلم ( ١٤ ) . وله اهتمام دقيق خاص بمسألة الري وتقسيم مياه الانهار والقنوات والينابيع بين الناس « بالانصاف وحسب العادة القديمة » لأن « الاعمار لا يكون الا بالماء ، والظلم فيه خيانة ترتفع بها البركة من العالم كليا » (٢) .

يقول عماد الدين الاصفهاني الكاتب في « تاريخ دولة آل سلجوق » بأنه قد جرت العادة قديما بتحصيل الضرائب وصرفها على الجند ، ولم يكن لاحد اقطاع (٣). لكن نظام الملك لما رأى اوضاع مختلف نواحي المملكة مختلة لا تتحصل منها اموال كثيرة ، قسّم الاراضي بين الجنود ، وجعل محاصيلها رواتب لهم ، وهو ما دعاه الى الاهتمام باعمار الارض . ولم يمض طويل وقت الا والاملاك على احسن حال وصورة (٤) .

وتحكي بعض اقوال نظام الملك اهتمامه بالمسائل الاقتصادية من مثل ما جاء في « امتلاك الخزائن » وشروط كل من « الخزانة الاصل » و « وخزانة الانفاق » وقواعدهما ( ٢٩٩ ) ، او كيفية تدوين حساب اموال الولايات ، والتثبت من النفقات وقبولها أو ردها ( ٣٠٥ ) ، ومراقبة اسعار البضائع والموازين (٥٦) ، وضرب السكة والانتباه الدقيق لعيارها (٥) .

---

(١) راجع ايضا : دستور الوزراء ، لخوندمير ١٦٠ – ١٦١ .
(٢) اثار الوزراء ٢١٥ – ٢١٦ .
(٣) انظر ايضا : سياست نامه ١٣٦ .
(٤) نقد حال ٢٣٣ – ٢٣٤ .
(٥) اثار الوزراء ٢١٥ .

ومن الشواهد على دقة نظر نظام الملك وحصافته في ادارة عجلة سياسة الدولة اهتمامه بدقائق مختلف شؤون المملكة وجزئياتها على الرغم من انشغاله بمهام الامور . ومن هذه الشؤون ، موضوع ارسال الغلمان من القصر في المهمات ، الغلمان الذين يرسل بعضهم بأمر ويرسل بعضهم دون ذلك « وفي هذا الاخير ارهاق للناس ، واستنزاف لاموالهم » فيحصلون خمسمائة دينار بدلا من مائتين . لذا ينبغي ان يتقيدوا بالامر الصادر اليهم ويتقنوا عنده . ومنها ضرورة وضع الرسل ومنهي الاخبار على الطرق ( ١١٠ ) ، والدقة المتناهية في مسألة مظهر مئتي رجل — المغاوير — ومعداتهم في القصر ( ١١٨ ) ، وتهيئة العلف في المنازل (١) والمراحل لموكب السلطان ( ١٢٥ ) ، والحيطة في امر الخفر والحرس والبوابين ليلا ونهارا ( ١٦١ ) ، وموضوع وصول أحكام السلطان ملكشاه واحالاته الشفوية الى الديوان والخزانة . يقول الخواجة في هذا الموضوع الاخير : « ان ما يصل الى الديوان والخزينة في ما يتعلق بالمهمات والولايات والاقطاع والصلات من أوامر قد يصدر بعضها في حال انتشاء وغبطة . ولدقة هذا الامر تنبغي الحيطة التامة فيه . ولربما يقع تفاوت فيها بين النقلة او انهم لا يسمعونها كما هي ، لذا ينبغي ان تناط بشخص واحد فقط على ان ينقلها بنفسه لا ينيب عنه احدا . ويشترط عدم تنفيذ هذه الاوامر واجرائها قبل عرضها على الاعتاب الملكية مرة اخرى من قبل الديوان ، وان تعدد ناقلوها وموصلوها » (١١١) (٢) .

ولقد الزم الارتباط مع ملوك الاطراف وبلاطات الملوك الآخرين نظام الملك على ان يكتب فصلا عن الرسل وتنظيم اعمالهم . وهو يلتفت في هذا الموضوع الى نقاط هامة ، من بينها الاطلاع المسبق عن الرسول ومرافقيه ومهمته ، ووجوب ارشاده وهدايته واكرام وفادته واستقباله في كل منزلة من منازل الطريق ، وصرفه بكل مسرة ورضى ، لان « ما يعاملون به — اي الرسل — من احسان او اساءة ليس في واقع الامر ، الا معاملة للملك الذي أوفدوا من لدنه » ( ١٢٠ ) . ثم يبين بعد هذا حقيقة العلاقات بين دول ذلك العصر ، والغرض من ارسال السفارات « فهو لا ينحصر في ايصال الرسائل والاخبار واظهارها على الملأ ، انما تمتد مآرب الرسل واهدافهم السرية الى أشياء كثيرة أخرى » . ويسهب في تبيين أن الرسل كانوا يرمون الى معرفة كل شيء ، والاطلاع على جزئيات الاوضاع في الاماكن التي يذهبون اليها من تلك المملكة ، وعلى حقيقة أحوالها وعادات ملكها ، ثم يخبرون مخدومهم بها عند عودتهم . ومع أن هذه المعلومات لا تبدو مهمة في ظاهرها الا انه سيستفاد منها ذات يوم « ليكونوا على بينة من امر ذلك الملك اذا ما رغبوا في محالفته او مخالفته وتصيد العيوب عليه ، وليأخذوا للامر اهبته ان خيرا فخير ، وان شرا

---

(١) المترجم : جمع منزل ، وهو موضع النزول .

(٢) ويبحث السيد مجتبى مينوي هذه الناحية أيضا . نقد حال ٣٢١ .

المترجم : هذا هو الفصل الخامس عشر برمته .

فشر ، ثم يتخذوا ما يرونه مناسبا » . وهنا نقرأ حكاية تقرير رسول « خان » (١) سمرقند حول نسبته نظام الملك الى الرافضة لخاتم كان في احدى اصابع يده اليمنى لفت انتباه الرسول ، فذهب ظنه الى أن الوزير رافضي ، وكان من الممكن أن تودي هذه الحادثة بحياته . ويدعو في ختام هذا الموضوع الى وجوب الدقة التامة في انتخاب الرسل وارسالهم بحيث ينبغي أن ينتخب رجل « خدم الملوك ، جريء في القول غير مهذار ، سافر كثيرا واخذ من كل علم بطرف ، جيد الحافظة ، بعيد النظر ، رشيق القامة ، جميل المنظر ... » ( ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ).

وفي موضوع « أمراء العرب والكرد والديلم والروم وغيرهم من حديثي العهد بالدخول في طاعة السلطان » يقول نظام الملك : « ينبغي على كل منهم أن يودع ابنا او اخا رهينة في القصر ، بحيث لا يقل عدد الرهائن عن خمسمائة ان لم يكن الفا . وبعد عام يستبدلون بآخرين غيرهم على الا يعاد الاولون قبل وصول البدلاء ، حتى لا يستطيع أحد ، بسبب الرهائن ، أن يعصى الملك . وهو يعتقد الشيء نفسه بالنسبة للقوهستانيين واهل طبرستان وشبانكاره — وهم اصحاب اقطاعات وجرايات — ( ١٣٠ ) .

وكان للجواسيس في ذلك العهد ، فضلا عمن كانوا موكلين بمسؤولية انهاء الاخبار جهارا الى سمع السلطان ، شأن هام ايضا . يقول الخواجة : « يجب بث العيون (٢) في كل الاطراف دائما في زي تجار وسياح ومتصوفة وبائعي ادوية ودراويش لنقل كل ما يسمعون من اخبار حتى لا يظل ثمة شيء خافيا ، وحتى يمكن تلافي اي طارىء في حينه . فما اكثر ما كان الولاة والمستقطعون والعمال والامراء يضمرون للملك خلافا وعصيانا ، ويتربصون به الدوائر سرا ، لكن الجواسيس كانوا يكتشفون ذلك ويخبرون الملك به ، فيركب من وقته وينقض عليهم بغتة ، فيحيق بهم ويحبط مآربهم . وكانوا اذا ما عرفوا بأن ملكا او جيشا اجنبيا ينوي الهجوم على المملكة يخبرون الملك ، فيأخذ للامر اهبته ، ويدفعه . وكانوا ينهون أخبار الرعية خيرها وشرها ، فيتولاها الملوك » ( ٩٤ ) . ويعتقد نظام الملك ، في مجال السياسة ، بمبدأ الوسط في كل موضوع ، ويدعو ملكشاه ايضا الى السير على هذا المنوال ( ٣٠٥ — ٣٠٦ ) . وهو يعد المشورة واخذ الرأي لازمين في سبيل الحفاظ على الملك « لان تدبير رجل واحد بقوة رجل واحد ، وتدبير اثنين بقوة اثنين ، وتدبير عشرة بقوة عشرة ... وان عدم المشورة في الامور من ضعف الراي » . وعنده ان الحكماء والمسنين وذوي الاسفار اهل لان يستشاروا في سياسة المملكة ( ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ) .

وعلى الجملة ، فانه لم يكن في ذلك الزمان امر ذو بال يخص الملك والرعية الا وعرض له نظام الملك وتحدث عنه في كتابه القيّم العميق . فضلا عن هذا ، فان الرجل الذي يعتقد « بأن هذا العالم صحيفة الملوك » ( ٣٠٣ ) قد وجد لكل

(١) المترجم : راجع في كلمة « خان » .

(٢) المترجم : العيون مفرد عين وهو الجاسوس .

موطن من كتابه حكاية ورواية عن الاسلاف تناسب الموضوع اعطته نكهة خاصة . وتهيأت له عن هذه الطريق ايضا قصص اعتبارية تؤيد آراءه ومعتقداته اضفت على الكتاب أيضا طلاوة محسوسة . بعض هذه الحكايات قصير ، وبعضها مفصــل ، وعدد منها روايات تاريخية (١) . ان اكثر هذه القصص ، من مثل قصة عمرو بن الليث (٢) ، ذات امور دقيقة تستحق التأمل ، اذ انها تضم بين ثناياها اشياء عن تقلب الايام ودورانها . من هذا ، ان الامير الصفاري ، قال مرة بعــد ان مني بالهزيمة على يد اسماعيل الساماني ، وقد رأى كلبا ولغ في مقلاته فعلقت حلقتها في عنقه ، فمضى هاربا تائها ، قال للحراس : « لتعتبروا ، فأنا الذي كان يحمل مؤن مطبخي اربعمائة بعير كل صباح ، يخطف كلب الان ما عندي في لحظة ليلا » ( ٢٦ ). ومن قصص الكتاب التي تستحق التأمل مثلا : حكاية أمير الترك والمعتصم ( ٦٢ ــ ٧٣ ) ، حكاية بهرام جور وراست روشن ( ٣٠ ــ ٤٠ ) ، حكاية الملك العــادل ( ٤١ ــ ٥١ ) ، حكاية سكر على بن نوشتكين ( ٥٦ ــ ٥٧ ) ، حكاية لصوص كوج وبلوج ( ٨٠ ــ ٨٨ ) ، حكاية السلطان محمود والعامل العاصي ( ٩٠ــ٩١ )، حكاية عضد الدولة والقاضي الظالم ( ٩٤ ــ ١٠٤ ) ، حكاية السلطان محمــود والقاضي الظالم ( ١٠٥ ــ ١٠٩ ) ، حكاية موسى وفرعون ( ١٦٣ ــ ١٦٤ ) ، حكاية أنوشروان والشيخ العجوز ( ١٦٧ ) ، حكاية المأمون واميري الحــرس ( ١٧٢ ــ ١٧٦ ) ، حكاية هارون الرشيــد ( ١٨٠ ــ ١٨٣ ) ، حكايــة عمر بن الخطاب والمرأة الفقيرة ( ١٨٣ ــ ١٨٥ ) ، حكاية موسى والشاة التائهة ( ١٨٥ )، حكاية الرئيس الحاج والكلب الاجــرب ( ١٨٥ ــ ١٨٨ ) ، حكايــة مسعود بن محمود الغزنوي ودائنه ( ٣٠٢ ــ ٣٠٣ ) ، وأمثالها . ومن الطبيعي ان لنظــام الملك هدفا من وراء كل واحدة من هذه الحكايات . وها نحن أولا نجد انفسنا وجها لوجه أمام اشارة له من هذا القبيل ، يقول : « ومثل هذه الحكاية كثير ، لكنني اكتفي بما ذكرت ليعلم سيد العالم ما كان عليه الخلفاء والملوك دائما ، وكيف انهم كانوا يحمون الشاة من الــذئب ، ويعاقبــون العمال وولاة الامــور ، ويحذرون المفسدين ويقفون لهم بالمرصاد . ثم كيف انهم حفظوا للدين الاسلامي قوته وعزه ، وصانوه وأرسوا دعائمــه » ( ٧٣ ) .

علاوة على كل ما تقدم ، فان نثر كتاب « سياست نامه » سهل واضح جميل، وجمله قصيرة منغمة . وقد عولجت موضوعاته بكل وضوح وكمال ، لا زيادة فيها ولا نقصان ، وهو نموذج جيد كامل للنثر البليغ . ان انشــاء الكتاب بما فيه من طلاوة وحيوية لم يقتصر كل عارف بالفارسية ، منذ قرون عديدة ، على معرفة كنه مفاهيم مؤلفة واهدافه عند مطالعته فحسب ، بل كان يلذه لسلاسة نثره ، وطريقة تعبيره واحكامه على الرغم من ان الكتاب ، فيما يقول المرحوم ملك الشعراء بهار « بسبب سلاسته ولطافة عبارته وما كان له من اهمية قد تعاورته الايدي ...

---

(١) راجع : هيوبرت دارك ، سيستنامه ، المقدمة ٢١ــ٢٥ .

(٢) المترجم : راجع هذه القصة في الفصل الثالث من هذا الكتاب .

واضحى العوبة ــ ظلما ــ بيد حفنة من الكتبة المجحفين الضعفاء . ومما لا شك فيه أنهم قد عبثوا بعباراته واصطلاحاته ، فبعدوا به عن صورته الاصلية » (١) .

ولأن النثر الفارسي ــ لحسن الحظ ــ أخذ يهفو في ايامنا هذه الى البساطة، فقد انساب في عروقه دم جديد سريع الجريان ، وعند تأمل سياستنامه والتمعن فيه ــ على ما في موضوعاته من فوائد ــ نرى انه استطاع ان يكون من حيث فن الكتابة ذا فائدة ايضا . لهذه الاسباب مجتمعة ، وبعد مطالعة كتاب هذا السياسي العجوز نوافقه على ان في هذا الكتاب نصائح ، وحكم ، وامثال ، وتفسير قرآن ، واخبار النبي ( عليه السلام ) ، وقصص الانبياء ، وسير الاولياء وحكايات عن الملــوك العدول . وفيه اخبار عن السالفين ، وقصص عن الباقين ، وهي ، على طولها ، مختصرة تليق بالملك العادل » (٢) ( ٣٠٧ ) .

---

(١) سبك شناسي ٢ : ٩٥ الطبعة الثانية . طهران ١٣٣٧ شمسي .

(٢) المترجم : هذا الاقتباس الاخير ليس موجودا في طبعة دارك الثانية ولا في طبعة الدكتور شعار التـــي اعتمدتهـــا .

# بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة مؤلف الكتاب

## رب يسر ولا تعسر

الحمد لله ، عز وجل ، فاطر السموات والارض ، رزاق العباد ، عالم السر والجهر ، وغفار الذنوب ، والسلام على خير البرية محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) اعظم الانبياء ، ورسول الله بالفرقان للناس كافة ، وعلى اصحابه وعترته أجمعين .

يقول العبد الفقير حسين (١) الطوسي : انه لما صدر الامر الملكي العالي من لدن معز الدنيا والدين أبي الفتح ملكشاه بن محمد يمين امير المؤمنين ، أعز الله انصاره وضاعف اقتداره ، الي والى اخرين غيري عام ٤٧٩هـ بأن : ليقلب كل منكم صفحات فكره ويتأمل : أيوجد ثمة شيء غير محمود على عهدنا ، أو انه جرى على غير ــ شرطه ، أو غام عن اعيننا وخفي علينا تنفيذه سواء في البلاط أم الديوان أم القصر أم المجلس ! هل من أمر سار فيه الملوك قبلنا سيرا صحيحا وفاتنا ذلك ؟ لتمعنوا النظر في كل شيء من انظمة الملك وقواعده وعادات الملوك في عهد ملوك السلاجقة السالفين . تأملوها جيدا ، وقيدوها بجلاء ، ثم اعرضوها علينا كيما ننظر فيها ، ونأمر بان تطبق الامور الدينية والدنيوية بعد هذا وفق اصولها وقواعدها ، ونعرف ما يمكن تلافيه ، ونجري كل أمر على شرطه وقاعدته ، ونقضي بتنفيذ أوامر الله تعالى وتطبيقها ، ونتلافى ــ ما نستطيع ــ كل ما مضى من عمل سيء ، لان الله تعالى وهبنا الدنيا وملكها ، وأسبغ علينا نعمه كاملة ، وقهر اعداءنا . ينبغي الا يظل اي شيء بعد الآن في مملكتنا ناقصا او متزلزلا ، او تسير الامور فيها بخلاف الشرع وأوامر الله تعالى .

---

(١) كذا ، وقيل ان اسم نظام الملك حسن .

لذا عمدت — اي نظام الملك — الى درج وشرح كل ما كنت اعرفه او رايته او خبرته من تجارب في حياتي ، او تعلمته من اساتذتي (١) في الموضوع في هـذا الكتاب في خمسين فصلا ينطق فهرسها (٢) بموضوعات كل منها ، وأوردت في كل فصل ما يليق به من اخبار وحكايات من اقوال العظماء التي لا تبعث على الملل عند القراءة ، بل تكون الصق بالطبع واقرب . ان في هذا الكتاب فوائد كثيرة ، فمن يقرأه ويعمل بمقتضاه ، ينل ثواب الدنيا والآخرة . ولقد الفته لخزانة كتب السلطان المعمورة — عمرّها الله — وقدمته اليه ، راجيا ان يحظى بقبوله وتأييده ، ان شـاء اللـه .

ليس لاي ملك او حاكم مندوحة من اقتناء هذا الكتاب ومعرفة ما فيه ، خاصة في هذه الايام ( عهد المؤلف ) ، فكلما قراوه اكثر ازدادت درايتهم بأمور الديـن والدنيا ، واتسعت رؤيتهم في معرفة احوال الصديق والعدو ، وانفتحت امامهـم سبل تصريف الامور وادارتها ، واتضحت لهم قواعد تدبير شؤون البلاط ، والقصر ، والديوا نوالمجلس والميدان ، والاموال ، والمعاملات ، والعسكر (٣) ، والرعيـة بحيث لا يظل في سائر ارجاء المملكة شيء خافيا ، صغيرا كان أم كبيرا ، قريبا أم بعيدا ، ان شـاء الله تعالـى (٤) .

* * *

في البدء (٥) الف نظام الملك — نوّر الله قبره — هذا الكتاب بديهة من تسعة وثلاثين فصلا مختصرا ، وقدمه ، غير انه اعاد النظر فيه بعد ذلك فاضاف اليه ، — لما كان يعتمل في صدره من ضغن على مخالفي هذه الدولة — ، أحد عشر فصلا اخرى ، وزاد على كل فصل ما يليق به ثم اعطانيه عند خروجه للسفر ، لكنني لم اجرؤ على اظهاره على الناس ، للحادث الذي وقع له — اي نظام الملك — على طريق بغداد وخروج الباطنية والحاقهم الاذى بالناس ، الا في الوقت الذي قويت فيه شوكة العدل والانصاف والاسلام في ظل سيد العالم — خلد الله ملكه — . ادام الله تعالى ، بحق محمد وآله ، هذه الدولة الى يوم القيامة .

---

(١) استاذ ( بالذال المعجمة ) معرب كلمة « استاد » ( بالدال المهملة ) الفارسية .

(٢) فهرس معرب ( فهرست ) الفارسية . وتكتب في العربية بشكلها الفارسي احيانا .

(٣) لفظة « عسكر » معرب « لشكر » الفارسية .

(٤) أورد المؤلف بعد هذه الفقرة الى بداية الفقرة التالية فهرس فصول الكتاب في حوالي ثلاث صفحات عزفت عن ترجمتها مثلما فعل الدكتور جعفر شعار الذي لم يثبتها في المتـن ، لانها هي نفسها ستكون فهرس الموضوعات في اخر الكتاب .

(٥) هذه الفقرة الاخيرة ليست من مقدمة المؤلف ، بل اضافة من محمد المغربي كاتب السلطنـة الخاص الذي اودعه نظام الملك الكتاب .

# الفصل الأول

## في أحوال الناس وتقلب الأيام
## ومدح سلطان العالم (١)
## ـ خلد الله ملكه ـ

يتخير الله ، تعالى ، في كل عصر وزمان واحدا من بين خلقه فيضفي عليه فضائل الملك ، ويزينه بها ، ويكل اليه مصالح البلاد وراحة العباد ، ويوصد به ابواب الفساد والاضطراب والفتنة ، ويبث هيبته ووقاره في أعين الورى وافئدتهم ، ليقضي الناس أيامهم في ظل عدله ويعيشوا آمنين متمنين دوام ملكه .

فاذا ما بدا ــ والعياذ بالله ــ من العباد عصيان واستخفاف بالشريعة ، أو تقصير في طاعة الله تعالى واتباع أوامره ، واراد ان يعاقبهم ويجازيهم بأعمالهم ــ لا ارانا الله مثل هذه الايام وجنبنا هذا الادبار ــ فانه تعالى يصب عليهم جام غضبه وخذلانه بأن يحرمهم من ملك صالح يختطفه من بينهم ، فتنشب الفتن ، وتشرع السيوف ، وتهرق الدماء ، ويفعل الاقوياء ما يشاؤون الى ان يهلك المجرمون والعاصون جميعا في اتون تلك الفتن ونزيف الدم ، ويخلو العالم منهم ويصفو . ولا مناص من ان يهلك ــ والحال هذه ــ عدد من الابرياء بجريرة المذنبين ، فحين تشتعل النار في « المقصبة » فانها تلتهم اليابس كله وقسما كبيرا من الاخضر أيضا بحكم المجاورة .

ومن ثم فان الله بقدرته الربانية يختص أحد عباده بالسعادة والملك ، ويمنحه ما يستأهل من ثروة ونعمة ، ويهبه عقلا وعلما وحكمة يرعى بها من هم في أمرته ويسيرهم ، كل بما يستحق . ثم يضع كلا منهم في المحل والمكان والعمل الذي يليق

(١) المقصود بـه ملكشاه السلجوقي .

به ويصلح له . اما الوزراء والاكفاء من الرجال فيختارهم من وسط الرعية ويحلهم الدرجات والمنازل الرفيعة ، ويعتمد عليهم في المهام الدينية والدنيوية ، ليجنب الرعية التي سلكت سبيل الطاعة وانصرفت الى شؤونها واعمالها الخاصة ، المتاعب والآلام ، ليقضوا حياتهم في راحة وطمأنينة في ظل عدله . واذا ما ظهر من احد الوزراء والعمال تقصير وتطاول فارتدع بعد تاديبه ونصحه ومجازاته ، وسدر عن غيه وصحا من غفوته ، فلا بأس في الابقاء عليه ، والا تجب تنحيته واستبداله بآخر لائق .

واذا لم يقدر فريق من الرعية النعمة والامن والراحة والاستقرار حق قدرها ، فسولت لهم نفوسهم بالخيانة والتمرد ، وتجاوزوا حدودهم واقدارهم فتنبغي مؤاخذتهم وتقريعهم بقدر ذنوبهم ومجازاتهم ومعاقبتهم بقدر جرمهم ، ثم العفو عنهم ، وغض الطرف عما حدث .

اما فيما يتصل بالعمران فيجب شق القنوات ، وايجاد الجداول الجيدة النافعة ، وانشاء القناطر والجسور على الانهار الكبيرة العظيمة ، واحياء القرى والمزارع واعمارها ، واقامة الاسوار ، وتشييد المدن الجديدة ، وتاسيس الابنية الشامخة والمجالس البديعة ، واقامة الربط على الطرق الرئيسة ، وبناء المدارس لطلاب العلم . فبهذا كله تخلد الاسماء الى الابد ، وينال ثواب الآخرة ويتوالى دعاء الخير .

وبما ان الله تعالى قضى ان يكون هذا العهد مثالا لتواريخ العهود السالفة وزينة اعمال الملوك الماضين ، وان يهب الخلائق سعادة لم تكن لغيرهم من قبل ، فقد اظهر سلطان العالم والملك الاعظم من أصلين باسقين ، جمعا بالملك والسيادة كابرا عن كابر الى « افراسياب » (١) الكبير ، وأنعم عليه بمكارم وجلائل لم تكن لاحد قبله من ملوك الارض ، واسبغ عليه تعالى كل ما يحتاج اليه الملوك من : حسن الطلعة ، والخلق الحسن ، والعدل ، والرجولة ، والشجاعة ، والفروسية، والعلم ، والتمرس بأنواع السلاح ، والاخذ بكل الفنون ، والشفقة والرحمة بعباد الله عز وجل ، والوفاء بالنذور والوعود ، والتمسك بالدين الصحيح ، والاعتقاد السليم ، والتفاني في طاعة الله تعالى ، وتأدية الفضائل من مثل قيام الليل ، والصيام تقربا ، واحترام علماء الدين واكرام الزهاد والمتقين ، واستمالة العلماء والحكماء ، وبذل الصدقات في استمرار ، والاحسان الى الفقراء والدراويش ، ومعاملة خدمه وعماله ومن هم تحت سلطته بالحسنى ، وسجن الظالمين من الرعية. ولا جرم في ان الله تعالى وهبه الملك والسلطان جزاء وفاقا لكفاءته وحسن اعتقاده، وسخّر له الدنيا ، وبث هيبته وسلطته في شتى الاقاليم حتى يؤدي الناس كلهم له الخراج ، ويأمنوا سطوته بتقربهم اليه .

وفي حين أن عهود بعض الخلفاء ممن رزقوا بسطة في الملك والسلطان لم تخل

---

(١) يرى عباس اقبال أن في هذا اشارة الى انحدار السلاجقة من الاتراك ، لانه جاء في بعض الروايات أن الاتراك من ابناء افراسياب ( حاشية ٣ ص ٤ ) .

في اي وقت من قلـ قوتخوف من خروج الخارجين والمنشقين ، فليس في هذا العهد المبارك من احد سولت له نفسه بعصيان وتمرد ، او شق عصا الطاعة . ادام الله هذه الدولة الى يوم الدين وجنبها حسد الحساد ليقضي الناس عمرهم في ظل عدل السلطان وحكمه داعين له بالخير .

تمشيا مع حال الدولة التي اسلفنا فقد كان لها من العلوم والرسوم والآداب الحميدة ما يناسبها ، وبما ان العلم كالشمعة تنبثق منها الانوار من كل جانب فقد خرج الناس بنور العلم من الظلمات الى النور . ولم يحتج السلطان الى اي مشير او دليل ، لكنه فكر وقدر واراد ان يمتحن الناس ويعرف ما هم فيه من عقل وعلم .

ولما كان السلطان امرني بتقييد بعض الخلال الحميدة التي لا غنى للملوك عنها ، وكل ما كان عليهم القيام به ولم ينجزوه ، وما هو مقبول وغير مقبول ، فقد قمت ، امتثالا بالامر الاعلى ، بجمع كل ما رايته وسمعته وعرفته وقراته ، ثم كتبت هذه الفصول التي ضم كل منها ما يناسبه بايجاز وعبارة واضحة .

## الفصل الثاني

## في معرفة الملوك قدر نعمة الله تعالى

ان معرفة قدر نعمة الله تعالى تديم رضاه — عزّ اسمه — الذي انما يكون في الاحسان الى الخلق ، ونشر العدل بينهم ففي دعاء الناس بالخير تثبيت للملك وازدهاره ، ومدعاة لتمتع الملك بسلطانه وملكه ، فيكسب بهذا السمعة الحسنة في الدنيا ، والفوز في الآخرة ويكون حسابه يسيرا ، وقد قال علماء الدين : « الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم » . جاء في الاخبار انه لما لاقى سيدنا يوسف ( عليه السلام ) وجه ربه ، وارادوا نقله الى مقام سيدنا ابراهيم ( عليه السلام ) لدفنه في جوار آبائه هناك ، هبط جبرائيل ( عليه السلام ) وقال : « ادفنوه هنا ، فليس مكانه هناك ، لانه يجب أن يسئل يوم القيامة عن الملك الذي كان يديره » . ان تكن هذه حال يوسف النبي فما بالك بالآخرين .؟

وورد في الاثر عن النبي (ص) أنه سيؤتي ، يوم القيامة ، بكل من كانت له على الناس حكومة وسلطة مغلول اليدين ، فان كان عادلا فعدله هو الذي يفك قيده ويدخله الجنة ، وان كان ظالما فجوره هو الذي يبقيه مكبلا ويلقى به في النار .

وورد عنه (ص) ايضا ان كل من وكل في الدنيا بأحد سواء من الناس أم أهل بيته أم من هم تحت امرته سيسئل عنهم يوم القيامة مثلما يسئل الراعي عن غنمه .

* * *

يقال ان عبد الله بن عمر بن الخطاب — رضي الله عنهما — سأل اباه وهو يحتضر : « يا ابت ، متى أراك ؟ » فأجاب : « في الدار الآخرة » . فقال عبد الله : «أريد قبل هذا » . قال عمر : « ستراني في المنام الليلة الاولى أو الثانية أو الثالثة » . ومرت اثنتا عشرة سنة دون ان يراه ، ولما رآه بعد ذلك قال له : « يا ابت الم تقل انني سأراك بعد ثلاث ليال ؟ قال عمر : « كنت مشغولا ، اذ كانت

قد انهارت قنطرة في سواد بغداد (١) فتوانى أولو الامر في اعادة بنائها . ولما كان قطيع من الغنم يمر من عليها علقت رجل شاة في أحد جحورها فانكسرت ، ومنذ ذلك الوقت الى الآن وانا أجيب عن ذلك » (٢) .

وفي الحقيقة ، ان سلطان العالم يدرك أنه سيسئل في ذلك اليوم العظيم عمن هم تحت امرته ، وانه لن يسمع منه اذا ما احال الامر على شخص آخر . فما دام الامر كذلك ينبغي عدم العهد بهذه المهمة لاحد ، وعدم الغفلة عن شؤون الخلق ، بل يجب الاستفسار عن احوالهم في استمرار سرا وعلانية بقدر المستطاع، والقضاء على التطاول ، وانقاذ المظلومين من الظالمين حتى تؤتي هذه الافعال اكلها في عهده ، وتترى ادعية الخير له الى يوم القيامة .

---

(١) يرى عباس اقبال ان نسبة وقوع هذه الحادثة ببغداد في عهد عمر بن الخطاب غلط تاريخي، لان بغداد بنيت عام ١٤٥هـ في عهد الخليفة المنصور .

(٢) توجد هذه الحكاية بشكل اخر منقولة عن اكثر من مصدر في « اخبار عمر واخبار عبد الله ابن عمر » ص ٤٥٩ من جمع علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي . دار الفكر . بيروت . الطبعة الثالثة ١٩٧٣ .

## الفصل الثالث

## في جلوس الملك للمظالم والتحلي بالخصال الحميدة

لا بد للملك مــن الجلوس للمظالــم يومين في الاسبـــوع لاستلال العدل من الظالمين ، وانصاف الرعية والاستماع الى مطالبها ، والبت في اهم الشكاوى التي تعرض عليه ، واصدار حكمه فيها . فما ان يشيع في المملكة بأن الملك يستدعي اليه المتظلمين وطلاب العدل يومين اسبوعيا ليستمع الى مطالبهم وتظلماتهم ، حتــى يخاف الظالمون فيكفوا أيديهم عــن الناس ، ولا يجرؤ احد على الظلــم والتمادي خشيــة العقاب .

### حكايــة في هذا المعنى

قرأت في كتب المتقدمين ان اكثر ملوك العجم كانوا يقيمــون دكة مرتفعة في العراء ويقفون عليها ممتطين الجياد ليتمكنوا من رؤية جميع المتظلمين الذين كانوا يتجمعون هنالك لانصافهم . وكان سبب هذا ان الملك كان يجلس في مكان موصدة ابوابه وهو البلاط حيث « الدهاليز » (١) والحجب والحجّاب مما يمكن ذوي الاهواء والظالمين من الحيلولة دون وصول المتظلم اليــه .

### حكايــة اخــرى

وسمعت أن أحد الملوك كان ثقيل السمع ، فكان يظن ان النقلة والحجّاب لا ينقلون اليه شكاوى المتظلمين في صدق ودقة مما كان يحمله علي اصدار احكامه وأوامره بخلاف مقتضيات الامور . لذا أمر بوجوب ارتداء المتظلمين ثيابا حمراء على

---

(١) جمع دهليز ، والكلمة فارسية الاصــل .

ان لا يرتدي غيرهم مثلها حتى يعرفهم . ثم كان يجلس على فيل في الصحراء وينادي كل من يراه بثوبه الاحمر الى أن يجمعهم كلهم ، ومن ثم يجلس وحيدا ، ويستدعيهم واحدا واحدا مستفسرا عن احوالهم بصوت عال ، ويقضي بانصافهم .

* * *

لقد اتخذوا كل هذه الاحتياطات ابتغاء الدار الآخرة ، وحتى لا يظل ثمة شيء خافيا عليهم .

## يعقوب بن الليث وخليفة بغداد

كان من جملة السامانيين امير يدعى اسماعيل بن احمد الذي كان عادلا (١) جدا ، وصاحب خصال حميدة ، منها : الاعتقاد الخالص بالله عزوجل ، والاحسان الى الفقراء . وكان اسماعيل هذا اميرا على بخارى ، وكانت خراسان والعراق وما وراء النهر كلها في حوزة آبائه .

ومن مدينة سجستان خرج يعقوب بن الليث واستولى على كل سجستان (٢)، ثم مضى الى خراسان واستولى عليها ، وتوجه منها الى العراق واستولى عليها جملة . ويقال ان الدعاة (٣) خدعوه فبايع الاسماعيلية سرا ، وضغن على الخليفة (٤) ببغداد ، ثم جمع عساكر خراسان والعراق وتوجه الى بغداد للقضاء على الخليفة وتقويض اركان البيت العباسي .

لما بلغ الخليفة خبر توجه يعقوب الى بغداد ارسل اليه يقول : « لا شأن لك ببغداد ، فمن الصواب ان تحتفظ بمناطق العراق الجبلية وخراسان وتتصرف بها حتى لا تنشب الفتن والاضطرابات فلتعد » . لكنه لم يصدع للامر ، وقال : « لن اعود ما لم احقق املا يراودني ، وهو القدوم الى البلاط والمثول بين يديكم ، وتجديد العهد لكم » .

وعلى الرغم من كثرة رسل الخليفة الى يعقوب فانه لم يحد عن جوابه الاول ، بل جمع العساكر واتجه صوب بغداد . وظن الخليفة به ظن السوء ، واستدعى عظماء العاصمة بغداد ، وقال : « ارى ان يعقوب بن الليث شق عصا الطاعة ، وهو انما يجيء الينا في خيانة ، لاننا لم نستدعه ، انه يتقدم وانا آمره بالعودة ، لكنه لا يعود . انه يضمر خيانة على اية حال ، واحسب ان بايع الباطنية،

---

(١) لهذا كان يلقب في حياته بالامير العادل .

(٢) سجستان معرب « سيستان » وهو اسم للولاية ومدينتها أيضا ( معجم البلدان ) .

(٣) يعني دعاة الاسماعيلية ( عباس اقبال : حاشية ١ ص ١١ ) ، ويرى اقبال ان دعوى انضمام يعقوب بن الليث الى الاسماعيلية ومبايعته اياهم ليست سوى تهمة ، لانه لم يرد شيء في هذه المسألة في المصادر الموثوقة .

(٤) أي الخليفة المعتمد على الله العباسي ( ٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ ) .

لكنه لن يظهر هذا قبل وصوله الى هنا .علينا الا نكون في غفلة من اتخاذ الحيطة والحذر . فماذا انتم قائلون ؟ » . فاتفقوا على أن يخرج الخليفة من المدينة الى الصحراء ومعه خاصته وجميع حشمه واعيان بغداد ويعسكر فيها . فان كان يعقوب يضمر العصيان فلن يوافقه جميع اعيان خراسان والعراق وقادة جيوشهما ، أو يرضوا عما يراود فكره ، واذا ما اعلن العصيان فلا مندوحة لنا من حيلة نستميل بها جيشه الينا . فاذا فشلنا في هذا وعجزنا عن الصمود في قتاله ، فستكون الطريق امامنا ممهدة نستطيع ان نمضي معها الى الجهة التي نريد ، لاننا لن نكون أسرى محصورين بين اربعة جدران . واعجبت امير المؤمنين الخطة ، فنفذوها . وكان أمير المؤمنين المعتمد على الله أحمد .

لما وصل يعقوب ، نزل قبالة معسكر الخليفة وعسكر هناك ، فاختلط العسكران معا . وفي اليوم نفسه اعلن العصيان وارسل الى الخليفة يقول : « سلم بغداد ، وامض الى حيث تشاء » . فاستمهله الخليفة شهرين فابى ، ولما ارخى الله ستوره بعث الخليفة رسولا الى جميع قادة جيش يعقوب يقول : « لقد اعلن يعقوب عصيانه وانضم الى الشيعة ، وما جاء الى هنا الا لتقويض اركان ملكنا ، والقضاء علينا ، واحلال اعدائنا ومخالفينا محلنا . اتقرونه على هذا أم لا ؟ » فقال فريق : « انه مصدر رزقنا وكل ما نحن فيه من جاه ونعمة وعظمة . سنفعل ما هو فاعل » وقال الغالبية : « لا علم لنا بما يقول امير المؤمنين وما كنا نحسب ان يعقوب سيخالفه ابدا ، أما وقد فعل ، فلن نوافقه بأية حال ، وعند اللقاء فنحن معك لا معه . سنقاتل الى جانبك وننصرك » . وكان هؤلاء امراء خراسان .

سرّ الخليفة لما سمع جواب قادة يعقوب على هذا النحو ، فأرسل اليه في اليوم التالي برباطة جأش يقول : « الآن ابديت كفران النعمة ، فخالفتنا وانحزت الى مخالفينا . السيف بيني وبينك . لا تخيفني قلة جندي وكثرة عسكرك ، فالله — عزوجل — ناصر الحق معي ، وذاك الجيش الذي تملك جيشي ثم أمر جيشه بارتداء السلاح . فتهيأوا للقتال ، واعلنوا النفير ، وخرجوا من معسكرهم واصطفوا في الصحراء . لما سمع يعقوب رسالة الخليفة على ذلك النحو ، قال : « الآن ادركت بغيتي » . ثم أمر هو باعلان النفير ايضا . وامتطى عسكره خيولهم ومضوا الى الصحراء مجهزين ، واصطفوا ازاء جيش الخليفة . وجاء الخليفة من الجانب الآخر وتمركز في « القلب » في حين كان يعقوب في الجانب المقابل . ثم أمر الخليفة رجلا قوي الصوت ان يقف بين الصفين ،ويقول بأعلى صوته : « يا معشر المسلمين ، اعلموا ان يعقوب بين الليث أعلن العصيان ، وان غرضه من المجيء الى هنا القضاء على بني العباس ، والمجيء بمخالفيهم مكانهم ، ثم تنحية أهل السنة جانبا ، واظهار البدعة . ان من يخالف الخليفة انما يخالف رسول الله عزوجل ، وان من يخرج عن طاعة رسول الله عليه السلام انما يخرج عن طاعة الله وعن حوزة المسلمين . والله ، عزوجل ، يقول في محكم كتابه العزيز : « أطيعوا الله ،

واطيعوا الرسول وأولي الامر منكم (١) » . والآن من ذا الذي يؤثر منكم الجنة على النار ، وينصر الحق ، ويدير للباطل ظهره فيكون معنا لا مع مخالفنا ؟ »

لما سمع عسكر يعقوب بن الليث هذا الكلام ، خرج امراء خراسان دفعة واحدة واتجهوا صوب الخليفة ، وقالوا : « ظننا انه انما كان يجيء للمثول بين يديكم امتثالا للحكم والامر والطاعة . اما وقد اظهر التمرد والعصيان الآن ، فنحن معك نحارب الى جانبك حتى الرمق الاخير » .

ولاحساس الخليفة بقوته امر الجند ، بان يحملوا جملة . فكسر يعقوب من اول حملة ، وانهزم باتجاه خوزستان واستولى جيش الخليفة على معداته ومعسكره ونهبوها ، فاثروا بما غنموا . ولما وصل يعقوب الى خوزستان بعث رسلا الى كل النواحي والاطراف في طلب العساكر والعمال يأمرهم باحضار ما في خزائن خراسان والعراق من اموال ومن فضة وذهب .

ولما بلغ الخليفة خبر مقام يعقوب بخوزستان ارسل اليه في الحال رسولا برسالة تقول : « تبين لنا انك رجل طيب القلب ، غير انك خدعت باقوال المخالفين دون أن تفكر في عواقب الامور . اولم تر ان الله تعالى فعل فعلته ، فهزمك وجندك وصان آل بيتنا وحماهم ؟ ان ما حدث لم يكن سوى سهو خفي عليك . انني لعلى يقين بانك قد صحوت الآن من غفوتك ، وندمت على فعلتك . ليس ثمة من هو اجدر منك بامارة العراق وخراسان ، ولن نقدم عليك احدا لما لك علينا من حق خدمات كثيرة تغفر لك ما ارتكبته من خطأ . فبما اننا غضضنا الطرف عن فعلتك وكأن شيئا لم يكن ، فما عليك الا أن تنسى الموضوع وتمضي في أسرع وقت الى العراق وخراسان وتتسلم امور الولاية هناك ، وسأرسل اليك العهد واللواء والخلعة في اثر هذه الرسالة حتى لا يكون ثمة اي اضطراب او فتنة » .

لما قرا يعقوب الرسالة لم يلن قلبه ابدا ، ولم يندم على فعلته ، لكنه امر باحضار شيء من كراث وسمك وبصل على طبق من خشب ، ثم بادخال رسول الخليفة واجلاسه . وبعد ذلك التفت نحوه ، وقال : « اذهب وقل للخليفة ، أنا ابن صفار تعلمت الصفارة عن ابي . كان طعامي خبز الشعير ، والسمك والبصل ، والكراث ، اما الملك والكنوز والثروة فنلتها بجدي وجهدي وشجاعتي ، لا ارثا عن ابي ، ولا هبة منك . انه لن يقر لي قرار ما لم ابعث براسك الى « المهدية » (٢) واقض على آلك . فاما أن انفذ ما قلت ، واما ان ابقى على ما انا فيه من اكل خبز الشعير والسمك والبصل . لقد فتحت الكنوز واستدعيت الجيوش ، وهاتذا قادم

---

(١) النساء ، آية ٦٢ .

(٢) المهدية : « يرى عباس اقبال ان المقصود بالمهدية هنا عاصمة العلويين من الفاطميين في افريقية ( تونس الحالية ) التي بناها عبيد الله المهدي اول خليفة فاطمي عام ٣٠٣هـ . ويرى أن نسبة هذا القول الى يعقوب بن الليث في نزاعه مع الخليفة المعتمد في حدود عام ٢٦٢هـ من أغلاط المؤلف التاريخية . وهذا نفسه يقوم دليلا على عدم نسبة يعقوب الى الاسماعيلية ودخوله في هذا المذهب . ويراجع في المهدية ايضا : معجم البلدان .

في اثر هذا الرسول وهذه الرسالة » . ويبعث برسول الخليفة . وعلى الرغم من كثرة ما ارسل الخليفة من رسائل الى يعقوب ، فانه لم ينثن عن عزمه أو يتراجع عن مطلبه ، انما جمع الجيوش ، واتجه بها من خوزستان الى بغداد ، ولم يكد يقطع من الطريق سوى مراحل ثلاث حتى اصابه مغص اوصله الى حال ايقن معها ان لا خلاص له فيها من الالم . لذلك عهد بولاية العهد الى أخيه عمرو بن الليث وسلمه « ثبت الكنوز » ثم أسلم الروح .

وعاد عمرو من هناك متجها صوب مناطق العراق الجبلية ، ومكث فيها مدة ثم مضى منها الى خراسان ، وملكها جميعا باقيا على طاعة الخليفة . كان الجيش والرعية يحبون عمرا اكثر من يعقوب ، لانه كان عالي الهمة معطاء ، وسياسيا يقظا . ولقد بلغت مرؤته وسخاوته حدا ان مؤن مطبخه كانت تحتاج الى اربعمائة بعير لحملها ، وقس على هذا . اما الخليفة فكان يخشى ان ينهج عمرو نهج اخيه ويفعل ما فعل ، ومع أن عمرا لم يكن يدور بخلده شيء من هذا القبيل ، الا ان الموضوع كان يشغل تفكير الخليفة الدائم ، فكان يرسل الى اسماعيل بن أحمد ببخارى في استمرار ان : « اخرج واحمل بجيشك على عمرو بن الليث ، وخلّص الملك منه . انك احق بامارة خراسان والعراق اللذين كانا ملك آبائك سنوات عديدة بعد ان استولوا عليهما عنوة ، وانك صاحب الحق اولا ، وخصالك حميدة ثانيا ، وانا ادعو لك ثالثا . ولست اشك لهذه الاسباب الثلاثة في ان الله تعالى سينصرك عليه . لا تنظر الى قلة عددك وجيشك ، بل انظر الى قوله عزوجل : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين » (١) .

واثّر كلام الخليفة في نفس اسماعيل بن احمد ، فعقد العزم على الانتفاض على عمرو بن الليث . ثم جمع ما كان لديه من جيوش وعبر به نهر « جيحون » لهذا الغرض ، واخذ يعد الجند بطرف سوطهفبلغوا عشرة آلاف كانت ركائب اكثرهم خشبية ، حتى انه لم يكن ثمة ترس واحد مع كل عشرة منهم ، ولا درع واحدة مع كل عشرين ، ولا سهم واحد مع كل خمسين . اما من كان منهم بغير مطية فكان يربط درعه بحلقة سرج حصان اخر . ثم مضى بهم من مدينة « آموى » (٢) الى بلخ.

لما اخبر عمرو بن الليث — الذي كان انذاك بنيسابور — بعبور اسماعيل بن احمد جيحون ووصوله الى بلخ في طلب الملك ، وبفرار شحنة سرخس ومرو ، جهز سبعين الف رجل بكامل اسلحتهم وعددهم ومضى بهم الى بلخ . ولما تقابل الجيشان واشتبكا معا ، هزم عمرو بن الليث عند مشارف بلخ ، وفر جنوده جميعهم دون ان يجرح او يؤسر احد منهم . اما عمرو نفسه فوقع في قبضة خصومه الذين

---

(١) البقرة ، آية ٢٥٠ .

(٢) آمو ( بضم الميم وسكون الواو ) : هي مدينة « آمل الشط » يقولها العجم هكذا على الاختصار والعجمة . ومن اسمائها أيضا « اموية » . كان بينها وبين بخاري سبعة عشر فرسخا ( معجم البلدان ) .

ما أن اقتادوه الى اسماعيل حتى عهد به الى الحرس . وهذا النصر من عجائب الدنيـــا (١) .

وحين كان أحد فراشي عمرو بن الليث السابقين يتجول في المعسكــر عصرا وقعت عينه عليه فتألم وتقدم نحوه . فقال له عمرو : « لقد تركت وحيدا ، فابق معي الليلة » وقال : « انني جائع . فهل لك ان تهيئي لي شيئا آكله اذ لا غنــى للانسان عن الطعام ما دام حيا » . واستطاع الفرّاش ان يحصل على « منّ » من اللحم ، ثم استعار مقلاة حديدية من الجنود ، واخذ يدور في كل جانب الى أن جمع كمية قليلة من روث الحيوانات الجاف ، ثم نصب ثلاث أثافي ، ووضع عليها المقلاة ليقلي اللحم ، وتركها ومضى في طلب شيء من الملح ، وكان النهار في اخرياتــه ، فاذا بكلب يسطو على المقلاة لانتشال ما فيها فلذعت فمه . ولما رفع رأسه علقــت حلقة المقلاة بعنقه ، ففرّ بها من شدة الالم . لما رأى عمرو بن الليث هذا المنظر التفت نحو الجند والحراس ، وقال : « لتعتبروا ! فأنا الذي كان يحمل مؤن مطبخي اربعمائة بعير كل صباح صرت الى حال ينهب فيها كلب ما لدي في لحظة ليلا » ، وقال : « أصبحت أمير وأمسيت اسيرا » . وهذه من عجائب الدنيا ايضا .

## قصة عمرو بن الليث

واعجب من هذه الحال ايضا ، ما كان من أمر الامير اسماعيل وعمرو بن الليث التالي ، فلما أسر عمرو التفت اسماعيل نحو العظماء ، وقال : « ان الله عزوجل ، هو الذي وهبني هذا النصر ، وليس لاحد سواه ، عز اسمه ، من فضل علي في هذه النعمة » . وقال ايضا : « اعلموا ان عمرو بن الليث كان رجلا عالي الهمة معطاء ، كثير السلاح والعدة ، صاحب رأي وتدبير ، يقظا في كل شيء وكريما عارفا للحق . انني أرى أن أسعى جاهدا لانقاذ حياته وفكاكه من الاسر » فقالوا : « الرأي ما يراه الامير ، يقضي بما يراه مناسبا » . فأرسل اسماعيل الى عمرو بن الليث يقول : « ليهدأ بالك فانني بصدد الشفاعة لك لدى الخليفة لانقاذ حياتك ، ولن ابالي في أن أنفق كل ما في خزينتي في هذه السبيل لتقضي بقية عمرك سالما .

لما سمع عمرو بن الليث هذا الكلام قال : « انني اعلم ان لا خلاص لي من هذا الاسر أبدا ، وانه لم يبق من العمر الاقليله ، وأن الخليفة لن يرضى بغير موتي بديلا . ولكن ارسل انت يا اسماعيل شخصا ثقة افضي اليه بما لدي من كــلام ، على ان ينقل اليك ما يسمع مني » . فعاد رسول الامير اسماعيل واخبره بكل ما قيل ، فأرسل اسماعيل الــى عمرو بن الليث شخصا معتمــدا في الحال ، فقال له عمرو : « قل لاسماعيل : انك لم تهزمني ، بل ان تدينــك ، واعتقادك وحسن

(١) يرى عباس اقبال ان هذه الرواية بالاسطورة أشبه ، فأما ان جيش اسماعيل كان اكثر عددا من جيش عمرو فتمكن من حصاره فيها ، أما ان احدا لم يجرح أو يؤسر من جيش اسماعيل فغلو واغراق .

سيرتك ، وعدم رضى امير المؤمنين عني ، هي التي هزمتني . ان الله ، عزوجل ، هو الذي سلبني الملك من جديد ، ووهبك اياه ، وانت بهذه الهبة والنعمة والخيرات جدير . اما انا فقد قبلت قضاء الله ، عزوجل ، وحكمه ، ولا ابغي لك سوى الخير . لقد صرت الآن الي ملك جديد دون أن تكون لك خزائن وثروة ، في حين أن لي ولأخي كنوزا ودفائن كثيرة ، معي ثبت بها جميعها ، وقد وهبتك اياها كلها لتكون لك ثروة تقوي بها نفسك وتهيىء ما تحتاج اليه من عدة وعتاد ، وتملأ خزائنك » ثم اخرج « الثبت » من كمه وناوله الرسول ليعطيه اسماعيل . فلما جاء الرسول الى اسماعيل ، واعاد على مسامعه كل ما سمع ووضع « الثبت » امامه ، التفت اسماعيل نحو وجهاء القوم ، وقال : « ان عمرو بن الليث يريد بحنكته وذكائه ان يحرز قصب السبق على الاذكياء فيوقعهم في الفخ ويبتليهم بمحنة ابدية » ثم تناول « الثبت » والقى به امام الرسول ، وقال : « اعده اليه وقل له : انك تريد بما أنت فيه من جلد وذكاء أن تحرز قصب السبق على الجميع . انى لك ولاخيك هذه الكنوز؟ فوالدكما كان صفارا ، وقد ثقفتما هذه المهنة عنه . اما الملك ، فشاءت الاقدار أن تصلوا اليه عنوة وتفقدوه تهورا ، واما كنوز الذهب والفضة فليست سوى ما سلبتموه من الناس ظلما ودون حق . انها من اثمان ما يغزل الشيوخ والارامل من النساء ، ومن اقوات الغرباء والمسافرين ، واموال اليتامى والضعفاء . وسوف تسئلان غدا امام الله ، عزوجل ، عن كل صغيرة منها وتتحملان وحدكما عقاب الله وعذابه . انك تريد الآن بذكائك ومكرك ان تلقي على كاهلنا بكل هاتيك المظالم ، حتى اذا ما جاءكما الخصوم يوم القيامة يسألون ما اخذ منهم غصبا ، تقولان لهم : « اعطينا اسماعيل كل ما غصبناه منكم ، فاسألوه عنه ، فتحيلانهم علي جميعا ، ولا طاقة لي انذا كعلى جوابهم ، وعلى غضب الله عزوجل ، وسؤاله » . ورد « الثبت » اليه خشية من الله تعالى ، ولما كان عليه من تدين ، ولم تغره الدنيا الغرورة (١) .

فأين من هذا صنيع ولاة هذا الزمان الذين لا يخشون ، لدينار حرام واحد ، من أن يحلوا عشرة محارم ، ويجعلوا عشرة حقوق باطلا ، دون النظر في العواقب ؟!

## عدل اسماعيل الساماني

كان من عادة اسماعيل بن احمد ان يركب وحيدا في اليوم البارد جدا الذي تتساقط فيه الثلوج بكثرة ، ويمضي الى الميدان ، ويظل ممتطيا صهوة جواده الى صلاة الظهر . وكان يقول : « رب متظلم لا سكن له أو نفقات يرغب في المجيء الى

---

(١) يرى عباس اقبال أن هذه الحكاية من أولها الى اخرها أشبه بالاسطورة منها بالحادثة التاريخية . فقد جاء في المصادر التاريخية الموثوقة ان اسماعيل طلب من عمرو عشرين الف الف دينار مقابل اطلاق سراحه ، ثم تنازل في النهاية الى نصف المبلغ . وبما أن أصحاب عمرو لم يرسلوا المبلغ من سجستان فقد ظل رهين الاسر الى ان سلمه اسماعيل الى عمال الخليفة في سمرقند .

القصر في حاجة له ، لكنه لا يستطيع الوصول الينا بسبب البرد والثلج ، فينثني عن المجيء ويبقى حيث هو . واذا ما جاء فانه يتكبد مشاق كثيرة . أما اذا ما علم بوقوفنا هنا ، فسيجيء لا محالة ، فتقضى له حاجته ، ويعود بالسلامة » .

وثمة حكايـــات كثيرة من هذا القبيل لـــم يذكر الا قليلها ، ولـــم يكن الحذر والحيطة فيها الا خشية جواب سؤال الدار الآخرة .

## الفصل الرابع

## في عمال الخراج والتقصي الدائم لأحوالهم وأحوال الوزراء

يجب ان يوصى عمال الخراج بأن يحسنـوا معاملة خلق اللـه تعالى ، والا يحصلوا منهم سوى ما يترتب عليهم من اموال ، حتى هذه تجب المطالبة بها برفق وادب ، والا تؤخذ منهم قبل جني المحاصيل والثمار ، لأن في تحصيلها قبـل الاوان ارهاقا للزراع وتضييقا عليهم يضطرهم الى بيع محصولاتهـم قبل أوان نضجهـا بنصف الثمن ، وفي هذا من الظلم والجور ما فيه . وعلى عمال الخراج ان يقرضوا كل من يحتاج من الناس الى البذار والابقار مالا يسد به حاجته ، ويقضي به عوزه ليظل في حبور وطمأنينة ، ويبقى في ارضه ووطنه لا يغترب عنهما .

### حكايـة في هذا المعنى

سمعت انه لما حل القحط، الذي دام سبع سنوات، في عهد الملك قباذ، وانقطعت خيرات السماء ، أمر عماله ببيع ما كان لديهم من غلات ، والتصـدق ببعضها ، ومساعدة الفقراء من الخزينة وبيت المال ، حتى ان شخصا واحدا لم يمت جوعا في ارجاء مملكتـه في تلك المدة . وعلة هـذا تحريه لعماله ومتابعته لهـم وتوجيههم وتقريعهـم .

* * *

وينبغي الاستفسار الدائم عن كل عامل ، وتقصي اخباره ، فان كان يسير على النحو الذي ذكرنا فليحتفظ به ، والا فليستبدل بآخر مناسـب . وأن كان غصب الناس شيئا دون حق يجب استرداده منه ورده الى من غصبه منهم ، ثـم مصادرة ما يتبقى لديه من مال وتحويله الى الخزينة ، وعزله بعد ذلك علـى الا يسند اليه اي عمل البتة ليكون عبرة للآخرين من المتطاولين واللصوص .

ويجب الاستفسار عن أحوال الوزراء سرا لمعرفة ما اذا كانوا يسيرون الامور على النحو الصحيح أم لا ، لان صلاح الملك والملكة او فسادهما منوطة بهم . فباستقامة الوزير وحسن مسلكه اعمار للمملكة وتقدمها ، واسعاد للرعية والجيش ورفاههما ، وراحة الملك واطمئنانه ، وبانحراف الوزير يتسرب التصدع الذي لا يمكن رابه الى المملكة ، فتظل في اضطراب دائم ، ويظل الملك حيران مضطربا .

## بهرام جور الوزير الخائن

يقال انه كان لبهرام جور وزير يدعى « راست روشن » اعتمد عليه وسلمه كل مقاليد المملكة ، ولم يكن يلتفت لكلام أحد فيه . أما هو نفسه فكان يجري ليل نهار وراء ملذاته من تنزه وصيد وشراب . وحدث ان قال راست روشن لوكيل بهرام جور مرة : « ان الرعية اخذوا ، لكثرة عدلنا ، يتجراون علينا ويتمادون . فاذا لم يعاقبوا فانني أخشى ، والملك في شغل بالشراب والصيد عن شؤون الرعية ، ان يحدث ما لا تحمد عقباه . فلتعاقبهم انت اذن قبل ان يفسدوا ، وعقابهم انما يكون بأحد امرين : احدهما التخلص من الاشرار ، والآخر غصب أموال الاخيار والفضلاء . ولتقبض على من أشير عليك به . واخذ راست روشن ، كلما قبض وكيل بهرام على أحد وحبسه ، يتدخل شخصيا ويأخذ منه رشوة ، ويقول للوكيل : « اطلق سراح هذا » الى أن نهبوا كل ما كان لدى الناس من اموال وخيول وغلمان وجوار واملاك وضياع فافتقرت الرعية ، وشتتت الفضلاء والمشاهير ، ولم يعد يدخل الخزانة من شيء .

بعد مضي فترة على هذا ، طلع لبهرام جور احد اعدائه ، فاراد ان يصل جيشه بصلات وهبات ويقويه ، ثم يوجهه لمقابلة عدوه ، لكنه لما صار الى الخزانة لم يجد فيها شيئا . ولما سأل مشاهير المدينة ورستاق البلاد ورؤسائهما ، قالوا : « لقد ترك فلان وفلان ممتلكاتهم وثروتهم منذ سنوات ، ومضوا الى الولاية الفلانية». فقال : « لماذا ؟ » قالوا : « لا ندري » ولم يجرؤ احد على ان يقول له الحقيقة خوفا من الوزير .

وقضى بهرام جور يومه وليلته تلك يفكر في الامر ، لكنه لم يستطع الاهتداء الى مواطن الخلل . فركب في اليوم التالي ، لتلقه واضطرابه ، الى الصحراء وحيدا ، وراح يقطعها بالتفكير حتى انه لم يدر كيف أن الشمس توسطت كبد السماء، وكيف انه قطع ستة او سبعة فراسخ . واشتد عليه الحر وغلبه العطش ، فاحتاج الى جرعة ماء . ولما مد بصره في الصحراء رأى دخانا يتصاعد من بعيد ، فقال : « لا بد من وجود أناس هناك » . واتجه نحوه ، فلما دنا من المكان ورأى قطيعا هاجعا من الغنم ، وخيمة مضروبة ، وكلبا معلقا ، تملكه العجب . واقترب من الخيمة ، فخرج منها رجل سلم عليه وحياه ، وانزله من على فرسه ، وقدّم اليه ما كان يحضره من طعام دون ان يعرف انه بهرام . فقال بهرام : « اخبرني عن امر هذا الكلب قبل ان اتناول الطعام لأكون على بينة منه » . فقال الشاب :

« كان هذا الكلب أميني على غنمي ، وكنت أعلم أنه يستطيع لقدرته ان يصاول عشرة رجال ويتغلب عليهم ، وان اي ذئب لم يكن يجرؤ ان يحوم حول القطيع خوفا منه ، حتى انني كنت اذهب الى المدينة مرات عديدة في شغل لي واعود في اليوم التالي ، وكان هو يرعى الغنم ويعود بها سالمة . ومضت على هذه الحال مدة فلما عددت الغنم يوما وجدتها ناقصة ، ثم تبين لي ان عددها اخذ يتناقص تدريجيا كل عدة ايام ، ولم استطع ان افهم علة هذا مع انه لا وجود للصوص هنا . لقد وصلت الحال بالقطيع في تناقصه الى حد ان عامل الضرائب جاءني واراد — مثلما هي العادة — ضرائب القطيع كله ، فدفعت كل ما تبقى منه ضرائب ، والآن انا راع لذلك العامل . ما حدث ان الكلب صادق ذئبة ثم تزوجها وكنت في غفلة من أمره .

وذات يوم خرجت للاحتطاب ، وسلكت في عودتي طريقا خلف مرتفع كان يطل على القطيع ، فرأيته يرعى ، واذا بذئبة تعدو نحوه . حينئذ اختفيت خلف اجمة شوك . فلما رأى الكلب الذئبة هرع اليها وهز ذنبه ، فوقفت في هدوء ، ووثب على ظهرها ، وقضى منها وطره ثم انتحى جانبا ونام ، في حين راحت هي تصول وتجول في الغنم ، فقبضت على شاة وافترستها دون ان ينبح الكلب او يبدي حراكا . لما رأيت موقفه من الذئبة ادركت ان مصدر بلائي لم يكن سوى تواطؤ الكلب وانحرافه ، فقبضت عليه وعلقته بخيانته .

عجب بهرام جور لهذا الحديث ، وقطع طريق عودته يفكر في الامر ، فانتهى به تفكيره الى ان : « رعيتنا هي قطيعنا ووزيرنا هو اميننا ! انني لأرى امور المملكة في اضطراب واحوال الرعية في اختلال ، وانني كلما اسأل احدا لا يصدقني القول، ويخفي عني الحقيقة والحل ان احقق في احوال الرعية وراست روشن » .

ولما عاد الى مقره ، كان اول ما فعله ان طلب لوائح المسجونين اليومية ، فكانت كلها من فجائع راست روشن وجرائمه . فأيقن انذاك ان الرجل لم يسس الناس بالحق ، بل سامهم ظلما وخسفا ، ثم قال :

« هو ليس « راست روشن » (١) انه كذب وظلمة ، وقال مستشهدا بأحد الامثال : ( الحق ما قالت الحكماء من ان « الجوع مصير كل من تخدعه شهرته ، ويركب غروره بها ، والعدم مصير كل من يخون الخبز الذي يأكله مع الآخرين » . انا الذي شددت ازر هذا الوزير حتى يراه الناس بهذا الجاه والعظمة ، لكنهم لا يجرؤون الان على ان يفضوا الي بما في نفوسهم خوفا منه . لا بد لي من ان اقبض عليه حين يأتي الى القصر غدا ، فأبدد حرمته وجلاله على مرأى وجهاء البلاد وعظمائها ، وآمر بغله في الاغلال الثقيلة . ثم استدعي السجناء واسألهم عن احوالهم ، وآمر من ينادي في الناس : « لقد نحينا راست روشن عن الوزارة ، وقبضنا عليه وحبسناه ، ولن نعيده الى العمل قط . فعلى كل من الحق به اذى ، او ان لديه شكاية ضده ، فليأت الينا ، ويطلعنا على حاله بنفسه ، لننصفه منه » . ولا بد ان الناس سيخبروننا بكل شيء بعد سماع هذا ، فان يكن سلوكه مع الناس

---

(١) معنى كلمة « راست » الفارسية : صحيح ، و « روشن » : منير ، مضيء .

حسنا حميدا ، ولم يغصب منهم مالا ، بل شكروه واثنوا عليه ، سأحسن معاملته واعيده الى منصبه ، والا فسأعاقبه واقتص منه

وفي اليوم التالي ، جلس بهرام جور للناس وجلس العظماء في المقدمة ، ودخل الوزير واتخذ مكانه . فالتفت بهرام جور نحوه ، وقال : « ما هذا الاضطـــراب الذي أوجدته في المملكة ، فقد ابقيت الجيش دون سلاح ومؤونة ، وافقرت الرعية ؟! لقد امرناك ان توصل ارزاق الناس اليهم في اوقاتها ، والا تغفل عن اعمار البلاد ، والا تحصل من الناس الا ما يترتب عليهم من خراج ، وان تملأ الخزانة . لكننا الآن لا نرى سوى خزينة خالية ، وجيش دون عتاد ومؤونة وانقاض رعية ! لقد ظننت انني شغلت بالشراب والصيد ، واهملت شؤون المملكة ، واحوال الرعية » . وامر بتنحيته دون أن تراعى له حرمة ، فاقتيد الى حجرة ، ووضعت الاغلال في قدميه ، ووضع على باب القصر مناديا ، يقول : « ان الملك عزل راست روشن عن الوزارة ، وغضب عليه ، ولن يوليه اي عمل بعد ، فمن كان قد أوذي منه ، او ان لديه شكوى ضده ، فليأت الى القصر دونما خوف او وجل للافصاح عن حاله بنفسه حتـــى ينصفه الملك » . ثم امر بفتح ابواب السجن حالا ، وجيء اليه بالسجناء واحــدا واحدا ، وكان يسألهم « بأي ذنب سجنت ؟ » . قال احــدهم : « كان لي اخ غني ، وكانت له اموال وخيرات جمة ، قبض عليه راست روشن وسلبه كل امواله وعذبه الى ان مات » . ولما سألوه : « لماذا قتلت هذا الرجل ! » قال : « كانت له مع اعداء الملك مراسلات » . ثم حبسني حتى لا اشكوه واتظلم منه ، وحتـــى تظل هذه المسألة طي الكتمان .

وقال اخر : ( كانت لي مزرعة جميلة جدا ورثتها عن والدي ، وكانت لراست روشن ضيعة بجوارها ، ولما دخل مزرعتي يوما راقت لــــه ، فأراد ان يشتريها ، لكنني لم ابعه . فقبض علي وحبسني بحجة : « انك تحب ابنة فلان ، فثبتت عليك الخيانة . تخل عن هذه المزرعة واكتب بنفسك اقرار ينص على انه : « لا حـــق لي في هذه المزرعة ، وهي ملك راست روشن » . غير اني لم افعل . واليوم تمر خمس سنوات على سجنـــي ) .

وقال اخر : ( انني تاجر كنت اجوب الآفاق برا وبحرا ، وكنت اشتري بما لدي من مال ما اجده في اية مدينة من نوادر الاشياء ، وابيعه في مدينة اخرى قانعا بربح قليل . واتفق ان وقعت على عقد لؤلؤ عرضته للبيع لما جئت هـــذه المدينة . فلما بلغ الوزير الخبر ارسل الي يطلبني ، فاشترى العقـــد مني ، وارسله الى خزانته دون ان يدفع ثمنه . وترددت عليه مرات للسلام ، فلم يبد منه ما يدل على انه يرغب في دفع ثمن العقد . ونفذ صبري ، وكنت على ابواب سفر ، فذهبـــت اليه يوما وقلت : « ان يكن العقد مناسبا ، فأرجو الايعاز بدفع ثمنه ، والا فبرده فانني عزمت على المسير » . فلم يجبني . وعدت الى داري فاذا بضابط كبير (1)

(1) الكلمة ترجمة للفظة « سرهنك » الفارسية ، الشائعة الاستعمال في الكتب القديمة . وهي تقابل رتبة « عقيد » في الجيوش العربية في عصرنا هـذا .

واربعة جنود راجلين ، فقالوا لي : « هيا بنا ، فالوزير يطلبك » . ففرحت وقلت : « سيدفع ثمن العقد » . فنهضت وذهبت معهم ، لكنهم مضوا بي الى سجن اللصوص ، وقالوا للسجان : « اسجن هذا الرجل ، وكبله بالاغلال الثقيلة » . ومنذ سنة ونصف وأنا في السجن ) .

وقال اخر : « انا رئيس الناحية الفلانية . كان بيتي مفتوحا دائما في وجه الضيوف والغرباء واهل العلم ، وكنت أواسي الناس والمعوزين ، واوزع الصدقات والخيرات على المستحقين باستمرار أسوة بآبائي من قبل . وكنت انفق ما يتأتى من املاكي وضياعي الموروثة في سبل الخير والضيافة . قبض علي الوزير بحجة انني عثرت على كنز ، فعذبني ، وصادر اموالي ، واودعني السجن . وكنت ابيع ملكي وضياعي ، للضرورة ، بنصف ثمنها ، واعطيه اياها ، وها هي ذي أربع سنوات تمر على سجني وتكبيلي بالقيود ، ولا الوي على شيء » .

وقال اخر : « انا ابن الزعيم فلان ، صادر الوزير أملاك أبي ، وقتله بشدة التعذيب ، ثم حبسني ، ومنذ سبع سنوات وانا اعاني من عذاب السجن » .

وقال اخر : ( انا عسكري ، خدمت والد الملك سنوات عديدة ، ورافقته في عدد من اسفاره ، وكنت وما ازال في خدمة الملك منذ سنوات واتقاضى راتبي من الديوان . غير ان شيئا منه لم يصل الي السنة الماضية . وقابلت الوزير هذا العام وقلت له : « انني صاحب عيال ، لم يصل الي راتبي في العام المنصرم ، فادفعوه هذه السنة لأسدد ببعضه ما علي من ديون ، وأعيش بالباقي » . فقال : « ليس في نية الملك ان يحارب احدا ، حتى تكون لهفيالجيش حاجة لذا . ان وجودك ووجود امثالك وعدمه في الخدمة سواء . ان أردت ان تكسب عيشك ، فعليك بالطيانة » . قلت : « لن اشتغل بالطيانة ، لان لي على الدولة حقوقا . أما انت فعليك ان تتعلم كيفية تسيير شؤون الملك . انني في الضرب بالسيف امهر منك في تناول القلم ، وانني افتدي الملك بنفسي وقت النزال ولا أعصي اوامره ، أما أنت فتقطع ارزاقنا من الديوان ، ولا تنفذ أوامر الملك . ولست تدري اننا نحن الاثنين خدم له ، انت في وزارتك ، وأنا في عملي . غير ان الفرق بيننا ، هو انني اطيع الاوامر وانفذها ، وانت تعصاها وتنبذها ظهريا . ان يكن الملك ليس في حاجة الى امثالي ، فهو لا يحتاج الى امثالك ايضا ، وان يأمر باخراج مثلي ، فهو لا شك فاعل بأمثالك ايضا . ان يكن لديك مرسوم ملكي بحذف اسمي من الديوان فأرنيه ، والا فادفع ما قدر الملك لي من راتب » ) . فقال : « اخرج فأنا الذي احميك واحمي الملك ، ولولاي لكنتم طعمة للنسور منذ زمن بعيد » . وفي اليوم نفسه اودعني السجن الذي مرت علي فيه اربعة شهور .

لقد كانوا اكثر من سبعمائة ، وكان اقل من عشرين منهم سافحين ولصوصا ومجرمين ، اما الباقون ، فأولئك هم الذين زج بهم الوزير بالسجن ظلما وعدوانا طمعا بالمال . وما ان سمع الناس في المدن والنواحي بخبر منادي الملك ، حتى هرعت جموع المتظلمين الغفيرة الى القصر .

لما رأى بهرام جور حال الناس وما الحقه بهم الوزير من ظلم وعسف واجحاف

قال في نفسه : « ان فساد الرجل في المملكة اكثر مما ارى ، انه يفوق الوصف . ان جراته على الله ، تعالى ، وعلى عباده وعلي بلغت حدا اكبر مما كنت اظن . يجب التأمل في المسألة بعمق اكثر » . ثم أمر بالذهاب الى « سراي » (١) راست روشن واحضار جميع دفاتره ، واغلاق ابواب السراي جميعها وشمعها . وذهب رجال الملك المعتمدون فنفذوا الامر ، واحضروا الدفاتر . وفي حين كانوا ينظرون فيها وجدوا احدها يغص برسائل بعث بها احد الملوك الى راست روشن يخبره بخروجه على بهرام جور ، والتوجه نحوه ، ووجدوا رسالة بخط راست روشن مرسلة اليه ، فيها : « ما هذا التباطؤ ؟ فقد قالت الحكماء : ان الغفلة تدمر الدولة. لقد عملت ، لهواي معك وطاعتي اياك ، كل ما بوسعي فكسبت فلانا وفلانا وفلانا . . من قادة الجيش الى جانبي ، واخذت لك البيعة منهم ، وجعلت اكثر الجيش دون مؤونة وعتاد ، وارسلت بعضه الى اماكن ونقاط اخرى في مهام لا طائل من ورائها . اما الرعية فجوعتها ، واضعفتها ، وفرقت شملها ، وشتت الكثيرين منها . وأما ما استطعت جمعه في هذه المدة من اموال فهو لك ولخزائنك التي لا قبل لأي ملك بها . واعددت لك تاجا ومنطقة وجبة مرصعة لم ير أحد مثلها . ان حياتي مهددة بالخطر من هذا الرجل — الملك بهرام — الميدان خال والخصم لاه . فاغتنم الفرصة وسارع بالمجيء قبل ان يصحو الرجل من غفوته » . لما رأى بهرام جور الرسائل قال : « آه ، انه هو الذي ألب علينا هذا الخصم الذي يتقدم الآن بعد ان غرر بـه . وليس ثمة من شك في خبث معدنه ، وعداوته ، ومخالفته لنا » .

ثم أمر بتحويل ثروته كلها الى الخزانة ، والاستيلاء على عبيده ومواشيه . اما ما اخذه من الناس رشوة ، فأمر بأن تباع املاكه وضياعه ، ليسترد الناس اسلابهم منها ، واما قصره ومتاعه فدكت دكا .

ثم امر انذاك باقامة مشنقة عالية على باب قصره ، وثلاثين اخرى خلفها ، وكان راست روشن اول من علق عليها ، تماما مثلما علق ذلك الرجل — الذي تقدم خبره — كلبه . ومن ثم علق اتباعه ومن دخلوا في بيعته . وامر الملك مناديا بأن ينادي لمدة سبعة ايام : « هذا جزء من يحيق بالملك سوءا ، وينحاز الى اعدائه ويوالفهم ، ويؤثر الخيانة على الامانة ، ويظلم العباد ، ويتجرأ على الله ، وعلى أسياده » .

بعد هذا الجزاء الرادع ، خاف المفسدون الملك بهرام الذي عزل كل من عينهم راست روشن ، أو ولاهم شغلا ، ولم يولهم أي عمل بعد ، واعاد كل من نحاهم عن مراكزهم اليها وبدل جميع الكتاب وحكام الولايات .

ولما وصل الخبر الى الملك الذي كان قد خرج على بهرام جور وتوجه اليه ، عاد من حيث وصل نادما على فعلته . ثم ارسل الاموال والهدايا الثمينة الى الملك بهرام ملتمسا العذر معلنا الطاعة ، وقال : « ان عصيان الملك لم يخطر لي ببال

---

(١) تطلق كلمة « سراي » الفارسية على القصر ، وعلى البيت عامة ، وهي كثيرة الدوران في المصادر العربية ، والتاريخية خاصة . والكلمة وجود في بعض اللهجات العربية المحلية .

قط ، بل ان وزيركم هو الذي جعلني أسلك هذه الطريق لكثرة ما كان يكتب من رسائل ، ويرسل من رسل . وفي ظني انه لم يكن سوى مجرم يبحث له عن ملجأ . وقبل الملك بهرام عذره ، وصرف النظر عن المسألة ، ثم قلد الوزارة رجلا حسن الاعتقاد ، يخشى الله . فانتظمت شؤون الجيش والرعية ، واستقامت الاعمال ، وصارت البلاد الى العمران ، وتخلص الناس من الجور والظلم .

اما عن الرجل الذي علق كلبه ، فكان الملك بهرام حين خرج من خيمته يريد العودة اخرج من كنانته سهما القاه امامه ، وقال : « أكلت طعامك (١) وعرفت ما نزل بك من اذى واصابك من ضرر ، فان لك عليّ لحقا . اعلم انني احد حجاب الملك بهرام جور ، وان كل كبّار رجال قصره وحجابه اصدقائي ، وهم يعرفونني جيدا . عليك ان تذهب الى قصر الملك بهرام بهذا السهم ، فان كل من سيراه معك سيأتي بك الي لكي اقضي لك بشيء يعوض عليك شيئا مما لحق بك من ضرر » وعكف راجعا .

بعد ايام قالت زوج ذلك الرجل له : « انهض وامض الى المدينة ، وخذ السهم معك فلا اخال ذلك الفارس بطلعته تلك الا رجلا ثريا ووجيها ، حتى لو أعطاك شيئا قليلا ، فانه كثير علينا في هذه الايام . اذهب ولا تتوان ، فكلام الرجل لم يكن جزافا » . فنهض الرجل ومضى الى المدينة ونام ليلته تلك ، ثم ذهب في صباح اليوم التالي الى قصر الملك بهرام الذي كان أوصى حجاب قصره ومن فيه : « انه اذا ما أمّ القصر رجل بأوصاف كذا وكذا ، ورأيتم سهمي بيده فاتوني به حالا » . لما راى الحجّاب الرجل والسهم معه نادوا عليه ، وقالوا : « اين انت ايها الرجل الحر ؟ فنحن في انتظارك منذ ايام . استرح هنا الى ان نأخذك الى صاحب هذا السهم » ، ومضت فترة خرج بعدها بهرام جور وجلس على سريره وعقد المجلس . فأخذ الحجاب بيد الرجل وادخلوه الى المجلس ، فوقعت عينه على الملك وعرفه ، وقال : « آه لقد كان الملك بهرام ذلك الفارس ، ولم اقم بالواجب المطلوب نحوه ، فضلا عن انني كنت احدثه بجسارة . لعله ألا يكون قد ضغن عليّ ! » .

ولما قربه الحجاب من سرير الملك وقبّل الارض بين يديه ، التفت بهرام جور نحو العظماء ، وقال : « لقد كان هذا الرجل سبب تنبهي لاحوال المملكة » . وقص عليهم قصة الكلب والذئبة . ثم قال : « وتفاءلت بهذا الرجل » . ثم أمر له بخلعة وسبعمائة شاة كبيرة ينتخبها هو بنفسه ، ولا يدفع عنها ضريبة طيلة حياة بهرام جور .

لقد هزم الاسكندر دارا ، لان وزير الاخير تحالف سرا مع الاول قلبا وقالبا ، ولما قتل دارا قال الاسكندر : « لقد انهار الملك بغفلة الامير ، وخيانة الوزير » .

* * *

---

(١) ترجمة للاصطلاح الفارسي « نان ونمك تو خوردم » وهو المثل العربي العامي عينه : « أكلنا من عيشه وملحه » .

على الملك ـــ اي ملك ـــ الا يغفل عن احوال عماله في اي وقت ، وعليـــه أن يتقصى تصرفاتهم ، وسلوكهم ، وسيرهم دائما ، ويتحراها ، واذا ما بدت منهم خيانة او انحراف ، تجب تنحيتهم وعزلهم ومعاقبة كل منهم بقدر ذنبه وجرمـــه ، ليكونوا عبرة للآخرين ، وحتى لا تسول لاحد نفسه بالملك سوءا خوفا من العقوبة .

أما اصحاب المناصب الهامة الرفيعة ، فيجب أن يعين عليهم من يراقبهم سرا دون ان يعلموا ، ليكونوا على اطلاع دائم بأعمالهم واحوالهم . فقد قال أرسطوطاليس للاسكندر الملك : « لا تسند اي منصب لاهل القلم في مملكتك بعد ايذائهم ، لانهم سيتواطئون مع اعدائك ، ويتحالفون سرا ، ويعملون على هلاكك » .

وقال أبرويز الملك : على الملك الا يعفو عن ذنوب اربعة من الناس ، الطامع في ملكه ، والطامع في حرمه ، والذي يذيع اسراره ولا يكتمها ، ومن هو معه بلسانه ، ومع اعدائه بقلبه ، يكيد له سرا .

ان فعل المرء يدل على سره ، والملك اليقظ لا يخفى عليه شيء او يفوته .

# الفصل الخامس

## في المستقطعين والتحقق من معاملتهم الرعايا

ليعلم المستقطعون (١) ان لا شأن لهم على الرعايا سوى تحصيل الامـــوال المستحقة عليهم بالحسنى ، على ان يكونوا بعد ذلك آمنين على انفسهم واموالهم ونسائهم وابنائهم وضياعهم وما يملكون ، دون ان يكون لاصحاب الاقطاعات عليهم من سبيل او ان يمنعوهم من الذهاب الى القصر ، لبسط احوالهم بأنفسهم اذا مـــا رغبوا في ذلك . اما من لا يلتزم بهذا ، او يتقيد به ، فينبغي الضرب على يده ، ونزع اقطاعاته منه ، ومجازاته ، ليكون عبرة للآخرين .

على اصحاب الاقطاعات ان يعلموا ايضا ان الملك والرعية جميعا ، في حقيقة الامر ، للسلطان وعليهم وعلى الولاة ايضا بوصفهم رؤساء ومسؤولين ان يعاملوا الناس معاملة الملك للرعية ليحظوا بتأييده وقبوله ، ويسلموا من عقابه ، وينجوا من عـــذاب الآخـــرة .

### حكاية الملك العادل

يقال انه لما توفي قباذ الملك ، تولى ابنه انوشروان العادل الملك من بعده ، وعمره ثماني عشرة سنة . لقد كان العدل متأصلا فيه منذ نعومة اظفاره ، فكان يقابل الاساءة بالاساءة ، والاحسان بالاحسان . وكان يقول دائما : « ان والدي ضعيف رأيه ، طيب قلبه ، يخدع بسرعة . سلم مقاليد المملكة لعمال وولاة يفعلون ما يشاؤون ، فخربت البلاد ، ونفذت خزائنها التي نهبوا ما فيها من أموال . اما هو ، فلم يعلق به ويبق له سوى الظلم والسمعة السيئة .

لقد خدع مرتين : الاولى بأقوال مزدك ذي الاعتقاد السيء والمذهب الخبيث

---

(١) من استقطع فلان الامام قطيعة فأقطعه اياها اذا سأله ان يقطعها له . والقطائع انما تجوز في عفو البلاد التي لا ملك لاحد عليها ، ولا عمارة فيها لاحد ، فيقطع الامام المستقطع منها قدرا يتيهيأ له عمارته . والاقطاع يكون تمليكا ، وغير تمليك . قال الشافعي : ومـــن الاقطاع ، اقطاع ارفاق لا تمليك ( اللسان قطع ) . والاقطاع الذي نحن بصدده في هـــذا الفصل من النوع الذي لا يكون تمليكا .

وحيله ، والاخرى بيد العامل فلان ، والوالــي فلان اللذين دمــرا الولاية ، بما فرضوه عليها من ضرائب باطلة أفقرت الرعية ، وضيقت عليها الخناق . لقــد خدعناه ـــ لحبه المال ـــ ببدرة (١) ذهب احضراها اليه ، ففرح بها كثيرا دون أن يفكر بكثرتها ، أو يسأل الوالي مثلا : « أنت أمير تلك الولاية وواليها ، وقــد أنفذت اليك مبالغ من المال رواتب ونفقات لك ولمن معك . ارى انــك غصبتهــم اعطياتهم ، والا فأنى لك هذه الاموال التي احضرتها الي ، وهذا النعيم والثروة الطارئة التي لا عهد لك بها من قبل ؟ أوليست هي الاموال التي استوليت عليها من الناس ظلما وعدوانا ؟ » . أو أن يقول للعامل ايضا : « ان اموال الولاية على أقسام : بعضها ما انفقته في سبل الخير ، والآخر ما دفعت به الى خزينة الدولة ، فمن أين لك هذه المبالغ الفائضة التي اراها معك ؟ اليست الاموال التي اخذتها دون حق ؟ » . ان والدي نفسه لم يكن يتحرى تلك الامور أو يدقق فيها حتــى يستقيم الآخرون في اعمالهم » .

ومرت ثلاث أو أربع سنين على حكم أنوشروان وأصحاب الاقطاعات والولاة والحكام ماضون في تجاوزهم وتماديهم ، وجموع المتظلمين تترى على القصر تشكو وتصرخ وتتظلم . وذات يوم جلس أنوشروان العادل للمظالم ، فحضر جميع رجالات المملكة واعيانها . ثم استوى الملك على سريره ، فحمد الله واثنى عليه ، وقال : « اعلموا أن الله عزوجل هو الذي وهبني الملك اولا ، وانني ورثته عن والــدي ثانيا ، وأن عمي خرج علي ، فحاربته واسترجعت الملك منه بالسيف ثالثا . ولما ملكني الله الملك جعلت لكم فيه نصيبا أيضا ، فوليت كلا منكم ولاية ، ولم اغمط احدا في هذه الدولة حقه ، بل كان لكل نصيب ، وابقيت الكبار والمعروفين ممن كانت لهم الولاية والمقامات الرفيعة في عهد والدي في مناصبهــم ، ولم أبخسهم ارزاقهم وأشياءهم . لقد أوصيتكم دائما ، وما أزال ، بالناس خيرا في المعاملــة ، وحسن التصرف ، وعدم تحصيل الاموال من ضرائب وخراج الا بالحق . احفظ لكم حرماتكم واصونها ، ولا تصونون ، بل تعرضون عن كلامي ، لا تخشون الله ولا تستحون من العباد . انني اخاف عقاب الله وعذابه دائما ، واخشى أن تكون عاقبة ظلمكم وبالا على عهدي . ان العالم صاف من الاعداء والمخالفين ، وأنتم في راحة وكفاف عيش . ان الانصراف الى شكر الله وحمده على نعمه التي وهبنــا جميعا ، هو البديل الوحيد والافضل للظلم وكفران النعمة وجحــودها ، فالظلم يقوّض الملك ، وكفران النعمة يمحقها .

عليكم منذ الآن أن تحسنوا معاملة خلق الله ، عزوجل ، وتخففوا الوطء على الرعية ، والا تؤذوا الضعفاء ، وأن ترعوا للعلماء والحكماء حرماتهم ، وتخالطــوا الاخيار وتجالسوهم وتتجنبوا الاشرار وعشراء السوء ، والا تسيئوا الى المتقين والزهاد . واشهد الله وملائكته على نفسي بأنني سأنحي كل من لا يسير على هذا النهج ، ولن ابقيه » . فقالوا جميعا : « سمعا وطاعة ، سننفذ هذا بحذافيره ».

---

(١) البدرة : كيس فيه الف او عشرة الاف ، سميت ببدرة السخلة ( اللسان ، بدر ) .

وبعد أيام ، عاد الجميع الى أعمالهم ، واستمروا في ديدنهم السابق ظلماً ونهبا غير آبهين بأنوشروان الذي ما انفكوا يعدونه طفلا . وكان كل واحد من أولئك العصاة يظن أنه هو الذي جاء به الى العرش ، وأن بقاءه ملكا أو عدمه رهن ارادته . ولزم أنوشروان الصمت وسكت عنهم سنوات على مضض .

كان لأنوشروان قائد كبير ، هو والي أذربيجان الذي لم يكن في المملكة كلها أمير او قائد أقوى منه أو اكثر نعمة ، ولم يكن لاحد أيضا ما كان له من الآت وعدد وجند ، وممتلكات . وكان مما يراود نفس ذلك القائد أن يقيم لنفسه مقرا وبستانا في ضواحي المدينة التي كان فيها . لقد كانت في تلك البقعة قطعة أرض لامرأة عجوز لا يتجاوز نتاجها السنوي حصة الملك وزارعها وشيئا ضئيلا يبقى لها ، هو عبارة عن أربعة أرغفة من خبز الشعير يوميا على مدار السنة كلها . فكانت العجوز تشتري بأحدها طعاما ، وبآخر زيتا لسراجها ، وتحتفظ بالثالث لفطورها ، والرابع والاخير لعشائها . وكان الناس يتصدقون عليها بملابسها وثيابها . ولم تكن المسكينة تبرح بيتها مطلقا ، وكانت تقضي عمرها في مشقة وفاقة وعوز .

ورأى القائد أنه من المناسب أن يضم قطعة الارض تلك لتصبح في جملة بستانه وقصره ، فأرسل الى العجوز شخصا ، يقول لها : « بيعيني قطعة أرضك ، فانني في حاجة اليها » . قالت : « لا ابيعها ، فانني أحوج اليها ، لانني لا أملك من الدنيا سواها ، ومنها أعيش ، والانسان لايبيع مصدر رزقه » . قال : « ادفع اليك ثمنها ، أو اعوضك بها قطعة أخرى تعدلها محصولا » قالت العجوز : « ان ارضي هذه حلال ورثته عن والديّ ، وهي قريبة من مصدر المياه . وانني على وفاق مع جيراني الذين يحترمونني ويعزونني ، وليست لارضك هذه المزايا ، فكف عن ارضي » .

غير أن القائد لم يعر اهتماما لكلامها ، بل استولى على الارض ظلما وعنوة ، وسحب عليها سور بستانه ، وضمها اليه . فأسقط في يد المرأة ، ورضخت لقبول ثمن الارض او بدلها ، والقت بنفسها أمامه قائلة : « الثمن او البديل » . فلم يصغ اليها ، أو يكلف نفسه النظر فيها ، ولم يأبه بها . وخرجت من عنده قانطة ، ولم يعد يسمح لها بالدخول عليه . لكنها ظلت تجلس له في الطريق كلما ركب للتنزه والصيد ، وتصرخ في وجهه حين يقترب مطالبة بثمن الارض ، فكان يمر عنها دون أن يجيب بشيء . واذا ما طلبت الى خاصته وندمائه وحجابه أن ينقلوا اليه طلبها ، قالوا : « نعم ، سنقول » لكن احدا لم يكن يقول له شيئا . ومضت على هذا الموضوع سنتان .

واملقت العجوز ولم تجد من ينصفها ، ونفضت يدها منه وقالت في نفسها : « انني اضرب في حديد بارد : ما من يد الا وجعل الله يدا فوقها . واخيرا أمام جبروت خادم أنوشروان العادل وعبده ! والحل ان اتحمل مشاق السفر واذهب الى المدائن وادخل الى أنوشروان واعلمه حقيقة حالي ، فقد أجد عنده انصافا » .

ودون أن تخبر احدا ، مضت فجأة من أذربيجان الى المدائن متحملة المشقة والتعب . فلما رأت قصر أنوشروان قالت في نفسها : « من ذا الذي سيتيح لي

الدخول الى هنا ؟! انه لم يكن يسمح لي بدخول « سراي » والي اذربيجان ، وهو خادم الملك ، فكيف يمكن اذن أن يسمح لي بالدخول الى قصر الملك نفسه والمثول بين يديه وهو سيد الدنيا بأسرها ؟! ان من الافضل أن آوي الى مكان قريب هنا ، واكتم أمري فربما استطيع ان اظفر بلقاء الملك ، وهو خارج ، واقص عليه قصتي ».

وحدث أن جاء القائد الذي سلبها أرضها الى القصر ، وعزم انوشروان على الخروج للصيد . ولقفت العجوز خبر خروج الملك للصيد ، الى المكان الفلاني في يوم كذا . فمضت واخذت تسأل هنا وهناك الى ان وصلت الى ذلك المكان بمشقة وجهد ، والقت بنفسها خلف دمنة هناك ونامت ليلتها تلك .

وفي اليوم التالي ، وصل انوشروان . وتفرق من كان معه من كبار القادة في طلب الصيد ، وبقي هو يتجول في المكان ، ومعه أحد الموكلين بالسلاح (١) فقط . اغتنمت العجوز الفرصة ، ونهضت من مكمنها ، واسرعت نحو الملك واخرجت « شكواها » وهي تقول : « ايها الملك ، ان تكن مالك الدنيا فانصف هذه العجوز الضعيفة ، واقرأ شكواها وتعرف على حالها » .

لما رأى انوشروان العجوز وسمع ما تقول أيقن أنها لم تأت الى هنا لو لم تكن ثمة ضرورة قصوى ، فاتجه بفرسه نحوها ، واخذ « شكواها » وقرأها ، واستمع الى حديثها ، فترقرقت الدموع في عينيه ، وقال لها : « ليهدأ بالك ، فقد كان الموضوع يخصك وحدك ، أما وقد علمناه الآن فهو منوط بنا نحن وعلينا عبئه . سأوصلك الى بغيتك وحقك اولا ، ثم ارسلك بعد ذلك الى مدينتك . لتستريحي عندنا أياما ، فقد قطعت طريقا طويلة » . ثم تلفت حواليه ، فرأى أحد فراشيه آتيا على بغله الموكبي (٢) ، فقال له : « انزل واركب هذه المرأة ، وامض بها الى احدى القرى وسلمها الى كبيرها . ثم عد ، وحين نرجع من الصيد خذها من القرية الى المدينة واسكنها في بيتك ، واجعل لها من خزانتنا منوى خبز ومن (٣) لحم يوميا ، وخمسة دنانير ذهب شهريا الى أن نطلبها منك » . فنفذ الفراش ما أمر بـه .

ولما عاد الملك انوشروان من الصيد ، أمضى سحابة يومه يفكر فيما يجب فعله لمعرفة حقيقة الموضوع دون ان يشعر به أحد من كبار الدولة . ففي قيلولة احد الايام ، والناس نيام والقصر خال ، قال الملك لاحد خدمه : « اذهب الى الحجرة الفلانية وجئني بالغلام فلان » . فذهب الخادم ، وأحضر الغلام . فقال له الملك : « يا غلام ، انت تعلم ان غلماننا اللائقين كثيرون ، لكنني اخترتك من بينهم جميعا ، واعتمدت عليك في أمر . خذ نفقات سفرك من الخزانة ، وامض

---

(١) الموكل بالسلاح ترجمة للاصطلاح الفارسي التاريخي « سلاح دار » وقد تابعت في ترجمته الاستاذين يحيى الخشاب وصادق نشأت في ترجمتهما لتاريخ البيهقي .

(٢) البغال الموكبية ، هي البغال التي كانت تعد خصيصا لتكون في جملة ما في موكب السلطان وركبـه ( شعار ٤١١ ) .

(٣) السمن : وحدة وزن تعادل ٦٠٠ مثقـال .

الى اذربيجان ، وانزل بالمدينة الفلانية في المحلة الفلانية واقم هناك عشرين يوما . ولتتظاهر امام الناس انك جئت في طلب غلام فار ، وحيثما استطعت ان تجالسهم وتعاشرهم وتختلط بهم وتتحدث اليهم في سكر وصحو ، اسألهم : لقد كانت في محلتكم هذه عجوز اسمها فلانة ، اين ذهبت فليس من خبر عنها ؟ وماذا فعلت بأرضها التي كانت تملكها ؟ اصـــغ الى كل ما يقـــولون واحفظه ، ثم عـــد الي بحقيقـــة الامـــر .

اني مرسلك في هذه المهمة ، لكنني سأطلبك الى البلاط غدا ، واقول لك في صوت عال يسمعه الجميع : اذهب ، وخذ نفقاتك من الخزانة وامض الى اذربيجان، فكلما وصلت الى مدينة او ناحية سل عن غلات هذا العام وفواكهه ، انزلت بها الآفات أم لا ؟ كذلك المراعي ، واماكن الصيد . ثم عد بسرعة ، واطلعنا على ما وجدت الامور عليه . كل هذا حتى لا يعرف احد بالامر الذي ارسلك من اجله » . فقال الغلام : « سمعا وطاعة » .

وفي اليوم التالي ، نفذ انوشروان ما قال . ومضى الغلام ، فوصل الى تلك المدينة واقام فيها عشرين يوما كان يســـأل كل من جلس اليه عـــن احوال المراة العجوز ، فكان جوابهم جميعا : « لقد كانت امراة مستورة واصيلة ، كنا نراها في نعمة مع زوجها واولادها . لكن زوجها واولادها ماتوا جميعهم ، فبقيت وحيدة ، وآلت نعمتها الى زوال ، ولم يبق لها سوى قطعة ارض عهـــدت بها الى زارع يزرعها ، فكان نتاجها عبارة عما تدفعه من خراج ونصيب الزارع وما يتبقى حصتها الى الموسم القادم ، وهو اربعة ارغفة يوميا ، كانت كل رزقها : احدها لطعامها ، والثاني لزيت سراجها ، والثالث لفطورها ، والاخير لعشائها . ولما اراد الوالي ان ينشىء لنفسه متنزها وبستانا استولى على ارضها عنوة وضمها الى ارضه دون ان يدفع لها ثمنها ، او يعوضها منها . وظلت المسكينة طوال سنتين تتردد على قصره تصرخ وتستغيث مطالبة الثمن ، غير ان احدا لم يلتفت اليها . ومنذ مدة لم يرها احد في هذه المدينة ، ولسنا ندري اين ذهبت ، أميتة هي أم حية » .

وعاد الغلام ، ومضى الى القصر . وجلس انوشروان العادل للناس ، فمثل الغلام ، وقبّل الارض بين يديه . فقال انوشروان لـــه : « قل ، كيـــف وجدت الامور ؟ » . فقال الغلام : « يا مولاي ان المحاصيل جيدة السنة في شتى ارجاء مملكتكم ، اذ لم تصب بأية آفة ، والمراعي مخضرة ، وامكنة الصيد عامرة » . قال انوشروان : « الحمد لله . يا له من خبر سار » . ولما انفض المجلس ، وخلا القصر من غير اهله ، امر انوشروان باستدعاء الغلام ، ثم سأله عن الاحـــوال هناك فنقل اليه الغلام كل ما سمع . فثبت لانوشروان ان كل ما قالته المراة كان صحيحا ، ولم ينم يومه وليلته تلك لكثرة تفكيره وشدة اسفه . وفي صبيحة اليوم التالي الباكر استدعى حاجبه الكبير ، وقال له : « عندما يبدأ العظماء بالحضور ، ويأتي فلان احجزه في الدهليز الى ان اخبرك بما ينبغي عمله » .

لما حضر العظماء والموبذون (١) الى البلاط ، خرج انوشروان وجلس اليهم ، ثم التفت نحوهم وقال : « اني سائلكم شيئا ، فاجيبوا بصدق عما تعرفون ولو حدسا وتخمينا » . قالوا : « سمعا وطاعة » . قال : « بكم تقدرون ثروة فلان امير اذربيجان ذهبا نقدا » . قالوا : « في حدود مائتي الف الف دينار مكدسة لا حاجة له بها » . قال : « ومن وسائل الجلوس والاثاث ؟ » . قالوا : « خمسمائة الف دينار من الذهب والفضة » قال : « ومن الجواهر ؟ » قالوا : « ستمائة الف دينار » . قال : « ومن السجاد ووسائل الزينة » ؟ قالوا : « ثلاثمائة الف دينار ». قال : « ومن الاملاك والمستغلات والضياع والعقار ؟ » قالوا : « ما من مدينة وناحية في خراسان والعراق وفارس (٢) واذربيجان الا وله فيها عشر او سبع او ثمان من القرى والاملاك والقصور ومحطات استراحة القوافل والحمامات والمطاحن قال : « ومن الخيل والبغال ؟ » . قالوا : « ثلاثون الفا » . قال : « ومن الاغنام ؟ » . قالوا : « حوالي مائتي الف » . قال : « ومن الجمال ؟ » . قالوا : « عشرون الفا » . قال : « ومن الرقيق ؟ » قالوا : « الف وسبعمائة غلام تركي ورومي وحبشي ، واربعمائة جارية حسناء » . قال : « فكيف يعتدي من عنده هذه النعم ، ومن ياكل عشرين ضربا من اللحوم والاطعمة والمقالي والشحوم والحلوى يوميا على آدمية مثله من عباد الله — عزوجل — المتقين ضعيفة لا حول لها ولا قوة ، وليس لها من حطام الدنيا سوى رغيفين جافين : احدهما لنهارها ، والآخر لليلها ، ثم ياتي هو فيسلبها رغيفيها ظلما ويحرمها اياهما . فما جزاؤه ؟ » . قالوا جميعا : « انه يستحق كل عقوبة ، وان كل ما يتخذ من عقوبات في حقه لقليل » .

قال انوشروان : « اريدكم الآن ان تسلخوا جلده عن جسمه ، وتطعموا الكلاب لحمه ، وتحشوا جلده تبنا ، وتعلقوه على مدخل القصر ، وان ينادى بالناس لمدة سبعة ايام بان من يظلم احدا بعد اليوم ، او ياخذ منه حتى مخلاة تبن ، او دجاجة ، او قبضة كراث ظلما ، او ان يؤم القصر متظلم ، فسيكون مصير المعتدي والظالم مصير هذا الرجل » . ونفذ ما امر به .

ثم قال انوشروان لذلك الفراش : « احضر المراة العجوز » . ولما جيء بها قال انوشروان لعلية القوم وكبار دولته : « هذه هي المظلومة ، وذلك هو الظالم الذي لقي جزاءه » . ثم قال للغلام الذي كان قد ارسل الى اذربيجان — وكان حاضرا في المجلس — : « يا غلام ، لم ارسلتك الى اذربيجان ؟ » . قال : « لاتقصى احوال هذه العجوز واتبين ما نزل بها من ظلم ، واعود الى مولاي بصحة الامر وحقيقته » . فقال انوشروان للحاضرين : « لتعلموا انني لم اجازه جزافا ، وانني لن اكلم الظالمين بعد اليوم بغير السيف ، وسأحمي الشاة والحمل من الذئاب ، واضرب على الايدي الباغية المتطاولة ، واخلص الارض من المفسدين واملؤها حقا

---

(١) الموبذ : لقب علماء الدين الزرادشتيين في عهد الساسانيين ، وكان رئيسهم يلقب بموبذ الموبذين .

(٢) فارس هي المحافظة الايرانية التي مركزها مدينة شيراز الاثرية في عصرنا هذا .

وعدلا وامنا ، فمن اجل هذا خلقت . لو اتيح للناس ان يفعلوا ما يشاؤون لما اظهر الله ، عزوجل ، الملوك من بينهم ووكل اليهم امرهم . اياكم ان تفعلوا ما تستحقون عليه ما لقيه هذا الظالم الذي لا يخشى الله » . فهاب كل مـــن كان في المجلس وتلاشت جراته بازاء هيبة انوشروان وعقابه الصارم .

وقال انوشروان للمراة : « لقد جازيت من ظلمك ، ووهبتك القصر والبستان اللذين في ارضك ، وامرت لك بمواش ونفقة بعهدتي سالمة الى مدينتـــك وارضك ثانية ، وتذكريني بدعاء الخير » . ثم قال : « لماذا يفتح باب قصرنا للظالمين ويوصد في وجه المظلومين ؟ فالجيش والرعية كلاهما عمالنا وتحت امرتنا ، بل الرعية هي التي تعطي ، والجيش هو الذي يأخذ . فمن الاولى ان تفتح الابواب في وجـــه المعطين اكثر من الآخذين . ان من امثلة ممارستهم الباطـــل ، وارتكابهم الظلم ، وعبثهم بالقوانين وعدم الاكتراث بها ، انه اذا ما جاء القصر متظلم حالوا بينه وبين الدخول اليّ للادلاء بأمره بنفسه . فلو وجدت هذه المراة طريقها اليّ لما كانت في حاجة الى الذهاب الى المصطاد . ثم امر باقامة سلسلة تعلق فيها اجراس تصل اليها حتى يد الطفل ابن سبع سنوات ، حتى لا تكون لأي متظلم يؤم القصر ثمـــة حاجة للحاجب . فبمجرد أن تهز السلسلة وتقرع الاجراس ، فيسمع انوشروان صوتها ، يستدعي الطارق المتظلم ليسمع منه وينصفه . ونفذ هذا الامر ايضا .

ولما خرج كبار رجال الدولة من عنده وعادوا الى منازلهم وقصورهـــم ، استدعوا وكلاءهم وفرسانهم ومن هم تحت امرتهم في الحال ، وقالوا لهم : « لتنظروا في كل من سلبتموه شيئا دون حق ، او عذبتموه ، او آذيتموه في صحو او سكر في السنوات العشر الاخيرة . علينا جميعا نحن وانتم ان نهتم بالامر ونرضي الخصوم كلهم قبل ان يذهبوا الى القصر يتظلمون منا » .

فهبوا جميعا ، واخذوا يستدعون الخصوم بأمثل وجه ، ويذهبون الى منازلهم ويسترضونهم بالاعذار والاموال ، ثم يأخذون على كل واحد منهم اقرارا بخط يده بأن فلانا رضي عن فلان وليس ثمة بينهما خصومة او نزاع .

بهذه السياسة التي سنها الملك انوشروان بالحق ، استقامت شؤون مملكته كلها ، وضرب على ايدي المتطاولين واللصوص ، وارتاح الناس اجمعين ، حتى ان سبع سنوات مرت دون أن يؤم احد القصر متظلما .

## انوشروان وسلسلة العدالة

في ظهيرة احد الايام بعد سبع سنوات ، وفي الوقت الذي ذهب فيه الجميع ونام الخفر ، ارتفع صوت الاجراس ، فسمعه انوشروان الذي ارسل خـــادمين فورا ، وقال لهما : « انظرا من ذا الذي جاء يتظلم » . فلما وصلا الـــى مدخل القصر اذا بحمار هرم ضعيف اجرب قد مرّ من هناك ، وحك ظهره بالسلسلة ، فارتفع صوت الاجراس . وعاد الخدمان ، وقالا : « لم يات احد متظلما ، غير ان حمارا ضعيفا هرما اجرب مرّ بمدخل القصر ، ولما لامس ظهره السلسلة راقه ذلك ،

فاخذ لجريه يحكه بها . فقال انوشروان : « ايها الاحمقان ، ما اجهلكما ! ليس الامر فيما تظنان ، ان تنعما النظر يتضح لكما ان هذا الحمار أيضا جاء يطلب عدلا . أريدكما ان تسوقاه الى وسط المدينة الآن ، وتسألا الناس عن أمره ، ثم تعودا اليّ بالحقيقــة » .

فانصرف الخادمان ، وذهبا بالحمار الى السوق في وسط المدينة ، وطفقــا يسألان الناس : « افيكم من يعرف هذا الحمير ؟ » . فكان جوابهم جميعا : « اي والله ، قلة هم الذين لا يعرفونه ». قال الخادمان : « ما تعرفون عنه ؟ قولوا » . فقالوا : « ان صاحبه فلان الغسال ، ومنذ حوالي عشرين سنة ، ونحن نراه ينقل عليه ملابس الناس الى مغسله يوميا ، ويعود بها مساء . كان يعلفه في صغره الى الوقت الذي كان يؤدى فيه عمله . لكنه بعد ان هرم وعجز عن العمل اطلقه على راسه وطرده من بيته فيما تريان . والآن تمر سنة على طرده وتجوله في « الحارات » و « الازقة » والاسواق ، والناس يقدمون له العلف والماء والعشب ابتغاء ثواب الله تعالى . ويقال انه هام على وجهه منذ يومين لانه لم يجد علفا وماء » .

ولما كانت اقوال الناس واحــدة ، عاد الخادمان بسرعــة ، واخبرا الملــك انوشروان ، فقال : « ألم اقل لكما ان هذا الحمار جاء يطلب علان ايضا ؟ اعتنيا به الليلة جيدا ، وعليّ بالغسال واربعة من رؤساء « محلته » والحمار غدا لأقضي بالعقاب المناســب » .

وفي اليوم التالي ، نفذ الخادمان الامر ، فاحضرا الحمار والغسال ورجــالا اربعة الى انوشروان ابان انعقاد المجلس . فقال انوشروان للغسال : « لما كان هذا الحمار صغيرا يؤدي لك اعمالك كنت تقدم له العلف وتعتني به ، ولما أضحى هرما لا طاقة له على العمل ، فبدلا من تنفيذ الواجب الذي يقضي عليك بتقديم العلف اليه ، فانك تطلقه الآن وتخرجه من مأواه ؟! أين هو حق أتعابه وعملــه عشرين سنة ؟ » . وأمر بضربه اربعين سوطا ، وقال : « اريدك ، ما دام الحمار حيا ، أن تقدم له ، على مرأى من هؤلاءالرجال الاربعة ، ما يستطيع اكله من التبن والشعير والماء كل يوم وليلة . وان بلغني عنك اي تقصير في هذا ، فسآمر بعقابك عقابا أشــد » .

* * *

ولتعلم ان الملوك كانوا يفكرون في حقوق الضعفاء دائما ، وكانوا يحتاطون في أمور المسؤولين والمستقطعين والعمال ويرتقبون اعمالهم ، ليكسبوا السمعة الحسنة في الدنيا ، ويفوزوا بثواب الآخــرة .

ينبغي استبدال العمال والمستقطعين كل سنتين او ثلاث قبــل ان يثبتوا اقدامهم ، ويحصنوا أنفسهم ، أو يصبحوا مبعث قلق ، وحتى يحسنوا معاملــة الناس ، وتظل الولايــة عامرة .

# الفصل السادس

## في القضاة والخطباء والمحتسبين ورونق أعمالهم وأهميتها

### « القضاة »

ينبغي التعرف على احوال قضاة المملكة واحدا واحدا ، والابقاء على العلماء والزهاد والامناء منهم ، وعزل كل من لا يتصف بهذه الصفات ، وتعيين اخر صالح مكانه . ويجب أن يكون للقاضي راتب شهري يكفيه أمور معاشه حتى لا تكون به حاجة الى الخيانة . ان هذا العمل هام ودقيق ، لأن دماء المسلمين وأموالهم بيد القضاة . فاذا ما حكم احدهم حكما عن جهل وطمع وعمد ، فعلى القضاة الآخرين عدم تنفيذ الحكم واجرائه ، ومن ثم اعلام الملك به ، لعزل ذلك الشخص ومعاقبته (١) . وعلى ولاة الامر والحاكم ان يشدوا من ازر القضاة ، ويحفظوا للعدالة هيبتها ورونقها ، فاذا ما امتنع شخص او تأخر عن الحضور فيجب احضاره عنوة وقسرا ان يكن من المزهوين بعظمتهم وحشمتهم . فلقد كان صحابة رسول الله (ص) يتولون القضاء بأنفسهم ، ولم يعهدوا به لاحد ، لكي لا يسود غير العدل والحق ، ولا يستطيع احد ان يفر من ساحة العدالة . ومنذ عهد آدم ( عليه

---

(١) أصل الجملة الفارسية : « ... جون به جهل وطمع وقصد حكمي كند ، برحاكمان ديكر لازم شود ان حكم را امضاء كردن ( كذا ) ، ومعلوم بادشاه كردانيدن وآن كس را معزول كردن ومالش دادن » .
ان وجود « امضاء كردن » بهذا الشكل بخلاف المعنى الذي ترجمناه ، وبخلاف المعنى الذي تؤديه العبارة في « نسخة اقبال » ( ص ٤٨ ) . وبعد استشارة الاستاذ الدكتور غلامحسين يوسفي رجح ان « امضاء كردن » تحريف عن « امضاء نكردن » . فبهذا يستقيم المعنى .

السلام ) الى اليوم ، والممالك كلها تقيم العدل وتحكم به ، وتحق الحق وتخلصه للظلومين ، فيه دام الملك والسلطان في اسراتهم سنوات كثيرة .

## عدل ملوك العجـم

يقال انه كان من عادة ملوك العجم ، ان يجلس الملك منهم لعامة الناس في يومي « المهرجان »(١) و « النيروز » (٢) لا يمنع من ذلك احد ، وكان يأمر مناديا بأن ينادي في الناس قبل أيام من حلول كل من اليومين المذكورين ليعدوا انفسـهم لذلك اليوم ، حتى يتمكن كل شخص من أن يهيء أمره ويكتب شكواه بنفسه ، يشرح فيها حاله ويعرض حاجته ، ويسلمها بيده هو ، وحتى يتدبر الخصوم أمرهم ايضا. وفي اليوم الموعود ينادي المنادي خارج القصر : « ان الملك بريء من دم كل من يمنع احدا عن عرض حاجته في هذا اليـوم » .

بعد ذلك يجمع الملك شكاوى الناس جميعها ويضعها امامه ، ثم ينظر فيها واحدة تلو اخرى . فاذا ما كان بينها واحدة ضد الملك نفسه ، فانه ينزل عـن سريره ، ثم يجثو على ركبتيه امام موبذ الموبذين ـــ أي قاضي القضاة بلغتهـم ـــ الذي كان يجلس من عن يمينه عادة ، ويقول له : « انصف هذا الرجل مني دون ميل أو محاباة قبل ان تنظر في اية قضية اخرى » .

وحينئذ يأمر المنادي ان ينادي : « على من لهم شكاية ضد الملك ان يقفوا صفا واحدا ، للفصل في قضاياهم أولا » . ثم يقول الملك للموبذ : « ليس ثمة ذنب اعظم من ذنوب الملوك عند الله تعالى . ان معرفة حق نعمة الله على الملـوك انما تكون في المحافظة على الرعية وانصافها ، وكف ايدي الظالمين عنها . واذا ما جار الملك وظلم فسيضحي الجيش كله ظالمين ينسون الله تعالى ، ويكفرون النعمة، فيصب الله عليهم غضبه وخذلانه ، ولن يمضي طويل وقت على اضطراب الملك وخرابه ، فيقتتل الكثيرون لفساد المجـرمين وعبثهم ويتحول الملـك من اسـرة لأخرى . والآن أيها الموبذ ، اتق الله ، واياك أن تؤثرني على نفسك ، لانني سأسالك عن كل شيء يسالني الله تعالى عنه يوم القيامة ، والقي بتبعته عليك » . ويشرع الموبذ ينظر في القضايا ، فاذا ما ثبت لاحد على الملك حق انصفه انصافا تاما ، واذا ما اتضح بطلان دعوى اخر ضده ولم تكن لديه حجة دامغة انزل به اقصى العقوبات، وأمر مناديا ينادي : هذا جزاء من يترصد العيوب على الملك والمملكة ، ويفتـري عليهما الكذب بهذه الجسارة والجراة » .

وبعد انتهاء الحكومة ، كان الملك يعود الى سريره ، ويلبس التاج ، ثم يلتفت

---

(١) معرب « مهركان » وهو اليوم السادس عشر من كل شهر ، واسم الشهر السابع مـن السنة الشمسية أي أول فصل الخريـف .

(٢) معرب « نوروز » ، وهو اليوم الاول من ايام الربيع ، ورأس السنة الايرانية . وهو يوافق اليوم الحادي والعشرون من اذار ( مارس ) من السنة الميلادية .

نحو رجاله وكبار دولته ، ويقول : « انما بدأت بنفسي أولا ، لتقطعوا عنكـم دابر الطمع في ظلم الآخرين . ان على كل من له خصم منكم ان يسترضيه الآن » . وفي ذلك اليوم ، كان أقرب الناس اليه ابعدهم منه ، وأقواهم اضعفهم .

ومنذ عهد (١) أردشير الى أيام يزدجرد الاثيم ، والملوك يسيرون على ذلك المنوال . الا أن يزدجرد ، استبدل سنن آبائه بأخرى سيئة ، وجعل الظلم شريعة في الارض . فسيم الناس الخسف ، ومنعوا النصف ، وراحت ادعية الشر تترى عليه من كل حدب وصـــوب .

وحدث ان دخل الى قصر يزدجرد فرس معرى فجأة اثر كل من كان حاضرا من عظماء الدولة بحسن شياته ، وعبثا حاولوا ايقافه الى ان انتهى الى يزدجرد نفسه ، ووقف امامه بجانب الايوان هادئا . فقال يزدجرد : « قفوا بعيدا ، فما هذه الا هدية بعث بها الله تعالى اليّ » . وتقـــدم منه رويدا رويــدا ، واستلم عنانه ، واخذ يربت على وجهه وظهره ، ثم امتطى صهوته ، فلم يبد حراكا ، وظل هادئا كما كان . وطلب يزدجرد لجاما (٢) وسرجا ، فألجمه واسرجه ، واحكـم حزمه . ولما همّ بوضع المذيلة (٣) رفسه على راس قلبه فجأة فقتله ، ومضـــى خارجا دون أن يعترض سبيله أحد . ولم يستطع احد ان يعرف من اين جاء والى اين ذهب . واجمع الناس على ان الفرس لم يكن « سوى ملك من ملائك اللـــه تعالى ارسله لتخليصنا من هذا الظالم » .

## همـــة عاليـــة

قيل ، ان عمارة بن حمزة كان في مجلس الدوانيقي (٤) يوم المظالم ، اذ نهض أحد المظلومين فشكاه مدعيا انه غصبه ضيعته . فقال الدوانيقي لعمارة : « قم واجلس قبالة الخصم ، وادل بحجتك ، قال عمارة : « لست بخصمه . ان تكن الضيعة من املاكي فقد وهبته اياها على أن أقوم من المكان الذي خصني به امير المؤمنين واجلسني فيه ، أو ان افرّط بجاهي ومكانتـــي في ضيعة » . فاعجـــب الحاضرون من كبار رجال الدولة بهمته العالية .

* * *

---

(١) حذف عباس اقبال هذه الحكاية المتعلقة بيزدجرد ، لانه يعدها عارية عن الصحة التاريخية

(٢) لجام : معرب « لسكام » الفارسيـــة .

(٣) المذيلة ، سير من جلد يوضع تحت ذيـل الفرس .

(٤) الدوانيقي نسبة الى « الدانق » وهو اربعة طساسيج . والدينار اربعة وعشرون طسوجـا ( الخوارزمي : مفاتيح العلوم ص ١٤١ ) . والدوانيقي لقب غلب على ابي جعفر المنصور لبخله ، ولا يكاد يعرف عنـد الفرس الا بـــه .

وليعلم ان الملك ينبغي أن يتولى القضاء بنفسه ، وأن يسمع حجج الخصوم بأذنيه هو . فان يكن تركيا أو فارسيا ، أو ممن لا يعرفون العربية ولم يقرأ احكام الشريعة ، فهو في حاجة الى نائب يتولى الامر عنه . والقضاة كلهم نواب للملك الذي يجب عليه أن يشد أزرهم ويسندهم ، ويحفظ لهم حرماتهم ومنازلهم كاملة ، فهم نوابه الذين ينفذون دستوره ، ووكلاؤه الذين يصرفون أعماله .

### « الخطبـاء »

كذلك ، ينبغي اختبار (١) الخطباء الذين يصلون بالناس في المساجد الجامعة ، للتأكد من تقواهم ، وحفظهم القرآن . فالصلاة من الامور الدقيقة ، وصلاة الناس مرهونة بالامام ، فاذا ما اختلت صلاته ، اختلت صلاتهم ايضا .

### « المحتسبـون »

وكذلك ينبغي تعيين محتسب في كل مدينـة ، تكون مهمته مراقبـة الاوزان والاسعار ومعرفة المبيعات والمشتريات ، للسير بموجبها والتقيد بها ، ومراقبـة البضائع التي يؤتى بها من الاطراف لتباع في الاسواق من أن يغشوها او يقسطوا فيها ، وليأمر بالمعروف وينهي عن المنكر .

ان من واجب الملك وولاته مؤازرة المحتسب والاخذ بيده ، فمهمته ركيزة من ركائز المملكة ، وهي نتيجة العدل في الوقت نفسه ، والا فسيضيق على الفقراء ، ويشتري التجار ومن يتعاطون البيع والشراء في الاسواق ويبيعون على هواهـم ويقسطون في الميزان ، فيعم الفساد وتعطل أحكام الشريعة .

وقد جرت العادة دائما في اسناد هذا العمـل الى أحد خاصـة الملك ، أو خدمه ، او الى تركي عجوز ممن لا يحابون ابدا وممن يهابهم الخاص والعام . هكذا كانت الامور تصرف بالعدل ، وقواعد الاسلام تطبق باحكام ، فيما جاءت به القصص والحكايـات .

### علي بن نوشتكين والمحتسب

يقال ان السلطان محمودا (٢) كان قد شرب الخمر مرة مع خاصته وندمانه طوال الليل ، وكذلك الصبوح . وكان علي بن نوشتكين (٣) ، ومحمد العربي (٤)

---

(١) ترجمة « اختبار كند » ( بالباء ) ، وهو ما اثبته اقبال ( ص ٥١ ) . لكن الدكتور شعار ( ص ٦٣ ) ، ودارك ( ص ٦٠ ) اثبتاها بالياء ، أي « اختيار كند » . وبعد ان عرضت الامر على الدكتور يوسفي رجح ما اثبته المرحوم اقبال أيضا .

(٢) أي السلطان محمود الغزنـوي .

(٣) في تاريخ البيهقي : أبو علي بن نوشتكين ( الترجمة العربية ص ٤٤٣ ) .

(٤) في تاريخ البيهقي السابق : محمد الاعرابي ( ص ٣٧٥ ـ ٧٤٤ ) .

ممن حضروا المجلس ، وممن ظلوا يسهرون ويشربون مع محمود الليلة بكاملها .
ومع اشراقة الصباح ، أصيب علي بدوار ، وبدا عليه أثر ارهاق السهر ، والافراط في الشراب ، فاستأذن السلطان بالذهاب الى منزله . فقال له محمود : « ليس صوابا ان تذهب في وضح النهار ، وانت سكران هكذا . ابق هنا ، واسترح في احدى الحجرات حتى العصر ، ثم اذهب آنذاك ، وانت صاح ، فانني اخشى ، اذا ما ذهبت الآن بهذه الحال ، أن يراك المحتسب في السوق ، فيأخذك ويقيم عليك الحد ، فيراق ماء وجهك ، وينتابني الغم دون أن استطيع التفوه بشيء » .

غير أن علي بن نوشتكين الذي كان قائدا لخمسين ألف فارس ، وصنديد زمانه وبطله ، والذي كان يعد بألف رجل ، لم يخطر له على بال ان المحتسب سيجرؤ حتى على مجرد التفكير في الامر . فلم ينثن عن عزمه ، بل امر علي أن « لا بد من الذهاب » . فقال محمود : « الراي رايك . دعوه يذهب » .

وركب علي بن نوشتكين في موكب عظيم من فرسانه وغلمانه وخدمه قاصدا منزله . وشاءت الصدفة ان يكون المحتسب مع مئة من رجاله بين خيال وراجل في وسط السوق . فلما راى عليا سكران ، أمر بانزاله عن فرسه ، ونزل هو ايضا . ثم امر بأن يجلس رجل على راسه ، واخر على رجليه ، وجلده بيده ، دون ادنى محاباة ، اربعين جلدة حتى التهم الارض باسنانه ، وحاشيته وعسكره ينظرون دون ان يجرؤ اي منهم على ان يتفوه بكلمة واحدة .

كان ذلك المحتسب تركيا عجوزا محترما ، وكانت له حقوق خدمات كثيرة . فلما مضى لشأنه ، نقل عليا رجاله الى بيته ، وهو يردد في طول الطريق : « كل من لا يطع امر السلطان ، سيلقى مالقيت » .

ولما مثل علي بين يدي السلطان في اليوم التالي ، وسأله : « وماذا عن المحتسب ؟ » كشف عن ظهره وارى محمودا آثار الجلدات عليه واحدة واحدة . فضحك محمود ، وقال : « لتتب ، والى الابد ، أن تخرج من البيت وانت سكران » .

وبما انه أحكم اساس الملك وقواعد السياسة ، فقد كان العدل يطبق على النحو الذي ذكر .

## خباز غزنين (١)

سمعت أن الخبازين في « غزنين » اغلقوا ابواب مخابزهم ، فعز الخبز ، واسقط في يد الفقراء والغرباء ، فذهبوا الى القصر يتظلمون ، واخذوا يشكون الخبازين بحسرة أمام السلطان ابراهيم (٢) . فأمر ابراهيم بجلب الخبازين جميعا ،

(١) هذا هو اسمها الصحيح عند العلماء ، فيما يقول ياقوت الحموي ، وهي عند العامة « غزنة » . كانت مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان ، وهدا بينها وبين الهند ظلت مقام بني السلطان محمود الغزنوي الى أن انقرضوا ( معجم البلدان ) .

(٢) هو ظهير الدولة ، السلطان ابراهيم بن مسعود الغزنوي ( ٤٥١ ـ ٤٩٢هـ ) . ( عباس اقبال : حاشية ٢ ص ٥٣ ) .

وقال لهم : « لماذا ضننتم بالخبز ؟ » قالوا : « لقد كان خبازك يشتري كل ما كان يرد الى هذه المدينة من قمح ودقيق ، ويضعه في المخازن ، ويقول : « هذه هي الاوامــر » . « ولم يدعنا نشتري ولو منّا واحدا » . فأمر السلطان باحضـــار خبازه الخاص ، والقائه تحت اقدام الفيل . ولما مات أمر بتعليقه في خرطوم الفيل، والدوران به في المدينة ، وعلى ظهره مناد ، يقول : « هذا ما سنفعله في كل خباز لا يفتح مخبزه » . ثم وزع ما كان في مخزنه . ولما حان وقت صلاة العشاء ، كان يرى على باب كل مخبز خمسون منّ خبز لم يشترها احد .

## الفصل السابع

## في تحري أحوال العامل والقاضي والشحنة والرئيس ، وشروط معاقبتهم

ليبحث في كل مدينة عمن له شفقة على أمور الدين ، ويخاف الله تعالى ، وليس بصاحب غرض ، ثم يقال له : « اننا نضع هذه المدينة والناحية امانة في عنقك نسألك عما يسألك الله تعالى عنه . عليك ان تحيط بكل شيء من أمر العامل والقاضي ، والشحنة ، والمحتسب والناس ، وكل صغيرة وكبيرة تتحراها جميعا، ثم تحيطنا علما بالحقيقة سرا او علانية لكي نأمر باتخاذ التدابير اللازمة » . واذا ما امتنع من تتوفر فيه تلك الصفات عن قبول هذه الامانة يجب الزامه بقبولها ، واجباره علـــى تحملها .

### نهج عبد الله بن طاهر

يقال ان عبد اللهبن طاهر كان أميرا عادلا . قبره بنيسابور ، رأيناه وزرناه والناس يذهبون لزيارته باستمرار ويسألونه قضاء حاجاتهم ، فيستجيب الله تعالى دعاءهـــم .

كان عبد الله يسند الاعمال الديوانية دائما الى المتقين والزهاد ، والـــى من هم في غنى عن مال الدنيا ، والذين لا يشغلون انفسهم بأعراضها الزائلة ، كيما تحصل الاموال المستحقة على الناس فقط بالحق وحتى لا يثقـــل كاهلهم ويساموا الشقاء ، وكيلا يشقى هو نفسه أيضـــا .

### نصيحة ابي علي الدقاق لابي علي الياس

دخل ابو علي الدقاق (١) يوما على الامير ابي علي الياس (٢) الذي كـــان

---

(١) هو الشيخ ابو علي الحسن بن محمد الدقاق ، كان من مشاهير العرفاء ، توفي بنيســابور عام ٤٠٥هـ ( اقبال : حاشية ( ص ٥٥ ) .

واليا على خراسان وقائد جيشها وكان الرجل — على ما كان له من جلال وعظمة — فاضلا جدا . ولما جلس ابو علي الدقاق على ركبتيه أمامه ، قال أبو علي الياس : « عظني » . فقال الدقاق : « أيها الامير اجبني بصدق ان « سألتك امرا » ؟ . قال : « بلى » . فقال الدقاق : « أيهما تحب اكثر الذهب أم الخصم ؟ » قال « الذهب » . فقال الدقاق : « كيف اذن تخلف كل هذا الذي تحب اكثر هنا ، وتصحب الخصم الذي لا تحب الى الدار الآخرة ؟! » . فترقرقت الدموع في عيني ابي علي الياس ، وقال : « ما اجمل ما نصحتني به ! فلقد أيقظتني من سباتي ، ان لفي كلامك لي خير الدنيا والآخرة » .

## نصيحة شمس الكفاة للسلطان محمود

يحكى ان السلطان محمودا الغازي لم يكن وسيم الصورة ، بل كان طويل الوجه ، جافه ، اصفر السحنة ، املس ، طويل العنق ، كبير الانف . لما مات والده سبكتكين ، تولى الملك بعده ، وخلص الهند . وفي صباح ذات يوم ، بينما كان يؤدي الصلاة في حجرة خاصة ، وامامه مرآة ومشط ، ويقف حوله اثنان من خواص غلمانه ، دخل وزيره شمس الكفاة أحمد بن الحسن (1) وسلم . فأومأ محمود اليه براسه ان « اجلس » . فجلس قبالة السلطان .

ولما فرغ محمود من قراءة الادعية ، ارتدى قباءه ، ولبس عمامته ، وانتعل حذاءه ، ونظر في المرآة . فلما راى وجهه ابتسم ، وقال للوزير : « أتدري ما يدور ببالي هذه الايام ؟ » . قال : « مولاي أدرى » . فقال محمود : « اخشى الا يحبني الناس لدمامتي ، فقد اعتادوا ان يحبوا السلطان الوسيم » . قال الوزير : « مولاي السلطان ، افعل ما سيحبك الناس من اجله اكثر من نسائهم وابنائهم وانفسهم التي سيلقون بها في الماء والنار تلبية لك » . فقال السلطان : « ماذا افعل ؟ » . قال الوزير : « تخذ الذهب عدوا يحبك الناس » . فسر محمود ، وقال : « في طيات هذا القول الف معنى وفائدة » .

وشرع محمود في بذل العطايا ، وفتح باب الخيرات ، فأحبه الناس وأخذوا في مدحه والثناء عليه . وعلى يديه ، تمت الاعمال الجليلة ، والفتوحات العظيمة .

---

(٢) يرى عباس اقبال ( حاشية ٢ ص ٥٥ ايضا ) ان المؤلف اشتبه عليه الامر بين ابي علي محمد ابن الياس والامير عماد الدولة ابي علي بن ابي الحسن سيمجوري . فالاول كان اميرا على كرمان وتوفي عام ٣٥٦هـ ولم يتول امارة خراسان او قيادة جيشها قط ، في حين ان الثاني هو الذي ولي امارة خراسان وقيادة الجيش فيها من قبل نوح بن منصور الساماني عام ٣٧٨هـ . ( راجع ايضا : ابو الفداء ، البداية والنهاية (١ : ٣٦٥ ) .

(١) هو شمس الكفاة أبو القاسم احمد بن حسن الميمندي وزير السلطان محمود وابنه مسعود . توفي عام ٤٢٤هـ ( اقبال : حاشية ٢ ص ٥٦ ) .

فلقد دخل « سومنات » (١) وكسر « مناة » (٢) وحمله معه ، ثم توجه الى سمرقند والعراق . ذات يوم قال لوزيره الميمندي : « لما نفضت يدي من الذهب كسبت الدنيا والآخرة ، ولما احتقرت الدينار نلت عز الدارين » .

ان لقب « السلطان » لم يكن له ثمة وجود قبل عهد محمود ، فهو اول من تلقب به في الاسلام ، وصار سنة بعده . لقد كان محمود عادلا يخاف الله ، وكان محبا للعلم ، شهما ، يقظا ، قوى الراي ، نقي الديانة ، وغازيا .

ان احسن العصور ذلك الذي يوجد فيه ملك عادل . جاء في الخبر ان النبي (ص) قال : « العدل عز الدين وقوة السلطان ، وفيه صلاح الخاصة والعامة » . وقال الله تعالى : « والسماء رفعها ووضع الميزان » (٣) ، وقال : « الله الذي انزل الكتاب بالحق والميزان » (٤) . ان الملك الحق هو الذي يكون قلبه موئل العدل ، وقصره مأوى المتدينين والعقلاء ، والذي يكون ندماؤه وعماله منصفين ومسلمين حقا .

قال فضيل بن عياض (٥) : « ان يستجب دعائي ، فلا ادعو الا للسلطان العادل . ففي صلاحه صلاح العباد ، وعمران البلاد » . وعن الرسول (ص) انه قال : « المقسطون لله عزوجل في الدنيا على منابر اللؤلؤ يوم القيامة » .

وكان الملوك دائما ، يولون امور المملكة للمتقين ، ولمن يخافون الله ممن ليست لهم مآرب خاصة ، طلبا للعدل وحرصا على مصالح العباد ، ولكي ينقلوا اليه حقيقة الاحوال في كل وقت . وهذا ما فعله امير المؤمنين المعتصم ببغداد .

## قصة امير الترك وعقوبة المعتصم

لم يكن لأحد من خلفاء بني العباس ما كان للمعتصم من سياسة وهيبة وآلة وعدد ، ولم يملك احد ما ملك من الغلمان الترك الذين يقال ان عددهم كان سبعين الفا . ولقد رقى كثيرين منهم ، فاوصلهم الى الامارة . وكان يردد دائما ان ليس ثمة من هم في مستوى الاتراك من حيث الخدمة .

يقال ان احد الامراء استدعى اليه وكيله ، وقال له : « أتعرف أحدا من سكان بغداد وتجارها يقرضني خمسمائة دينار انا في حاجة اليها ، على أن أردها اليه في الموسم » ؟. وتأمل الوكيل قليلا ، فتذكر أحد معارفه ممن يتعاطون البيع

---

(١) سومنات : كان من اكبر بيوت الاوثان بالهند . خربه السلطان محمود وكسر اصنامه ( فرهنك فارسي ) .

(٢) مناة هنا اسم لاحد الاصنام التي كانت في سومنات ، وهو غير مناة الذي كان معروفا في الجاهلية وذكره القرآن الكريم ( شعار ص ٤٣٣ ) .

(٣) الرحمن . آية ٦ .

(٤) الشورى . آية ١٦.

(٥) هو ابو علي فضيل بن عياض التميمي ( ١٠٥ - ١٨٧هـ ) . كان من أئمة الصالحين والمتدينين ورواة الحديث . وكان الشافعي من تلاميذه ( اقبال : حاشية ٣ ص ٧ ) .

والشراء بربح قليل ، والذي كان لديه ستمائة دينار من الذهب الخليفتي (١) كان قد جمعها بمرور الزمن ، وقال للامير : « انني اعرف رجلا له دكان في سوق كذا . اتردد عليه بين الحين والحين واتعامل معه . انه يملك ستمائة دينار خليفتي . ان ترسل في طلبه شخصا يستدعيه ، وتحسن استقباله وتلاطفه ، وتدعوه الى الطعام في اوانه ، ثم تطرح حديث المعاملة ، فلربما يخجل منك ، ولا يرد طلبتك احتراما لك.

ففعل الامير ، وارسل الى الرجل شخصا يقول له : « الا تكلف نفسك عناء الحضور الي ، فانني اريدك في أمر ضروري » . وذهب الرجل الى قصر الامير دون أن تكون له به معرفة سابقة ، فدخل عليه وسلم . فرد عليه الامير السلام ، والتفت نحو رجاله ، وقال : أهذا هو فلان ؟ قالوا : « بلى » فقام الامير في وجهه ، وأمر باجلاسه في مكان لائق ، ثم قال : « أيها الخواجة (٢) ، لقد سمعت من الناس كثيرا عن شهامتك ، وحسن سيرتك ، وامانتك ، وتدينك ، فاعجبت بك دون ان اراك . ويقولون انه ليس ثمة احد في سوق بغداد كله مثل هذا الخواجة مروءة وحسن معاملة » . ثم قال له ايضا : « فلم لا تعاشرنا اذن ، وتكلفنا بقضاء ما تحتاج اليه من امر ، وتعد بيتنا بيتالك ، وتصادقنا وتؤاخينا ؟ » . وكان الرجل يوحي بقبول كل ما كان يقول الامير ، والوكيل يردد: « كذا ومائة كذا » .

ومضت فترة ، فاحضر خوان (٣) الطعام ، واجلس الامير الرجل بالقرب منه ، وجعل يتناول اشياء من الطعام ويضعها امامه باستمرار ، ويلاطفه ويكرمه كثيرا . ولما رفع الطعام وغسل الحاضرون ايديهم وانصرفوا ، ولم يبق سوى الخاصة . التفت الامير نحو الرجل ، وقال : « اعلم ان لي في هـذه المدينة اصدقاء كثيرين يستجيبون لي بمجرد الاشارة . ولو اطلب اليهم خمسة او عشرة آلاف دينار لقدموها الي حالا عن طيب خاطر ، لانهم كانوا يفيدون كثيرا من التعامل معي ، وانه لم يلحق بأحدهم ادنى ضرر نتيجة لذلك . انني لآمل في ان تتوثق عرى الصداقة والود بيننا. على الرغم من كثرة الذين هم على استعداد لقرضي ، فانني في حاجة الى عشرة آلاف دينار ، أرجو ان تمدني بها ، على أن اعيدها اليك ابان الموسم بعد اربعة او خمسة شهور ، ومعها خلعة . انني لعلى ثقة من انك تملك المبلغ ، بل اضعافه ، وانك لن ترد طلبي » . فقال الرجل ، من فرط خجله وحسن استقبال الامير له : « الحق ما يقول الامير . غير انني من اصحاب الدكاكين التي تقدر بألف او ألفين . وينبغي الا يقال للعظماء سوى الحقيقة . ان كل ما اقدر عليه ستمائة الف دينار جمعتها بمشقة على مر الزمن ، وهي ما ابيع واشتري به في السوق الآن » . فقال

---

(١) يقول عباس اقبال : يظهر ان الذهب الخليفتي نوع من المسكوكات الذهبية المنسوبة الى دار الخلافة ببغداد . كانت بينه وبين انواع الذهب الاخرى اختلافات من حيث العيار ( حاشية ٣ ص ٥٨ ) .

(٢) خواجة : لقب من أسمى الالقاب في ذلك الوقت . اطلقه السلطان محمود الغزنوي على أبي المظفر البرغشي الذي كان وزيرا للسامانيين والذي عرض عليه محمود نفسه الوزارة عدة مرات فأبى ( تاريخ البيهقي ـ الترجمة العربية ـ ص ٨٠١ ) .

(٣) الكلمة فارسية الاصل .

الامير : « في خزانتي كثير من الذهب الدرستي (١) . لكنه لا يناسب الامر الـــذي اريد : ما الفائدة التي تجنيها من بيعك وشرائك القليل هذا ؟ اعطني الستمائة دينار، وخذ علي سندا بسبعمائة دينار بشهادة شهود عدول علـــى أن اردها اليك في الموسم القادم ، ومعها خلعة جميلة » . وقال الوكيل : « انك لا تعرف اميرنا الى الآن . فليس في اركان الدولة من هو اصدق معاملة منه » . فقال الرجل : « الحق ما يقول الامير . ان هذا القدر الذي املك من الذهب لا يدعو الى الرفض والتردد ». ثم اعطاه المبلغ واخذ عليه سندا .

وازف الموعد . وبعد عشرة ايام منه ذهب الرجل للسلام على الامير ، ولم ينبس ببنت شفة ، لانه قال في نفسه : « سيعلـــم الامير حين يرانـــي انني جئت اطلب ذهبـــي » .

واستمر على هذا المنوال ، فانقضى على المدة شهران رأى الرجل الامير فيها اكثر من عشر مرات ، لكنه كان يتجاهل ان الرجل انما كان يجيء في طلب مالـــه ، او ان عليه هو أن يدفع اليه شيئا .

لما راى الرجل تجاهل الامير . كتب رسالة سلمها بيده الى الامير نفســـه ، تقول : « انني في حاجة الى ذهبي الحقير . لقد مضى على الاجل شهران . الا يتفضل الامير بالايعاز الى الوكيل برده الى هذا الخادم » . فقال الامير : « انك تظن انني في غفلة من امرك . لتهدأ بالا ، وتصبر بضعة ايام ، فانني في صـــدد تهيئة مالك الذي سارسله اليك في مغلف مختوم بيد احد اشخاصي المعتمدين » .

وصبر الرجل شهرين اخرين دون أن يرى للذهب اثرا . وعاود الكرة ، فذهب الى قصر الامير ، وكتب اليه رسالة اخرى ، وكلمه تكليما ايضا . فواعده الامير مرات كذبا . وظل الرجل يذهب مرة كل يومين او ثلاثة مطالبا ، ولكن دون جدوى الى أن مضى على الاجل ثمانية اشهر .

واعوز الرجل . فشفّع اهل المدينة ، ومضى الى القاضي وناشده باسم الشرع . ولم يبق احد من العظماء الا وكلم الامير في امره وتشفع له عنده ، لكن دون جدوى ايضا . وانقضت سنة ونصف ، وهو لا يطيع أوامر القضاء والشرع، ولا يستمع لما كان يقول وجهاء المدينة واكابرها .

وعجز الرجل ، ورضي بالتنازل عن الفائدة وعن مائة دينار من اصـــل المبلغ ايضا . ولكن لا حياة لمن تنادي . وفقد الامل في وساطة كل العظماء ، واعياه التردد هنا وهناك ، واسلم امره لله عزوجل . ومضى الى مسجد « فضلومند » (٢) وصلى عدة ركعات ، وشكا امره الى الله تعالى في بكاء ونشيج ، وهو يقول ، « يا رب . انت المغيث ، فاوصلني الى حقي ، وانصفني من هذا الظالم » . واتفق ان كان

---

(١) هذا النوع من الذهب لم يكن رائجا ، فقد كان من السكة العادية التي كثيرا ما كان يضربها السلاطين والامراء للانعام والهبات والعطايا . ( اقبال : حاشية ٣ ص ٥٩ ) .

(٢) لم يستطع اي من المحققين الثلاثة الذين اعتمدتهم في هذه الترجمة ان يحصل على معلومات عـــن هـــذا المسجد .

في المسجد درويش يسمع بكاء الرجل وتضرعه . فرق له قلبه . ولما انتهى من تضرعه . قال الدرويش له : « يا شيخ ، ما الذي دهاك حتى تتأوه بهذا الشكل ؟ اخبرني » . فقال : « لقد وصلت بي الحال حدا لا يفيد معه القول الى اي مخلوق الا أن يستجيب الله تعالى لي » . فقال الدرويش : « قل لي ، فلا بد ثمة من أسباب » . فقال الرجل : « يا ايها الدرويش ، ان الخليفة هو الوحيد الذي لم اخبره بالامر . لقد اخبرت كل أمراء المدينة وعظمائها وولجت باب القاضي ، لكن دون جدوى . فما الفائدة من أن اقول لك ؟ » . قال : « انني ممن يقال لهم ان لم يفدك قولك لي ، فانه لن يضرك ، الم تسمع قول الحكماء : على كل ذي الم ان يبوح للآخرين بألمه . فلربما وجد العلاج عند أقلهم شأنا . ان تقص علي أمرك فقد تجد له مخرجا ، والا فلن تصير حالك الى اسوأ مما هي عليه » . فقال الرجل في نفسه : « صحيح ما يقول » ، وقص عليه قصته .

لما سمع الدرويش قصة حال الرجل قال: « ايها الرجل الشهم . لقد وجدت مخرجا لما انت فيه من بلاء بمجرد أن قلت لي ، ليطمئن قلبك . ان تنفذ ما اقوله ، تسترد ذهبك اليوم » . قال الرجل : « ما افعل » ؟ قال الدرويش : « امض الآن الى المسجد ذي المئذنة في المكان الفلاني . ان بجانب المسجد بوابة يقع بعدها دكان حيث يجلس هناك رجل عجوز في ملابس رثة مرقعة يخيط الكرابيس (١) ، وعنده صبيان اجيران يعاونانه في ذلك . اذهب الى الدكان ، وسلم على الرجل ، واجلس عنده ، ثم قص عليه قصتك . وعندما تظفر بحقك ، ادع لي بالخير . واياك ان تتوانى في تنفيذ ما قلت لك » .

وخرج الرجل من المسجد ، وهو يفكر في نفسه : « يا للعجب ! لقد شفعت كل العظماء والامراء ، فتولوا قضيتي ، وتكلموا في امري ، وانحازوا الى جانبي دون جدوى ، والآن يرشدني هذا الدرويش الى رجل عجوز ، ويقول : « ستصل به الى حقك . انه كذب وباطل ، ولكن ما العمل ؟! لأذهب ، وليكن ما يكون ، ان لم تكن ثمة فائدة ، فلن تصير الامور الى أسوأ مما هي عليه » .

ومضى الى باب المسجد ، فالدكان ، ودخل ، فسلم على الشيخ وجلس عنده . ومضت مدة ، والشيخ منهمك في خياطته التي تركها جانبا بعد ذلك ، وقال للرجل : « ما بك ؟ » فقص عليه قصته من أولها الى اخرها ، ثم اخبره بدخوله المسجد وتضرعه هناك ، وسؤال الدرويش له ، وارشاده اليه .

لما سمع الخياط العجوز القصة ، قال : « ان الله عزوجل هو الذي يدبر امور العباد ، اما نحن فلا نملك سوى الكلام . ساكلم خصمك في امرك ، واسأل الله تعالى أن يدبر لك أمرك ويوصلك الى حقك . اسند ظهرك الى الحائط واسترح قليلا » . ثم قال لاحد الصبيين : « ضع الابرة جانبا ، واذهب الى سراي الامير فلان ، واجلس في الحجرة الخاصة ، ثم قل لمن يدخل اليها او يخرج منها أن يخبر

---

(١) الكرابيس : جمع كرباس ، فارسي معرب ، وهو الثوب يصنع من القطن ، وبائعه كرابيسي، وقد جاء على سبيل المثال في كلام لعمر بن الخطاب وعبد الرحمان بن عوف ، رضي الله عنهما . ( اللسان ، كربس ) .

الامير بأن : « اجير الخياط فلان هنا ، وهو يحمل اليك خبرا » فحين يطلبك ، وتراه سلم عليه ، وقل له : « ان سيدي يسلم عليك ، ويقول : جاءني رجل يتظلم منك ، ومعه سند بمبلغ سبعمائة دينار باقرارك انت وقد مضى على اجله عام ونصف . اريدك ان تعيد اليه الآن ماله كاملا ، دونما توان او تقصير . ثم عد لي بجوابه حالا » .

ونهض الصبي ، ومضى مسرعا الى قصر الامير ، اما انا فقد (١) تملكني العجب. لانه ما من ملك يرسل حتى الى اقل عبيدة ما حمّل الخياط الصبي من كلام الى الامير . وان هي الا مدة اذ عاد الصبي، فقال لسيده : « لقد نفذت ما امرتني به . قابلت الامير ، ونقلت اليه ما كلفتني به . فنهض من مكانه ، وقال : ابلغ سيدك سلامي وشكري ، وقل له : اني منفذ ما امرت به . الساعة اجيء ومعي الذهب الذي سأعطيه صاحبه بحضورك ، واعتذر عن التأخر والتقصير » .

ولم تكد تمر ساعة ، فاذا الامير ، ومعه القائم على الركائب (٢) وخادمان . فنزل عن فرسه ، ودخل الدكان وسلم ، ثم قبل يد الخياط وجلس امامه . ثم تناول صرة ذهب من الخادم ، وقال : « هذا هو الذهب ، حتى لا تظن انني كنت ارغب في اكل اموال هذا الرجل الشهم بالباطل . لم اكن السبب فيما بدا من تقصير ، بل الوكلاء » . ثم اعتذر كثيرا ، وقال لاحد الخادمين : « اذهب ، وايت من هذه السوق بصرّاف معه ميزان » . فذهب الخادم ، واحضر صرافا . ونقد الصراف الذهب ووزنه ، فكان خمسمائة دينار خليفتي . قال الامير : « ليأخذ هذه الخمسمائة دينار مني اليوم ، وسأدعوه بعد عودتي من البلاط غدا ، واعطيه المائتين الاخريين راجيا عفوه ، وطالبا رضاه . سأعمل ما يصل به اليك الثناء عليّ غدا قبل صلاة الظهر » . فقال الخياط : « ضع الخمسمائة دينار الى جانب صاحبها . ونفذ ما قلت ، ولا تتراجع عنه » . فقال : « هذا ما سأفعله » . ثم وضع الذهب بجانبي ، وقبّل يد الخياط ، ومضى لشأنه . اما انا فلم اكن ادري ما الحال التي كنت فيها لعجبي وفرحتي . وما كان مني الا ان مددت يدي وتناولت الميزان ، فوزنت مائة دينار ووضعتها امام الخياط العجوز ، فقال : « ما هذا ؟ » قلت : « لقد رضيت ان استرد مالي ناقصا مائة دينار . لكنني سأسترد المبلغ كاملا ، نتيجة تدخلك وسعيك الحميد . ان هذه المائة دينار ليست سوى تقدير لجهدك ، وقد بذلتها لك عن طيب خاطر مني » . فالتفت الرجل حانقا عابسا ، وقال : « انني لفي غبطة الآن ، لانني استطعت بكلامي ان اخلص مسلما مما هو فيه من حزن وضيق وبلاء . انني لو استحل لنفسي درهما واحدا من مالك ، اكون اظلم لك من هذا التركي . انهض وامض بما اخذت من ذهب بسلامة الله . اما اذا لم يعطك الامير المائتي دينار الاخرى ، فأخبرني . ولتعرف بعد الآن من هم الاشخاص

---

(١) عد دارك التحول من الغائب الى المتكلم شيئا غير متوقع هنا . ( التعليقات ص ٣٣٥ ) .

(٢) ترجمة لكلمة « ركابدار » . وقد استعمل مترجما « تاريخ البيهقي » اللفظة كما هي فيما نصا عليه في كشاف المصطلحات التاريخية بذيل الكتاب .

الذين تتعامل معهم » . وبعد ان بذلت أقصى جهدي لاقناعه بالقبول ، وهــو يرفض ، قمت من عنده وانصرفت الى منزلي فرحا مسرورا ، ونمت ليلتي تلــك قــرير العين .

وفي ضحى اليوم التالي اذ كنت جالسا في بيتي ، جاء رسول الامير في طلبي ، وقال : « يقول الامير : ارجو ان تكلف نفسك عناء الحضور الى قصري » . فمضيت، ولما دخلت عليه ، قام في وجهي واجلسني في مكان اثير ، واخذ يشتم وكلاءه ويلعنهم وينحي باللائمة عليهم قائلا : « انهم هم الذين قصروا ، اما انا فكنت مشغــولا بخدمة الملك وقضاء اعماله » . ثم قال للموكل بالخزانة (١) : « الي بكيس (٢) ذهب وميزان » . ووزن مائتــي دينار وناولينها ، فشكرت له ونهضت لانصرف ، لكنه قال : « اجلس قليلا » . واحضر الطعام . وبعد ان اكلنا وغسلنا ايدينا ، همس في اذن احد الخدم شيئا ، فذهب الخادم ، واحضر خلعة في الحال ، وقال الامير : « البسه » فالبست جبة ثمينة ، وعمامة مقصبة ، ثم قال الامير لي : « هل رضيت عني بقلب سليم ؟ » قلت : « اجل » . قال : « أعد اليّ سندي ، واذهب الآن الى الخياط العجوز ، وقل له : « لقد استرددت حقي كاملا ، وانني عن فلان لراض » . قلت : « سأفعل ، لانه هو نفسه طلب اليّ ان اخبره غدا » . ومضيت من قصر الامير الى الخياط ، وقلت له : « لقد استدعاني الامير واكرمني ، ودفع اليّ بقية ذهبي ، ووصلني بهذه الجبة وهذه العمامة . وليس هذا في رأيي الا من بركة كلامك . فماذا يحدث لو قبلت مني مائتي دينار ؟ » . لكنت ، على الرغم من كثرة ما حاولت ، لم يقبل . ثم نهضت وعدت الى دكاني فرحا مسرورا .

وفي اليوم التالي اعددت حملا وعددا من الدجاج المقلي وذهبت بها الــى الخياط ، ومعي طبق حلوى وكعك ايضا . وقلت : « يا شيخ ، انك لا تقبل ذهبا ، فارجو ، لكي يدخل السرور على قلبي ، أن تقبل مني هذا القدر مــن الماكولات تبركا ، فهو من كسبي الحلال » . فقال : « قبلت » . ومدّ يده وشرع يأكل من طعامي ، ويناول اجيريه . ثم قلت له : « ان لي عندك حاجة ، ان تقضها أقل » . قال : « قل » . قلت : « لقد كلّم كل اشراف بغداد وامرائها الامير في أمري ، فلم يستمع لاحد ، ولقد عجز القاضي عنه ايضا . فلم استجاب لكلامك ، ونفذ كل ما قلت حالا ، ورد الي ذهبي ؟ ما سبب حرمتك هذه عنده ؟ قل لي ، لأعرفه » . قال : « او ما تدري خبري مع امير المؤمنين ؟ » قلت : لا » . قال : « أصغ اليّ ، وهاك ما أقــول » .

قال : « اعلم انني أؤذن على مئذنة هذا المسجد منذ ثلاثين سنة ، واكسب رزقي من الخياطة . لم اشرب الخمرة ، ولم ارتكب الزنــا او اللواط ، او اقترف الاعمال القبيحة قط . ومنذ ذلك الوقت وانا اسكن هنا في حي احد الامراء . وذات يوم ، صليت العصر ، وخرجت من المسجد متجها الى الدكان ، فاذا ذلك الامير ،

---

(١) ترجمة لاصطلاح : خزينــة دار .

(٢) الكلمة معربة عن الفارسيــة .

سكران ، ممسك بعباءة امراة شابة يدفعها عنوة ، وهي تصرخ وتقول : « أيها المسلمون ، اغيثوني فلست من هذا الصنف من النساء ! انني ابنة فلان وزوج فلان ، وبيتنا في المكان الفلاني ، والناس كلهم يعرفونني بالستر والصلاح . ان هذا التركي يجرني عنوة لقضاء مآربه الدنيئة . لقد اقسم زوجي عليّ بالطلاق أنه سيطلقني ان تغيبت عن المنزل ليلة » . لقد كانت تبكي وتستغيث دون أن يهب لنجدتها احد . لان هذا التركي كان عظيما ومهيمنا ، وكان له عشرة آلاف فارس ، ولم يكن احد يجرؤ على ان يكلمه حرفا . غير أنني صرخت لمدة قصيرة لكن دون جدوى ، اذ مضى بالمراة الى قصره . وثارت في نفسي ، لذلك التعدي والظلم ، الحمية الدينية وعيل صبري . فذهبت وجمعت شيوخ الحي ، ثم مضينا جميعا الى قصره ، فاعترضنا ، وصرخنا بأعلى اصواتنا : « الم يبق ببغداد مسلم حتى تساق فيها امراة من الشارع كرها على سمع الخليفة وبصره لارتكاب الفاحشة معها ؟! ان تطلق المراة فيها ونعمت ، والا فها نحن أولاء ماضون الى بلاط المعتصم نشكوك اليه » . ولما سمع الامير صراخنا ، خرج الينا مع غلمانه ، فأوجعونا ضربا ، وكسروا ايدينا وارجلنا .

ولما راينا الامر على هذه الحال ، لذنا بالفرار وتفرقنا . وكان الوقت عشاء ، فاديت الصلاة . وبعد مدة ، ارتديت ثياب نومي واضطجعت على الارض ، لكنه لم تغمض لي عين لشدة ما كنت فيه من اعياء وغيرة . واستغرقت في تفكير عميق الى ان مضى من الليل نصفه ، وقلت في نفسي : ان كان يريد فسادا فقد حقق بغيته ، الامر الذي لا يمكن تلافيه ، وهذا اسوأ من قسم زوج المراة عليها بالطلاق ان هي تغيبت عن البيت ليلا . لكنني سمعت ان المدمنين ينامون حين يأخذ منهم السكر مأخذه ، وانهم حين يفيقون لا يدركون كم مضى من الليل . حينئذ صممت على أن اصعد الى المئذنة واؤذن للصلاة ، فلربما يظن التركي حين سماع الآذان ان النهار قد وضح ، فيطلق المراة ويخرجها من قصره . ولا بد لها بعد ذلك من ان تمر بالقرب من باب المسجد. اما انا ، فسأنزل بعد الآذان حالا واقف بالباب في انتظارها ، لأوصلها الى بيت زوجها حتى لا تدفع المسكينة طلاقها وخراب بيتها ثمنا لما حدث .

ونفذت ما فكرت به : فصعدت المئذنة واذنت للصلاة ، وأمير المؤمنين المعتصم لما ينم . فلما سمع الآذان في غير وقته غضب غضبا شديدا ، وقال : « ان كل من يؤذن في نصف الليل لمفسد ، لأن كل من يسمع الآذان ، يظن أن الفجر قد طلع ، فاذا ما خرج من بيته يبتليه العسس (١) » . وامر احد خدمه ان « اذهب ، وقل لحاجب الباب : انني — أي المعتصم — اريدك ان تذهب الآن وتحضر المؤذن الذي رفع الآذان في نصف الليل ، لاعاقبه عقابا بليغا ، حتى لا يرفع أي مؤذن الآذان في غير موعده بعد ذلك » .

---

(١) العسس : ( بفتح العين والسين ) من عس يعس ، أي طاف بالليل يحرس الناس ويكشف اهل الريبة . والعسس اسم منه ، وقد يكون جمعا لعاس كحارس وحرس . ( اللسان عسس ) وقد اثبت هذه الكلمة المهجورة لورودها في النص الفارسي .

وعلى حين كنت واقفا بباب المسجد انتظر المراة ، اذا الحاجب يتهادى وبيده سراج . فلما رآني قال : « أأنت الذي اذنت للصلاة ؟ » قلت : « بلى » . قال : « لماذا اذنت في غير وقت ؟ لقد استنكره الخليفة جدا ، وهــو لهذا ساخط عليك كثيرا ، فأرسلني في طلبك لتأديبك » . قلت : « الحكم ما يراه الخليفة ، الا ان شخصا سيء الخلق حملني على أن ارفع الآذان في غير وقته » . قال : « فمــن يكون هذا ؟ » قلت : « هو الذي لا يخشى الله ، ولا يخاف الخليفة » ، قال : « ومن ذا الذي كانت له الجراة على ذلك ؟ » . قلت : « هذا امر لا ابوح به لغير أمير المؤمنين ، أما ان كنت اذنت متعمدا لشيء في نفسي ، فان اية عقوبة يقضي بها الخليفة ستكون قليلة بحقي » . قال : « بنسم الله . هيا بنا الى الخليفة » ولما وصلنا الى مدخل القصر ، كان الخادج في انتظارنا . فقال الحاجب للخادم كل ما قلت له . وهرع الخادم الى المعتصم واخبره ، فقال له : « اذهــب ، واحضره اليّ » . واخذني الخادم الى المعتصم ، فقال لي : « لماذا رفعت الآذان في غير اوانه ؟ » . وسردت عليه قصة التركي مع المراة مــن اولها الــى اخرها ، فلما سمعها طار صوابه ، وقال للخادم : « قل لحاجب الباب : امض الآن بمائة فارس الى قصر الامير فلان ، وقل له : الخليفة يستدعيك . وحين تقبض عليه ، اخرج المراة التي كان ساقتها امس عنوة الى قصره وخذها الى بيتها (١) ، ثم ادع زوجها الى الباب » ، وقل له : « ان المعتصم يقرؤك السلام ، ويتشفــع لديك في أمر هذه المراة ، ويقول : ان لم يكن لها اي ذنب فيما حدث ، فعليك أن تحســن معاملتها الآن أكثر من أي وقت مضى . ثم عد اليّ بالامير بسرعـــة » . أما أنا ( الشيخ ) فقال لي : « لتبق هنا قليلا » .

وبعد فترة ، جيء بالامير الى المعتصم الذي ما ان وقعت عينه عليه حتى قال له : « يا كذا وكذا (٢) ، ما الذي رأيت من عدم حميتي وغيرتي على الدين الاسلامي ، أو من ظلمي الناس ؟ واي خلل طرأ على الاسلام والمسلمين في عهدي ؟ الست انا الذي خرجت من اجل مسلم وقع اسيرا بأيدي الروم من بغداد الى بلادهم فكسرت جيوشهم ، وهزمت قيصرهم ، ودمرت بلادهم على مدى ست سنوات ؟ ثم الست انا الذي هدمت القسطنطينية واحرقتها وبنيت فيها المسجد الجامع ، ولم أعد قبل ان اخلص ذلك الرجل من قبضتهم (٣) ؟ ان الذئب والشاة يشربان ـــ

---

(١) آثرت ان اترجم هذه العبارة من نسخة اقبال ، وعدلت عما في نسختي « شمار » و « دارك » لما فيهما من تناقض . جاء فيهما : « ... وخذها الى بيتها ، ومعك هذا الشيخ ـ الخياط ـ ورجلان او ثلاثة من رجال اخرين ... » . أما انا ـ الشيخ ـ فقال لي : « لتبق هنا قليلا ».

(٢) كنايــة عن السباب والشتائـم .

(٣) من المعروف تاريخيا ان المعتصــم حــارب الروم استجابة لاستغاثة امرأة ، وكان من ذلك فتح عمورية عام ٢٢٣هـ اذ مدحه الشاعر أبو تمام . وقد انتبه عباس اقبال ودارك الــى هذه الاغلاط التاريخية . قال الاول : « هذه الجملة اشارة الى حملة المعتصم علــى البلاد المتعلقة بالروم في اسيا الصغرى ، وفتح قلعة عمورية عام ٢٢٣هـ ، وأسر كثيرين منهــم . اما ما ذكر في هذه القصة من فتح القسطنطينية ، وبناء مسجد فيها ، وبقاء الخليفة ست

في هذه الايام — من مورد واحد ، لعدلي والخوف مني ، فكيف تجرؤ على سوق امراة ببغداد الى قصرك عنوة ، وترتكب معها الفاحشة ، وتعتدي على من نهوك وامروك بالمعروف ضربا ؟! » . ثم أمر أن « احضروا جولقا (١) وضعوه — أي الامير التركي — فيه ، ثم أحكموا ربطه » ففعلوا . بعد ذلك أمر بمدقين مما يفتت به الجص (٢) ، وقال : « ليقف واحد في هذا الطرف ، وواحد في الطرف الآخر ثم اضرباه الى ان يصير اربا اربا » . وشرع الرجلان يضربانه فورا الى ان فتتاه تفتيتا ، وقالا : « يا امير المؤمنين ، ان عظامه دقت دقا » . فأمر بأن يحملا الجولق مثلما هو ، ويلقياه في نهر دجلة .

بعد ذلك ، قال المعتصم لي : « يا شيخ ، اعلم ان من لا يخاف الله ، لا يخافني ايضا ، في حين أن من يخافه ، عزوجل ، لا يقدم على عمل يعاقب به في الدنيا والآخرة . اما هذا الرجل ، فقد لاقى جزاءه ، لانه فعل ما لا يفعل ، وأما أنت ، فانني آمرك من الآن بأن ترفع الآذان في غير وقته كلما علمت بظلم شخص لآخر ، او ايذائه اياه دونما حق ، أو لاستخفاف يبدو منه بالشرع ، لأطلبك حين سماعه ، واستفسر عن الامر ، وأعاقب المذنب بمثل ما عاقبت به هذا الكلب ، وان يكن ابني او أخي » . ثم أمر لي بصلة وصرفني . ان الاشراف والعظماء والخاصة لعلى علم جيد بهذه الحادثة ، وان الامير لم يعد اليك ذهبك احتراما لي ، بل خوفا من « الجولق » و « المدق » و « دجلة » ، ولو توانى ، لصعدت الى المئذنة ورفعت الآذان في غير موعده ، ولكان مصيره مصير ذلك التركي » .

* * *

ومثل هذه الحكاية كثير . لكنني اكتفي بما ذكرت ، ليعلم سيد العالم ما كان عليه الخلفاء والملوك دائما ، وكيف أنهم كانوا يحمون الشاة من الذئب ، ويعاقبون العمال وولاة الامور ، ويحذرون المفسدين ويقفون لهم بالمرصاد . ثم كيف انهم حفظوا للدين الاسلامي قوته وعزه ، وصانوه وأرسوا دعائمه .

---

سنوات في بلاد الروم فكلها من أغلاط المؤلف التاريخية ، وليس لاي منها أساس من الصحة » . ( حاشية ص ٦٨ ) . ويقول دارك : « ان ما في ( تاريخ كزيده ) ان المعتصم انما غزا بلاد الروم ليخلص امرأة مسلمة وقعت في قبضتهم ... ولو أشير هنا الى امرأة لكان أنسب . لكن كلمة ( رجل ) هي التي ضبطت في جميع النسخ الخطية » . ( التعليقات ، ص ٣٣٥ ) .

(١) جولق : معرب « جوال » الفارسية . ويقال في عامية بلاد الشام : « شوال » و « كيس » وهو معرب « كيسه » الفارسية أيضا .

(٢) الجص : معرب « كج » الفارسية .

## الفصل الثامن

## في التحقيق والتحري في أمور الدين والشريعة وما اليهما

على الملك تحري امور الدين ، واجراء الفرائض والسنن واوامر الله تعالى ، وحفظ حرمة علماء الدين وتأمين ارزاقهم من بيت المال ، واكرام الزهاد والمتقين وتقديرهم . وعليه أن يدعو اليه علماء الدين مرة أو مرتين اسبوعيا ويستمع منهم الى أوامر الحق ، تعالى ، وتفسير القرآن الكريم ، واخبار الرسول (ص) ، وسير الملوك العدول ، وقصص الانبياء ( عليهم السلام ) وفي هذه الاثناء ينبغي الا يشغل نفسه بالتفكير في أي أمر من أمور الدنيا ، بل يجب أن يسخر ذهنه وسمعه للاصغاء اليهم ، ثم يطلب منهم ان يتحولوا الى فريقين يتناظران فيما بينهم . وعليه أن يستوضح عما يغمض عليه ، فيعرفه ويحفظه . فاذا ما تكرر منه هذا ، تصبح له سجية وعادة ، ولن يمضي طويل وقت حتى يحيط باكثر احكام الشريعة ، وتفسير القرآن ، واخبار الرسول ، عليه السلام ، ويحفظها ، فتتسع أمامه ، بذلك ، سبل المعرفة بالامور الدينية والدنيوية ، بحيث لا يستطيع أي مبتدع أو صاحب اعتقاد خبيث أن يحرفه عن مسيره . انما يقوي رأيه ، ويعم عدله وانصافه ، وتمحي من مملكته البدع والاهواء ، وتتم على يديه الاعمال الجليلة ، وتستأصل به جذور الشر والفساد والفتنة ، فينقرض المفسدون ، ويزداد أهل الصلاح بأسا . بذا يكسب السمعة الحسنة في الدنيا ، وينجو من عقاب الآخرة . بل يتبوأ اعلى الدرجات فيها ، ويثاب ثوابا كبيرا ، ثم يزداد اقبال الناس في عهده على العلم اكثر فأكثر . قال ابن عمر رضي (١) الله عنهما ، ان الرسول ( عليه السلام ) قال : « اعدت للعادلين ، واهليهم ومن هم تحت أيديهم قصور من نور في الجنة » .

ان الاستقامة في الدين لاجمل ما ينبغي أن يتصف به الملك ، لان الملك والدين صنوان ، ان أي اضطراب في المملكة ، لا بد ان يرافقه اختلال في امور الدين ،

---

(١) أي عبد الله بن عمر .

فيظهر والحال هذه ، المفسدون واصحاب المذاهب والمعتقدات الخبيثة . وانه كلما تتضعضع امور الدين يتسرب الوهن الى المملكة ، فتقوى شوكة المفسدين الذين يتسببون في اقلاق راحة الملك وزوال هيبته ، فتظهر البدعة ، ويزداد الخارجون والعابثون قوة وبأسا .

* * *

## ( اقوال )

يقول سفيان الثوري : « افضل السلاطين اولئك الذين يجالسون اهل العلم ويخالطونهم ، واسوا العلماء اولئك الذين يجالسون السلطان ويعاشرونه » .

ويقول اردشير : « ان السلطان الذي ليست له القدرة على اصلاح خاصته، لا يستطيع قط ان يصلح العامة والرعية . وفي هذا يقول الحق تعالى : « وانذر عشيرتك الاقربين » (١) .

ويقول امير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه : « ليس ثمة شيء ادعى لخراب المملكة وفنائها ، وهلاك الرعية ، من طول الستارة بين الملك والناس، وليس ثمة شيء اجدى واهيب في قلوب الناس من قصر ستارة الملك ، وسهولة الوصول اليه ، خاصة في افئدة الولاة والعمال ، فهم اذا ما علموا ان لا حجاب بين الملك ورعيته ، لا يقدمون على ظلمها ، واخذ اموال الناس بغير حق » .

وقال لقمان الحكيم : « لا صديق افضل للمرء في الدنيا من العلم ، فهو احسن من الكنز (٢) . لانك انت الذي تحمي الكنز ، في حين ان العلم هو الذي يحميك ».

ويقول الحسن البصري ، رحمة الله عليه : « ليس العالم من يعرف العربية اكثر ، او الاقدر على الفاظ العرب ولغتها ، بل هو المحيط بكل علم باللغة التي يجيد . فاذا ما عرف شخص كل احكام الشريعة ، وتفسير القرآن بالتركية والفارسية او الرومية ، ولا يعرف العربية فهو عالم . ولو انه يعرف العربية لكان افضل لان الله تعالى نزل القرآن بالعربية ، وان محمدا المصطفى (ص) كان عربي اللسان » .

* * *

وحين يشع سنا الاشراق الآلهي على الملك ، وتكون له مملكة دعائمها العلم ، فانه يفوز بسعادة الدنيا والآخرة ، لانه ــ والحال هذه ــ لا يقدم على اي عمل دون دراية به ولا يرضى عن الجهل . الا ترى ان شهرة من كانوا مسؤولين وملوكا حكماء طبقت الآفاق لان ما شادوه من جلائل الاعمال سيظل يخفق بأسمائهم عالية

---

(١) الشعراء ، آية ٢١٤ .

(٢) كنز : معرب « كنج » الفارسية .

الى يوم الدين. من هؤلاء على سبيل المثال : أفريدون (١)، الاسكندر ، اردشير انوشروان العادل ، عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عمر بن عبد العزيز — نور الله مضجعه — ، هارون الرشيد.، المأمـــون ، المعتصم ، اسماعيـــل بن احمد الساماني ، والسلطان محمود الغزنوي ، رحمة الله عليهم اجمعين . ان اعمالهم واضحة للعيان ، وهي مسطورة في بطون الكتب والتواريخ ، يقرؤها الناس ، فتلهج السنتهم بالدعـــاء لهم والثناء عليهـــم .

## احسان عمر بن عبد العزيز

يقال انه لما نزل القحط بالناس على عهد عمر بن عبد العزيز ، وضاقت بهم السبل ، قصده فريق من العرب شاكين اليه . قالوا : ( يا أمير المؤمنين ، انا نأكل في هذا القحط لحومنا ، ونشرب دماءنا ، أي أصابنا الهزال وأصفرت وجوهنا لقلة الطعام . ان ما نحتاج اليه في بيت مالك ، وهذا المال اما لك ، واما لله تعالى ، واما لعباده . ان يكن لعباد الله ، فنحن منهم ، وان يكن لله فلا حاجة لله بـــه ، وان يكن من أموالك وتصدق علينا ان الله يجـــزي المتصدقين (٢) » ، وان يكن من اموالنا فهبنا اياه لننجو من هذا الضيق ، فلقد يبست جلودنا على اجسامنا ) . فرق عمر بن عبد العزيز لحالهم وسالت الدموع من عينيه ، وقال : « انني فاعل ما قلتم » . وامر في الحال بقضاء طلبهم ، وتلبية حاجتهم . ولما هموا بالانصراف قال لهم عمر ، رحمة الله عليه : « أيها الناس ، أين أنتم ذاهبون ؟ الا تعرضون أمري على الله تعالى ، مثلما عرضتم امركم وامر عباد الله علي ، أي اذكرونـــي بالخير » . فاتجه الناس نحو السماء ورفعوا أيديهم قائلين : « يا رب ، بعزتك وجلالك ، عامل عمر بن العزيز ما عامل به عبادك » . وما ان فرغوا من دعائهم ، حتى غامت السماء ، فنزل المطر مدرارا ، وسقطت بردة على آجـــر قصر عمر ، فانشقت نصفين ، واذا ورقة تخرج منها . فلما نظروا فيها وجدوا العبارة التالية :
« هذا براءة من الله العزيز الى عمر بن عبد العزيز من النار » .

وفي هذا الموضوع حكايات كثيرة ، لكن حسبنا منها في هذا الفصل ما ذكر .

---

(١) افريدون : من ملوك الفرس المعروفين قبل الميلاد .

(٢) يوسف ، آية ٨٨ . وقد حذفت كلمة « وتصدق » في الاية الى « فتصدق » فاثبتها المحقق محرفة دون ان ينتبه الى تحريفها وكذلك الامر في طبعة دارك من الكتاب ( ص ٨٣ ) .

# الفصل التاسع

## في مشرفي (١) الدولة وكفافهم

ينبغي اسناد الاشراف الى من يعتمد عليه اعتمادا تاما ، ليتمكن من الاحاطة بكل ما يجري في البلاط ، والاجابة عن كل شيء في اي وقت يطلـب اليه ذلك . وعلى المشرف نفسه أن يعين له نائبا امينا قويا في كل ناحية ومدينة لمراقبة الاعمال، والاشراف على تحصيل الخراج ، ومعرفة كل كبيرة وصغيرة تقع هناك ، وعلـى هؤلاء الا يشغلوا انفسهم بجمع المال لفائدتهم الشخصية وكفافهم ، فيكونوا عبئا على الرعية ، يؤدي الى ارهاقها من جديد .

وعليه ، يجب ان يؤمن لهم كل ما يحتاجون اليه من بيت المال ، حتى لا تكون لهم ثمة حاجة لخيانة ورشوة . وستكون ثمرة استقامتهم في اعمالهم عشرة امثال ، بل مائة مثل لما يعطوه من أموال في حينها .

---

(١) المشرف : من يعينه السلطان جاسوسا على رسول له لينقل اليه ما يجري في اثناء اداء الرسالـة .
ومشرف المملكة ، هو المكلف بالاشراف العام ، والاشراف اكثر اهمية من عمل صاحب البريد، ( تاريخ البيهقي ـ الترجمة العربية ـ ، كشاف المصطلحات التاريخية ، ص ٨٠٤ ) .

# الفصل العاشر

## في أصحاب البريد ومنهي الأخبار وتدبير شؤون المملكة

على الملوك تحري احوال الرعية والجيش وكل بعيد وقريب ، ومعرفة كل كبيرة وصغيرة في المملكة . فان لم يفعلوا هذا ، فسيكون عيبا ومأخذا يأخذه الناس عليهم ويحملونه محمل الغفلة والتهاون والظلم ، ويقولون : اما ان الملك يعلم بأمر الفساد والسرقة والنهب المتفشي في المملكة ، واما انه لا يعلم . فان يكن على علم به ولا يمنعه أو يقف في وجهه ، فليس الا لانه ظالم وعن الظلم راض ، والا فهو غافل ، قليل الدراية والاطلاع ، وكلا الامرين غير محمود . ولا بد من صاحب البريد.

لقد كان للملوك في كل الاحقاب ، في الجاهلية والاسلام اصحاب برد ، في كل المدن ، لم يكن يفوتهم العلم بما يحدث من خير وشر ، حتى اذا ما غصب شخص اخر دجاجة أو مخلاة تبن على بعد خمسمائة فرسخ ، فان الملك كان يعلمه ، ويأمر بتأديبه ومعاقبته ، ليعرف الآخرون انه يقظ ، وأن له مخبرين في كل مكان ، وانه يضرب على أيدي الظالمين . فكان الناس ينصرفون الى الكسب والاعمار والبناء في ظل الامن والعدل .

ان هذه المهمة دقيقة وشاقة ، يجب ان يعهد بها لمن لا يساء الظن بهم وبالسنتهم واقلامهم ، ولا يجرون وراء اغراضهم ومصالحهم الخاصة ، لان صلاح المملكة وفسادها مرهون بهم . ان هؤلاء ينبغي أن يعينوا من لدن الملك نفسه ، وليس من قبل أي شخص اخر ، ويجب أن تدفع لهم أجورهم ورواتبهم من الخزانة كي يقوموا بواجباتهم على النحو الافضل ، وهم مطمئنو البال . ويجب الا يعرف احد ، غير الملك ، بالمهام التي يؤدونها ، حتى اذا ما اخبر بأمر جديد يقضي بما يراه مناسبا ، فينال كل شخص ما يستحق من عقاب وجزاء او مكافئة وهبة وتقدير بغتة ودون أن يدري .

واذا ما سارت الامور على هذا النحو ، فان الناس يحرصون على طاعة

الملك والخوف من عقابه دائما ، ولن يجرؤ أحد على عصيانه والخروج عليه ، او حتى مجرد التفكير في ذلك . ان لفي وجود مهمة صاحب البريد ومنهي الاخبار دليلا على عدل الملك ويقظته وقـــوة رأيه ، وعلى اعمار الدولة أيضـا .

## حكاية لصوص كوج وبلوج (١)

يقال انه لما استولى السلطان محمود على العراق سرق لصوص من كوج وبلوج ، التي كانت تابعة لولاية كرمان ، بضاعة امراة كانت في احدى القوافـــل النازلة بـــ « دير الجص » (٢) ومضت المراة الى السلطان محمود تشكو اليـــه قائلة : « لقد سرق اللصوص ما بحوزتـــي من بضاعة بديـــر الجص ، فاما أن تستردها ، واما أن تعوضني بها » . فقال محمود : « اين يقع دير الجص ؟ » . قالت المراة : « خذ من الولايات ما تستطيع ان تعرف ما يدور فيها وتوفيها حقها وتحفظها ! » فقال : « حق ما تقولين ، ولكن اتـــدرين من اي قـــوم كان أولئك اللصوص ، ومن أين اتوا ؟ » قالت : « من كوج وبلوج ، وقد جاءوا مـــن قرب كرمان » . قال محمود : « ذلك المكان بعيد عن متناول اليد ، وهو خارج عـــن نطاق ولايتي ، ولا حكم لي على لصوصه » . فقالت المراة : « اي سلطان انت ، ولا تستطيع ان تدير ولايتك ؟! واي راع انت ، ولا تستطيع ان تحمي الشـاة من الذئب ؟! هيهات بيني وبينك ! انا في ضعفي وانفرادي ، وأنت في قوتك وجيشك ! » فترقرقت في عيني محمود الدموع ، وقال : « حق ما تقولين ، ما انا فاعله الآن أن اعوضك عن بضاعتك . أما اللصوص ، فسأعمل على التصرف بشانهم مـــا وسعني جهـــدي » .

وأمر بتعويض المراة عن بضاعتها من الخزانة ، ثم كتب الى أبي علي الياس (٣) امير كرمان و « تيز » (٤) الرسالة التالية : « لم يكن غرضي من القـــدوم الى

---

(١) يقال أيضا انكوج وبلوج اسم طائفة من سكان الصحراء كانت تقيم في الجبال في اطـراف كـرمان ( فرهنك نفيســي ) .

(٢) دير الجص او القبة المجصصة ترجمة « دير كجي » الفارسية . وهو مكان كان يقع بين اصفهان والري في نحو نصف الطريق في المفازة بين كركس كوه ( جبل النسر ) وسياه كوه ( الجبل الاسود ) . ويقال انه كان رباطا حصينا ، كانت - على ما ذكر الاصطخـري - تسكنه بذرقة ( حامية ) للسلطان ( بلدان الخلافة الشرقية ٢٤٣ - ٢٤٤ ، وانظر ايضا : عباس اقبال ، حاشية ص ٧٢ ) .

(٣) يقول عباس اقبال : « لا يمكن ، بأية حال من الاحوال ، أن يكون أبو علي محمد بن الياس أمير كرمان الذي توفي عام ٣٥٦هـ معاصرا للسلطان محمود الذي تولى الملك عام ٣٨٧هـ . علاوة على ان اسرة آل الياس انقرضت عام ٣٥٧هـ على يد قادة عضد الدولة الديلمي ، وانتقلت كرمان الى حوزة آل بويه . ولما قدم السلطان محمود الى العراق عام ٤٢٠هـ كانت كرمان تحت تصرف ابي كاليجار مرزبان بن سلطان الدولة الديلمي . ان هنا لخطأ تاريخيا آخـر من اخطاء مؤلف سياست نامه» (اقبال : حاشية ( ص ٧ ثم انظر : الفصل السابع من هذا الكتـاب أيضـا ) .

(٤) تيز ( بالكسر ) : بلدة على ساحل بحر مكران او السند ، وفي قبالتهـا من الغـرب ارض عمان ( معجم البلـدان ) .

العراق الاستيلاء عليها ، فقد كنت في غزو وجهاد مستمر بالهند . لكنني اتيتها لكثرة الرسائل المتعاقبة التي كانت تصل الي من المسلمين ، وكلها تتحدث عــن فساد الديالمة وظلمهم بالعراق ، واظهارهم البدعة والجهر بها ، ونصبهم الكمائن علــى ملتقى الطرق ومعابرها . فكلما مرت امراة او غلام طرير وسيم ، ينقضون عليهم ويأخذونهم عنوة ويرتكبون الفاحشة معهم . ثم انهم يخضبون ايدي المرد وارجلهم بالحناء ويحتفظون بهم الى المدة التي يشاؤون ، ويطلقونهم بعد ذلك . كما انهم يلعنون صحابة رسول الله ( عليه السلام ) علانية ، ويقذفون عائشة الصديقة رضي الله عنهما ، — وهي أم المؤمنين — بالزنا . ثــم ان المستقطعين يحصلون الخراج من الزراع مرتين او ثلاث مرات في السنة ويفعلون ما يحلو لهم . اما الملك الذي يلقبونه « مجد الدولة » فاقتنع بأن يخلعوا عليه لقب « ملك الملوك » ، وله من الازواج تسع دخل بهن شرعا . اما الرعية ، فانهم يظهرون مذهب الزنادقة والباطنية علانية في كل مكان بالمدن والاطراف ، ويسفهون الله والرسول ويشتمونهما، وينفون الخالــق على الملأ ، وينكــرون الصلاة والصــوم والحج والــزكاة . فلا المستقطعون يزجرونهم عن اقوال الكفر هذه ، ولا هم يقولون للمستقطعين : لم تسبون صحابة رسول الله ( عليهم السلام ) وتعيثون في الناس ظلما وفسادا ؟ ان كلا الفريقين يؤازر الآخــر .

فلما اخبرت بحقيقة الحال ، آثرت هذا الامر على غزو الهند ، واتجهت نحو العراق وسلطت جيش الترك ، الذين هم حنفيون وانقى المسلمين ، على رقاب الديالمة والزنادقة والباطنية ، لأستأصل جذورهم . فمنهم من قتل بسيوفهم ، ومنهم من كبل بالاغلال وزج في السجن ، ومنهم من تشتت في الآفاق . ثم اسندت كــل الاعمال والمهام الى سادة خراسان وولاتها وحكامها ، فهم من الحنفية او الشافعية الاطهار . ان هاتين الطائفتين أعداء للرافضــة والباطنية وكل الخارجين علــى الدين ، وعلى وئام مع الاتراك . ثم نحيت كل الكتبة العراقيين ، لعلمي ان اكثرهم من تلك الفئات الباغية ، وانهم يفسدون على الترك اعمالهم . كل هذا لكي اصفي العراق من اصحاب المذاهب الخبيثة والمعتقدات السيئة في مدة قليلة بعون اللــه عزوجل . فالله تعالى خلقنا لهذا ، وولانا الخلق لنمحو المفسدين من على وجه المعمور ، ونحمي اهل الصلاح ، ونملأ الارض عدلا وسخاء ورحمة .

وفي غضون هذا بلغنا ان جماعة من مفسدي كوج وبلوج سطوا على استراحة دير الجص ، وسرقوا منها مالا . اريدك أن تقبض عليهم ، وتسترد الاموال منهم ، ثم تشنقهم جميعا ، او ترسلهم بما سرقوا مكبلي الايدي الى الري . فانى لهــم الجراة على تجاوز كرمان الى ولايتي وقطع الطرق فيها ؟! والا فليست كرمان أبعد من سومنات ، سادفع بالجيوش اليها وابتليها بالحرب والدمار » .

لما اوصل الرسول الرسالة خاف ابو علي الياس كثيرا ، واكرم وفادته حالا ، وحمله بشتى انواع الجواهر واللآلىء البحرية النادرة ، وبدر الذهب والفضــة هدايا الى السلطان محمود ، وكتب اليه يقول : « انني مولاك ومطيع اوامــرك . الا يعلم مولاي جيدا حال مولاه وولاية كرمان ؟! والا فانني لا ارضى بالفساد قط .

ان اهل كرمان كلهم سنيون واهل خير وصلاح . أما سلسلة جبال كوج وبلوج فاقتطعت عن كرمان وهي ذات جبال ومعابر حصينة ، وطرقات وعرة .. انني عاجز عنهم ، فاغلبهم لصوص ومفسدون وقطاع طرق ، وهم يهددون امن طريق تمتد الى مائتي فرسخ ، بالنهب والسرقة . انهم خلق كثير ، لا حول لي عليهم ولا قوة . ان السلطان لاقدر مني ، وفي استطاعته اليوم التصدي لهم في شتى انحاء الارض . وانني لاضع نفسي رهن اشارته » .

لما وصلت الى محمود رسالة ابي علي وهداياه تبين له صدق كل ما يقول فاعاد رسوله اليه بخلعة خاصة ، وقال له : قل لابي علي : عليك أن تجمع جيش كرمان وتطوف به في الولاية كلها . وفي شهر كذا تقدم سرا الى حدود كرمان في الجانب الذي فيه كوج وبلوج وانزل هناك . وحين يصل اليك رسولنا باشارة كذا ، تحرك فورا واحمل على ولاية كوج وبلوج واقتل من تجده من فتيانهم ولا تؤمنهم ابدا ، واسلب من شيوخهم ونسائهم اموالا وارسلها الي حتى اوزعها على من يدعون هنا انهم سلبوهم اموالهم . ثم اعقد معهم عهدا وميثاقا محكما ، وعد بعد ذلك » .

وبعد ان سير السلطان رسول ابي علي ، أمر مناديا أن ينادي : « على التجار المتوجهين الى تيز الذين سيسلكون طريق كرمان أن يهيئوا انفسهم ويعدوا احمالهم ، فانني مرسل معهم حامية تحميهم . ولكم علي عهد ان اعوضكم عن بضائعكم من الخزانة اذا ما استولى عليها لصوص كوج وبلوج » .

فما ان شاع هذا الخبر في الناس ، حتى توارد عدد كبير من التجار على الري من الاطراف ، فسيرهم السلطان محمود في وقت معين يرافقهم أمير على راس حامية قوامها مائة وخمسون فارسا ، وقال لهم تثبيتا لعزائمهم : « لتهدأوا بالا ، فانني مرسل في اثركم جيشا » . وعلى حين كان يسيِّر الحامية استدعى اليه أميرها سرا ، واعطاه زجاجة سم قاتل ، وقال له : « عندما تصل الى اصفهان ، توقف بها الى أن يعد تجارها انفسهم وينضموا اليكم . وعليك ان تشتري في هذه الاثناء عشرة احمال (١) من أجود تفاح اصفهان ، وتحملها على عشرة جمال تبثها بين جمال التجار حين تتركون المدينة ، ثم تمضي بالقافلة الى أن تصل الى مكان سيصل اليه اللصوص في اليوم التالي لوصولكم اليه . وعليك في تلك الليلة ، أن تضع الاحمال في خيمة وتفرد تفاحها وتثقب كل تفاحة بمسلة ، ثم تهيىء عيدانا خشبية اكبر من الابرة بقليل وتغط كل واحد منها في السم ، ثم تولجه في ثقب التفاحة الى أن تسمم التفاح جميعه بهذه الطريقة . وبعد ذلك نضد التفاح في اقفاص يتخللها القطن ،

---

(١) حمل هنا ترجمة للفظة « خروار » اي حمل حمار ، وهو عبارة عن مائة منّ ، ويستعمل الاصطلاح الفارسي نفسه لحمل البعير والحصان أيضا . ( فرهنك نفيسي ) .
لكنه يقال لحمل البعير في العربية « وسق » ( بفتح الواو وكسرها وسكون السين ) ، ولحمل البغل او الحمار « وقر » ( بكسر الواو وسكون القاف ) .
( اللسان ـ وسق ووقر ـ ، ومفاتيح العلوم ص ١١ ) .

وفي اليوم التالي ، بث جمالك العشرة بين الجمال الاخرى أيضا ، وواصل المسير . ولما يظهر اللصوص ، ويستولون على القافلة لا تتصدى لقتالهم البتة ، فهم كثر وانتم قلة . وما عليك الا ان تتراجع حالا بمن معك من حملة السلاح خيالة وراجلين الى ما يقرب من نصف فرسخ او اكثر ، ثم تنتظر مدة تتقدم بعدها نحو اللصوص الذين لا اشك في هلاك اكثرهم حينئذ لاكلهم من التفاح . عندئذ اشرع فيهم السيوف واقتل بقيتهم ، وطارد فلولهم ما استطعت واهلكهم . ولما تنتهي من القضاء عليهم ارسل عشرة من خيرة الفرسان بخاتمي الى ابي علي الياس فورا ، واخبره بما فعلنا بلصوص كوج وبلوج ، وقل له : « لتحمل انت الآن بجيشك على ولايتهم ، فهي خلو من الشباب والاقوياء والغوغائيين من مثيري الفتنة والشغب ، ثم نفذ ما امرناك بـــه » . اما انت فامض بالقافلة الى كرمان ، واذا ما التحقت آنذاك بأبي علي فلا ضير . قال الامير : « سمعا وطاعة ، سأنفذ ما أمرتني به . ان قلبـــي يحدثني بأن هذا الامر سيتحقق لدولة مولاي ، وان تلك الطريق ستنفتح في وجـــه المسلمين الى يوم يبعثون » . وانصرف من عند السلطان ، وقاد القافلة الى اصفهان حيث اشترى خمسة احمال تفاحا ، ثم واصل سيره الى كرمان . وكان اللصوص ارسلوا عيونهم الى اصفهان ، فانموا اليهم ان : « ثمة قافلة بآلاف الدواب محملة بنعم وخيرات لا يعلم مقدارها الا الله ، عزوجل ، وانه لمير لهذه القافلة التي تحميها حامية من مائة وخمسين فارسا تركيا ، نظير منذ الف سنة » . ففرح اللصوص أشد الفرح حتى انه لم يبق في شتى انحاء كوج وبلوج عيار وشاطر وحامل سلاح الا اخبروه واستدعوه الى ان احتشد منهم على الطريق أربعة آلاف رجل بكامل اسلحتهم في انتظار القافلـــة .

لما وصل الامير بالقافلة الى منزل من منازل الطريق اخبره القاطنون هناك بأن آلاف اللصوص قد استلموا طريقكم ، وهم في انتظاركم منذ ايام » . فسألهم الامير : « كم فرسخا المسافة من هنا الى المكان الذي هم فيه ؟ » قالوا : « خمسة فراسخ » . ولما سمع من في القافلة هذا اصابهم الفزع واستولى عليهم الذعر ، فحطوا هناك الرحـــال .

ومع صلاة العصر ، طلب الامير اليه جميع خفر البضائع وحامية القافلـــة ورجالها ، وشجعهم ، ثم قال : « اخبروني ، أيهما اعز النفس او المال ؟ » قالوا جميعهم : « النفس » . قال : « ان الاموال اموالكم ، اما نحن فسنرخص أرواحنا فداء لكم دونما حزن او اسف فلم تتجرعـــون الاحزان اذن علـــى ثروة واموال ستعوضون عنها ؟ ان محمودا ليس بغاضب عليكم او علي حتى يدفع بنا الـــى الهلاك ، بل انه سيرنا في مهمة يسترد بها الاموال التي سلبها اللصوص من المراة بدير الجص . فماذا تظنون ؟ اتحسبون أنه يرغب في ان يستولي اللصوص على اموالكم ؟! لتهدأوا بالا ، فهو ليس في غفلة عنا . لقد اخبرني شيئا ، هو ان مدده سيلحق بنا غدا مع شروق الشمس ، وستكون الامور في صالحنا ان شاء اللـــه . اما انتم فما عليكم الا ان تنفذوا ما اقول ، ففيه نفعكم وصالحكم » . لما ســـمع القوم كلامه فرحوا ودبت الشجاعة والقوة في قلوبهم ، وقالوا : « سننفذ كـــل ما

تأمرنا به » . قال : « ليتقدم مني كل من لديه منكم سلاح يقوى على استعماله » . فتقدم منه عدد منهم ، فلما عدهم كانوا ثلاثمائة وسبعين فتى بين خيال وراجل ، وفيهم رجاله هو اي افراد حاميته . ثم قال لهم : « بما أننا سنتقدم الليلة ، فعلى الخيالة ان يبقوا معي في مقدمة القافلة ، والراجلين في مؤخرتها . فمن عــادة هؤلاء اللصوص انهم ينهبون الاموال دون ان يقتلوا احدا الا من يتصدى لهم ويشتبك معهم.

سنصل اليهم غدا ، والشمس على ارتفاع رمحين ، وحين يحمــلون علــى القافلة ، لوذوا بالفرار ، فأنا الذي سألجأ الى الكر والفر معهم الى ان تتواروا الى مسافة فرسخ ، وحينذاك اكرّ راجعا اليكم والتحق بكم ونصبر ثمة مدة نعود جميعنا بعدها ونحمل عليهم ، وسترون العجائب . كذا أمرت ، وانني اعرف شيئا فــي الموضوع لا تعرفونه ، لكنكم ستعرفونه غدا ، فيبين لكم آنذاك صدق قولــي ، وهمة السلطان محمود » . فقالوا بصوت واحد : « اننا لفاعلون » وعادوا .

ولما ارخى الليل سدوله ، فض الامير احمال التفاح ودس السم فيها جميعا ، ثم اعادها ثانية ، وندب خمسة من رجاله للجمال العشرة التي تحمل التفاح ، وقال لهم : « حين ننهزم ويقع اللصوص في القافلة ويأخذون في فض الاحمال عليكم بدفع احمال التفاح وفتح الاقفاص ، وقلبها راسا على عقب ، والابتعاد بعد ذلك » .

وبعد منتصف الليل ، أمرهم بالتقدم ، فتقدموا على نحو ما اتفقوا عليه الى أن وضح النهار . ولما ارتفعت الشمس في الافق طلع اللصوص عليهم من ثلاثــة جوانب وحملوا على القافلة ، وسيوفهم مشروعة . فكرّ الامير عليهم مرتين او ثلاثا ورماهم ببضعة سهام ، ثم اطلق ساقيه للريح . أما الراجلون ، ففروا بمجرد ان رأوا اللصوص ، ولحق الامير بهم على بعد نصف فرسخ حيث جمعهــم في مكان واحــد هناك .

لما رأى اللصوص قلة عدد افراد الحامية وفرارهم وانهــزام افراد القافلة ، أخذتهم الغبطة فجعلوا يفتحون الاحمال باطمئنان تام ويعبثون بالبضائــع . فلما وصلوا الى التفاح ، أخذوا يتساقطون عليه ويغيرون ، ويأكلــون بنهم وشره ، ويناولون كل من لا يستطيع الوصول اليه . وقلة أولئك الذين لم يأكلوا منه . وبعد ساعة ، بدأوا يتساقطون واحدا تلو الآخر ويموتون .

وبعد مضي ساعتين ، وقف الامير على نشز من الارض وحيدا ينظر الــى القافلة واللصوص ، فاذا الآدميون يفترشون الصحراء بعد أن تساقطوا . فنزل ، والفرحة تغمره ، وقال : « يا قوم ، ابشركــم بوصول مــدد السلطان محمود ، وقتلهم اللصوص الذين لم يبق منهم احد . هيا بنا ، ايها الليوث ، ننقض عليهم لنقتل بقيتهــم » . واتجه برجاله نحو القافلة ، وتبعهم الراجلون بسرعة . فلما وصلوا الى مكان القافلة وجدوا الصحراء تغص بالموتى الذين القوا بأسلحتهم من تروس وسيوف وسهام وقسي . اما من ظلوا احياء منهم ، فلما رأوا العسكر لاذوا بالفرار . لكن الامير ، ومعه الراجلون ، مضوا في إثرهم وظلوا يطاردونهم على مدى فرسخين ، ولم يعودوا الا بعد ان افنوهم جميعا بحيث لم ينجح مــن بينهم واحد ينقل الى ولايتهم اخبار ما حــدث .

ثم امر الامير بجمع أسلحة اللصوص ، التي بلغت عدة احمال ، وتقدم بالقافلة مرحلة اخرى دون أن يلحق ادنى ضرر بأحد من افرادها ، بل كادوا ، لفرحهم ، يخرجون من جلودهم . وكان بينهم وبين ابي علي الياس اثنا عشر فرسخا فقط ، فارسل اليه الامير الغلمان العشرة (١) بخاتم السلطان محمود على جناح السرعة لاخباره بما حدث .

ولما وصل الخاتم الى ابي علي توجه حالا بجيشه الذي كان على اهبة الاستعداد الى ولاية كوج وبلوج ، وانضم اليه الامير فشرعوا السيوف وقتلوا ما يزيد على عشرة آلاف رجل من اهلها ، واستولوا على آلاف الدنانير ، وغنموا ثروات طائلة ونعما واسلحة ومواشي لا تحد ، ارسلها ابو علي كلها الى السلطان محمود مع الامير . حينئذ امر السلطان بأن ينادى في الناس : « على من سلبهم لصوص كوج وبلوج شيئا منذ جئت العراق أن يأتوا اليّ ، لأعوضهم عنها » . فأمه المدعون جميعهم ، وعادوا فرحين . وانقضت خمسون سنة دون ان يبدو من الكوجيين والبلوجيين اي سوء أو تعد .

ومنذ ذلك الوقت ، بث السلطان محمود اصحاب البريد ومنهي الاخبار في كل مكان ، حتى انه كان يعرف ، وهو بالري ، ما اذا غصب شخص اخر دجاجة في غزنين ، أو صفعه على وجهه دون حق ، فيأمر بمجازاته . وقد درج الملوك على هذا منذ القدم الا آل سلجوق الذين لم يأبهوا لهذا الامر .

## الب ارسلان وصاحب البريد

لما قال أبو الفضل السجستاني (٢) للسلطان الشهيد الب ارسلان ، أنار الله برهانه : « لم لا يوجد لك صاحب بريد ؟ » أجابه : « أتريد ان تذرو ملكي الرياح ، وتفرّق عني أنصاري ؟ » قال : « لماذا ؟ » . قال السلطان : « اذا ما تخذت صاحب بريد ، فان محبي والمقربين مني لن يقيموا له وزنا او يدفعوا اليه رشوة اعتمادا على صداقتهم لنا وقربهم منا . أما اعدائي ، فسيصادقونه ويغدقون عليه الاموال . وما دام الامر كذلك ، فان صاحب البريد لا ينهي الينا سوى الاخبار السيئة عن الاصدقاء ، والاخبار الحسنة عن الاعداء دائما . وما الاخبار السيئة والحسنة الا كرمايتك عددا من السهام التي لا بد ان يصيب احدها الهدف في النهاية . لذا ، فان حقدنا سيزداد على الاصدقاء والمخلصين يوما بعد يوم ، فننبذهم

---

(١) في نسختنا ( ص ١٠٤ ) ونسخة دارك ( ص ٩٤ ) : فارسل اليه غلامين ( دو غلام ) خلافا لما جاء في وصية السلطان محمود للامير في ( ص ١٠٠ ) و ( ص ٩١ ) على التوالي ، في حين انه لا تغيير في نسخة عباس اقبال ( ص ٨١ و ٨٤ ) .

(٢) هو أبو نصر بن أحمد الذي كان أميرا على سجستان من قبل السلطان محمود . كانت وفاته عام ٤٢٥هـ . ( انظر : تاريخ سيستان « سجستان » . تصحيح ملك الشعراء بهار . ص ٣٦٤ - ٣٦٣ و ٣٨١ - ٣٨٢ ومواطن اخرى ايضا ) .

ونحل الاعداء محلهم . وحين نتلفت حوالينا نجد ان جميع الاصدقاء والمحبين قد ابتعدوا عنا في مدة قليلة ، واخذ الاعداء والحاقدون امكنتهم وحلوا فيها ، وحينئذ تختل الامور اختلالا يصعب تلافيه » .

* * *

ولكنه من الاولى اتخاذ صاحب بريد ، فهذا الامر قاعدة من قواعد الملك . فاذا ما كان صاحب البريد معتمدا على النحو الذي ينبغي ان يكون ، فان الملك لا يشغل باله في اي امر من الامور التي ذكرنا .

## الفصل الحادي عشر

# في تعظيم الأوامر السامية والمراسم الصادرة عن البلاط

ان الرسائل التي تصدر عن البلاط كثيرة ، وكلما كثرت فقدت حرمتها . فاذا لم يكن ثمة امر هام ينبغي ألا يصدر عن الديوان العالي أمر خطي البته ، واذا ما صدر شيء يجب ان تكون له حرمته الى حد لا يجرؤ معه احد على وضعه من يده قبل ان يطيع كل ما فيه من اوامر ويلبيها . واذا ما وجد من ينظر اليه بعين الاحتقار او ينبذه ظهريا فينبغي ان يعاقب عقابا بليغا ، ولو كان من المقربين ، اذ الفرق بين الملك وغيره من المستقطعين والناس ، هو تنفيذ أوامره واجراء احكامه .

### حكايــة في هذا المعنى
### ( السلطان محمود وعامل نيسابور العاصي )

قيل : ذهبت امراة من نيسابور الى غــزنين ودخلت علـــى السلطان محمود فشكت اليه قائلة : « ان عامل نيسابور استولى على ضياعي وجعلها تحت تصرفه ». فاعطاها السلطان رسالة اليه تقول : « رد اليها ضياعها » . فقال العامل الذي كان معه سند بالضياع ، « ان الضياع ضياعي وساعرض امرها على البلاط » . فعادت المراة الى غزنين متظلمة من جديد . فأرسل محمود هذه المرة غلاما الــى العامل احضره من نيسابور الى غزنين ، وامر بجلده الف جلدة عند مدخل القصر . لقد حاول ــ دون جدوى ــ التشفع بشراء تلــك الجلدات بعشريــن الف دينار نيسابوري (١) ، لكن السلطان قال له : « ما دامت الضياع ملكك فلم لم تصدع

(١) كانت كل ثلاثة دنانير مغربية تساوي ثلاثة دنانير ونصف نيسابورية .

للامر اولا ، ثم تعرض المسألة بعد ذلك لنأمر ما نراه حقا فيها ؟ » فما ان سمع الناس الخبر لم يتجرأ احد على عصيان أوامر الملك او التواني في تنفيذها .

وهكذا في كل امر يخص الملك وحده ، فان تنفيذه او الامر بتنفيذه منوط به هو فقط ، ومن هذا القبيل : انزال العقوبة ، وضرب العنق ، وبتر اليد او الرجل، وخصي الخدم ، وغير هذا من العقوبات الاخرى . فاذا ما قام احد بتنفيذ اي من هذه الامور دون اذن الملك وامره حتى ولو في خدمه وعبيده فعلى الملك الا يقره عليه بل يجب ان يعاقبه ليعرف الآخرون اقدار انفسهم ، ويلتزموا حدودهم ، وتكون لهم فيه عبرة .

## حكاية ابرويز وبهرام جوبين

يقال ان ابرويز كان يعز بهرام جوبين ويكرمه اول الامر ، حتى انه لم يكن يفارقه ساعة واحدة او يركب الى صيد ، ويجلس الى شراب وينفرد في خلوة دونه . وكان بهرام هذا فارسا فذا ومبارزا لا نظير له .

وذات يوم ، جيء الى الملك ابرويز بثلاثمائة بعير حمر النعم من عمال هراة وسرخس محملة بالبضائع والامتعة المختلفة ، فأمر بتحويلها ، فيما هي عليه ، الى قصر بهرام جوبين ، لتوسع عليه في مطبخه .

وفي اليوم التالي ، اخبر ابرويز بأن : « بهرام جوبين القى في تلك الليلة بأحد غلمانه ارضا وجلده عشرين جلدة » . فغضب أبرويز وأمر باحضار بهرام . فلما حضر ، أمر الملك باحضار خمسمائة سيف من مستودع الاسلحة ، وقال : « يا بهرام اختر أحسنها » فاختارها جميعا . فقال الملك : « اختر من هذه احسنها ايضا » . فاستحسن بهرام عشرة سيوف منها . فقال ابرويز : « اختر من العشرة اثنين » ففعل . فقال ابرويز : « والآن مرهم ان يضعوا هذين السيفين في غمد واحد » . قال بهرام : « يا مولاي ، ان الغمد لا يتسع لسيفين » فقال ابرويز : « فكيف يحكم حاكمان بلدا واحدا اذن ؟ » . ففهم بهرام ما قصد اليه الملك حالا وادرك خطاه ، فقبّل الارض بين يديه ، والتمس عفوه . فقال ابرويز : « لو لم يكن لك عليّ حق خدمة ، ولا أريد ان احط من عل من رفعته بنفسي ، لما عفوت عنك . فالله ، عزوجل ، ملكنا نحن الارض لا انت . ان كل ما يحتاج الى حكم وقضاء يجب ان يحال الينا لنقضي به بالحق . فاذا ما بدابعد الآن من خدمك وعبيدك ذنب ، يجب أن تخبرنا اولا لنأمر بما يستحق المذنب من جزاء حتى لا يمس أحد بأذى دون حق . لقد عفونا عنك هذه المرة » .

هكذا خاطب ابرويز بهرام جوبين وقد كان قائد جيشه فما بالك بغيره ؟!

## الفصل الثاني عشر

## في ارسال الغلمان في المهمات من البلاط

كثيرا ما يرسل الغلمان في مهام من البلاط بعضهم بأمر واكثرهم دون ذلك وفي هذا ارهاق للناس واستنزاف لاموالهم . مثال ذلك انه قد يكون المبلغ المطلوب تحصيله مئتي دينار فحين يذهب الغلام يطلب خمسمائة وهكذا يستنزف الناس ويصيرون فقراء .

ينبغي الا يرسل أي غلام ما لم تكن ثمة مهمة ، والا يكون ارساله دون أمر ، وأن ينبه عليه بأن « المبلغ المطلوب قدره كذا ، فلا تأخذ انت اكثر من هذا أجرا » لتجري الامور في نصابها .

# الفصل الثالث عشر

## في ارسال الجواسيس وتسخيرهم لصلاح المملكة والرعيــة

يجب بث العيون في كل الاطراف دائما في زي تجار وسياح ومتصوفة وبائعي ادوية ودراويش لنقل كل ما يسمعون من اخبار حتى لا يظل ثمة شيء خافيا وحتى يمكن تلافي اي طارىء جديد في حينه . فما اكثر ما كان الولاة والمستقطعون والعمال والامراء يضمرون للملك خلافا وعصيانا ويتربصون به الدوائر سرا ، لكن الجواسيس كانوا يكتشفون ذلك ويخبرون الملك به ، فيركب من وقته وينقض عليهم بغتة ، فيحيق بهم ويحبط مآربهم ومقاصدهم . وكانوا ، اذا ما عرفوا بأن ملكا ما او جيشا اجنبيا ينوي الهجوم على المملكة يخبرون الملك، فيأخذ للامر أهبته ويدفعه . وكانوا ينهون اخبار الرعية خيرها وشرها ، فيتعهدها الملوك بدورهم ، مثلما كان يفعل عضــد الدولة .

### عضــد الدولة والقاضي الخائن

لم يكن من بين ملوك الديالمة من هو أعظم وأكثر يقظة وابعد نظرا من عضد الدولة ، اذ كان سياسيا عالي الهمة ، محبا للاصلاح والعمران . كتب اليه احد عيونه يوما : « ما ان ابتعدت مائتي خطوة عن مدخل المدينة في طريقي الى المهمة التي بعثت من اجلها ، اذا شاب اصفر اللون وعلى وجهه وعنقــه آثار جروح ، يقف على حافة الطريق ، لما رآني حياني ، فرددت عليه تحيته ، وسألته : « لماذا انت واقف ؟ » . قال : « انشد رفيقا أصحبه الى مدينة فيها ملك عادل وقاض منصف » . فقلت له : « اتعي ما تقول ؟! أتنشد ملكا اعدل من عضد الدولــة وقاضيا أعلم من قاضي مــدينتنا ؟ » . قال : « لو كان الملــك عادلا ويقظا لكان القاضي امينا . فلقد أدركت غفلة الملك من خيانة القاضي » . قلت : « ما بدا لك

من غفلة الملك وانحراف القاضي ؟ » قال : « ان قصتي طويلة ، لكنها قصرت برحيلي عن هذه المدينة » . قلت : « ان بامكانك ان تطلعني عليها طبعا » . قال : « هيا بنا نقطع بالحديث طريقنا » .

ولما اخذنا في المسير ، قال : « اعلم انني ابن فلان التاجر الذي يقع قصره في مكان كذا من هذه المدينة . والناس كلهم يعرفون أي رجل كان والدي ، وما كان له من مال وثروة . وخلاصة الامر ، انه لما انتقل والدي الى جوار ربـــه ، اطلقت لهواي العنان وسمت سرج اللهو وعاقرت ابنة الكرم سنوات ، فابتليت بمرض عضال فقدت معه كل امل بالشفاء . ونذرت نذرا لله ، تعالى ، انني ساحج واغزو اذا ما شفيت من مرضي ، ومنّ الله ، تعالى ، بالشفاء عليّ ، وقمت من المرض سالما . وعقدت العزم على الحج ، ومن ثـم الغزو ، واعتقـت جواري وغلماني جميعا ، ووهبتهم مالا وبيوتا وضياعا ، والفت بينهم بالزواج . ثم بعت ما كان لي من اسباب وضياع ومستغلات بخمسين الف دينار ذهبا . وفكرت في نفسي بأنني مقدم على سفرين محفوفين بالمخاطر ، فليس صوابا ان احمل الذهب كله معي . ورايت ان احمل ثلاثين الفا منها وابقي العشرين الاخرى ، فاشتريت ابريقي (١) نحاس ووضعت في كل منهما عشرة آلاف دينار ، وقلت : « والآن عند من أودعهما » . ولم يدلني ضميري الا على قاضي القضاة من المدينة كلها . وقلت في نفسي : « انه رجل عالم وقاض ، وقد اعتمده الملك ووكل اليه دماء المسلمين وأموالهم ، انه لن يخونني على اية حال » . فمضيت اليه وكلمته بالامر سرا ، فقبل هو وسررت أنا . ونهضت سحرا ، وحملت الابريقين الى بيتـــه ووضعتهما عنده وديعة . ثم مضيت في سبيلي ، فاديت فريضة الحج وتوجهت من مكة والمدينة الى بلاد الروم ، والتحقت بالغزاة وقضيت سنوات اجاهد في سبيل الله . وفي احدى المعارك مع الكفار اصبت بجروح في مواطن من وجهي وعنقي وركبتي وفخذي ، ووقعت اسيرا بيد الروم ، وامضيت اربع سنوات في اغلالهم وسجنهم الى الوقت الذي ابتلي فيه القيصر بمرض ، فاطلق سراح جميع الاسرى . وبعد فكاكي من الاسر ، التحقت بالمطوعة وخدمت في صفوفهم ، ولما هيأت نفقات طريق العودة قفلت راجعا على أمل أنني كنت قد أودعت قاضي بغداد عشرين الف دينار .

وبعد عشر سنوات عدت الى بغداد صفر اليدين ، رث الملابس ، هزيل الجســم لشدة ما قاسيت من مشاق السفر وآلام العيشة السيئة في تلك المدة . وذهبت الى القاضي ، فسلمت عليه ، وجلست عنده ، وانصرفت . وترددت عليه ، على هذه الحال ، يومين . ولما لم يقل لي شيئا ذهبـت اليه في اليوم الثالـث ، وجلست طويلا . فلما لم يبق احد اقتربت منه ، وقلت له بهدوء وبطء : « انا فلان ابـن فلان . قد حججت وغزوت وعانيت المتاعب والآلام . وقد انفقت كل ما اخذت معي من مال وعدت بالحال ، التي تراني فيها ، لا الوي على شيء . انني في حاجـة الآن الى ابريقي الذهب اللذين ادخرتهما عندك لمثل هذه الايام العصيبة » . ولم

---

(١) مفردها ابريق ، والكلمة معربة عن الفارسية .

يجب القاضي بقليل او كثير حتى انه لم يكلف نفسه ان يسألني : « ما تقــول انت ، ومع من ؟ » . ونهض الى حجرته وتركني ، فعدت كسير الفؤاد . وكنت اخجل ، لما كنت فيه من حال سيئة وعري ، أن أذهب الــى منزلي أحد اصدقائي وذوي قرباي . بل كنت انام في المسجد ليلا وأتوارى في احدى الزوايا نهارا . ولِم اطيل عليك القصة ؟! لقد طرقت معه الموضوع مرتين ، لكنه لم يجب بشيء . وفي اليوم السابع كلمته بحدة وشدة ، فقال لي : « انك مصاب بالهوس ، وان عقلك قد تبلد من تعب الطريق وغبارها ، فأخذت تهذي كثيرا . لست أعرفك وليس لدي خبر مما تقول . أما الرجل الذي تذكر اسمه ، فكان شابا وسيــم الوجه ، ممتلىء الجسم ، بهيّ الطلعة ، جميل الملبس » . قلت : « أيها القاضي ، أنا نفسي ذلك الشاب ، لكن سبب هزالي وصفرتي ما قضيته من عيش سيىء في تلك المدة . أما قبح وجهي وصفرة لونه ، فليس الا بما اصبت به من جروح » . قال : « انهض ولا تصدع راسي ، انهض وامض بالسلامة » . قلت : « أيها القاضي ، لا تفعل هذا . اتق الله ، فبعد هذه الدار دار اخرى ، ولكل عمل ثواب وعقاب » . قال : « لا تتعبني » . قلت : « لك من الذهب حصتان ولي خمس » فلم يجب . قلت : « أيها القاضي لك احد الابريقين حلالا طيبا ، فرد لي الآخر فانني في عوز شديد . ومع هذا ، اوقع لك براءة تامة بشهادة شهود عدول بأن ليس بذمتك شيء » . قال القاضي : « لقد اضناك الجنون وها انت ذا تدور في فلكه حتى لاستطيع أن احكم بجنونك وآمر بادخالك المستشفى ووضعك بالسلاسل والقيود بحيث تبقــى هناك ما دمت حيــا » .

فخفت وايقنت ان الرجل صمم على غصبي ذهبي ، وأن الناس سيجرون على كل ما يحكم به . ونهضت برفق وخرجت من عنده وانا اردد المثل القائل : « بالملح يتقى فساد اللحم ، فبم يتقى فساد الملح ؟ » . ان القاضي مصدر كل الاحكام ، فمن ذا يخلص العدل منه اذا ظلم ؟ فلو كان عضد الدولة عادلا لما كانت العشرين الف دينار بيد القاضي ، ولما وصلت الى ما أنا فيه من جوع أو تخليــت عن طمعي بمالي وملكي ومرتع صباي » .

لما سمع المنهي من الرجل حكاية حاله تألم له ورق لحالــه ، وقال : « أيها الفتي الشهم ، انما تأتي الآمال بعد اليأس . كِل امرك الى الله . فهو ، عزوجل ، الذي يدبر أمور العباد » . ثم قال له : « لي في هذه القرية صديق شهم مضياف ، وانا ذاهب لزيارته . فهل لك — وقد راقتني رفقتك — ان نقضي اليوم والليلة في بيته وننتظر ما يجيء به غد » . ومضى به الى منزل صديقه . وبعد أن أكلوا ما تيسر لهم دخل المنهي احدى الغرف ، فشرح حال الرجل في رسالة ، وأعطاها احد القرويين ، وقال له : « اذهب الى قصر عضد الدولة واطلب الخادم فلانا وسلمه الرسالة ، وقل له : انها من فلان . يجب أن توصلها حالا وتأتي بالجواب » . ومضى الرسول ، وأعطى الرسالة الخادم فأوصلها الى عضد الدولة حالا . فلما قراها عضد الدولة عضّ على اصبعه ، وأرسل شخصا في الحال ، وقال : « اريد ان تحضر اليّ الرجل مع صلاة العشاء » . فقال المنهــي للشاب : « هيا بنا الى

المدينة ، فان عضد الدولة بعث في طلبنا نحن الاثنين . وهذا الرسول رسوله » . فقال « خير ؟» قال المنهي : « لا شيء سوى الخير ، ربما تناهى الى سمعه كل ما كنت تقول لي في الطريق . انني لآمل ان تصل الآن الى حقك فتستريح من هذا الشقاء » . فنهض ومضى بالرجل الى عضد الدولة .

واخلى عضد الدولة المكان ، وسأل الشاب عن أمره من جديد . فقص عليه القصة ــ كما كانت ــ من أولها الى آخرها . فتأثر عضد الدولة لحاله ، وقال : « ان هذا الامر منوط بنا الآن لا بك . فالقاضي عاملــي ، ومعالجة الامر مــن واجبي . فالله ، عزوجل ــ وهبني الملك لاحفظ الحدود واحميها ولا ادع شخصا يلحق ضيما او ضررا بآخر ، بله القاضي الذي وليته أمور المسلمين ووكلــت اليه دماءهم واموالهم ، وفرضت له اجرا شهريا كيما يسيّر امور الناس بالحق ويحكم بمقتضى الشرع لا يميل ولا يحابي او يرتشي !. أيقع هذا في عاصمة ملكي من رجل عالم ، فتأمل اذن ما يرتكبه العمال والحكام الشبان ، والمتهورون من خيانات في الاماكن الاخرى ؟! لقد كان هذا القاضي في بداية أمره رجلا فقيرا وذا عيال ، وان ما فرضت له من اجر شهري لم يكن أكثر مما يكفيه لكفاف عيشه . لكنه يملك اليوم في بغداد ونواحيها عددا من الضياع والعقارات والحدائق والبساتين والمستغــلات والقصور ، اما وسائل منزله وأدوات زينته وتجمله فلا حد لها . فمن المؤكد انــه لم يكن في وسعه ان يمتلك كل هذا من اجره الشهري ذاك ، ومن الواضح انــه اسسها بأموال المسلمين . ثم التفت نحو الرجل ، وقال : « لن استمرأ الطعام والتذ النوم قبل ان ارد اليك حقك . اذهب وخذ نفقاتك من خزينتنا ، ثم اترك هذه المدينة الى أصفهان واقم بها عند فلان . وسنكتب اليه ليكرم وفادتك الى ان نطلبك منه » . فأعطاه مائتي دينار ذهبا وخمسة أثواب . ثم انفذ الى أصفهان في تلك الليلــة .

اما عضد الدولة ، فقضى ليلته كاملة يفكر في الطريقة التي يسترد بها المال من القاضي . قال في نفسه : « ان اقبض على القاضي عنوة واعذبه فانه لــن يعترف أو يقر او يلبس نفسه تهمة الخيانة بأية حال من الاحوال ، فيذهب المال سدى ، وتلوكني السنة الناس الذين لن يكون لهم من حديث سوى أن عضد الدولة يعذب رجلا كبيرا عالما وقاضيا دون حق ، فتشيع هذه السمعة السيئة في الارجاء . عليّ ان افكر في حل يثبت خيانة القاضي ، ويعيد الى الرجل ماله » .

ولما مضى على هذا الحديث شهر او اثنان ولم ير القاضي لصاحب الذهب من اثر ، قال : « لقد كسبت عشرين الف دينار ، لكن لأصبر سنة أخرى فقــد ينهي اليّ احد خبر موت الرجل ، لانه تبين لي من حاله ، التي رأيته فيها ، انــه سيقضي سريعــا » .

وبعد مضي شهرين على الامر ، ارسل عضــد الدولة في ظهيرة احد الايام وقت القيلولة الى القاضي شخصا يستدعيه فاختلى به ، وقال : « ايها القاضي ، اتدري لماذا كلفتك عناء المجيء ؟ » قال : « الملك ادرى » . قال عضد الدولــة : « اعلم انني في تفكير دائم بالعاقبة والمصير . ولقد حرمت في هذا التفكير وهــذه

السوداوية نعمة النوم . لا معول على الدينا ومملكتها ، ولا اعتماد على الحياة . ان العاقبة لن تعدو امرين : فاما أن ينفض علينا طالب ملك وينتزع المملكة منا مثلما انتزعناها نحن منأيدي الآخرين — وتأمل ما قاسيته حتى استطعت الوصول الى الملك مرة واحدة — ، واما أن يجيء الاجل بغتة فيفرق بيننا وبين الملك والسلطان قبل أن تتحقق آمالنا . ان كل نفس ذائقة الموت ، وما العمر الا صحيفة اعمالنا : فان نكن صالحين نحسن الى عباد الله سيظل الناس يذكروننا بالخير ويكيلون لنا الثناء ما بقيت الدنيا ، وسننال ثواب الآخرة والى الجنة ونعم المصير . وان نكن اشرارا نسيء الى العباد سيظلون يذكروننا بالشر الى يوم القيامة ، وانهم كلما ذكرونا يلعنوننا ويدعون علينا ، ولن نجد يوم القيامة سوى الويل والعذاب ، والى جهنم وبئس المصير . ان كل ما يمكن فعله أن نجهد في الطاعة ، وانصاف الخلق والاحسان اليهم .

غير أن ما أقصد اليه من حديثي اليك هو أن في قصري عددا من الاطفال والنساء خاصة ، وأمر الذكور أيسر لانهم كالطيور يستطيعون الانتقال من اقليم الى اخر . ان خطب هؤلاء المحجبات أسوأ ، فهن ضعيفات لا حول لهن ولا قوة . انني لقادر اليوم على التفكير في أمرهن ، لكنه قد يدركني الاجل غدا أو يفلت الملك مني ، فلا أستطيع أن اقوم لهن بشيء .

لقد فكرت في الامر مليا فلم اجد في كل ارجاء المملكة اليوم من هو اتقى واكثر امانة وتدينا ، وخوفا من الله ، واقصر يدا منك . انني ارغب في أن أضع عندك مائتي الف الف دينار ذهبا نقدا وجواهر وديعة لا يعلمها سوى الله ، عزوجل ، ونحن الاثنين . فاذا ما جاءني اجلي ووصلت بهن الحال الى حد لا يقدرون معه على كسب قوتهن اليومي ، ادعهن سرا ودون أن يحس أحد ، وقسّم المال بينهن ، ثم زوجهن سترا لهن وكيلا يحتجن احدا من الناس . ان هذا الامر يقتضي أن تختار احدى حجرات بيتك الداخلية ، وتنشيء فيها سردابا (١) محكما من الآجر المشوي، ثم تخبرني بعد الانتهاء من بنائه ، لكي آمر في ليلة ما باحضار عشرين مجرما من السجناء المحكوم عليهم بالموت لحمل المال على كواهلهم الى بيتك ، ووضعه في السرداب واحكام سده وتغطيته . وبعد عودتهم آمر بقطع اعناقهم جميعا ، ليظل الامر في طي الكتمان » . قال القاضي : « سمعا وطاعة ، سأعمل ما بوسعي لتنفيذ هذا الامر » . ثم همس في اذن احد الخدم ان « اذهب الى الخزينة ، وضع مائتي دينار من الذهب المغربي في كيس وعد بها بسرعة » .

ولما أحضر الذهب ، تناوله عضد الدولة ووضعه أمام القاضي ، وقال : « هذه المائتا دينار لبناء السرداب ، فان لا تكفي ارسل اليك غيرها » . قال القاضي: « الله الله ايها الملك ، انني ، حتى لو بنيته بمالي الخاص ، لا أكون فعلت شيئا ! » قال عضد الدولة : « بشرط الا تنفق من مالك على شؤوني الخاصة ، فذهبك حلالك انت وحدك ، ولا تعلق له بهذا الشأن . ان تقم بالمهمة التي وقع اختيارنا

---

(١) السرداب فارسية معربة .

واعتمادنا عليك فيها ، فقد اديت كل شيء » . قال القاضي : « الامر امرك يا مولاي » .

ووضع القاضي المائتي دينار في كمه وانصرف من عند الملك في حال كاد يخرج فيها عن جلده فرحا . وقال في نفسه : « لقد حالفني الحظ والجاه في شيخوختي . ستمتلك ذريتي الذهب الذي سيصير كله اليّ يوما اذا ما حان اجل الملك ، فليس لاحد سند عليّ . سيصبح الذهب كله من نصيبي ونصيب أولادي . ان صاحب الابريقين لم يستطع ، وهو حي ، أن يسترد مني دانقا واحدا من العشرين الفا ، فمن سيقدر على الحصول مني على شيء اذا ما مات الملك او قتل ؟ » .

واسرع في بناء السرداب الذي فرغ منه ، على احكم حال واحسنها ، في شهر واحد . ثم مضى الى قصر عضد الدولة مع صلاة العشاء ليلة . فاستدعاه عضد الدولة اليه وحيدا ، وقال : « ما الذي اتى بك الساعة ؟ » قال : « أردت ان أخبر الملك بأن السرداب الذي أمر بانشائه قد تـم » . قال عضد الدولة : « حسن جدا. لقد كنت اعرف جديتك في الامور . الحمد لله الذي لم يخيب ظني فيك ، فانك أرحت بالي من هذا الامر الذي لم اكف لحظة عن التفكير فيه . لقد اعددت من المبلغ المذكور الف الف وخمسمائة الف دينار (١) من الذهب والجواهر ، وما ازال في حاجة الى الخمسمائة الف الاخرى التي افردت لها عددا من الخلع ، ومقادير من العود (٢) والعنبر (٣) والمسك (٤) والكافور ، وكل شيء ، وانني في انتظار باعة الذهب بين الفينة والفينة ، وأرجو ان يتم بيعها في خلال هذا الاسبوع . وحينذاك تحمل اليك الاموال كلها دفعة واحدة . لكنني سأجيء الى بيتك ليلة غد بغتة لالقاء نظرة على السرداب ومشاهدة بنائه . غير أنني لا اريدك ان تكلف نفسك شيئا ، لانني سأعود حالا » . ثم صرف القاضي ، وارسل رسولا الى اصفهان في الحال ، لاحضار صاحب الذهب .

وفي منتصف الليلة التالية ، ذهب عضد الدولة الى منزل القاضي ، فراى السرداب واستحسنه ، ثم قال للقاضي : « ينبغي ان تأتي اليّ يوم الثلاثاء لترى ما أعد من المال » . فقال : « سمعا وطاعة » . ولما عاد من منزل القاضي ، امر الموكل بالخزينة ان يضع مائة واربعين ابريقا مملوءة ذهبا في احدى الغرف ، وأن يضيف اليها ثلاث قوارير مملوءة لؤلؤا ، وكأسا ذهبية مملوءة ياقوتا ، وثانية من لعل ، وأخرى من فيروز .

لما فرغ الموكل بالخزينة من ذلك ، وصل صاحب ابريقي الذهب يوم السبت .

---

(١) أي مليون ونصف مليون دينار .

(٢) العود : هو العود الذي يتبخر به ويستجمر . وفي الحديث الشريف : « عليكم بالعود الهندي » ( اللسان . عود ) .

(٣) العنبر : الطيب المعروف .

(٤) المسك : معرب مشك ( بالشين المعجمة ) الفارسية .

واستدعى عضد الدولة القاضي ، وامسك بيده واخذه الى الغرفة التي وضع فيها المال . وبهت القاضي لما راى الاموال والجواهر ، وهاله ذلك . فقال له عضد الدولة : « ترقب وصول كل هذه الاموال في منتصف احدى الليالي » . ثـم تركا الغرفة ، وعاد القاضي وفؤاده يخفق فرحا .

وفي اليوم التالي ، قال عضد الدولة لصاحب الذهب : « اريدك أن تذهـب الآن الى القاضي ، وتقول له : لقد صبرت مدة وراعيت لك حرمتك . لن احتمل اكثر من هذا ، فاهل المدينة كلهم يعرفونني ويعـرفون ما كان لوالـدي من مال ونعمة ، وهم يشهدون على قولي ويصدقونه في كل مكان . ان ترد لي مالي فبها ونعمت ، والا اذهب الآن الى عضد الدولة شاكيا متظلما ، وأجر عليـك الخزي والعار لتكون فيك للناس عبرة . ثم انتظر جوابه ، فان أعاد اليك ذهبك أحضره اليّ كما هو ، والا أخبرني بما جـرى » .

وذهب الشاب الى القاضي ، وجلس بالقرب منه وقال له ما أمره به عضد الدولة . ففكر القاضي في نفسه أنه « اذا ما شنع هذا الرجل عليّ ، وذهب الى عضد الدولة فسيرتاب في أمري ولا يرسل تلك الاموال الى بيتي . من الاصوب أن اعيد للرجل ماله ، لان مائة وخمسين ابريقا مترعة ذهبا ، وعددا من الجواهـر احسن ، على أية حال ، في نهاية الامر من ابريقي ذهب اثنين » . وقال للشاب : « اصبر قليلا ، فقد كنت ابحث عنك في شتى أرجاء الدنيا » . وبعد قليل ، نهض القاضي ودخل حجرة ثم نادى على الشـاب ووقف الى جانبـه ، وقال : « أنت صديقي وابن صديقي ، وانت مني بمنزلة ابني . ما فعلت ذلك معك الا احتياطا ، ومنذ ذلك الوقت وأنا في طلبك . الحمد لله أنني رأيتك ثانية ، لأتخلص من عبء امانتك . فذهبك ما يزال — كما هو — في مكانـه » . ونهض القاضـي فأحضر الابريقين ، وقال : «ـأهذا ذهبك ؟ » قال الشاب : « اجل » . قال : « اذهب الآن الى اي مكان تشاء » . فخرج الشاب واتـى بحمالين الى منـزل القاضي ، وحملهما الابريقين وسار بهما الى قصر عضد الدولة .

وكان عضد الدولة في مجلس فيه جميـع كبار الدولة لما دخـل الرجل عليه بالابريقين وسلم . فوضعهما أمام عضد الدولة الذي استغرق في الضحك ، وقال : « الحمد لله أنك توصلت الى حقك ، وأن خيانـة القاضي قد ثبتت . أتدري مـا التدابير التي اتخذناها والافكار التي اتبعناها حتى توصلت الى ذهبك ؟ » . وسأل الحاضرون عن الامر . فسرد عضد الدولة عليهم حكاية الشاب والاساليب التـي سلكها هو في ذلك . فتملكهم العجب جميعا . ثم امر عضد الدولة حاجبه الكبير أن « اذهب وجئني بقاضي المدينة حاسر الرأس ، وعمامته ملفوفة حول عنقـه » . ولما احضر القاضي الى عضد الدولة بهذه الهيئة ، ونظر فراى الشاب واقفا هناك والابرقين أمام عضد الدولة ، قال : « واحسرتاه ! لقد قضي عليّ » . وأدرك ان كل ما قاله له عضد الدولة واظهره عليه لم يكن الا لأجل هذين الابريقين . وقال له عضد الدولة : « ان ترتكب أنت خيانة وتضيع الامانة ، وأنت رجل مسن وعالم وقاضي ، فماذا يتوقع من الآخرين اذن ؟. انه لمعلوم الآن ان كل ما تملك وما أنشأت

ليس الا من أموال المسلمين والرشوة . انني مجازيك بما تستحق في الدنيا ، لكن الله هو الذي يعاقبك في الآخرة . ثم انني أهبك حياتك لسنك وعلمك ، اما اموالك واملاكك فللخزينة كلها » . وصادر ما كان لديه مـن أموال وممتلكات ، ولم يوله القضاء أو اي عمل اخر بعد ذلك . ثم أعطى الشاب ابريقي ذهبه كما هما .

## السلطان محمود والقاضي الخائن

ووقع للسلطان محمود مثل هذا . فقد ناوله رجل في الطريق شكوى تقول : « وضعت عند قاضي المدينة الفـي دينار في كيس ديباج (١) أخضر محكم الربط مختوما وديعة ، وذهبت في سفر . غير ان اللصوص على طريق الهند سلبوني كل ما كنت حملت معي . فعدت واستعدت من القاضي وديعتي ، لكنني لما وصلت الى البيت وفتحت الكيس فاذا ما به دنانير نحاسية . فرجعت الى القاضي ، وقلت له : « لقد اودعتك كيسا مليئا بالذهب ، لكن ما فيه الان نحاس ، فأنى يكون ذلك ؟! قال : أريتني الذهب او وزنته او عددته لما أودعتنيه ؟ لقد أودعتني كيسا مربوطا باحكام ومختوما ، وهكذا استعدته . وحينذاك سألتك : « اهذا هو كيسك والختم ختمك ؟ » قلت : « هو عينه ، واخذته وانصرفت بالسلامة ، والان تأتي بهـذا الزعم الباطل ! » الله الله أيها الملك العادل ، أغثني ، فانني لا اقدر على رغيف خبـز واحد » .

فتألم السلطان محمود لحاله ، وقال : « لتهدأ بالا فسأتولى أمرك بنفسي . اذهب واحضر الكيس » . فذهب الرجل وأحضره الى محمود الذي قلبه وعاينه بدقة من كل أطرافه فلم يهتد الى ما يوحي بفتحه . فقال للرجل « اتركه عندي ، وقد جعلت لك ثلاثة منوات خبز ومنّ لحم يوميا ، وعشرة دنانير شهريا من وكيلنا الى ان اتدبر امر ذهبك وحتى لا تبقى دون مؤونة » .

وفي ظهيرة احد الايام وقت القيلولة ، وضع السلطان محمود الكيس أمامه واخذ يفكر : كيف استطاع ذلك ؟ وهداه تفكيره اخيرا الى انه من الممكن أن الكيس قد فتح واخرج ذهبه ثم وفي ثانيـة .

وكان عند محمود غطاء مذهب جميل موضوع على أحد المفارش . وفي منتصف احدى الليالي نهض محمود وهبط من سطح البيـت وتناول سكينا قدّ بها الغطاء مقدار ذراع ثم عاد الى مكانه . واستيقظ في الصباح الباكر وهبط من على السقف ايضا ، وخرج الى الصيد لمدة ثلاثة أيام .

وكان للمكان الذي فيه الغطاء فرّاش خاص يقوم على تنظيفه . فلما ذهب اليه في الصباح وجد الغطاء مشقوقا بمقدار ذراع من وسطه . فخاف وغلبه البكاء خوفا . فلما رآه فراش اخر ، كان في بيـت الفراش ، يبكي هكـذا سأله : « ماذا حدث ؟ » قال : « كان لاحد عندي ثأرا ! فقد دلف شخص الى صفة السلطان وقدّ

---

(١) ديباج : معرب ديبا .

غطاءه ذراعا . ان تقع عينه عليه ، فسيقتلني لا محالة » . فقال له الفراش : « هل رآه احد غيرك ؟ » قال : « لا » . قال : « لا تقلق . حل الامر عندي . فاسمع ما اقول : لقد خرج السلطان للصيد لمدة ثلاثة ايام ، وفي هذه المدينة رفاء كهل‌اسمه أحمد ، دكانه في ناحية كذا . انه ماهر في الرفو ، وكل رفائي المدينة تلاميذ له . خذ الغطاء اليه واعطه ما يطلب من أجر ، فسيرفوه رفوا لن تستطيع حتى الصفوة المختارة من اساتذة هذا الفن معرفة مكان الشق » .

ولف الفراش الغطاء في ازار حالا ، ومضى به الى دكان أحمد الرفاء ، وقال : « كم تريد من اجر على رفو هـذا الغطاء بحيث لا يستطيع أحـد أن يعرف مكان شقه ؟ » قال : « نصف دينار » . فقال الفراش : « ليكن دينارا على أن لا تألو فيه من حذقك ومهارتك شيئا » . قال الرفاء : « أشكرك ، ولتهدأ بالا » فأعطاه دينارا ، وقال : « اريده بسرعة » . قال : « تعال غدا مع صلاة العصر وخذه » .

وفي اليوم التالي ، ذهب الفراش في الموعد المضروب ، فوضع الرفاء الغطاء امامه فلم يستطع ان يعرف المكان الذي شق منه . فسر جدا ، وعاد الى القصر واعاده الى مكانه الاول .

ولما عاد محمود من الصيد ، وذهب الى صفته ظهرا لينام رأى الغطاء سالما. فقال : « اليّ بالفراش » . فلما حضر الفراش ، قال محمود : « لقد كان الغطاء مشقوقا ، فمن ذا الذي رتقه ؟ » قال : « يا مولاي ، انه لم يشق أبدا . هـم يكذبون » ! قال محمود : « يا احمـق لا تخف ، فأنا الذي شققته ، وكنت اهدف من وراء هذا شيئا . أصدقني القول . من ذا الذي رفاه ؟ لقد اتقنه حقا » . قال : « يا مولاي ، الرفاء فلان » قال : « اريدك أن تحضره اليّ حالا . قل له : ان السلطان يريدك ، وحتى لا تذهب به الظنون كل مذهب ، قل له : انهم يريدونك في القصر لامر صغير ، فتفضل . وعندما يصل ادخله عليّ » .

ومضى الفراش مسرعا ، واحضر الرفاء بين يدي محمود . فخاف لما رأى السلطان جالسا وحده . ولما وقعت عين محمود عليه ، قال : « تقدم يا هذا » ثم قال له : « أأنت الذي رفوت الغطاء ؟ » قال : « أجل » . قال السلطان : « لقد اتقنته جيـدا » قال : « بحقك يا مـولاي ، انني قد اتقنتـه جيدا » قال محمود : « ايوجد في المدينة أمهر منـك ؟ » قال : « لا » . قـال السلطان : « اتصدقني القول ان سألتك شيئا ؟ » . قال : « ليس ثمة شيء أجدى مـن الصدق مع الملوك » . قال السلطان : « هل رفوت في بيت أحـد الاثرياء كيس ديباج اخضر في الست أو السبع سنوات الاخيرة ؟ » قال : « أجل » . قـال السلطان : « أين ؟ » قال : « في بيت قاضي المدينة ، وقد أعطاني ديناريـن اجرا » . قال السلطان : « اتعرف الكيس الذي رفوته ان تـره ؟ » . قال : « أجل » . ومد السلطان يده تحت المفـرش ، فتناول الكيس واعطاه الرفاء ، وقال : « اهذا هو ذلك الكيس ؟ » . قال : « هو نفسه » . فقال السلطان : « أين المكان الذي رفوته فيه . أرنيه » ووضع الرفاء اصبعه عليه . فعجـب السلطان لمهارته في دقة رفوه ، وقال : « أتشهد على القاضي ان دعت الحاجـة

لذلك ؟ » . قال : « ولم لا ؟ » . فارسل محمود الى القاضي رسولا يستدعيه ، وقال لآخر : « ادع لي صاحب الكيس » .

فلما حضر القاضي ، سلم وجلس كالعادة . فالتفت محمود نحوه ، وقال : « انت رجل عالـم وعجوز ، عهدت اليـك بالقضاء ، ووليتك امـوال المسلمين ودماءهم واعتمدت عليك ، في حين أن في هذه المدينة خاصة ، ومملكتي عامة الفي رجل عاطلين — وهم اعلم منك — افصحيح ان تخون الامانة وتأكل مال امرىء مسلم من اساسه ظلما وعدوانا وتتركه محروما لا يلوي على شيء ؟ » . قال القاضي : « يا مولاي ، ما هذا الكلام ، ومن ذا الذي يقوله ؟ انني لم افعل من ذلك شيئا » . فقال محمود : « ايها المنافق الكلب ، انت فعلت ذلك ، وانا الذي اقول هذا » . واراه الكيس ، وقال : « هذا هو الكيس الذي فتحته واخرجت الذهب منـه وبدلته بنحاس ثم أمرت برفوه . وبعد ذلك تلا تتلصاحبه : لقد احضرتـه مربوطا مختوما وهكذا استعدته . اوزنت علـي شيئا أو اريتنيه ؟ . اهذه هـي سيرتك ومسلكك في أمور الدين ؟! » . قال القاضي : « انني لم ار هذا الكيس قـط ، ولا علم لي بما تقول » . فقال محمود : « اليّ بالرجلين » . فذهب احد الخدم ، واحضر صاحب الكيس والرفاء وادخلهما على محمود ، فقال : « يا كذاب ، هذا صاحب الذهب ، وهذا الذي رفى الكيس من هنا » . فخجل القاضي ، واصفر وجهه ، واخذ يرتجف خوفا ، ولم يستطع التفوه بشيء . فقال محمود : « خذوه وتولوا امره . واريده ان يعيد للرجل ذهبه الان ، والا امرت بضرب عنقه وسآمر بعد ذلك بما يجب فعله » . فأخرج القاضي مـن عند محمود ، ووضـع في دار الخضراء حيث قيل له : « سلم الذهب » . فطلب القاضي وكيله ودله على مكان الذهب . فذهب الوكيل واحضر الالفـي دينار ، وهي من الذهـب النيسابوري ، واعطاها صاحبها .

وفي اليوم التالي ، جلس محمود للمظالم واعلن بحضور الكبراء خيانة القاضي على الملأ . ثم امر باحضاره وتعليقه منكس الراس من على شرفات القصر . لكن الكبراء تشفعوا له بحجة انه « رجل مسن وعالم » على ان يفدي نفسه بخمسين الف دينار . فانزل بعد ذلك واخذ المبلغ منه . ولم يوله محمود القضاء بعـد تلك الحادثة البتـة .

ان قصص الملوك من هذا القبيل كثيرة ، ذكرت هذا القدر منها ليعلم سيـد العالم — خلد الله ملكه — كيف كان الملوك عدلا وانصافا ، وكيف كانوا يفكرون في سبيل ايصال المظلومين الى حقوقهم وردها اليهم ، وما هي السبل التي سلكوها في ازالة المفسدين ومحوهم من على وجه المعمور ، وان الملك ذا الراي القوي الصائب اجدى من الجيش القوي . واحمد الله أن هذين الامرين متوفران في مولى العالم .

هذا الفصل وقف على الجواسيس والعيون . ان عملهـم ينبغي ان يولاه المعتمدون فقط . فقد كان الملوك ، كلما عثروا علـى امثال هؤلاء ، يرسلونهم في المهام الى شتى الانحاء والاطراف في استمرار .

# الفصل الرابع عشر

## في الرسل والسعاة

ينبغي وضع السعاة على الطرق المعروفة دائما ، وتخصيص اجور شهرية ومكافئات لهم ، فبهذا يهتمون بنقل ما يقع من احداث واخبار ليل نهار من على بعد خمسين فرسخا . وكما جرت به العادة من قبل يجبتعيين نقباء لمراقبتهم والاشراف عليهم حتى لا يتوانوا في اداء واجباتهم .

# الفصل الخامس عشر

## في الحيطة في اصدار الأوامر السلطانية في السكر والصحو

ان ما يصل الى الديوان (١) والخزينة في ما يتعلق بالمهمات والولايات والاقطاع والصلات من أوامر واحكام قد يصدر بعضها في حال انتشاء وغبطة . ولدقة هذا الامر تنبغي الحيطة التامة فيـــه .

ولربما يقع تفاوت فيها بين النقلة أو أنهم لا يسمعونها كما هي . لذا ينبغي أن تناط بشخص واحد فقط ، على ان ينقلها بنفسه لا ينيب عنه أحدا . ويشترط عدم تنفيذ هذه الاوامر واجرائها قبل عرضها على الاعتاب الملكية مرة اخرى من قبل الديوان ، وان تعدد ناقلوها وموصلوها .

(١) لفظة ديوان فارسية الاصل .

# الفصل السادس عشر

## في الوكيل الخاص وشروط عمله وأهميته

لقد غدا هذا العمــل الذي كان لا يولاه الا شــخص معروف ومحترم مهملا مهجورا في هذه الايام .

على من يتولى الاشراف على شؤون تموين الملك ، ومطبخه ، واصطبله (١) ، وقصوره الخاصة ، وولده وحاشيته ، وخدمه أن يوطن نفسه للمثول بين يديــه شهريا ، بل يوميا وفي اي وقت ، ليعرض الاحوال ، وهو العارف بكل ما في المجلس العالي ، ويستطلع راي السلطان ، ويطلعه علــى كل ما يجري وكــل ما يعطيه ويأخذه . ويجب أن يكون للوكيل الاحترام التام ليتمكن من القيام بعمله باحكام ونظام.

---

(١) اختلف في أصل لفظة اصطبل ، فقيل هي رومية ( الالفاظ الفارسية المعربة ، ص ٩٥ ) وقيل انها يونانية ( فرهنك نفيسي ) .

# الفصل السابع عشر

## في ندماء الملك ومقربيه وتنظيم أمورهم

لا مندوحة للملك من اتخاذ الندمان الاكفاء ممن ينطلق معهم على سجيته ويطارحهم ما يريد دونما حرج ، ذلك ان مجالسة الملوك الكبراء وحكام الاطراف وقادة الجيش بكثرة تؤثر في هيبتهم وعظمتهم وتقديرهم وتزيد من جسارة اولئك معهم .

وجملة القول ، ان على الملوك الا يتخذوا ندماءهم ممن اسندوا اليهم مناصب ومقامات واعمالا ، والا يسندوا للندماء اي عمل ابدا ، لانهم بما لهم في رحاب الملك من حظوة قد يتطاولون ويتسببون في ايذاء الناس وارهاقهم .

العامل ينبغي أن يهاب الملك دائما ، أما النديم فجرأته وجسارته معه مرغوبة، والا فان الملك لا يستطيب منادمته ولا يهش لها ، فطبع الملك ينبسط بالندمان . وللندمان أوقات معلومة ، فبعد انفضاض اجتماع الملك بالكبراء وانصرافهم من عنده يبدأ دور الندامى .

وللنديم فوائد عدة ، اولها ايناس الملك . وثانيها أن النديم بحكم وجوده مع الملك ليل نهار يكون بمثابة الحامي له ، والذائد عنه ، والمحافظ عليه . فاذا ما حاق به — والعياذ بالله — خطر ما ، فان النديم لا يخشى ان يجعل من نفسه درعا يدرؤه بها . وثالثها انه يمكن تقليب الحديث بجده وهزله مع النديم في حين يتعذر مثل هذا مع الوزراء والكبراء ، لانهم اصحاب مناصب ومقامات ، وعمال الملك . ورابعها واخرها ، انه بحكم جراة الندامى وجسارتهم يمكن الاستماع منهم الى اشياء كثيرة ، ومعرفة امور واحوال عديدة من خير وشر في صحو وسكر مما لا يخلو من فائدة وصالح عام .

لكن ينبغي أن يكون النديم كريم المعدن فاضلا ، وسيما ، نقي المذهب ، حافظا للسر ، نظيف الملبس ، عارفا ، بكثرة ، للاسمار والقصص والنوادر هزليها وجديها ، حسن الرواية يعرف لكل مقام مقاله ، مجيدا للعب النرد والشطرنج ، وحبذا لو انه يجيد الغناء والضرب على الآلات الموسيقية . وينبغي أن يكون موافقا للملوك دائما يردد « بخ واحسنت » كلما ينطق الملك شيئا او يفعله ، والا ينصب

من نفسه معلما بأن يقول : « افعل هذا » و « لا تفعل ذلك » و « لماذا فعلت ذلك ؟ » و « لا يجب فعل ذلك » . فهذه امور يصعب على الملوك قبولها وتحملها ، وهي تجر الى الكراهيـــة .

اما فيما يتعلق بالمعاشرة والتنزه ومجالس الانس والشراب والصيد واللعب بالطبطابة (١) والميسر وغيرها ، فمن الافضل أن يتدبرها الملوك مع الندماء لانهم انما اعدوا لمثل هذا . وأما ما يختص بشؤون المملكة والعمران ، والحرب والهجوم والعقوبات والذخائر والصلات والسفر والاقامة والجيش والرعية وأمثال هذا ، فمن الاولى تدبره وتدارسه مع الوزراء وكبراء الدولة والمسنين من ذوي التجارب والخبرات والاسفار ، فهم في هذه الامور أخبر وأدرى وادهى . وهكذا يوضع كل امـــر في نصابـــه .

لقد اتخذ بعض الملوك ندمانهم من الاطباء والمنجمين ، وقالوا : الطبيب يبين منافع ومضار كل مأكول ، وينصح الملك بما يوافقه ولا يوافقه ، ويحفظ له سلامة مزاجه . اما المنجم فيرقب الوقت ويعلن عن أوقات السعد والنحس ، ويختار وقت كل ما ينوي الملك القيام به من اعمال . في حين عدهما بعض الملوك عبثا . قالوا : « ان الطبيب ، ولا مرض ، يحول بيننا وبين الاطعمة الشهية دائما ، ويصف لنـــا الادوية ويفصدنا ، ولا تعب أو الم . اما المنجم فيمنعنا من ممارسة الاعمال واداء الواجبات والمهام . وحين تنعم النظر تجد انهما يحولان دائما بيننا وبين تحقيـــق اهدافنا ، فضلا عن لذائذ الدنيا وشهواتها ، وينغصان علينا عيشنا . وهذا مـــا يتطلب استدعاؤهما وقت الحاجة فقط » .

ويفضل أن يكون الندماء من ذوي التجارب والاسفار ، وممن خدموا العظماء ، والاكابر . فاذا ما أراد الناس التعرف على أخلاق الملك وعاداته ، فانهم يقيسونه بندمائه . فان يكونوا ذوي اخلاق حميدة وطباع رحبة صبرا وذوي شهامة وظرف يدركوا آنئذ ان الملـــك حسن الخلـــق والطباع ، محمـــود السيرة ، حلو الشمائل والعادات . وان يكونوا مقطبي الوجوه متعجرفين ، مستخفين ومتكبرين ، بخلاء رعناء ، وممن يطلبون المحال ، فان الناس يستدلون على ان الملك سيء الطبـــع والخلق والسيرة ، ممسك شرير متهور .

ولكل نديم رتبة ومقام ، اذ خصصت اماكن لجلوس بعضهم واماكن لوقوف بعضهم الآخر ، فيما كانت العادة قديما ، في مجالس الملوك والخلفاء ، وما يزال هذا التقليد متبعا في الاسرات القديمة الى اليوم . فللخليفة مـــن الندماء ما كان لآبائه مـــن قبـــل .

أما سلطان غزنين ، فكان له عشرون نديما ، عشرة جلوس ، وعشرة قيام. وقد حذا حذو السامانيين في هذا .

وينبغي ان تكون لندامى الملك رواتب لعيشهم ، وحرمة تامة بين حشمة . أما هم فعليهم ان يكونوا متحفظين مهذبين وللملك محبين .

---

(١) الطباطبة خشبة عريضة يلعب بها بالكرة . ( اللسان - طبب ) .

# الفصل الثامن عشر

## في استشارة الملك للحكماء والمسنين في الأمور

المشاورة في الامور من قوة راي المرء وكمال عقله وبعد نظره . فلكل امرىء علم ، والناس متفاوتون فيما يعرفون . فثمة كثير العلم والدراية ، واخر قليلهما ، ومنهم ذو علم لم يمارسه عمليا ولم تعركه التجارب ، واخر عالم خبير مجرب . مثال هذا أن من قرأ علاج الآلام والادواء وحفظ أسماء الادوية جميعها من بطون الكتب وحسب ، لا يمكن ، باية حال ، أن يقف على قدم المساواة مع من عالج الامراض والعلل مرات عديدة وعرف الادوية عن خبرة وتجربة . كذلك لا تمكن مساواة من سافر كثيرا وطوّف في الآفاق وذاق حرها وبردها ، وعرك الاعمال بنفسه بمن لم يسافر ولم يجب البلدان ويقتحم ميدان العمل ويخض مار الامور قط. قيل في هذا المعنى: « ينبغي تدبر الامور باستشارة الحكماء والمسنين وذوي التجارب والاسفار » . ومن الناس أيضا من هو متوقد الذهن يمكنه تبين الامور بسرعة ، ومن هو بطيء الفهم . قالت الحكماء : « ان تدبير رجل واحد بقوة رجل واحد ، وتدبير اثنين بقوة اثنين ، وتدبير عشرة بقوة عشرة » .

وعلى اية حال ، فطاقة عشرة رجال اكثر من طاقة رجل واحد واقوى ، وخطة عشرة اشخاص اقوى من خطة شخصين او ثلاثة او خمسة . والناس متفقون قاطبة على انه لم يكن في البشر اعلم واحكم من نبينا محمد المصطفى (ص) ، فقد اجتمعت له العلوم كلها ، وكان يعرف المستقبل معرفته الماضي ، وقد اطلع على السموات والارض ، والجنة والنار ، واللوح والقلم ، والعرش والكرسي ، وما بين كل اثنين منها ، وكان جبرائيل ( عليه السلام ) يهبط عليه دائما ويوحي اليه بما كان وبما لم يكن . ومع ما كان له من فضائل ومعجزات ، فقد خاطبه اللـه

تعالى بقوله : « وشاورهم في الامر (١) » . ومع ان الرسول (ص) لم يكن في حاجة الى المشورة ، فليعلم ان ليس ثمة مخلوق يمكن ان يكون في غنى عنها .

فعلى الملك اذن اذا ما همّ القيام بعمل ما او اعترضه أمر أن يستشير مسني مملكته المحنكين ومؤيديها وأولي الامر فيها ، ليدلي كل منهم بما يعن له من راي في الموضوع ، ثم تقابل آراؤهم بما يراه الملك . فبعد ان يظهر كل منهم رايه ويسمع اقوال الاخرين وآراءهم لا بد من بروز الراي الصواب من بينها جميعا . والـــراي الصائب هو الذي تجمع عليه العقول المتكافئة بأن « هذا هو الذي يجب فعله » .

أما عدم المشورة في الامور فمن ضعف الرلاي . ويدعى الشخص مـــن هذا الصنف بالمتشبث او المستبد برأيه . وكما أنـــه لا يتسنـــى القيام بأي عمل بغير اهله ، فان أي أمر لا يستقيم جيدا دون مشورة . أما سيد العالم ـــ خلد اللـــه ملكه ـــ فقد اجتمع له ـــ والحمد لله ـــ الراي القوي ، وأهل العمل والمشورة ، وما هذا القدر الذي ذكر هنا الا مراعاة لشرط الكتاب .

(١) آل عمران ، اية ١٥٣ .

# الفصل التاسع عشر

## في المغاوير والأفذاذ وأسلحتهم ومعداتهم وزينتهم

ينبغي أن يكون في القصر مائتا رجل ممن يعرفون بالمغاوير . وهم يختارون عادة من حيث المظهر الحسن ، والطول الفارع ، والرجولة والشجاعة التامتين . وينبغي أن يكون مائة منهم من خراسان والمائة الاخرى من الديالمة ، ليقوموا جميعا بملازمة الملك وخدمته في حله وترحاله . ويجب أن يظلوا بألبسة جميلة في القصر دائمـــا .

ويجب أن تعد لهم مائتا قطعة سلاح تســـلم اليهم وتسترد منهـــم في أوقات معلومة ، على أن يكون من بين هذه الاسلحة عشرون ترسا وحمالة سيف مـــن ذهب ، ومائة وثمانون ترسا وحمالة ورمحا خطيا (١) من فضة . كما ينبغـــي أن يظهروا في ألبسة ثمينة وأن تجري عليهم رواتب دائمـــة .

ويجب أن يكون لكل خمسين منهم نقيب يتولى شؤونهم والاشراف عليهـــم واصدار الاوامر واسناد المهام اليهم . وينبغي أن يكونوا جميعهم خيالة مجهـــزين بكل الوسائل والمعدات حتى لا يعجزوا عن اداء الواجبات المنوطة بهم حين الملمات.

بالاضافة الى هذا يجب ان تسجل في الديوان باستمرار أسماء أربعة آلاف راجل من كل الاجناس احتياطا ، الف للملك خاصة ، وثلاثة آلاف لافواج الامراء وقادة الجيش للاستعانة بهم في الملمات وحين الحاجة .

---

(١) الرماح الخطية نسبة الى « الخط » وهو مرفأ بالبحرين ، كانت ترسو فيه السفن التـــي تحمل القنا من الهند . ( راجع التفاصيل في : اللسان ـ خطط ) .

## الفصل العشرون

## في اعداد الأسلحة المرصعة وزينــة القصر

ينبغي اعداد عشرين قطعة سلاح خاصة مرصعة بالجواهر وغيرها ووضعها في الخزينة ، ففي كل وقت تقام فيه الاحتفالات او يصل الرسل من ارجاء الارض يرتدي هذه الاسلحة عشرون غلاما بألبستهم الجميلة ويقفون بها حول سرير الملك. ومع ان الملك ــ بحمد الله تعالى ــ بلغ مرتبة تجعله في غنى عن مثل هذا الا انه تجب مراعاة زينة الملك والمملكة والحفاظ عليهما والاهتمام بهما ، فزينة كل ملك وعدته ينبغي ان تكونا على قدر همته وملكه . وليس في هذه الايام ملك في العالــم اعظم من مولى العالم ، خلد الله ملكه ــ أو اوسع منه مملكة . فمن الواجب اذن ان يكون له عشرة اضعاف ما للملوك الآخرين في كل شيء ، ومائة مثل ان يكن لهم عشرة ، لتوفر كل ما ينبغي توفره من همة وآلة وعدة ومروءة وعظمة وملك .

## الفصل الحادي والعشرون

## في أحوال الرسل وأساليبهم وتنظيم مهامهم

حين يفد الرسل من البلدان المجاورة والممالك المختلفة ولا يدري بهم احد الا عند وصولهم ، ان احدا لا يتعهدهـــم ولا يقدم لهم شيئا في مجيئهم وورودهم ، فانهم يحملون هذا محمل الغفلة والتهاون في الامـــور .

لذا ينبغي أن ينبه على عمال الحدود بأن يرسلوا ، حال قدوم اي شخص ، خيالا فورا يخبر عمن هو القادم وعن عدد خيالته وراجليه ومعداته وخدمه وحشمه والمهمة التي هو آت من اجلها . كما يجب ان ينتدبوا شخصا ممن يوثق بهم ويعتمد عليهم لمرافقتهم وايصالهم الى احدى المدن المعروفة ، ثم تحويلهم هناك الى ولاة الامر فيها الذين ينبغي عليهم ايضا ان يقوموا بالدور نفسه فيأخذوهم الى مدينة اخرى ، وهكذا دواليك الى ان ينتهوا الى القصر . وينبغي الايعاز الى المسؤولين والعمال والمستقطعين في كل الاماكن العامرة الآهلـــة التي يصـــل اليها الوافدون ويحلون بها أن يكرموا وفادتهم ، ويحسنوا معاملتهم ، ويقدموا لهم أحسن ما عندهم من طعام وغيره ، وأن يصرفوهم راضين فرحين في ذهابهم وايابهم . لان ما يعاملون به من احسان او اساءة ليس في واقع الامر الا معاملة للملك الذي اوفدوا من لدنه . والملوك دائما يحفظون حرمة بعضهم بعضا ، ويكرمون رسلهم الى حد يرفع مـــن اقدارهم وجاههم لا يقلل منها . حتى في الوقت الذي كانت تنشـــب فيه الخلافات ويستفحل الخطر بين الملوك كان الرسل يغدون ويروحون فيؤدون الرسائل على النحو الذي كلفوا به دون أن يمسهم ضر أو يقل الاحتفاء بهم عما جرت به العادة ، لان اي تصرف غير هذا يكون شينا على صاحبه . فالله عزوجل يقول في محكم كتابه الكريم : « وما على الرسول الا البلاغ المبين (١) » .

---

(١) النور ، آيـــة ٥٣ .

## ( مآرب اخرى من وراء ايفاد الرسل )

ومما تجب معرفته ايضا ان بغية الملوك من ايفاد رسلهم الى بعضهم لا تنحصر في ايصال رسائلهم واخبارهم واظهارها علـى الملأ فحسب ، انما تمتد مآربهـم واهدافهم السرية الى اكثر من هذا . انهم يرمون الى استطلاع وضع الطـرق والعقبات ومياه الانهار ، ايستطيع الجيش ان يتخطاها أم لا ؟ ثم الى تبين المواطن التي يتوفر وينعدم فيها العلف ، والى معرفة العمال واولي الامر في كل ناحيـة وصوب . ومن مآربهم ايضا : معرفة عدد جيش ذلـك الملك وما يملـك من آلات وعدد ، واستطلاع خوانه ومجلسه وترتيـب قصره وبلاطه ، وكيفية مجالستـه ومعاشرته ومنادمته وصيده ولعبه بالطباطبة وخلقه وسيرته وهباته وكرمه وسعيه وجده ومظهره واعماله : اظالم ام عادل ؟ اعجوز ام شاب ؟ اعامرة ولايته ام خربة ؟ اراض جيشه ام متظلم ؟ اغنية رعيته ام فقيرة ؟ اشحيح ام بخيل ؟ اعاقل في تصريف الامور أم غافل عنها ؟ اوزيره اهل ومتدين وحسن السيرة أم لا ؟ اقادة جيشـه متمرسون وذوو باع في امور الحرب ام لا ؟ اندمانه ظرفاء لائقون أم لا ؟ ما يحب وما يكره ، اهو منبسط الطبع حسنه في الشراب ام لا ؟ امتين في امور الدين ورحيم ام ضعيف وجاهل ؟ ايميل الى الهزل اكثر ام الى الجد ؟ ايرغب في الغلمان اكثر أم في النساء ؟ كل هذا ليكونوا على بينة من أمره اذا ما رغبوا في محالفته أو مخالفتـه وتصيد العيوب عليه ، وليأخذوا للامر اهبته ان خيرا فخير وان شرا فشر ، ثـم يتخذوا ما يرونه مناسبا مثلما حدث لي (١) في عهد السلطان الشهيد الب ارسلان ، انار اللـه برهانه .

## ( الشافعيـة والحنفيـة )

ليس في العالم كله افضل واقوم من مذهبي أبي حنيفة والشافعي ، رحمة الله عليهما ، اما المذاهب الاخرى فبدع واهواء وشبهات . ما كان اصلـب السلطان الشهيد ـ رحمه الله ـ واقومه في مذهبه فقد جاء على لسانه مرات : « وا اسفاه ! ليت وزيري لم يكن شافعيا ! » وقد كان سياسيا محنكا ومهيبا جدا . ولقد كنت اخشاه واهابه واحسب له حسابا دائما لاعتقاده الشديد بمذهبه وجديتـه فيه وانتقاصه مذهب الشافعي .

## الخواجـة نظام الملك ورسول شمس الملك

لما عقد السلطان الشهيد العزم على التوجه الى ما وراء النهر وسمرقند ،

---

(١) أي نظام الملك نفسـه .

لشق « خان » (١) سمرقند شمس الملك (٢) عصا الطاعــة عليه ، استدعــى الجيش وأوفد الى شمس الملك نصر بن ابراهيم رسـولا ، أوفدت (٣) أنا « دانشمند الاشتر » (٤) مبعوثا من قبلي مع رسول السلطان ليطلعني على ما سيجري ويأتيني بخبــره .

وبلغ رسول السلطان رسالته الى شمس الملك ، فأرسل الاخير من هناك رسوله مع رسول سلطاننا اليه . ومما جرى به العرف ان يمثل الرسول بين يدي السلطان ويسلم الرسالة وينقل ما كلف بنقله من اخبار ثم ينزل في المكان الذي اعد لــه . وجرت العادة أيضا ان الرسل كانوا يدخلون على الوزير بين الحين والحين يلتمسون اليه أن ينقل الى السلطان — قبل عودتهم — ما لم يتمكنوا من نقله اليه مشافهة . وحدث انني كنت في منزلي العب الشطرنج مع نفر من جلسائي فتغلبت على احدهم واخذت خاتمه رهينة . ولما كان الخاتم أوسع من اصابع يدي اليسرى، وضعته في احدى أصابع يدي اليمنى . وفي تلــك الاثناء قيل لي : « رسول أمير سمرقند بالباب » قلت : « ادخلوه » وامرت برفع الشطرنج . فلما دخل وجلس وشرع في عرض ما كان يريد قوله — وانا اعبث بالخاتم واتنقل به في اصبعي — وقعت عيناه على الخاتم واصبعي معا . ولما انهى حديثه نهض وانصرف . ثم أمر السلطان باعادة رسول الامير وايفاد رسول اخر من لدنه يأتيه بالجواب . وارسلت دانشمند الاشتر — وكان ذكيا — مع رسول السلطان هذه المرة ايضا . لما وصل الرسولان الى سمرقند ، ومثلا بين يدي شمس الملك ، سأل في تلك الاثناء رسوله : « كيف القيت السلطان الب ارسلان رأيا ومظهرا وعملا ، وكم عدد جيشه ومعداته واسلحته ووسائله ؟ وكيف وجدت ترتيــب القصر والبلاط والديــوان وقاعــدة الملكة ؟ » . قال الرسول : « ان السلطان لا ينقصه شيء من حيث اللياقــة والمنظر والرجولة والسياسة والهيبة وانفاذ الحكم والامر . اما جيشه فلا يعلم عدده سوى الله وحده ، وأما عدده وآلاته وأسلحته فحدث ولا حرج . فأما تنظيم

---

(١) خان : كلمة تركية الاصل من ألقاب سلاطين « خطأ » و « وتاتارستان » . وهو لقب يطلق على الامير والرئيس والعظيم أيضا . وخاقان هو خان خان أي رئيس الرؤساء ( انظر : مفاتيح العلوم ص ٧٣ ثم الدكتور حسن الباشا : الالقاب الاسلامية ص ٢٧٤ ) .

(٢) هو ناصر الدين أبو الحسن شمس الملك نصر بن طمغاج خان ابراهيم . كان أميرا علــى سمرقند وما وراء النهر ، وكان تابعا للغزنويين والسلاجقة من بعدهم . ولي الامارة في ايام الب ارسلان ، وتوفي في عام ٤٧٤هـ . وجه ألب ارسلان جيشه الى ما وراء النهـر لتأديبـه لكنه ـ أي ألب أرسلان ـ لقي مصرعه قبل ان يلتحم معه . ( عباس اقبــال : حاشيــة ٢ ص ١١٨ ) .

(٣) أي نظام الملك .

(٤) دانشمند يعني « عالم » ( بكسر اللام ) . وهي مركبة من « دانش » بمعنى « علـم » و « مند » بمعنى « ذو أو صاحب » . ( راجع أيضا : اقبال حاشية ٣ ص ١١٨ والالقاب الاسلامية ٢٨٧ ) . وكان لقب « دانشمند » يطلق على الفقهاء أيضا . وقد استعمله بهذا المعنى نظا م الملك نفسه ( انظر : السطر الثاني من الفقرة الثانية ص ٣٦٣ من هذه الترجمة ).

القصر والديوان والمجلس والبلاد فعلى احسن شكل واجمله . ان مملكته ليست في حاجة الى اي شيء ، اللهم الا ان فيها عيبا واحدا لولاه لكانت كاملة في كل شيء ».
قال شمس الملك : « وما ذلك العيب ؟ » قال الرسول : « ان وزير السلطان رافضي » . قال شمس الملك : « وكيف عرفت انه رافضي ؟ » قال : « لقد ذهبت الى منزله عند صلاة الظهر يوما ، لاقول له شيئا فرايته يعبث بخاتم في اصبع يده اليمنى ، وهو يحدثني » .

فكتب اليّ دانشمند الاشتر توا : « اعلم انه قيل عنك كذا وكذا أمام شمس الملك على لسان رسوله » . فذعرت جدا خوفا من السلطان . قلت : « الشافعية عار في راي السلطان ، وهو يؤنبني على هذا ويلومني في كل حين . ان يتناهى الى سمعه ما جرى من حديث عني أمام امير سمرقند ، وان الجكليين (١) نسبوني الى الرافضة ، فسيضع خاتمة لحياتي » . وكان من هذا ان انفقت (٢) ، دونما ذنب ، ثلاثين الف دينار طوعا ، وبذلت هدايا وهبات واعطيات كثيرة حتى لا يصل هذا الكلام الى سمع السلطان .

لقد ذكرت هذا لابين ان اكثر الرسل متسقطو عيوب يركزون على ما في بلاط الملك ومملكته من عيوب وفضائل ، ليفيدوا منها وينفذوا من خلالها الى الطعن على الملوك وتثريبهم في فرص اخرى . لهذا السبب وجدنا الملوك الانكياء اليقظين يهتمون بتهذيب انفسهم ، ويتحلون بالاخلاق الحسنة ، ويسيرون في الناس سيرة حميدة ، ويلون المناصب والاعمال للاكفاء واللائقين والمتدينين ، لئلا يكون لاحد عليهم اي عيب او مطعن .

وينبغي ان يكون الرسول ممن خدموا الملوك ، ومن الشجعان في القول ، وممن سافروا كثيرا وطوفوا في البلدان ، والآخذين من كل علم بطرف وذوي الحافظة وبعد النظر واصحاب القامات والاشكال الجميلة ، ويفضل من كان كبير السن عالما . واذا ما اسندت هذه المهمة الى احد الندماء فان الاعتماد يكون اكثر .

ومن الصواب جدا ان يكون الرسول تام الرجولة ، شجاعا ، عارفا بآداب السلاح والفروسية والطعان ، ليبرهن للمرسل اليهم ان رجالنا كلهم من هذا الضرب .

ومن الافضل ايضا ان يكون الرسول من الاشراف ، ليحترمه الآخرون كثيرا ، ولا يستطيعوا الاساءة اليه ، والا يكون من معاقري الخمر والمزّاحين والمقامرين والثرثارين والمغمورين . ومنذ زمن بعيد والملوك يوفدون الرسل محملين بالهدايا

---

(١) يقصد بالجكليين شمس الملك واتباعه . والجكليون نسبة الى « جكل » بكسرتين ولام معرب « جكل » الفارسية ، وهي بلد بما وراء نهر سيحون من بلاد تركستان قرب طراز . ( معجم البلدان ـ جكل ) .
والجكليون او الجكلية قوم من الاتراك القراخانيين او الافراسيابيين الذين كانوا يحكمون في سمرقند وبلاد ما وراء جيحون . ( اقبال : حاشية ١ ص ١٢٠ ) .
(٢) أي المؤلف نظام الملك .

والنفائس الكثيرة يطلبون صلحا ، ويظهرون عجزا وضعفا ولينا ومكرا واحتيالا ، ثم يرسلون الجيـــوش المجهزة والمحـــاربين في أثرهم ، فيحملـــون على الخصوم وينتصرون عليهـــم !.

ان سيرة الرسول وحكمته وحصافة رايه لدليل على سيرة الملك وحكمتـــه ورايـــه وعظمته .

# الفصل الثاني والعشرون

## في تهيئة الأعلاف في المنازل والمراحل (١)

حين يرتحل ركب السلطان في سفر فليس سهلا توفر العلف والنزل (٢) في كل مرحلة ينزل بها ، مما يؤدي اما الى الحصول على العلف اليومي بجهد ومشقة ، واما الى اخذه بتقسيمه على الاهالي . وليس هذا صحيحا .

لذا ينبغي ان يضم اقطاع كل قرية وضواحيها مما فيها منازل واقعة على الطريق التي سيمر منها الركب الى الاملاك السلطانية الخاصة ، كما ينبغي وضع اليد على أقرب قرية للمكان الذي فيه رباط (٣) ولا قرية فيه ، لجمع كل غلاتها التي يجب ان تنفق ، ان يكن ثمة راع لذلك ، والا فنبيعها وارسال اثمانها — كغيرها من الاموال الاخرى — الى الخزينة .

كل هذا لتجنب ارهاق الرعية والتقصير في توفير العلف . فيه يمكن النجاح في المهمة التي عقد العزم عليها وعدم الفشل في تحقيقها .

---

(١) المنزل والمنزلة : موضع النزول . والمرحلة : المنزلة يرتحل منها . وما بين المنزلتين مرحلة. ( اللسان ـ نزل ورحل ) .

(٢) النزل ( بضم النون وسكون الزاي ) في الاصل : قرى الضيف . ( اللسان ـ نزل ) .

(٣) أصل الرباط من مرابط الخيل وهو ارتباطها بازاء العدو في بعض الثغور . ( اللسان ـ ربط ).

## الفصل الثالث والعشرون

## في تعيين أطماع (١) الجيش

ينبغي ان تعين للجيش اطماع نقدية ثابتة ومنتظمة . اما اصحاب الاقطاعات منهم فيجب ان تطلق ايديهم فيها ، ولكن بنظام معلوم . واما الغلمان الذين لا اقطاع لهم فيجب اظهار اطماعهم وتعيينها ، فاذا ما عرفت اعدادهم يجب اعداد جراياتهم وتهيئتها جميعها ودفعها اليهم في أوقاتها ، أو ان يستدعيهم الملك اليه مرتين سنويا ويأمر بتسليمهم اطماعهم المقررة لا ان يحالوا الى الخزينة لاستلامها من هناك دون أن يراهم الملك . فما أحسن أن يسلمها الملك اليهم بنفسه مما يبعث علــى زرع المودة والالفة والاتحاد بينهم وبينه ، ويفضي بهم الى بذل اقصى الجهود في اثناء الخدمة ، والثبات في القتــال .

لقد كان من عادة الملوك القدماء الا يقطعوا الجيش شيئا ، بل يدفعوا لكل منهم ، بحسب درجته ، طمعه من الخزينة نقدا اربع مرات سنويا . فكان الجند في يسر ورخاء دائما ، وكان اذا ما طرأ أمر هام يركب له الفان أو عشرون الفا حالا . أما عمال الخراج ، فكانوا يجمعونه ويحملونه الى خزينة الملك ، ومنها تصرف اطماعا للغلمان والجيش مرة كل ثلاثة اشهر وهو ما اطلقوا عليه « حساب العشرينية » (٢). وما يزال هذا العرف باقيا في آل محمود .

ولينبه على اصحاب الاقطاع ، بأنه في حال غياب احد الجند لموتــه او لاي سبب اخر ، ان يظهروا ذلك ولا يخفوه . اما القادة ، فلينبه عليهم — وقد صرفت لهم مرتباتهم — بأن يعدوا الجيش كله ويهيئوه لاي مهمة وحادث ، فاذا ما تخلف احد فعليهم ابلاغ ذلك حالا ليكون تخلفه باذن السلطان ، وان لم يفعلوا فتنبغــي معاتبتهم ولومهم وتغريبهم — أي القادة — أطماع الجند المتخلفين .

---

(١) أطماع : مفردها طمع وهو رزق الجند . وقيل أطماع الجند أوقات قبضها أيضا (اللسان ـ طمع).

(٢) الاصطلاح الفارسي : « بيستكاني » . و « بيست » في الفارسية عشرون .
وحساب العشرينية أربعة اطماع في السنة ( مفاتيح العلوم ص ٤٣ ) .

## الفصل الرابع والعشرون

## في اتخاذ الجيش من كل الأجناس

ان اتخاذ الجيش من جنس واحد مدعاة لظهور الاخطار والتخريب والفساد ، وعدم الجدية والبلاء في الحرب . لذا ينبغي أن يؤسس الجيش من كل جنس وملة وأن يرابط بالقصر الفا رجل من الديلم وخراسان يحتفظ بالموجود منهم ثم يهيأ الباقي بعد ذلك . ولا ضير في ان يكون بعض هؤلاء من « الكرجيين » (١) و «شبانكاربي» (٢) فارس لانهم قوم طيبون لا غبار عليهم .

### جيش السلطان محمود

اعتاد السلطان محمود ان يؤسس جيشه من عدة اجناس من الترك والخراسانيين والعرب والهنود والغوريين والديالمة . وكان في اثناء السفر يضع ثلة من كل جنس للحراسة في مكان خاص بحيث لم يكن اي فريق منهم يجرؤ على التحرك من مكانه خوفا من الفرق الاخرى بل يظلون يحرسون الى جانب بعضهم حتى الصباح دون ان تغمض لهم اجفان .

وكان كل جنس منهم يقاتل في اثناء المعارك والحروب ببسالة ومضاء حفاظا على سمعته وخوف العار والهزيمة وحتى لا يقول احد بأن الجنود من الجنس الفلاني وهنوا في القتال وتقاعسوا . وكان كل فريق يبلى في القتال بلاء حسنا ويبذل غاية جهده اظهارا لقدرته وتفوقه على الآخرين .

وبما ان قاعدة اختيار المحاربين كانت تتم على ذلك النحو فقد كانوا جميعهم

---

(١) نسبة الى « كرجة » معرب كرجة ، وهي مدينة من مدن خوزستان ( معجم البلدان ) .

(٢) نسبة الى « شبانكاره » من قرى اقليم فارس ، والشبانكاريون اسرة حكمت في جنوب فارس من منتصف القرن الخامس الى منتصف القرن الثامن الهجري ( فرهنك فارس وانظر أيضا : لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٣٢٨ الترجمة العربية ) .

جادين مستبسلين وطلاب سمعة وشهرة . ولا جرم انهم اذا ما نزعوا الى السلاح لم يكونوا يتراجعون قبل ان يهزموا الجيش المعادي وينتصروا عليه .

وفي أي وقت ينتصر فيه جيش ما مرة أو مرتين ويكتب له الظفر على الاعداء ، فان مائة منه بعد ذلك تغلب ألفا من جيش العدو (١) ، وان أي جيش اخر لـــن يقوى على التصدي له ومقاومته . كما ان جيوش البلدان المجاورة والمحاذية تهاب هذا الملك وتخافه فتقدم له عصا الطاعة والولاء .

---

(١) اشارة الى الاية الكريمة : « يا ايها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا ... » ( الانفال ، اية ٦٨ ) .

## الفصل الخامس والعشرون

## في الرهائن وايداعهم في البلاط

على كل من امراء العرب والاكراد والديالمة والروم وغيرهم من حديثي العهد بالدخول في طاعة السلطان ان يودع ابنا او اخا رهينة في البلاط ، بحيث لا يقل عدد الرهائن ، باية حال ، عن خمسمائة ان لم يكن الفا . وبعد عام يستبدلون بآخرين غيرهم ، على ان لا يعاد الاولون قبل وصول البدلاء ، حتى لا يستطيع احد بسبب الرهائن ان يعصى الملك ويتمرد عليـــه .

كذلك يجب ان يقدم الديالمة ، والقوهستانيون ، واهل طبرستان وشبانكاره وامثالهم ممن لهم اقطاعات وجرايات وأرزاق خمسمائة رجل منهم ، ليقيموا في البلاط حتى لا يخلو من الرجال القادرين العاملين حين الحاجة .

## الفصل السادس والعشرون

## في استخدام التركمان

على الرغم من النفرة والملالة من التركمان وكثرة عددهم فان لهم حقا ثابتا على الدولة ، اذ اسهموا في خدمتها ابان قيامها ، وتحملوا في سبيلها المتاعب والمشاق ، فضلا عن انهم من ذوي القربى (١) .

لذا ينبغي اختيار الف من ابنائهم وتربيتهم وتنشأتهم على سبيل غلمان من غلمان القصر ، لانهم في اشتغالهم المستمر فيه يتعلمون آداب السلاح والخدمة ، ويحتكون بالناس ، فتلين قلوبهم ، ويخدمون كغلمان ، وتزول من نفوسهم وطباعهم ما وقر فيها من نفرة . وكلما دعت الحاجة يركب خمسة او عشرة آلاف منهم بلباس الغلمان واسلحتهم لاداء المهمة التي يندبون لها .

كل هذا ، لئلا يظلوا دون نصيب في هذه الدولة ، وليكونوا سعداء فرحين فيها، وليكسب الملك الحمد والثناء .

---

(١) اشارة الى تركمان قبائل غز الذين آزروا السلاجقة الذين كانوا من التركمان أيضا . لكن ملوك السلاجقة حملوا عليهم وهاجموهم مرات وأنزلوا بهم أشد العقاب ، لانهم كانوا يغيرون باستمرار على مناطق السلاجقة العامرة فينهبون ويسرقون ويقطعون الطرق . ( اقبال : حاشية ٢ ص ١٢٧ ) .

# الفصل السابع والعشرون

## في عدم ازدحام العبيـد في
## أثناء الخدمة ، وتنظيم أعمالهم

ينبغي ، لازدحام العبيد كثيرا في اثناء الخدمة ، اسدال الستارة الى اي وقت تكون فيه ثمة حاجة . وكما يتفرقون حالا ، يجب ان يجيئوا في وقت معين . وحين تكون الاوامـر جازمة بهذا ، ويلقنون مرة أو مرتين كيف يتصرفون فانهم سيستمرون على هذا المنوال ، ولن تعود ثمة حاجة الى الستارة . كذلك حين تصدر الاوامر بأن يمثل في حضرة السلطان يوميا عدد معلوم من الغلمان الموكلين بالماء والسـلاح والشراب واللباس وامثالهم ، ومن الغلمان الذين بلغوا الى مقام امير حجاب وامير وعظيم ، ليتمكن من المثول بين يديه مناوبة مثل هذا العدد من عنابر الغلمان المتصلة بالسراي والخواص ايضا دون ازدحام كـل يوم .

وقد اتبع في الازمنة القديمة نظام مقبول في تربية الغلمان وتصنيفهم منذ اليوم الذي كانوا يبتاعون فيه الى ان يترعرعوا ويتبوأوا المقامات الرفيعة ، لكنـه لم يعد متبعا في هذه الايام . وهأنذا — تمشيا مع شرط الكتاب — اذكر شيئا منـه لاستطلاع الراي السامي .

### ترتيـب غلمـان السراي

ان هذا النظام ما يزال قائما في ظل السامانيين الذين يرفعون من مرتبة الغلام تدريجيا بحسب خدماته وكفايته ولياقته . فهم حين يشترون الغلام يضعونه في خدمة

الركاب العالي راجلا بقباء زندنجي (١) وموزج (٢) لسنة كاملة لا يسمح له في خلالها بركوب الخيل سرا او علانية ، واذا ما فعل يعاقب على ذلك . ولما تنتهي السنة يكلم رئيس عنبره (٣) الحاجب في امره ، فيخبر الحاجب الملك الذي يأمر له حينئذ بمهر تركي بسرج غير مدبوغ ولجام جلدي عادي . وبعد خدمة سنة بمهر وسوط فقط . ويعطى في السنة الثالثة سيفا معقوفا يشده على وسطه ، ويعطى في الرابعة جعبة وكنانة سهام يرتديهما عندما يمتطي جواده . اما في الخامسة ، فيعطى سرجا احسن ولجاما مكوكبا وقباء ودبوسا (٤) . وفي السادسة ، يولى السقاية ويوكل بالماء فيعلق في وسطه قدحا . وفي السابعة ، يوكل باللباس . وفي الثامنة يعطى خيمة من عمود واحد في ستة عشر وتدا ، ويضاف الى فوجه ثلاثة غلمان صغار ممن اشتروا حديثا ، ويلبس قلنسوة لباد سوداء محلاة بخيوط فضية ، وقباء جنزيا (٥) . وهكذا يظل يزاد في البسته وآلاته وعدده وعدد افراده ومقامه سنويا الى أن يصبح قائد فوج . وهكذا دواليك الى أن يصير حاجبا . وحين تبدو كفاءته وجدارته وشجاعته للجميع ، وتتم على يديه الاعمال العظيمة ثم يصبح محط انظار صحبه ومحبا لمولاه في ذلك الوقت ينبغي الا يولى الامارة او الولاية ما لم يبلغ الخامسة والثلاثين او الاربعين من عمره .

## علو منزلة سبكتكين

لقد كان البتكين مولى للسامانيين وربيبا . ولي قيادة جيش خراسان العليا في الخامسة والثلاثين من عمره . كان حسن العهد وفيا وشجاعا جدا ، وكان تركيا شهما محبوبا لدى الناس ، محبا لجيشه ، جوادا معطاء ، يخاف الله ويتقيه . ولقد جمع كل خصال السامانيين وسيرهم الحميدة ، وكانت أموال خراسان والعراق تحت تصرفه كما كان له الف وسبعمائة عبد وغلام تركي .

---

(١) نسبة الى زندنة ( بفتح اوله وسكون ثانية ) ، وهي قرية كبيرة من قرى بخارى بما وراء النهر . بينها وبين بخارى اربعة فراسخ في شمالي المدينة . والى هذه القرية نسبت الثياب الزندنجية - بزيادة الجيم - وكانت مشهورة .
( راجع : معجم البلدان ، وبلدان الخلافة الشرقية ص ٥٠٦ ) .

(٢) موزج : معرب موزه ، وهو الحذاء ذو الساق ( فرهنك وازه هاي فارسي در زبان عربي ص ٦٤٢ ) .

(٣) رئيس عنبر : ترجمة « وثاق باشي » وقد تابعت فيها مترجمي تاريخ البيهقي ( انظر : ص ٨٥ من الترجمة العربية ) .

(٤) الدبوس : معرب دبوس ( بفتح الدال وضم الباء ) الفارسية وهو المقمعة ( فرهنك فارسي ، والالفاظ الفارسية المعربة ٦٠ ) .

(٥) نسبة الى جنزه ( بالفتح ) ، وهي اعظم مدينة باركان ( الران ) بين شروان واذربيجان . بينها وبين برذعة ستة عشر فرسخا . ومن اسمائها أيضا كنجه . وكانت تعرف في المائة الثالثة بالمتوكلية ، لان الخليفة المتوكل احدثها عام ٢٤٠هـ . ويقول بعضهم في النسبة اليها : جنزوي أيضا ( معجم البلدان ، وبلدان الخلافة الشرقية ٤١٣ ) .

واشترى البتكين يوما ثلاثين غلاما تركيا كان سبكتكين والد السلطان محمود احدهم ، فكان اول طالع سعد سبكتكين انه اشترى لالبتكين . وبعد ثلاثة ايام من شرائه ، وعلى حين كان يقف في وسط الغلمان أمام البتكين تقدم الحاجب ، وقال لالبتكين : « لقد قضى الغلام فلان الذي كان رئيسا لاحد العنابر ، فالى اي غلام تأمر بعنبره ولباسه وفوجه ومنصبه ؟ » . فوقعت عين البتكين على سبكتكين ، وجرى على لسانه « وهبتها هذا الغلام الصغير » . فقال الحاجب : « يا مولاي ، لم تمض ثلاثة ايام بعد على شرائك هذا الغلام الصغير الذي ينبغي أن يمضي سبع سنوات في الخدمة حتى يصل الى هذه المرتبة ، فأنى تمنح له؟» قال البتكين : لقد قلت ، وسمع الغلام فانحنى شاكرا . وانني لامنحه هذهالمنز لة على سبيل الهبة والاعطية ، اما الآخرون غيره فينبغي ان تطبق عليهم الاصول المرعية سابقا . ثم سلم العنبر ، فآلت اليه اكل خدمة تلك السبع او الثماني سنوات .

وفكر البتكين في نفسه : « ما السر في بلوغ غلام غرير اشترى حديثا منزلة خدمة سبع سنوات ؟ قد يكون تحدره من أسرة كريمة بتركستان ، أو ان الحظ سيبتسم له ويصل به الى اعلى الدرجات » . وشرع في تدريبه واختباره وارساله بالاخبار الى هذا وذاك ، وكان يقول له : « ما قلت لك ؟ اعد » وكان الغلام يعيد كل شيء دون اي خطأ . ثم يقول لهالبتكين : « اذهب واتني بالجواب » . فكان يذهب ويعود بالجواب على نحو افضل من نقله الخبر . ولما ثبت له بالاختبار ان الغلام يبدي تقدما يوما بعد يوم ، وقرت محبته في قلبه ، فوكل اليه أمر السقاية ، ثم امره بالانقطاع الى خدمته هو فقط ، وخصه بفوج من عشرة غلمان صغار واخذ يزيد في منزلته يوميا .

وما ان بلغ سبكتكين الثامنة عشرة الا وله،فوج من مائتي غلام شجاع وقد ثقف كل خصال البتكين وعاداته الحميدة في الجلوس والقيام والحديث والطعام والشراب والمجلس والصيد والرماية واللعب بالطبطابة ومداراة الناس ومراعاتهم والعيش مع الجند عيش الاخوة حتى انه لو حصل على تفاحة لا يأكلها الا مع عشرة اخرين . لقد احبه الناس قاطبة لطيبته واخلاقه الحسنة وسيرته الحميدة .

## لياقة سبكتكين وجدارته

وحدث ان اختار البتكين يوما مائتي غلام وانفذهم الى « خلج » (١) و « التركمان » لتحصيل الاموال المترتبة عليهم ، وكان سبكتكين في جملتهم . فلما وصلوا الى هناك امتنعت الطائفتان عن دفع الاموال كاملة . فغضب الغلمان

---

(١) كذا في شعار ( ص ١٦٢ ) ودارك ( ص ١٤٣ ) . كذلك في معجم البلدان ( خلج ) وتاريخ البيهقي ( ص : ٤٤١ ، ٧٢٥ ، ٧٢٨ ) لكنها في اقبال ( ص ١٣١ ) : « خلخ » ( بالخاء ) وكذلك في « حدود العالم » ( ص ٨١ وغيرها ) .
وأيا يكن الامر ، فان « خلج » ( بالجيم ) و ( بالخاء ) قبيلتان تركيتان .

وشهروا اسلحتهم لحربهم وانتزاع المال منهم عنوة . فقال سبكتكين : « لا احارب معكم بل انفصل عنكم في هذا الامر » قال له صحبه : « ولم ؟ » قال : « ان مولانا لم يرسلنا للحرب بل قال : اذهبوا واحضروا تلك الاموال والانعام . ان نحاربهم الان فيتغلبوا علينا ويهزمونا ففي هذا شين وعار عظيمان علينا واضرار كبير بحشمة مولانا وجاهه ، هذا شيء . وشيء اخر ان مولانا سيقول : متى امرتكم بالحرب ؟! ولن نجد ما حيينا منفذا او حجة لملامته وعتابه الذي لا طاقة لنا بــه » . ولما فرغ سبكتكين من قوله هذا ، قال اكثر الغلمان : « الصواب ما يقول سبكتكين » . ودب الخلاف بينهم ، وانتهى الامر بعدم القتال وعودتهم . ولما مثلوا أمام البتكين ، وقالوا : « لم نحصل الاموال منهم عنوة ، مع انهم عصوا وامتنعوا عن دفعها » قال : لماذا لم تشهروا السلاح وتحصلوا الاموال بأية وسيلة كانت ؟ » . قــال الغلمان : « لقد شهرنا الاسلحــة وأردنا قتالهم لكــن سبكتكين خالفنا في ذلــك واعترضنا فانقسم الغلمان الى فريقين . ولما صار الامر الى هذه الحال عدنا » . فقال البتكين لسبكتكين : « لماذا لم تحارب او تدعهم يحاربون ؟ » . قال سبكتكين: « لان مولانا لم يكن أمرنا بالقتال ، فلو قاتلنا دون امره لكان كل منا مولى لا عبدا . ان من امارات الطاعة تنفيذ ما يأمر بــه مولانا ، ولو كان الانكسار حليفنا فلا بد لمولانا من ان يقول : « من الذي امركم بالقتال ؟ » فمن ذا الذي له الطاقة على هذا العقاب ؟ اما لو غلبناهم نحن فلا بد ان يقتــل كثيرون ولا يكون ثمة شكــر وتقدير ، فضلا عما ما سنلقاه من ملامة وعتاب . ان تأمرنا الان بالحرب نتوجه اليهم فاما ان نحصل الاموال واما ان نقدم ارواحنا فدية » . فأعجب البتكين بجوابــه وقال : « حق ما تقول » ثم اخذ في ترقيته حتى بلغ منزلة وصل فيها فوجه الــى ثلاثمائة غــلام .

ولما مات امير خراسان نوح بن نصر ببخارى وكان البتكين بنيسابور ، كتب اليه خاصة أمرائه من بخارى العاصمة : « لقد حدث كذا وكذا وتوفي امير خراسان مخلفا وراءه اخا في الثلاثين من عمره وابنا في السادسة عشرة ، فالى ايهما تعهد بالملك ؟ فأمر هذه المملكة منوط بك (١) » . فسير البتكين رسوله على وجه السرعة برسالة تقول : « كلاهما اهل للملك ، وهما أميران من ولد مولانا . اما أخو الامير فرجل ناضج مجرب تجرع مر الحياة وذاق افاويقها ، وهو يعرف الناس جيــدا ويحفظ لكل قدره ومنزلته ، وخير من يحترمهم ويعرف لهم حرماتهم ، وأما ابن الامير فطفل لم ير في حياته شيئا . انني أخشى الا يستطيع ان يسوس الناس ويرعاهم والا يقوى على اصدار الاوامر الواجبة في كل مسألة وامر . قد يكون من الاصوب تنصيب أخي الامير » .

---

(١) يقال انما كان تدخل البتكين في مسألة تنصيب ملك من السامانيين بعد وفاة عبد الملك بن نوح وليس بعد موت نوح بن نصر . كما أن نظام الملك لم يورد اسم عبد الملـك في جملة السامانيين في الفصلين : الاربعين والسادس والاربعين من هذا الكتاب . ( تعليقات دارك ص ٣٣٧ - ٣٣٨ ) .

ثم اتبع الرسالة بأخرى في الموضوع عينه في اليوم التالي . غير أنه وصل بعد خمسة ايام رسول ببشارة تقول « لقد تم تنصيب ابن الامير » . فاعترى البتكين الخجل لرسالتيه اللتين كان ارسلهما . قال : « فلماذا استشاروني أولئك الاوغاد اللئام اذن ، وقد أرادوا الاستئثار بالامر وحدهم ؟ ان الاثنين كليهما مني بمنزلة النور من العين . لكنني أخشى ان تسوء الابن رسالتي حين وصولها فيظن ان هواي كان مع عمه للذي أشرت اليه فيها فيقع في قلبه شيء مني ويغضب علي ويحقد . وحينئذ يستغل الامر ذوو الاطماع الدنيئة الذين سيجدون المجال متاحا امامهم للوكي بالسنتهم وتأليب الصبي علي » .

وارسل البتكين في الحال خمسة رجال كل منهم على جمّاز في (١) اثر الرسولين ، وقال لهم : « حاولوا ما وسعكم الجهد ان تلحقوا بهما قبل ان يعبرا نهر جيحون وتعيدوهما » . وانطلق المجمزون في سرعة فأدركوا احد الرسولين في صحراء « آموي » في حين كان الاخر قد عبر جيحون . ولما وصلت رسالة البتكين الى بخارى استاء ابن الامير واتباعه الذين قالوا : لم يحسن البتكين صنعا حين أشار بتنصيب أخي الامير اما درى ان ميراث الاب يصير الى الابن لا الاخ ، وظلوا يرددون هذا النغم وضغن الصبي على البتكين يتزايد يوميا . والتمس البتكين الاعذار الكثيرة وبعث بالهدايا الجمة . غير ان هذا لم يجد فتيلا في نفض غبار الحقد والغضب عن قلب ابن الامير . واستمر المفسدون وذوو الاطماع الخاصة في ايغار صدر الامير الصغير الذي اضطرمت نار حقده وغضبه ونقمته .

كان أحمد بن اسماعيل في اخريات حياته اشترى البتكين الذي خدم نصر بن احمد عدة سنوات . ولما مات نصر خدم نوح بن نصر وتقلد على عهده القيادة العليا لجيش خراسان . ولما مات نوح خلفه ابنه منصور . وانقضت ست سنين من عهد منصور والبتكين يبذل الاموال ويسعى ما أمكنه الجهد لوضع الامور في نصابها دون أن يستطيع المغرضون أن ينالوا منه شيئا لدى منصور بن نوح او يوغروا عليه قلبه . وكان وكلاء البلاط (٢) يكتبون الى البتكين عن كل ما يدور في بخارى العاصمة .

لكن المسفدين لم يتركوا منصور بن نوح ، بل أوحوا اليه بأنه : « لن تكون أميرا وحاكما حقيقيا ما لم تقتل البتكين . انه يحكم خراسان من ثلاث وخمسين سنة ويكدس الاموال والثروات ، وان الجيش كله يأتمر بأمره ويطيعه . ان تقبض عليه تفرغ منه بالا وتملأ الخزينة من امواله . وليس من حيلة لهذا سوى ان تستدعيه

---

(١) الجماز ( بفتح فتشديد ) : من جمز الانسان البعير والدابة جمزا وجمزى ، وهو عدو ( بسكون الدال ) دون الحضر ( بضم الحاء وسكون الضاد ) الشديد وفوق العنق ( بفتح العين والنون ) . وبعير جماز منه ، وراكبه المجمز . ( اللسان - جمز ) .

(٢) وكيل البلاط : الموظف الذي يوفده حكام الاقاليم الى بلاط السلطان لينهي اليهم ما يعنيهم مما يجري فيه وليراقب مصالحهم عند السلطان ( تاريخ البيهقي - الترجمة العربية - كشاف المصطلحات التاريخية . ص ٨٠٥ ) .

الى البلاط وتظهر له : « انك ، مذ تولينا الامارة ، لم تأت الــى البلاط ولم تجدد العهد والولاء . انك محط امالنا وقد تخذناك بمثابة الاب . ان قواعد ملكنا راسخة بك ، فأنت مدار ما وراء النهر وخراسان ، اما ما يدور على الالسن من قيل وقال فليس الا لانك لم تأت الينا قط . عليك الحضور الى البلاط بأسرع وقت ممكن لاعادة كل ما خرج عن قاعدته واصوله في بلاطنا وقصرنا سيرته الاولى ، ليزداد اعتمادنا عليك وثقتنا بك ، وتخرس السنة ذوي المآرب الخبيثة وتكف عن الكلام » . وحين يأتي الى هنا ادعه وحيدا ومر بضرب عنقه .

ونفذ الامير السديد (١) منصور هذا واستدعى البتكين الى البلاط . لكــن منهو الاخبار كتبوا الى البتكين يخبرونه بالذي يريده منصور من اجله . فأعلن النفير وأمر رجاله بأن يستعدوا للتوجه الى بخارى . ثم توجه ومعه حوالي ثلاثين الف خيال من نيسابور الى سرخس . وبعد ثلاثة ايام من نزوله بها دعا اليه امراء الجند وقال لهم : « أود أن أقول لكم شيئا واريدكم ان تجيبوا عنه بما ترونه صوابا وفيه فائدتنا ونفعنا جميعا » . قالوا : « سمعا وطاعة » . قال : « أتدرون السبــب الذي يطلبنا امير خراسان من اجله أم لا ؟ » . قالوا : « يريد ان يراك لتجديــد العهد ، لانك بمثابة الاب له ولآبائه من قبل » . قال : « ليس الامر على ما تظنون . ان الامير يستدعيني لقتلي وفصل راسي عن جسدي فهو طفل لا يعرف اقــدار الرجال . انكم تعلمون أنني انا الذي حفظت للسامانيين ملكهم سنوات عديدة وما ازال ، ولقد هزمت امراء تركستان ، ممن كانوا يطمعون في ملكهم ، مرات ، كمــا قهرت الخارجين عليهم من كل صوب ، ولم اعصهم قط ولو طرفة عين . لقد حافظت على هذا الملك لجده وابيه وله ما ازال ، لكنه يريد ان يكافئني في النهاية بقطــع راسي دون ان يدرك ان ملكه جسد انا راســه ، فهل من بقاء للجسد بعد الراس ؟! والان ما الذي ترونه صــوابا ؟ ما الحيلة الى دفع هــذا البلاء ؟ » . قال الامراء جميعا : « حيلته السيف . ماذا ننتظر منه ما دام يكن لك هذا ويريد ان يكافئك بأعمالك هذه المكافئة ؟ لو كان ثمة شخص غيرك لنزع الملك من ايديهم منذ خمسين سنة . نحن جميعا نعرفك انت لا نعترف به ولا بأبيه . ان ما نملك نحــن وكــل الرجال في دولة السامانيين من عيش وجاه وحشمة ونعمة وولاية وزينة ليس الا منك انت . فبك وحدك صرنا رجالا . نحن معك ، ومما لا شك فيه ان خراســـان وخوارزم ونيمروز (٢) معك أيضا . ادع الى خلع منصور بن نوح ، ثم نصب نفسك اميرا ، وهبه بخارى وسمرقند — ان شئت — والا ضمهما اليك أيضا .

ولان الامراء قالوا هذا الكلام عن رغبة اكيدة وتامة ، قال البتكين : « عفا الله عنكم ؟ لقد كان كلامكم عن ايمان واتحاد ، وهذا ما اتوقعه منكم . جزاكم الله

---

(١) فضلا عن معنى الكلمة لغويا ، فقد كانت لقبا لمنصور بن نوح الساماني . (شعار ص ٤٢٧) .

(٢) نيمروز كلمة فارسية معناها نصف يوم أو الارض الجنوبية أطلقت على ولاية سجستان . يقال انها سميت بذلك لوقوعها في جنوب خراسان أو لان الشمس تسامتها نصف النهار . ( معجم البلدان ومفاتيح العلوم ص ٧ وبلدان الخلافة الشرقية ص ٣٧٤ ) .

عني خير الجزاء دائما . انصرفوا اليوم حتى نرى ما يحمل الينا غد » .

لقد كان مع البتكين في هذا الوقت ثلاثون الف فارس ، وكان في استطاعته تجهيز مائة الف . وفي اليوم التالي ، جاء الامراء للقاء البتكين فخرج اليهم واتخذ مكانه . وبعد مدة وجيزة التفت نحوهم وقال : « لقد اردت من حديثي معكم امس ان اختبركم لأرى فيما اذا كنتم تؤازرونني وتقفون معي وتحمون ظهري اذا ما وقع لي شيء أم لا ؟ ان ما سمعته منكم جميعا لدليل على اصالتكم ونقائكم وحسن عهدكم ووفائكم ورعايتكم حق نعمتي . انني لراض عنكم ، لكن اعلموا انني لا استطيع بعد ما حدث ان اكف شر منصور وأذاه عني بغير السيف . فهو طفل لا يعرف لاحد حقا ، بل يلقي اذنا صاغية الى ثلة من الاشرار الاوباش الارذال دون ان يعرف ما يضره مما ينفعه . انه يعدني — وانا الذي احمي سلالته — عدوا ويبغي عنقي ، في حين أنه يعد من لا يبغون سوى فساد المملكة ودمارها ومن لا يستطيعون راب اقل صدع فيها اصدقاء . انني لقادر على نزع الملك منه وتنصيب عمه مكانه ، او الاستيلاء عليه بنفسي ، لكنني أخشى ان تقول الدنيا كلها : « ان البتكين الذي حمى للسامانيين ملكهم ستين سنة يخرج عليهم في النهاية — وقد بلغ الثمانين — وينزع الملك منهم بالسيف ويتربع على عرش اسياده كافرا نعمتهم جاحدا لها !.

اعلموا انني قضيت عمري كله حسن السمعة والفعال ، فعلي ألا افعل ما يشوه سمعتي ويسيء الي ، وانا على شفا حفرة من القبر . على الرغم من ان منصورا هو الآثم المذنب ، والناس لا يعلمون هذا ، فان بعضهم سيقول : « لقد كان منصور هو المخطيء » . وسيقول اخرون : « لا ، لقد كان الذنب كله ذنب البتكين » . ومع انني لا طمع لي في ملك منصور ، ولا رغبة في الحاق الضرر به ، فان قالة السوء في خراسان لن تنقطع ما دمت فيها ، وان المغرضين سيؤججون عداوة الصبي وحقده عليّ يوما بعد يوم . لكنه لن يبقى لهم ما يقولون اذا ما تركت خراسان وخرجت من حوزة هذا الصبي . هذه واحدة ، والاخرى انه ان كان لا بد من شرع السيوف من اجل لقمة العيش وقضاء ما تبقى من العمر ، فمن الافضل ان تشرع في وجه الكفار ابتغاء ثواب الآخرة . لتعلموا الان يا امراء جيش خراسان وخوارزم ونيمروز ان منصورا هو امير خراسان وما وراء النهر وانتم جميعكم جيشه وقادته ، وبه كنتم تحت لوائي . انهضوا وامضوا الى بلاطه وقابلوه وجددوا له العهد وابقوا على ما انتم فيه من مراتب في الخدمة ، فانني قد عقدت العزم على المضي الى الهند للغزو والجهاد . ان اقتل تكتب لي الشهادة ، وان يحالفني التوفيق والنجاح في نصرة الاسلام وعزته فسأرد القوم الكافرين الى حظيرة الاسلام املا في الجنة ورضى الله ورسوله .

ثم ان امير خراسان سيرتاح مني ، وتنقطع قالة السوء عني حسنا كنت أم سيئا . وعندئذ تكون خراسان وجيشها واهلها في عهدة منصور وحده » .

ولما أنهى كلامه نهض ، وقال لامراء الجيش : « تقدموا اليّ واحدا واحدا لاودعكم » . وعبثا حاول الامراء ثنيه عن عزمه ، فأخذوا بالبكاء وتقدموا منه ،

وعيونهم تترغرغ بالدموع ، وجعلوا يعانقونه الواحد تلو الآخر الى ان ودعهم جميعا . ولما انصرفوا كلهم دخل خيمته الخاصة في حين ان احدا لم يصدق ان البتكين سيترك خراسان الى الهند ، لان كان له في مملكة السامانيين خمسمائة ضيعة في خراسان وما وراء النهر ولم تكن ثمة مدينة الا وكان له فيها قصر وبساتين ومحطات قوافل وحمامات ومستغلات كثيرة فضلا عن مائة مائة الف راس غنم ومائة الف حصان وبغل وجمل .

وفي اليوم التالي ، سمع الامراء صوت النفير ، فتحرك البتكين ومعه غلمانه وحاشيته الى بلخ تاركا وراءه تلك النعم جميعها . أما أمراء خراسان فصاروا جميعا الى بخارى .

لما وصل البتكين الى بلخ قرر ان يمكث بها شهرا او شهرين ليمكن الذين يريدون الغزو من وراء النهر وختلان (١) وطخارستان واطراف بلخ من جمع انفسهم، ومن ثم تقدم نحو الهند غازيا .

غير أن المفسدين والمغرضين اوحوا الى منصور بن نوح امير خراسان بأن « البتكين ذئب عجوز لن تكون في أمن منه وسلام ما لم تقض عليه . ينبغي ارسال جيش في اثره للقبض عليه واتيانك به » . فأرسل منصور في اثره اميرا بستة عشر الف فارس الى بلخ . فلما وصل هذا الجيش الى « ترمذ » (٢) وعبر جيحون كان البتكين قد اتجه من بلخ الى « خلم » (٣) . وكان يقع على بعد اربعة فراسخ بين بلخ وخلم واد ضيق محاط بالوديان والقرى من عن يمينه وشماله يعرف بـ « مضيق خلم » نزل به البتكين ووضع في اعلاه مائتي خيال من غلمانه للمراقبة والاستطلاع . وكان يملك في هذا الوقت الفين ومائتي مولى تركي من افضل الرجال فضلا عن ثمانمائة الف فارس غاز كانوا قد التحقوا به من شتى النواحي .

ولما وصل جيش امير خراسان عسكر في الصحراء امام المضيق لعدم تمكنه من الوصول الى المضيق نفسه ، وظل على هذه الحال شهرين . بعد مضي الشهرين جاء دور سبكتكين في المراقبة والاستطلاع ، فلما وصل الى قمة المضيق ورأى الجيش منتشرا في الصحراء وطلائعه متحفزة متوثبة فكر في نفسه : « لقد ترك مولانا خراسان وماله فيها من نعم وثروة ومضى غازيا ، فطمع هؤلاء بروحه وأرواحنا جميعا : انني اخشى لشدة وفاء مولائي بعهوده ومراعاته لهم ان يلقي بنفسه وأنفسنا الى التهلكة . لا مندوحة لهذا الامر من السيف لان جيش منصور لن يكف عن ملاحقتنا ما دمنا صامتين هكذا . كان الله — تعالى — في عون ذلك الرجل الذي الحقوا به الظلم فهم الظالمون ونحن المظلومون » ثم التفت نحو الغلمان

(١) ختلان ( بفتح وسكون ) : بلاد مجتمعه وراء النهر قرب سمرقند ( معجم البلدان ) .

(٢) ترمذ : مدينة على ساحل جيحون كانت من اجل مدن ناحية الصغانيان ، وهي ما تزال تعرف بهذا الاسم في جمهورية تاجيكستان الى اليوم .
( معجم البلدان ، بلدان الخلافة الشرقية ٤٨٤ وعباس اقبال : حاشية ص ١٣٧ ) .

(٣) خلم ( بضم الاول وتسكين الثاني ) : مدينة صغيرة من شرق بلخ .
( معجم البلدان وبلدان الخلافة الشرقية ٤٢٩ ) .

الذين كانوا معه وقال : « لقد وقع عبء هذا الامر علينا نحن . ان يظفروا بنـا فلن يبقوا منا على قيد الحياة احدا . سأحمل عليهم اليوم لأرى ما سيكون سواء لاقى الامر قبولا لدى مولانا أم لا ، وليكن ما يكون » . قال هذا ثم القى بنفسه ومعه ثلاثمائة فارس من الغلمان على طليعة جيش خراسان فكسرهم حالا ودلف الى معسكرهم ، فالى ان تمكنوا من استلام السلاح وامتطاء الجياد كان سبكتكين ورهطه قد قتلوا اكثر من الف منهم وعادوا في سرعة الى مكانهم على قمة المضيق . واخبر البتكين بما فعل سبكتكين وقتله كثيرا من الاعداء فاستدعاه ، وقال : « لماذا تسرعت ؟ كان ينبغي أن تتحلى بالصبر » . قال البتكين : « يا مولاي ، الام نصبر ؟ لقد عيل صبرنا . علينا ان نسعى لانقاذ أرواحنا ، ولا يتأتى هـذا الا بالسيف لا الصبر . سنحارب من اجل مولانا الى اخر رمق الى ان يجد في الامر شيء » . قال البتكين : « أما وقد اثرت ثائرة العدو فمن الواجب اتخاذ خطة انجع ضده . قل لرجالنا ان يقوّضوا الخيام ويحزموا الامتعة استعدادا للرحيل والتحرك بعد صلاة العشاء واخراج الامتعة والمؤن من المضيق ، على ان يصير « طغان » بألف غلام سرا الى الناحية اليمنى من وادي كذا ، وتمضي انت بألف غلام ايضا الى الجانب الايسر من وادي كذا ، واخرج انا ومعي الف فارس بالمؤن من المضيق الى الصحراء ونحط الرحال هناك . فسيقول الاعداء حين لا يرون احدا علـى قمة المضيق في اليوم التالي بأن البتكين قد فرّ فيركبون ويسرعون للحاق بنا مارين بالمضيق . وعندما يخرج اكثر من نصفهم منه ويرونني في الصحراء اطبقوا عليهم بسيوفكم من مكامنكم من اليمين واليسار ، وحين يدق ناقوس القتال سيتراجع القسم المقابل لي من جيشهم الذي خرج من المضيق للانضمام الى الذين ما يزالون فيه ليفروا جميعهم معا ، وسيبتلى قسم منهم بشر سيوفكم . سأحمل من الامام وتخرجون أنتم من حينئذ نعود ونخرج من المضيق ونقع على معسـكرهم للغنائم » . فنفـذوا هذا المضيق فنحاصر الخارجين منه منهم ونعمل فيهم السيف ونستمـر في ضربهم ما قاوموا ، واذا ما ولوا الادبار نفسح لهم مجال الهرب ونوسع عليهم ابواب الهزيمة. وتركوا المضيـق .

وفي صباح اليوم التالي الباكر كان جيش أمير خراسان يقف بسلاحه علـى اهبة الاستعداد للحرب . ولما لم يروا على قمة المضيق احدا ، وتوغلوا فيه مسافة فرسخ واحد فرأوا آثار معسكر البتكين صح يقينهم بفراره . آنذاك نودي على الجيش أن « اسرعوا في اثرهم ، فبعد أن يعبر المضيق ونخرج منه سنطبق عليهم في الصحراء بفترة وجيزة ونقبض على البتكين » . فتقـدم الجيش في سرعـة تتقدمه الصفوة الممتازة . ولما اطلوا من المضيق رأوا البتكين ومعه ثلاثة آلاف من الخيالة وعدد من المشاة في السهل الممتد هناك . ولما خرج نصف الجيش المعادي من المضيق انقض عليه « طغان » بألف غلام من الجانب الايسر للوادي وعاثوا فيهم بسيوفهم وردوا من كانوا خرجوا من المضيق على أعقابهم ، وقتلوا منـهم خلقا كثيرا . أما سبكتكين فانقض عليهم بألف غلام من الجانب الايمن وأعمل فيهم السيف، ثم التقى بطغان واخذا يلاحقانهم معا . واما البتكين فحمل عليهم من الامام فاستطاعوا

بمدة يسيرة ان يجندلوا عددا كبيرا منهم . أما أمير جيشهم فأصيب بطعنة رمح في ظهره خرجت من صدره فخر على الارض . وانهزم الجيش الذي لاذ افراده بالفرار الى كل ناحية وجدوا اليها منفذا لهم ومهربا .

بعد ذلك عبر غلمان البتكين المضيق الى معسكر الجيش المنهزم ، فغنموا ما عثروا عليه من جياد وبغال وفضة وذهب وديباج فقط . اما الخيام والسجاد وما اليهما من أمتعة ومؤن ووسائل اخرى فتركوها وقفلوا راجعين حتى ان اهالي قرى بلخ ظلوا يغنمون منها على مدى شهر كامل . ولما أحصي عدد القتلى كانوا اربعة آلاف وسبعمائة وخمسين من غير الجرحى .

ثم سار البكتين من خلم الى « باميان » (١) حيث تصدى أميرها لقتاله ، فقبض عليه البتكين واسره لكنه عذره لفعلته تلك وعفا عنه وخلع عليه خلعة ودعاه ابنه . وكان هذا الامير هو الذي لقب من أمراء باميان بـ « شيرباريك » (٢) .

ومن هناك توجه البتكين الى كابل وهزم أميرها واخذ ابنه ايضا ، لكنه احسن معاملته ورده الى ابيه . ثم مضى الى غزنين ، ففر ابن أمير كابل ( الذي لا بد انه كان في غزنين آنذاك ) الذي كان صهر « لويك » أمير غزنين الى سرخس . ولما وصل البتكين الى مشارف غزنين خرج اليه « لويك » واشتبك في قتال معه فأسر ابن أمير كابل ثانية ، وهزم « لويك » وحوصرت المدينة . وأقام البتكين على مشارف المدينة ضاربا عليها نطاقا من الحصار . فخافه اهل « زابل » (٣) ، لكنه أمر مناديا ينادي في اتباعه بأن « يجب الا يأخذ احدكم من اي شخص شيئا دون أن ينقده ثمنه ، وكل من يخالف هذا يعاقب » .

وذات يوم ، وقعت عين البتكين على غلام تركي من غلمانه كان قادما وهو يعلق مخلاة تبن ودجاجة على طوق سرج حصانه ، فقال : « اليّ بذلك الغلام » . فأتى به وسأله البتكين : « انى لك مخلاة التبن هذه والدجاجة ؟ » قال : « اخذتهما من فلاح قروي » . قال البتكين : « هلا تتقاضى راتبا شهريا ؟ » قال الغلام : « أجل » . قال البتكين : « فلم لم تشترهما بنقود اذن ؟ فانني ادفع لك اجرا شهريا لئلا تأخذ من فقير شيئا دونما حق ، فضلا عن انني أمرت مناديا ينادي عليكم بهذا » . وأمر في الحال بشق الغلام نصفين وتعليقه ، والمخلاة معه ، على

---

(١) باميان ( بكسر الميم ) : من مدن ولاية طخارستان القديمة بين بلخ وهراة وغزنين . وهي واقعة الان في شمال غربي مدينة كابل الحالية . ( معجم البلدان ، وبلدان الخلافة الشرقية ص ٤٦٠ ، وعباس اقبال : حاشية ٣ ص ١٤١ ) .

(٢) يقال ان امراء باميان عامة كانوا يلقبون قديما بـ « شيرباميان » او « شارباميان » . اما كلمة « باريك » التي لما تقرأ جيدا او يعرف اصلها فربما أنها اسم لذلك الامير . ( اقبال : حاشية ٣ ص ١٤١ ) .

(٣) زابل : هي « زابلستان » الفارسية عينها جريا على عادة الفرس في اضافة السين وما بعدها في اسماء البلدان شبيها بالنسبة . وهي كورة واسعة قائمة برأسها جنوبي بلخ وطخارستان وقصبتها غزنين . يقال انها منسوبة الى زابل جد رستم بن دستان . ( معجم البلدان ) .

قارعة الطريق . ثم امر بالمناداة ثلاثة ايام انه « اذا ما بلغنا ان احدا اخذ من شخص شيئا سنجازيه بما جازينا به هذا الغلام من خواص غلماننا » . فخاف الجيش وامن الناس ، واخذت النعم والخيرات التي لا يعلم مقدارها سوى الله ، عزوجل ، تترى على المعسكر يوميا لبيعها هناك ، ولم يدع البتكين احدا من الغلمان ياتي ولو بتفاحة واحدة من المدينة .

لما رأى اهل غزنين ما هم عليه من أمن وعدل ونعمة قالوا : « اننا في حاجة الى ملك عادل نكون في ظله آمنين على أرواحنا وأموالنا وابنائنا تركيا كان أم فارسيا » . واخترقوا بوابة المدينة ومضوا الى البتكين . ولما رأى « لويك » هذا فر الى القلعة لكنه خرج منها بعد عشرين يوما وصار الى البتكين الذي اظهر له رزقا وأملاكا يعيش منها ، ولم يلحق أذى بأحد ، وعد غزنين موطنا له . ومن هناك قصد الهند — وكانت المسافة بين غزنين وديار الكفر مسيرة يومين — فأصاب غنائم وفيرة .

وشاعت الاخبار في خراسان ونيمروز وما وراء النهر بأن « البتكين اقتحم ابواب الهند واغار عليها وظفر بغنائم كثيرة من الذهب والفضة والانعام والعبيد والتحف الطريفة النادرة التي لا يعلم مقدارها سوى الله وحده » . وانضم اليه الناس من شتى الاطراف حتى وصل عدد اتباعه الى ستة آلاف خيال . واستولى البتكين على عدد من الولايات واخضعها الى « برشاوور » (١) وتصدى له ملك الهند بمائة الف خيال وخمسين الف راجل والف وخمسمائة فيل لاخراجه منها . ومن الطرف الآخر ارسل أمير خراسان شخصا يدعى ابا جعفر بخمسة وعشرين الف فارس لحرب البتكين ايضا ، ليثأر لهزيمة جيشه النكراء وقتلاه على مشارف بلخ وفي مضيق خلم . وترك البتكين ابا جعفر يتقدم بجيشه حتى صار على بعد منزلة واحدة من غزنين . حينذاك خرج برجاله الستة آلاف من غزنين واطبق على جيش ابي جعفر ، فاستطاع ان يتغلب على الخمسة والعشرين الفا في مدة وجيزة وبهزمهم هزيمة شنعاء أسوأ الف مرة مما مني به الجيش السابق على مشارف خلم . اما ابو جعفر فولى الادبار وحيدا بعد ان وجد نفسه دون رجال ، غير ان القرويين قبضوا عليه ولم يعرفوه فسلبوه جواده وكل ما كان معه واطلقوه. فمضى الى بلخ راجلا متواريا ودخلها متنكرا . اما انعامهم وعددهم وغنائمهم فآلت الى البتكين جميعا ، ولم يعد امير خراسان بعد هذه المرة الى التصدي لالبتكين او التعرض له ، لان ضعف السامانيين بعد البتكين بلغ مداه اذ صاروا هدف امراء تركستان ونهبا لحملاتهم . ولما فرغ البتكين من قتال ابي جعفر تفرغ لملك الهند ، فبعث برسائل الى خراسان وشتى الانحاء يطلب مددا . فجاءته اعداد غفيرة طمعا في الغنائم وطلبا للغزو وصل عددهم الى احد عشر الفا وخمسمائة خيال وراجل كلهم من الشباب المدججين بكامل اسلحتهم . وتقدم بهم نحو ملك الهند ، ثم حمل

---

(١) في اقبال : « برصابور » وهي مدينة « بيشاور » الحالية عينها الواقعة في ولاية البنجاب شمال غربي الهند ( حاشية ص ١٤٢ ) .

على طلائع جيشه بغتة فقتل اكثر من عشرة آلاف هندي ، ولم يلته بالغنائم بل خف منسحبا الى الخلف . فلما حمل عليه جيش الملك لم يجده .

لقد كان ثمة جبل شاهق وشِعب كانت طريق جيش ملك الهند منه . فما كان من البتكين الا ان تمركز في اول الشعب واستولى عليه ، ولما وصل الملك الى هناك لم يستطع ان يمر منه بل عسكر حيث وقف به المسير ، وأقام على تلك الحال شهرين ، في حين كان البتكين يغير عليهم ليل نهار بغتة باستمرار ويقتل منهم .

وقد أبلى سبكتكين في هذه الحرب بلاء حسنا ، وتمت على يديه اعمال جليلة كثيرة . اما ملك الهند فبقي على ما هو عليه اذ لم يستطع ان يتقدم الى الامام اكثر ، ولم يكن في استطاعته ان يعود دون بلوغ الهدف وتحقيق الاستقرار .

وفي نهاية الامر اقترح ملك الهند على البتكين : « لقد جئت من خراسان طلبا للرزق ، فما بالك في أن اهبك من الاراضي ما تعيش منها على أن تنضم بمن معك الى جيشي وتصبحوا جزءا منه تاكلون وتقيمون بسلام آمنين » . فرضي البتكين بهذا وقبله . واعطاه الملك عددا من المدن والنواحي وخمس قلاع ثم عاد . لكن الملك كان أوعز الى حامية القلاع سرا : « لا تسلموه القلاع بعد عودتي » . ولما عاد امتنعوا عن تسليمها له . فقال : « لقد نقضوا الان عهدهم » . واغار من جديد ، ففتح المدن واستولى على القلاع عنوة لكنه توفي في هذه الاثناء . فوقع جيشه وغلمانه في حيرة من امرهم ، لان الهنود والكفار كانوا يحيطون بهم من كل جانب . وجلسوا يتداولون الامر ويتدبرونه معا قائلين : « لم يترك البتكين ولدا نجعله خليفة له ، ونسوده علينا . اما نحن فقد حزنا في الهند كثيرا من الاحترام والرفعة والشرف ، ولنا في قلوب الهنود هيبة جد عظيمة . ان نشغل انفسنا بأن يقول احدنا : انا اكثر احتراما وحشمة ، ويقول اخر ، ان لي الاولوية ، ويعصى كل شخص ويخالف من جانبه فسيتبدد كل مالنا من رفعة وهيبة ويتغلب اعداؤنا علينا. واذا ما دب الخلاف بيننا ، فان السيوف التي نحارب الكفار بها سنصوبها الى نحورنا ، وتفلت من ايدينا هذه الولاية التي استولينا عليها . لا حيلة لنا سوى ان نختار من بيننا اكثرنا لياقة وكفاءة ونجعله أميرا علينا نأتمر بأمره على انه البتكين ». فقالوا جميعا : « لا علاج لامرنا سوى هذا » . ثم اخذوا يستعرضون الغلمان المقدمين مبينين ما على كل منهم من مآخذ وعيوب الى ان وصلوا الى سبكتكين . فوجم الجميع حين ذكر اسمه . لكنه نهض من بينهم من قال : « لا عيب في سبكتكين سوى أن في الغلمان الآخرين من اشتري قبله واكثر منه خدمة ، والا فانه لا ينقصه شيء من حيث الفطنة والذكاء والنزال والشجاعة والمروءة والسخاء والبذل ومراعاة الناس وحسن الصحبة والعشرة والدماثة والخوف من الله والوفاء بالعهد والصدق والاستقامة . لقد رباه مولانا البتكين فكانت افعاله تلقى من لدنه كل رضى وقبول دائما ، ثم انه يجمع سيرة مولانا وخصاله جميعها ، ويعرف لكل منا قدره ومكانته جيدا . هذا ما اعرفه عنه ، والراي ما ترونه » .

وتشعبوا في حديثهم مدة ، ثم اتفقوا اخيرا على تنصيب سبكتكين اميرا عليهم. ورد سكبتكين تنصيبهم له ، لكنهم اجبروه على ذلك ، وحينذاك قال : « ان لم يكن

ثمة مناص فانني اقبل هذا العبء على ان تهبوا معي هبة رجل واحد على كل من يخالفني أو يشق عصا طاعتي او ينبذ اوامري ظهريا ويتوانى في تنفيذها منكم ، وتقتلوه » . فعاهدوه أوثق عهد واقسموا على ذلك ، ثم اخذوه واجلسوه مكان البتكين ، وسلموا عليه بسلام الامير ونثروا الذهب والفضة من حوله . وتكللت كل تدابير سبكتكين وحملاته بالسداد والنجاح . ثم تزوج من ابنة رئيس زابل ( زابلستان ) التي ولدت له محمودا ، ولهذا قيل له محمود الزابلي . ولما كبر محمود شارك والده في حملات واسفار كثيرة .

وانعم خليفة بغداد بلقب « ناصر الدين » على سبكتكين ، لما قام به من اعمال جليلة ، وأحرز من انتصارات عظيمة في ديار الهند .

ولما توفي سبكتكين خلفه ابنه السلطان محمود الذي كان قد ثقف عن والده تدبير شؤون الملك وادارتها . وكان محمود كاتبا وقارئا يهوى الاصغاء الى اخبار الملوك دائما ، ولقد حاز كل الصفات والسير الحميدة .

ومضى محمود في طريق الفتح ، ففتح ولاية « نيمروز » واستولى على خراسان. اما الهند فتوغل فيها كثيرا واستولى على « سومنات » وجلب « مناة » وتغلب على ملوكها وهزمهم ووصل أمره الى ما وصل اليه .

لقد هدفت من وراء هذه الحكاية ان يعلم سيد العالم — خلد الله ملكه — كيف يكون العبد الجيد ، الذي اذا ما قام بخدمات نافعة مقبولة ولم تبدر منه اية خيانة او ينكث عهدا قط بل كان الملك به ثابت الاساس مستحكما فكان بركة على المملكة ونفعا لها ، فينبغي الا يكلم في فؤاده او يصغي الى اقاويل الناس المغرضة فيه بل يجب الاعتماد عليه كثيرا . فالاسرات الحاكمة والمدن والممالك في حاجة الى رجال تستند اليهم وتعتمد عليهم دائما . فاذا ما نحي أحدهم عن مكانه او أطيح به تنقرض تلك الاسرة ويمحي ملكها ، وتؤول مدنها الى دمار . مثال هذا ان البتكين كان غلاما جيدا ، وبه استحكم ملك السامانيين الذين لم يعرفوا له قدره بل تألبوا عليه ، فدالت بذهابه من خراسان دولة السامانيين وآلت بفضله هو الى أسرته من بعده .

ينبغي الحفاظ على العبيد والغلمان الذين يربون منذ صغرهم ويترعرعون ويكبرون ، لانه قلما يجود الزمان بغلام لائق متمرس . فقد قالت الحكماء : « الخادم والعبد الكفء المتمرس خير من الابن » ، وفي المعنى نفسه يقول الشاعر :

« عبد مطواع واحد خير من ثلاثمائة ولد ، لان هؤلاء يبغون موت الاب والعبد ينشد عزه » .

# الفصل الثامن والعشرون

## في تنظيم المقابلات الخاصة والعامة

لا بد للمقابلات السامية من نظام معين بحيث يدخل ذوو القربى اولا ، فالمعروفون من الحشم ، فالناس من كافة الطبقات الاخرى . وعندما يجتمعون في مكان واحد ( هو القصر ) لا يكون ثمة فرق بين شريفهم والوضيع .

من امارات المقابلة رفع الستارة ، اما اسدالها فيعني انه لا يسمح لاحد بالدخول ما لم يستدع وما كان هذا الا علامة يستدل بها رسل كبراء الدولة وقادة الجيش على وجود مقابلة في ذلك اليوم أم لا . فان يكن مثولهم بين يدي السلطان واجبا يذهبوا والا فلا ، لانه ليس اشد وطأة عليهم من حضورهم الى القصر وعودتهم دون ان يروا السلطان . فان يتكرر الامر بأن يحضروا مرات ويعودوا ولم يقابلوه فانهم سيظنون به الظنون ، ويشرعون في التدبير له والمكر به . ان تضييق النطاق على الناس في الوصول الى الملك ومقابلته يؤدي الى تردي احوالهم وبقائها خافية عليه ، ثم الى تفاقم امر المفسدين وتماديهم ، وسوء حال الجيش ومعاناته ، وشقاء الرعية .

ليس ثمة افضل من ان يوسع الملك نطاق مقابلاته ويفتح ابوابه على مصاريعها . وفي اثناء جلوسه للمقابلة ، على ولاة الثغور ، والامراء والسادات والائمة بعد دخولهم ومثولهم بين يديه ان يعودوا ومن معهم حالا . واذا ما بقي الخاصة هناك فعلى غلمانهم الذين جاءوا معهم للمثول بين يدي السلطان ان يعودوا ، اما الغلمان الذين لا يستغنى عنهم من مثل الموكلين بالسلاح والسقاية وذوق الطعام وأمثالهم فلا بد من بقائهم ما اقام الخاصة هناك .

فاذا ما تكرر الامر على هذا النحو مرات عدة ، يصير عادة تؤول الى قاعدة تتبع فتتلاشى هذه المشاق والمتاعب ولن تعود حاجة الى رفع الستارة واسدالها . ان اي ترتيب لا يتمشى مع هذا لن يلقى رضى وقبولا .

## الفصل التاسع والعشرون

## في تنظيم مجلس الشراب وشروط ذلك

ينبغي تخصيص يوم او يومين اسبوعيا للمقابلات العامة بحيث يكون الملك فيهما في اوج انبساطه ونشاطه ، ليتمكن من حضورها كل من اعتاد ذلك ولا يمنع منها احـد . ويجب ان يخبر العامة بأن هذا اليوم يومهم ، وان لا يأتوا في الايام التي تكون المقابلات فيها وقفا على الخاصة لئلا تكون ثمة حاجة في ان يؤذن لشخص ويرد اخـر .

وينبغي أن تكون اسماء من هم اهل لحضور المجالس الخاصة معروفة وعددهم معينا ، ويشترط ان يكون برفقة كل منهم غلام واحد فقط . وليس من اللياقة بأن يحضر اي منهم خمرته وساقيه معه ، لان العادة لم تجر قط بشيء من هذا العمل غير المقبول ، بل جرت العادة في كل الاعصار أن تحمل الاغذية والنقل والاشربة من قصور الملوك الى منازل الاخرين ، وليس العكس . فالسلطان هو سيد البلاد والناس كلهم عيال عليه . فليس صحيحا اذن ان يحمل الطعام والشراب من منازل من يعولهم السلطان ويؤمن لهم ارزاقهم الى قصره ومجلسه . ومن المسلم به أن تدبير شؤون السلطان المنزلية وتجهيزاتها اكثر واحسن واجمل وانظف مما لكـل اكابر الدولة وعظمائها . فان تكن علة احضارهـم الشراب أن الموكـل الخاص بالشراب يقدم ضربا رديئا تجب معاقبته لان كل الاشربة التي يوكل بها من الاصناف الجيدة فلماذا يقدم شرابا رديئا ؟ فبذا ينتفي عذرهـم ويقضى علـى جسارتهم في احضار الشراب الى مجلس الملك .

لا مندوحة للملك من ندامى لاثنين ، لان مجالسته للعبيد والخدم بكثرة تزيد من جراتهم عليه وتسيء الى عظمته وجلاله وتنال مـن حرمته وتصـدع أركانها ، وتؤدي الى ركة في طبعه . فهؤلاء انما يليقون للخدمة حسب . اما معاشرة الملك لكبراء الدولة وقادة الجيش ورؤساء القوم العظماء المحترمين ومخالطته لهم كثيرا

أيضا ، فتسيء الى ابهته وجلاله من حيث تؤدي بهم الى التواني والتقاعس عن اطاعة اوامره وتنفيذها ، فيتجرأون عليه ويضربون بالخوف والرهبة منه عرض الحائط .

من واجب الملك ان يبحث مع الوزير في الامور المتعلقة بالولايات والجيش وعائدات املاك الدولة واراضيها والنفقات والعمران والتدابير اللازمة لصد الخصوم ، وغير هذا من شؤون المملكة .

* * *

كل هذه هي التي تبعث على الملالة وزيادة التفكير وعذاب النفس ، لان العقل والنفس لا يبيحان المزاح والانفتاح مع تلك الفئات حرصا على مصلحة الملك. ان طبع الملك لا ينفرد الا بالنديم . فاذا ما أراد ان ينبسط اكثر في عيشه وحياته بأن يخلط الهزل بالمزاح ، ويتبادل الحكايات المضحكة والنوادر مع الندمان فان هذا لا يضير عظمته في شيء ، لانه انما يدخرهم لمثل هذه الامور . وقد تكلمنا على هذا الموضوع في فصل سابق (١) .

---

(١) يقصد الفصل السابع عشر من هذا الكتاب .

## الفصل الثلاثون

## في ترتيب وقوف العبيد والخدم

ينبغي تنظيم وقوف الكبراء وغير الكبراء والعبيد والخدم وتعيين مكان كل منهم ، لان الوقوف والجلوس كليهما بين يدي الملوك سواء . ويجب ان يراعى نظام الوقوف مثلما هو الامر في الجلوس ، فيقف خاصة الملك من مثل حملة السلاح، والسقاة واضرابهم بالقرب من سرير الملك ويلتفون حوله . واذا ما اراد شخص أن يندس بينهم ابعده حاجب البلاط . كذلك اذا ما دلف شخص غريب وسط أي جماعة منهم يصرخ في وجهه ويمنع من ذلك .

## الفصل الحادي والثلاثون

## في احتياجــات الجيش وطلباته

ان تكن للجند حاجة ما ينبغي ان تطلب بألسنة قادتهم ورؤسـائهم ، لانهم ان اجيبوا الى ذلك اجابة حسنة يكونوا قد توصلوا الى احتياجاتهم بأنفسهم ومن هنا يتأتى الاحترام للقادة بين افرادهم لانهم طلبوا ما يحتاجون بأنفسهم فحصلوا عليه دون الحاجة الى وساطة تذهب باحترامهم لو لجأوا اليها .

واذا ما تطاول جندي على قائده ولم يحترمه أو يرع حرمته بل تجاوز حــده تنبغي معاقبته كيما يمتاز الرئيس عن المرؤوس .

## الفصل الثاني والثلاثون

## في معرفة قدر الجاه والسلاح ومعدات الحرب والسفر

ينبغي حث العظماء والمشهورين ممن يمتلكون الالبسة القيمة الثمينة علــى امتلاك الاسلحة وآلات الحرب وشراء الغلمان ، لان مظاهر ابهتهم وعظمتهم انما تكون بهذه الاشياء لا بزينة منازلهم وأثاثها ووسائل تجملها . ان من تتوفر له امكانات اكثر في هذا المجال يكون اقرب حظوة لدى الملك ، واكثر عظمة وهيبة وجلالة بين اقــرانه وأمام الجيش .

## الفصل الثالث والثلاثـون

## في عتاب المقربين وذوي المقامات الرفيعة حين ارتكاب الأخطاء والذنوب

على من ينشدون العظمة والوصول الى المقامات العالية الرفيعة ان يتحملوا الصعاب ويتجملوا بالصبر في ازمانهم . فاذا مـا بدت مـن هؤلاء هنات واخطاء وعوتبوا جهارا ، فان ماء وجوههم يراق ولا يرد لهم اعتبارهم وحرمتهم الا بقدر كبير من الاحسان والمكافئة والتقدير . انه لمن الاولى اذا ما ارتكب احدهم خطأ أن يغض الطرف عنه في حينه ، ثم يستدعى سرا ، ويقال له : « لقد فعلت كذا وكذا، لكننا رغبة منا في عدم الاطاحة والايقاع بمن قربناهم واوصلناهم الـى هذه المنزلة قد تجاوزنا عن ذلك . ان عليه ان يتجنب الوقوع في الخطأ ، والا يجرؤ على ارتكاب شيء من هذا القبيل فيما بعد (١) . لكنه اذا ما اعاد الكـرة فسيخرج مـن كنفنا وخدمتنا وحشمنا فيكون حينئذ هو الذي اختار هذا لا نحن » .

* * *

سئل امير المؤمنين (٢) رضي الله عنه ـ : « اي الرجال اشجع ؟» : فأجاب « من يتمالك نفسه عند الغضب ، ولا يأتي بعمل يندم على فعله بعد سكون غضبه، فلات ساعـة مندم » .

ان كمال عقل المرء في الا يغضب ، فان غضب لينبغي أن تكون الغلبة لعقله على غضبه وليس العكس . ان كل من يستولي هوى نفسه على عقله فان غضبه،

---

(١) لاحظ انتقال المؤلف هنا من ضمير الخطاب الى الغيبة أيضا .

(٢) أي الامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

حين يثور ويظهر ، يطغى على عقله فيتصرف تصرف المجانين في اقواله واعماله . لكن من يكبح عقله جماح نفسه ابان غضبها ، فان عقله يستطيع طرد اهواء نفسه وميولها والانتصار عليها ، فتلقى أقواله واعماله قبولا لدى العقلاء ، ولا يدري الناس أغاضب هو أم لا .

## حلم الحسين بن علي (ع)

جلس الحسين بن علي ، رضوان الله عليهما ، يوما ومعه جماعة من الصحابة ووجهاء العرب الى « الخوان » يأكلون الطعام ، وكان يرتدي جبة جديدة ثمينة من الديباج الرومي ، وعمامة في غاية الحسن . ولما اراد الغلام الذي كان يقف على راسه أن يضع آنية طعام أمامه شاء القدر ان تسقط من يده على راس الحسين وكتفه فتتلطخ عمامته وجبته بالطعام . وحينذاك ثارت ثائرة الحسين واحمرت وجنتاه خجلا فرفع راسه ونظر في الغلام . لما رأى الغلام الامر على هذه الحال خشي أن يأمر الحسين بتأديبه ، فقال : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » (١) فالتفت الحسين رضي الله عنه اليه مبتهجا ، وقال : « يا غلام ! لقد عفوت عنك لتكون في أمان تام من غضبي وعقوبتي » . فعجب الحاضرون من حلم الحسين وعلو همته في حال كتلك واكبروهما .

## ( حلم معاوية ) (٢)

يقال ان معاوية كان واسع الصدر وحليما جدا . ففي حين كان يجلس الناس يوما ، والعظماء جلوس أمامه ووقف ، دخل عليه شاب في ثياب رثة فسلم وجلس قبالته بكل جسارة ، وقال : « يا امير المؤمنين ، قصدتك اليوم في حاجة لا اذكرها ما لم تعد بتلبيتها » . فقال معاوية « سألبي ما يمكن تلبيته » . قال الشاب : « اعلم انني رجل عزب لا زوج لي وأن والدتك دون بعل ايضا ، فزوجنيها حتى يصبح لكل منا زوج وتثاب انت على صنيعك » . قال معاوية : « انت شاب وهي عجوز لا سن في فمها ، فما الذي يرغبك فيها ؟ » . قال : « اعلم انني

---

(١) آل عمران • اية ١٢٨ وقد سقطت « الواو » من « والكاظمين » في الاية الكريمة في اصل الكتاب دون ان ينتبه الدكتور شعار الى هذا ، فضلا عن انه ذكر ان هذا القدر من الاية من اية ١٣٤ من سورة آل عمران ( انظر : حاشية ١ ص ١٩٢ من نسخته ) • أما في نسخة اقبال فجاء هذا القدر من الاية كاملا الى نهايتها أي « ... والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » •

(٢) حذف الدكتور شعار هذه الحكاية من هذا الفصل بحجة أنها مستهجنة في نظره • وقد تابع في صنيعه هذا عباس اقبال الذي حذفها لانها تتنافى مع تدريس الكتاب في المدارس الايرانية ( انظر : حاشية ٣ ص ١٥٥ ) لكن « دارك » أبقاها على حالها فترجمتها عنه رعاية لامانة الترجمة •

سمعت انها ذات عجيزة كبيرة ، وهذا ما اميل اليه » . قال معاوية : « والله ان والدي تزوجها لهذا السبب ليس الا . لكنني مع هذا سأتحدث اليها في الامـــر ، فان رغبت فيه فليس من هو أولى مني بالقيام بهذه المهمة » . ولـــم يبد عليه اي تغيير ، او أنه تحول من مكانه . فأقر الناس جميعا أن احدا لن يستطيع أن يكون احلـــم منـــه .

* * *

وقالت الحكماء : الصبر جميل لكنه عند النجاح اجمل ، والعلم جميل لكنه مع المهارة والتفنن اجمل ، والنعمة جميلة لكنها بالشكر والسعادة اجمل ، والطاعـــة جميلة لكنها بالعلم وخشية اللـــه اجمل .

# الفصل الرابع والثلاثون

## في الحرس والخفـر والبوابـين

تجب الحيطة التامة فيما يتعلق بالحرس والخفر والبوابين الخاصين . وعلى الموكلين بهم معرفتهم جميعا ، والاستفسار عن احوالهم سرا وعلانيـة لانهم أفقر واطمع وإسرع انخداعا بالمال واغراء . واذا ما شوهد بينهـم غريب ، فينبغـي السؤال عنه والتأكد منه . ويجب ان يراقبوا ويتأكد منهم ويوضعوا تحت الاشراف المباشر كل ليلة عندما يتسلمون واجباتهم ، وينبغي عدم اغفال هذا الامر ليلا أو نهارا لانه عمل دقيـق .

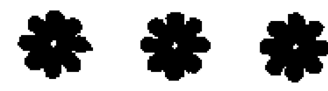
# الفصل الخامس والثلاثون

## في تهيئة الخوان وتنظيمه جيدا

كان الملوك دائما ، يعيرون اهتماما كبيرا لاعداد الخوان مع الصباح الباكر ، حتى يجد من يمثلون بين ايديهم ما ياكلون هناك . ولا تثريب على الخاصة اذا لم يتناولوا الطعام في هذا الوقت ، بل تناولوه في وقته المضروب ، غير انه لم تكن مندوحة من تهيئة الخوان بكرة .

كان السلطان طغرل — رحمه الله — يحرص على اعداد الخوان جيدا ، ويأمر بتهيئة انواع الطعام المختلفة على أكمل وجه ، حتى حين كان يركب مبكرا ، طلبا للتنزه او الصيد ، كان يحمل في موكبه عشرون وسقا من الاطعمة لزاده في الصحراء. وقد كانت كثرتها تثير عجب الامراء والاتراك في اثناء تناولهم الطعام هناك .

وكان من عادة « خانات » تركستان توفير الاطعمة لخدمهم ، وفي مطابخهم . فلما ذهبنا الى سمرقند (١) و « أوزكند » (٢) سمعنا ما كان يدور على السنة الفضوليين من أن « الجكليين » وسكان ما وراء النهر كانوا يقولون في استمرار : « اننا لم ناكل لقمة واحدة على خوان السلطان في المدة الطويلة التي كان يتردد فيهــا ! » .



---

(١) زار ملكشاه هذه الحدود مرتين ابان حكمــه ، الاولى عــام ٤٧١ هـ ، والاخرى عام ٤٨١هـ . ويظهر ان هذه الاشارة الى الزيارة الاولى ( تعليقات دارك ص ٢٣٩ ) .

(٢) وقيل « أوزجند » ( بالجيم ) ، وهي بلد بما وراء النهر من نواحي فرغانه . ويقال ان معنى كلمة « كند » قرية بلغة اهــل تلك البلاد ، مثلما يقــول اهل الشام « كفر » ( معجـم البلدان ) .

ان همة كل شخص ومرؤته بقدر عظمته وسيادته ، فبما أن السلطان سيد العالم كله والملوك منصاعون اليه جميعا ينبغـــي ان تجيء عظمتـــه وهمته ومرؤته وخوانه وصلاته متناسبة مع قدره وجلاله وأفضل من سائر الملوك وأكثر . وفي الخبر ان اغداق الخبز والطعام على خلق الله ، عزوجل ، يزيد في دوام العمر والملك والدولـــة .

## ( قصة ) موسى وفرعون

ورد في تواريخ الانبياء ( عليهم السلام ) ، ان موسى ( عليه السلام ) أرسل الى فرعون بالمعجزات والكرامات والمنازل الرفيعة . لقد كان قوام خوان فرعون : اربعة آلاف خروف واربعمائة بقرة ، ومئتي بعير يوميا ، مع ما يناسبها من الدجاج والسمك والمشهيات والمقالي والحلوى وغيرها . وكان اهل مصر وجيشها يتناولون الطعام على خوانه كل يوم . وظل يدعي الالوهية ويقيم الخوان اربعمائة سنة .

ولما دعا موسى ( عليه السلام ) : « يا رب اهلك فرعون » استجاب الله ، عزوجل ، دعاءه ، وقال : « سوف اهلكه في الماء يوما ، فأجعل ثروته وجيشه رزقا لك ولقومك » . ومضت على هذا الوعد سنوات ، وفرعون يرتع في ضلاله ، ويطوي الايام بتلك العظمة والجلالة . اما موسى ( عليه السلام ) ، فأخذ يتمنى على الله ، عزوجل ان يعجل في هلاك فرعون .

ونفذ صبر موسى ، وصام اربعين يوما ، ثم مضى الى الطور ، وناجى الله ، عزوجل ، قائلا : « يا رب ، لقد وعدت ان تهلك فرعون ، انه لم يخفف من غلوائه ودعواه وكفره شيئا ، فمتى ستودي به ؟ » فجاءه نداء الحق تعالى : « يا موسى ، انك تريدني ان أهلك فرعون في اقرب وقت ، في حين ان مائة مائة الف من عبادي لا يريدون ذلك ، لانهم يأكلون من نعمه يوميا ، وينعمون بالراحة في عهده . وعزتي وجلالي ، لا اهلكه ما أسبغ على الناس نعمته وطعامه تامين » . قال موســـى : « فمتى تنجز وعدك اذن ؟ » قال تعالى : « سأنفذ وعدي متى امسك عن اطعام الناس ، فاذا ما بدأ في تقليل طعامه ، فاعلم ان اجله اخذ يدنو من نهايته » . وحدث، ان قال فرعون لهامان يوما : « لقد جمع موسى بني اسرائيل حوله ، وهو يعمل على ايذائنا . لست أدري الى اين ستنتهي عاقبة امره معنا . علينا ان نعبـــيء خزائننا ، حتى لا نقعد دون ثروة ابدا ، وان نقلل النفقات اليومية الى النصف . ينبغي ان يقل عدد الذبائح الف خروف ، ومئتي بقرة ومائة بعير حبا في الادخار » .

وهكذا ، اخذت تقل تدريجيا كل يومين او ثلاثة . وكـــان موسى ( عليـــه السلام ) يعلم ان وعد الحق تعالى أخذ في الاقتراب وان زياده التوفير لم تكـــن سوى علامة الزوال والشؤم . ويقول الاخباريون انه لم يذبح في مطبخ فرعون في اليوم الذي غرق فيه سوى شاتين .

* * *

لقد امتدح الله ، تعالى ، ابراهيم ( عليه السلام ) لاطعامه الطعام ، وحبه الضيف . وحرم — عزوجل — النار على بدن حاتم الطائي لسخائه وحسن ضيافته، وسيظل الناس يذكرون كرمه ومرؤته مدى الحياة .

وذكر الله تعالى الامام عليا ( رضي الله عنه ) في القرآن الكريم ، واثنى عليه غير مرة ، لاعطائه في الصلاة ، سائلا خاتما سد رمق عدد من الجياع ، وسوف يظل الناس يلهجون بشجاعته وعلو همته وشهامته الى يوم الدين .

ليس في الدنيا عمل افضل من الشهامة ، والاحسان ، واطعام الطعام الذي يعد رأس كل المروءات ، يقول العنصري (١) :

« الكرم أجل الاعمال انه من شمائل النبي (٢) »
« الدنيا والاخرة للكريم فكن كريما تفز بهما »

فان تكن لاحد نعمة ، وابتغي ان تكون له ، دون عهد من الملك بذلك ، العظمة والسيادة ، وان يتواضع له الناس ويحترموه ويقدروه ويلقبوه سيدا وعظيما ، فقل له ان « ابسط سفرتك يوميا » ، فان شهرة اكثر من اشتهرت اسماؤهم في الورى ، لم تكن الا عن اطعام الطعام .

اما البخلاء والمسكون فمذمومون في الدنيا والآخرة . جاء في الاخبار : « البخيل لا يدخل الجنة » . ولم تكن في كل أعصار الكفر والاسلام خصلة احسن من اطعام الطعام .

---

(١) العنصري ( ٣٥٠ - ٤٣١هـ ) : هو ابو القاسم ، الحسن بن احمد ، اصله من بلخ . كان اكبر الشعراء في الدولة الغزنوية ، ومن مقربي السلطان محمود الذي كان اكبر ممدوحيه . لقب بملك الشعراء ، ونال خطوة السلطان واحترامه . ( راجع : دكتر رضا زادة شفق ، تاريخ ادبيات ايران ص ١٥٤ - ١٥٧ ) .

(٢) ينقل « دارك » عن « تاريخ ادبيات در ايران » ( ج١ ، ص ٤٣٦ ) للدكتور ذبيح الله صفا ان البيت الاول من هذين البيتين الذي نسب للعنصري يوجد في منظومة « بندنامة انو شيروان » المنسوبة الى بديع البلخي من شعراء القرن الرابع ( تعليقات دارك ص ٣٣٩ ) .

# الفصل السادس والثلاثون

## في معرفة حق الخدم والعبيد الأكفاء

تجب مكافأة كل من يقوم من الخدم بعمل مرض حالا ، ليجني ثمار ما قدمت يداه . اما من يرتكب منهم خطأ في اداء عمله سهوا ودونما قصد فتنبغي معاقبته بقدر ذنبه ، لتتوى رغبة العبيد في الخدمة ويكثر اقبالهم عليها ، وتزداد خشية المذنبين ، وتستقيم الامور .

### عقوبة الذنب

عربد فتي هاشمي ، لسكره ، على فريق من الناس ، فمضوا الى والده وشكوا اليه ابنه . ولما همّ الاب بعقاب الابن قال له : « يا أبت ، لقد اذنبت وانا فاقد وعيي ، فلا تعاقبني وانت تملك صوابك » . فسر الاب لقوله واعجبه ، فعفا عنه .

### كسرى ابرويز وباريد

قال ( ابن ) (١) خردانبه : « غضب ابرويز على احد خاصته ، فحبسه ، ولم يجرؤ احد على الدنو منه سوى « باريد » (٢) المغني الذي كان يأتيه بالطعام

---

(١) في الاصل : « خردادبه » ( بالدال المهملة ) . وربما كان المقصود به « ابن خردانبه » صاحب كتاب « المسالك والممالك » الذي يذكر له ابن النديم كتابا باسم « كتاب اللهو والملاهي » ( الفهرست ١٦٥ ، طبعة طهران ١٩٧١م ) ربما اخذت عنه هذه الحكاية . وقد نشر الاب اغناطيوس عبده اليسوعي قطعة من هذا الكتاب باسم « مختار من كتاب اللهو والملاهي » ( المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٦١م ) .

(٢) كان باريد مغنيا وموسيقيا معروفا في بلاط كسرى ابرويز ( زهراي خانلري : فرهنك ادبيات فارسي ص ٨٣ ) .

والشراب يوميا . فلما اخبر الملك ابرويز بذلـــك ، قال لباريد : « كيف تجرؤ على الاعتناء بشخص في حبسنا ومساعدته ؟ هلا علمت انه لا يجوز الاهتمام بمن نغضب عليه ونسجنه ؟ » قال باريد : « يا مولاي ، ان ما وهبته اياه اهم مما افعله مـــن اجله » . قال ابرويز : « وماذا وهبته ؟ » قال : « حياته ، فهي احسن مما كنت أرسله اليه » . قال الملك : « احسنت : لقد قلـــت شيئا حسنا . اذهب فانني عفوت عنه اكراما لـــك » .

## أنوشروان والعجوز الذي كان يغرس جوزا

كان من عادة سلالة الساسانيين اذا ما فاه أحد أمامهم بكلام جميل يروقهم ، او ابدى مهارة ما ، ان تنطلق السنتهم بلفظة « احسنت » . وعندئذ يعطي الموكل بالخزانة ذلك الشخص الف دينار حالا . وكان ملوك الاكاسرة ، وأنوشروان العادل خاصة ، اكثر من غيرهم من الملوك الآخرين عدلا وهمة ومروءة .

حينما كان أنوشروان خارجا للصيـــد يوما ، ومعه ناصيتـــه وخاصته ، مرّ بأطراف قرية ، فرأى عجوزا في التسعين من عمره يغرس جوزا ، فتملكه العجب ، لان هذه الغراس لن تؤتي أكلها قبل عشر سنوات أو عشرين . قال أنو شروان له : « يا شيخ ، أتغرس جوزا ؟ » قال : « اجل يا مولاي » . قـــال أنوشروان : « أفستعيش حتى تأكل مـــن ثماره ؟ » قـــال : « غرسوا فأكلنـــا ، ونغـــرس فيأكلون » . فسر أنوشروان لجوابه ، وقال : « احسنت » . فناول الموكل بالخزانة العجوز الف دينار حالا . فقال الشيخ : « يا مولاي ؟ لم يسبقني احد الى جني ثمار هذا الشجر » قال أنوشروان : « كيف ؟ » . قال الشيخ : « لو لم اكـــن اغرس جوزا ، ولم يمر مولاي من هنا فيسألني ما سال ، واجبه بما اجبت ، فأنى لي هذه الالف دينار ؟ » فقال أنوشروان : « أحسنت ، أحسنت ، احسنت » فأعطى الموكـــل بالخزانة الرجل الفين اخرين ، لجريان « احسنت » على لسان أنوشروان مرتين .

## احسان المامـــون

كان المامون يجلس للمظالم يوما ، فسلمت اليه رسالة في حاجة ما ، فناولها الى الفضل بن سهل الذي كان وزيرا له ، وقال له : « اقض حاجة هذا الرجل بسرعة ، فعجلة الزمن اسرع من أن تثبت على حال ، وهـــذه الدنيا تمضي سراعا بحيث لا تمكن المرء من الوفاء لصديقه . اننا نستطيع أن نفعل اليوم خيرا ، لكـــن ربما ياتي يوم لا نستطيع معه ، لعجزنا ، فعل الخير لاحد » .

# الفصل السابع والثلاثون

## في الاحتياط في اقطاع الاقطاعيين وأحوال الرعية

اذا ما انهيت اخبار تنبىء عن الخراب والدمار في ناحية ما ، وعن بروز الفرقة بين أهلها ، وظن في أن للقائلين مآرب خاصة ، فلا بد من ندب أحد الخاصة وارساله الى تلك الناحية ، دون أن يدري أحد بالمهمة المرسل بها ، ليقيم هناك شهرا ، يستطلع في خلاله احوال المدينة والريف ، ويرى مظاهر العمران والخراب، ويستمع الى ما يقول الناس في المقطع والعامل ، ثم يعود بالحقيقة ، لان ليس لأولي الامر هناك من عذر وحجة سوى « لنا خصوم » . لذا ينبغي عدم الاصغاء الى كلامهم ، لئلا يتمادوا في التجرؤ ، فيفعلوا ويقولوا ما يشاؤون .

وقد يمتنع المخبرون والمعتمدون عن قول الحقيقة ونقلها لكيلا يتطرق الى ذهن الملك واصحاب الاقطاع أنهم من ذوي الاغراض والمآرب أيضا . من هنا تؤول المملكة الى دمار ، والرعية الى فقر وشتات ، وتؤخذ الاموال بالباطل .

## الفصل الثامن والثلاثون

## في التريث في الأمور

ينبغي عدم التسرع في الامور ، فاذا ما سمع خبر ما ، أو طرأ شيء ، فيجب تدبره بتأن وهدوء الى ان تنجلي حقيقته ، ويتبين الكذب من الصدق . فالتسرع من شأن الضعفاء لا الاقوياء .

واذا ما تحاج خصمان بين يدي الملك ، فينبغي عدم اشعارهما بالجانب الذي يؤيده الملك ويميل اليه ، لئلا يخاف صاحب الحق آنذاك فلا يستطيع بيان حجته ، ويزداد الذي على الباطل جراة . فيوغل في كذبه وافترائه . يقول الحق تعالى في محكم كتابه العزيز : « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين (١) » .

### فراسة الب ارسلان

كان في مدينة « هراة » رجل معروف عالم (٢) ، هو ذلك الشيخ الذي تقدم لمولانا مرة . وحدث ان ذهب السلطان الشهيد (٣) — انار الله برهانه — الى هراة

---

(١) الحجرات ، آية ٦ .

(٢) يرى عباس اقبال ان نظام الملك ربما يقصد بالعالم المعروف شيخ الاسلام الخواجه عبد الله ابن محمد الانصاري ( ٣٩٦ — ٤٨١هـ ) العالم والصوفي الهروي المشهور الذي شكاه اهل هراة الى ألب أرسلان ونظام الملك ، وألصقوا به التهم غير مرة ، لتعصبه في الدين والحاقه الاذى بهم لذلك . ويظن اقبال أيضا ان نظام الملك تحاشى ذكر اسمه لانعدام المودة والصفاء بينهما ( حاشية ٢ ص ١٦٥ ) .

(٣) أي ألب أرسلان .

واقام هنالك مدة ، وفي هذه الاثناء نزل عبـد الرحمن الخال (١) في سراي ذلـك الشيخ العالم . وذات يوم ، قال عبد الرحمن امـام السلطان علـى الشراب : « لهذا الشيخ حجرة يأوي اليها ليلا ، ويقال انه يصلي الليل كله هناك . لكننـي رأيت اليوم ، وأنا افتح باب تلك الحجرة ، زق خمر ، وصنما نحاسيا . ان الرجل يقضي ليله في الشراب وعبادة الصنم » . وكان عبد الرحمن الذي احضر الـزق والصنم معه ، يدرك انه حينما يطلع السلطان على هذا الامر ، سيأمر بقتل الشيخ حـالا .

وارسل السلطان غلاما وشخصا في طلب الشيخ ، كما ارسل اليّ (٢) من يقول: « ابعث شخصا في طلب ذلك العالم الشيخ » دون أن ادري علة استدعائه . ثم جاء في الوقت نفسه شخص اخر وقال : « لا ترسل احدا ، ولا تستدع الشيخ » .

وفي اليوم التالي ، سألت السلطان : « ماذا كان سبب استـدعاء الشيخ العالم أمس ، والعزوف عنه بعد ذلك ؟ » أجاب : « جسارة عبد الرحمن الخال وصفاقته » . وقص عليّ الحكاية ، ثم قال ، قلت لعبد الرحمن الخال : « علـى الرغم مما قلت ومن احضارك الزق والصنم ، فلن آمر بشيء ضد الشيخ العالـم قبل أن اتثبت من حقيقة أمره وصحته . عليك بيدي واقسم بحياتي ورأسي على أن ما تقول صدق او كذب » فقال عبد الرحمن : « كذب » . قلت : « يا نذل ، فلم افتريت على ذلك الشيخ العالم الكذب اذن ، واردت هدر دمه ؟ » . قال : « لان له بيتا جميلا هو الذي احل فيه الآن ، ستهبني اياه بعد أن تقتله » .

*  *  *

قال علماء الدين : « العجلة من الشيطان والتاني مـن الرحمن » . انه لمن الممكن القيام بعمل لم يقم به بعد ، ولكن ليس بالامكان فعل اي شيء فيما تم انجازه.

يقول بزرجمهر : « العجلة من التهور والطيش ، والعجول الـذي لا يعرف التاني يظل حزينا ندمان دائما ، والمتهورون مبتذلون في اعين الناس » .

لقد رأيت كثيرا من المسائل والامور على وشك أن تتم بنحو حسن ، غير أن التسرع افسدها واحبطهـا . العجول في صراع دائم مع نفسـه ، يقضي عمره في التوبة والاعتذار ، وتلقي اللوم ، والغرم . يقول أمير المؤمنين علي — رضي الله عنه — : « التاني محمود في كل شيء الا في فعل الخير » .

---

(١) في نسخة اقبال ( ص ١٢٦ ) ان عبد الرحمن هذا كان خال الب أرسلان .

(٢) أي نظام الملـك نفسـه .

# الفصل التاسع والثلاثون

## في أمير الحرس وحملة الدبابيس

لقد كانت امارة الحرس ، فيما تقدم ، من أهم الوظائف والمناصب واجلها في كل الاعصار . اذ لم يكن في البلاط أعظم وأكثر ابهة بعد الامير الحاجب العظيم من امير الحرس ، لان عمله مختص بالعقوبات ، والجميع يخشون غضب الملك وعقابه. فاذا ما غضب الملك على شخص ما ، فانه يأمر امير الحرس بأحد الاشياء التالية : ضرب العنق ، قطع اليد والرجل ، الشنق ، الجلد ، الزج في السجن ، الالقاء في البئر . ولم يكن الناس يترددون في افتداء أنفسهم وأرواحهم بالمال . لقد كان اللواء والطبل والدف لامير الحرس دائما ، وكان الناس يخافونه أكثر من الملك غير أن هذا المنصب أضحى خلقا باليا في هذه الايام (١) ، وذهب برونقه وبهائه .

ينبغي أن يكون في البلاط دائما خمسون — على الاقل — من حملة الدبابيس ، عشرون بدبابيس ذهبية الرأس ، ومثلهم بدبابيس فضية الرأس ، والعشرة الآخرون بدبابيس كبيرة ، وأن تكون لامير الحرس أحسن الوسائل وادوات الزينة والتجمل وابهاها ، واتم احترام وأكمله . فان يستطيع أن يوطن نفسه على كل هذا فيها ، والا فليستبدل بآخــر .

### ( المأمون وتسيير دفة الامور )

في حين كان الخليفة المأمون يجالس ندمائه يوما ، قال : « لي أميرا حرس لا عمل لهما من الصباح الباكر الى الليل سوى ضرب الرقاب ، والشنق ، وقطع الايدي والارجل ، والجلد ، والزج في السجن . الناس يمتدحون احدهما ويثنون

---

(١) أي عصر المؤلــف .

عليه ، ويعرفون له حقه باستمرار ، وهم عنه راضون وبه مسرورون ، في حين انهم يسبون الآخر ويذكرونه بالشر والسوء ، وهم دائمو الشكوى والتذمر منه ، يلعنونه ويدعون عليه كلما ذكروا اسمه . ولست أدري سببا لهذا . ليت احدا يستطيع ان يتبين لي حقيقة الامر . ان عمل الرجلين واحد ، فلم يثني الناس على احدهما ، ويتذمرون من الآخر ؟ » . قال احد الندماء : « ان يتفضل مولاي بندبي لهذا الامر ، وامهالي ثلاثة ايام آته بحقيقته » . قال المأمون : « لك هذا » .

ومضى النديم الى منزله ، وقال لاحد خدمه القديرين : « لقد ندبتك لتقوم لي بالمهمة التالية : في بغداد — في هذه الايام — اميرا حرس ، أحدهما مسن ، والآخر كهل (١) . عليك ان تنهض صباح غد الباكر وتمضي الى بيت الاول ، فحين يخرج من حجرته الى السراي ، لاحظ سلوكه : كيفية جلوسه واقواله واعماله ، وامعن النظر في تصرفه واوامره حين يدخل الناس عليه ، ويساق المجرمون اليه . انتبه لكل هذه الاشياء واحط بها جيدا ، ثم أطلعني عليها . وبعد غد امض باكرا كذلك الى سراي الامير الآخر ، وراقب كل ما يجري هناك من احاديثه وتصرفاته من أولها الى اخرها ، ثم عد لي بخبرها أيضا » . فقال الخادم : « سمعا وطاعة » .

وفي اليوم التالي ، نهض الخادم باكرا ، ومضى الى سراي امير الحرس المسن وجلس هناك . وما هي الا مدة ، حتى جاء فرّاش ، ووضع شمعا على الصفة ، وفرش المصلي ، ووضع عليه بضعة مصاحف وادعية وسبحات . وحينئذ ظهر رجل مسن ، فصلى عدة ركعات ، ثم اقبل الناس جميعا . وجاء الامام ، فأقام الصلاة ، وصليت الجماعة . وقرأ الرجل ما تيسر له من القرآن والادعية . ولما فرغ من أوراده تناول السبحة وأخذ يسبح ويهلل ، والناس يتواردون ويلقون السلام ، بعضهم يذهب وبعضهم يجلس ، الى بعيد شروق الشمس . عندئذ سأل الامير: هل من مذنب فأجيب: «فتى ارتكب جريمة قتل». قال:«أمن احد يشهد عليه؟». فقيل له : « لا ، هو نفسه مقر بجرمه » . قال : « لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . ادخلوه لأراه » . فأدخل الشاب . ولما وقعت عين الامير عليه ، قال : « اهذا هو ؟ » قيل له : « اجل » . قال : « لا تبدو على هذا الفتى سيما المجرمين ، بل ان نور الاسلام والاصالة والانسانية يشع منه . انه ليس ممن يرتكبون مثل هذا الاثم . احسب أنهم يكذبون . لن استمع الى قول أحد فيه . ما هذا الكلام ؟! ان هذا الجرم لا يصدر عن هذا الفتى قط . انظروا كيف ان سيماه وملامحه تشهد له » . وفي حين كان الفتى ينصت مصغيا ، قال احدهم : « أيها الامير ، انه هو نفسه مقر بجرمه » فصاح به الامير قائلا : « اخرس ، فمن ذا الذي يسألك ؟ الا تخاف الله ، أتحمل نفسك وزر دم فتى مسلم عبثا ؟ ان هذا الفتى أعقل من ان يفعل او يقول شيئا يكون فيه هلاكه وحتفه ! » . وكان هدف

---

(١) الكهل لغة ، الرجل اذا جاوز الثلاثين . وقيل من زاد على ثلاثين الى الاربعين ، وقيل من ثلاث وثلاثين الى تمام الخمسين . ( اللسان ـ كهل ) .

الامير من ذلك ان ينكر الفتى اقواله ويتراجع عنهـــا .

ثم التفت الامير نحو الفتى ، وقال : « ما تقـــول ؟ » . قال الفتى : « لقد شاء قضاء الله وقدره ان يتم الامر على يدي خطأ . ان بعد هذه الدار دار اخرى لا طاقة لي فيها على عذاب الله ، عزوجل ، نفذ حكم الله فيّ » . غير ان امير الحرس تصامم ، والتفت نحو الناس ، وقال : « انني لا اسمع ما يقول . ايقر هو ام لا ؟ » قالوا : « اجل ، انه يعترف » . قال الامير : « يـــا بني ، لا تبـــدو عليك سيما المجرمين . فلربما ان خصما لك ممن يبغون هلاكك حملك على ان تقول هذا . فكر جيدا » . قال الفتى : « ايها الامير ، لم يحملني على هذا احد ، انني مذنب ، فنفذ حكم الله فيّ » . لما أيقن امير الحرس ان الفتى لن يتراجع عن قوله ، وان لا جدوى لتلقينه اياه ، وانه انما يعرّض نفسه للموت ، قال له : « أحق ما تقول ؟ » قال : « اجل » . قال الامير : « أانفذ فيك حكم الله ؟ » . قال « نفذه » . والتفـــت الامير الى الناس ، وقال : « ارايتم في حياتكم فتـــى يخاف اللـــه ، مسلما بصيرا بالعواقب من مثل هذا الفتى ؟ انني لم أر قط . ان نور السعادة والاسلام وامارات الاصالة تشع منه مثلما ينبعث الضياء من الشمس . انه يعترف خوفا من اللـــه ، ويعلم انه يجب ان يموت . انه يرغب في ان يمضي الى الله ، عزوجل ، نقيـــا شهيدا . فلم يبق بينه وبين الجنة حيث الحور والقصور الا خطوات . هؤلاء هـــم اهل السعادة والمغفرة والجنة » . ثم قال للفتى : « اذهب واغتسل ، ثم عـــد وصل ركعتين ، وسل الله ، عزوجل ، وتب اليه واستغفره ، كي أنفذ فيك حكمه وقضاءه » . فذهب الفتى واغتسل ، ثم عاد . وامر الامير بمصلى ، فصلى الفتى ركعتين وتاب الى الله واستغفره ، ثم عاد ووقف بين يـــدي الامير الـــذي قال : « كأنني ارى الان ان هذا الفتى سيرى المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، في الجنة ، وسيكون مع الشهداء من مثل حمزة والحسن والحسين وامثالهم » . وهكذا جعل الامير يدلي بأحاديث الموت بهذه الحلاوة والعذوبة في قلب الفتى حتى حبب اليه الاسراع في قتله . ثم امر بتعريته وتعصيب عينيه ، وهو ماض في احاديثه عن الموت على النحو نفسه . وجيء بسياف ماهر سيفه هو الماء في صفائه ، ووقف على رأس الفتى دون ان يشعر به . واشار الامير بعينه بغتة ، فضرب السيـــاف عنق الفتى في سرعة خاطفة ، وقطع راسه بضربة واحدة .

ثم امر الامير بايداع اخرين قبض عليهم بجرائم مختلفة السجن ، للبت فـــي امورهم والتثبت منها . ونهض ، ومضى الى حجرته . ثم تفرق الناس . وعـــاد الخادم الى النديم ، وحدثه بكل ما رأى .

وفي صباح اليوم التالي الباكر ، مضى الخادم الى سراي امير الحرس الكهل وجلس ينتظر ، فأخذ الناس واعوانه يتوافدون واحدا تلو اخر ، حتى غص السراي بهم . ولما طلعت الشمس وارتفعت في السماء ، خرج الامير مـــن حجرته وجلس للناس مقطب الحاجبين ، متهدل العينين وكأنه كان يقتل ملاكا طول ليلة (١) . ووقف

---

(١) ترجمة للمثل الفارسي : « كويي همه شب فرشته كشته است » .

اعوانه امامه . ولم يكن يرد التحية على من يحييه ، واذا ما اتفق ورد على احدهم ، فكأنــه في حنــق عليــه .

وانقضت فترة ، ثم سأل : « الحضر احدا ؟ » ، فقيل له : « فتى ، قبض عليه سكران فاقد الوعي ليلة أمس » . قال : « الي ّ به » . فأتى به ، ولما وقعت عيناه عليه ، قال : « أهذا هو ؟ » . قالوا : « اجل » . قال : « كنت ابحث عنه منذ مدة طويلة . انه ابن حرام ، مفسد ، شرير ، لص ، قاطع طريق ، عربيد ، لا يخشى الله ، مثير للفتنة ، ولا مثيل له ببغداد . ينبغي الا يكتفى باقامــة الحد عليه ، انما يجب ضرب عنقه . لم يكن له من عمل ليل نهار سوى مطاردة ابناء الناس ، يسيء الى سمعة الصبيان حينا ، ويلطخ سمعة النساء حينا اخر . ولم يكن يمر قوم الا ويأتي الي ّ عشرة منهم يشكونه ويتذمرون من شره . انني لفي طلبه منذ وقت طويل ». لقد قال الامير كثيرا من هذا، حتى ان الفتى رغب في ان يضربوا عنقه تخلصا من كلم لسانه . ثم امر الامير باحضار بضعــة سياط جيدة وقال : « القوه على الارض ، واجلسوا على رأسه ورجليه ، واجلدوه اربعين سوطا بنحو يعض الارض فيه باسنانه » .

ولما كانوا يرغبون في ايداع الفتى السجن بعد جلده حضر ما يربو على خمسين رجلا من الوجهاء المعروفين ، فشهدوا له بالصلاح ، والستر والمروءة ، وكــرم الضيافة ، وحسن السيرة والاعتقاد وتشفعوا له بالافراج عنه بعد جلده ، على ان يقدم هدية ايضا . غير ان الامير لم يحفظ لهم حرمة ، ولم يعرهم اهتماما ، واودعه السجن . فعادوا ، وهم عليه ساخطون حاقدون ، والناس يدعون عليه ويلعنونه . ونهض وصار الى حجرته . وعاد خادم النديم ، فاطلع سيده على كل ما جرى .

وفي اليوم الثالث ، مضى النديم الى امير المؤمنين المأمون ، وتلا عليه ما سمع من سيرة أميري الحرس وسلوكهما . فتملك المأمون العجب ، وقال : « عفا الله عن هذا الشيخ المسن ! وعلى ذلك الكلب اللعنة ! فلقد ارتكب سفاهة بحق رجل شريف سكران ، فما تراه — والعياذ بالله — يفعل بالقاتل ؟ » . وامر بتنحيته عن امارة الحرس وعزله منها ، واخراج الفتى من السجن . اما الامير المسن فأبقاه في منصبه ، وخلع عليه خلعة من جديد ، وارتاح باله من شتى الوجوه .

# الفصل الأربعون

## في ترفق الملك بخلق الله ـ عز وجل ـ ورد كل ما يحيد من الأمور والقواعد عن نصابه اليه

ان المملكة ـ اية مملكة ـ معرضة للابتلاء ، في اي وقت ، بنازلة سماوية ، وطالع سوء ونحس ، ان يتحول الحكم فيها من اسرة الى اخرى ، او تضطرب امورها ، فتشتعل نار الفتن والاضطرابات ، وتسل السيوف ، فيكثر القتل والحرق والغارة والظلم . وفي مثل هذه الايام ، حيث الفتن والانحلال ، يعاقب الشرفاء وينحون ، ويتولى الارذال مقاليد الامور ، فيعمل القوي منهم ما يحلو له ، وتسوء حال المصلحين ويضعف امرهم ، وتقوى شوكة المفسدين ، ويصل الادنون الى الامارة ، ويسود المنحطون والسفلة ، وينحى الاصلاء والفضلاء ويحرمون ، ولا يتورع الاذلاء من ان يطلقوا على انفسهم القاب الملك والوزير ، فيتلقب الاتراك بـ « الخواجات » ، وهؤلاء بالترك ، ويتخذ الترك والفرس معا القاب العلماء والائمة ، وتتصدى نساء البلاط للحكم والسلطة ، وتضعف امور الشرع ، ويصبح الناس فوضى ، ويتطاول الجند ، وتمحي الامتيازات بين الناس ، فلا يبقى للامور من يتداركها . فليس بعيدا ان يتخذ التركي عشرة كتابا ، وليس عيبا ان يكون الفارسي كاتبا لعشرة من الترك والامراء . بذا تخرج امور المملكة عن انظمتها وقواعدها وتنهار . اما الملك فلا تتاح له ، لتلقه وتحيره وانشغاله بالهجوم والحرب ، فرصة التفرغ لتلك الامور او التفكير فيها .

ومع اول طالع سعد سماوي وافول ايام النحس والتعاسة ، وتبدلها بأيام راحة وامن ، يظهر الله تعالى في الناس ملكا عادلا عاقلا من احفاد الملوك ، ويهبه

ملكا يمكنه من قهر الخصوم واذلالهم جميعا ، ويمنحه علما وعقلا للتمييز بين الامور والاستفسار والتحري عما كانت عليه تقاليد الملوك السالفين وقواعدهم في شتى الامور والموضوعات ، ولاستنطاق الكتب والاسفار ومطالعتها . ولن يمر طويل وقت حتى يعيد نظام الملك وقواعده الى ما كانت عليه ، ويظهر للناس اقدارهم ، فينزل ذوي الجدارة منازلهم الحقيقة بهم ، ويحد من سلطة غير اللائقين والمتسللين ويحيلهم الى اعمالهم وحرفهم ، ويمحو كفرة النعم من على وجه الارض ، ويؤازر انصار الدين واعداء الظلم ، ويقمع البدع والاهواء ، باذن الله وحسن توفيقه .

ولنذكر الان نماذج لغيض من فيض ما قد يقع من احداث ، لتكون ادلة على خروج الامور عن اصولها وقواعدها ، وليتأملها سلطان العالم ، خلد الله ملكه ، في كل ما يصدر من اوامر واحكام ، ان شـــاء الله .

من الامور التي ابقى عليها الملوك في مختلف الاعصر ، اكرام ابناء الملوك وعدم تركهم نهبا للضياع والحرمان ، اذ جعلوا لهم ما يحتاجون اليه لكفاف عيشهم ، حتى تظل بيوتاتهم على ما كانت عليه من قبل . كما جعلوا للسادة والعظماء والمستحقين والعلماء والعلويين والمصلحين والمستورين والغزاة والمرابطين في الثغور ، واهل القرآن نصيبا من بيت المال ، حتى ان احدا لم يبق محـــروما دون نصيب علـــى عهدهم . فكسبوا بذلك دعاء الناس لهم بالخير ، وثواب الدنيا والاخرة .

## افعال خير الرشيد وزبيدة

يقال ان جماعة من المستحقين قدموا الى هارون الرشيد رسالة تقـــول : « نحن عباد الله وابناء هذا العصر ، بعضنا اهل قرآن وعلم ، وبعضنا اهل شرف ورفعة ، وبعضنا من لآبائهم حقوق على هذه الدولة ، لما قدموه لها مـــن خدمات حميدة نافعة . وقد عانينا نحن المشاق والاتعاب ايضا . اننا مسلمون انقياء لنـــا نصيب في بيت المال الذي في حوزتك لانك خليفة الارض وامير المؤمنين . ان يكن المال للعباد فانفق علينا منه ، فنحن مؤمنون ومستحقون . اما أنت ، حافظا للمال وخليفة ، فلا يصيبك منه اكثر من عشر ، وفي هـــذا كفافك ، في حين انك تنفق الآلاف يوميا على الشهوات والارزاق والاطعمة ، ونحن لا نجد الخبز . ومن عجب انه يظن (١) ( اي الرشيد ) ان ما في بيت المال ماله . ان يستقطع لنا نصيبنا فيها، والا فسنلوذ به الى الله متظلمين وملتمسين نزع بيت المال منه ووضعه في يد ذي شفقة ورحمة على المسلمين ، ممن يدخرون الذهب والنعم من اجل العباد ، لا العباد من اجلها » . لما قرأ الرشيد الرسالة تغير لونه ، ولم يجب عنها في يومه ذاك . وعاد من البلاط الى قصره الخاص قلقا مضطربا . لما رأت زبيدة الرشيد على غير عادته وطبعه ، سألته : « ماذا جرى لامير المؤمنين ؟ » . فقال لهـــا : « لقد كتبوا اليّ كذا وكذا ، لو لم يخوفوني بالله ، لعاقبتهم » . قالت زبيـــدة :

---

(١) يعود المؤلف هنا - فيما هي عادته احيانا الى الانتقال من الخطاب الى الغيبة أيضا .

« لقد اجدت في عدم ايذائك اياهم ، فقد ورثت الخلافة كابرا عن كابر ، وورثت معها سيرهم وشمائلهم وطباعهم وافعالهم ايضا . انظر ما فعل الخلفاء قبلك مع عباد الله عزوجل ، وانح نحوهم ، فالسيادة والعظمة والملك لا تزهو بغير العدل والبذل ، فـذا يجري في مستقـر ذاك . ليس مـن شك في ان ما في بيـت المال للمسلمين ، وانت تنفق منه شيئا كثيرا . انفق مـن اموال المسلمين بالقـدر الذي تريدهم ان ينفقوا من اموالك ، والا فهم معذورون في تضجرهم وتشكيهم منك » .

وحدث ، ان راى كل منهما في منامه في تلك الليلة ان : « الساعة قامت ، واحضر الخلائق يساقون واحدا واحدا للحساب ، والمصطفى ، صلى الله عليه وآله ، يتشفع لهم فيمضون الى الجنة . وامسك احد الملائك بيديهما ( الرشيـد وزبيدة ) ، ليأخذهما الى مكان الحساب ، فاعترضه ملك اخر ، وقال : الى اين انت ماض بهما ؟ لقد ارسلني المصطفى ، صلى الله عليه وآله ، وقال : لا تدعهما يتقدمان ما دمت حاضرا ، لئلا يعتريني فيهما الخجل ولا استطيع ان اقول بشأنهما شيئا ، لانهما ظنا اموال المسلمين اموالهما ، فحرما المستحقين ، ونصبا نفسيهما مكاني » . وافاقا من نومهما حيرانين ذاهلين ، فقال هارون لزبيدة : « ما دهاك ؟! » قالت : « رايت في منامي كذا وكذا ، فاعتراني الفزع » . قال هارون : « ورأيت مثل هذا في المنام ايضا » . ثم شكرالله تعالى على ان البعث كان رؤيا لا حقيقة .

وفي اليوم التالي فتحا باب الخزائن ، وامرا مناديا ينادي في الناس : « على المستحقين الحضور ، لنعطي كلا من بيت المال حقه ، ونوفيه حاجته ومراده » .

فتدافع الناس دون عد ، فبلغ ما قسم الرشيد من اعطيات وجرايات ثلاثـة آلاف دينار (١) . ثم قالت زبيدة للرشيد : « ان بيت المال في حوزتك ، وانت الذي سوف تسئل عنه في الآخرة لا انا . اعلم انك بازاحة عبء بعض الامور عن كاهلك والخروج من عهدتها قد اصبت توفيقا في هذا الامر . ان ما اعطيته المسلمين لم يكن الا من اموال المسلمين ، اما انا فساعطي الناس من اموالي الخاصة ابتغاء رضى الله وثواب الدار الآخرة . انني لأعلم علم اليقين أن لابد من الرحيل عن هذا العالم، وترك النعمة والثروة . ومهما يكن ، فعلي أن أقدم بنفسي زادا من دنياي لآخرتي» .

واخرجت زبيدة ما يساوي بضعة آلاف الف دينار (٢) من الجواهر والفضة والثياب من خزانتها ، وقالت : « ينبغي انفاق كل هذا في سبل الخير ، ليظـل اثرها ، ودعاء الناس بالخير مستمرين الى يوم الدين » .

وامرت زبيدة بحفر الآبار الكبيرة الواسعة ، واقامة الاحواض وصهاريج الماء في كل مرحلة من المراحـل الممتدة علـى طريق الحج من الكوفة الى مكة والمدينة ، على ان تبنى جميعها من قمتها الى قاعها بالحجر والآجر المشوي والجص والملاط ، لتوفير المياه للحجيج في الصحراء التي كان يموت فيها سنويا الاف الحجاج عطشا .

---

(١) أي ثلاثة ملايين دينار .

(٢) أي بضعة ملايين دينار .

وحفرت الآبار ، واقيمت الاحواض والصهاريج ، وزاد — مع ذلك — كثير من المال . فأمرت زبيدة بتحصين الثغور والقلاع ، وشراء الاسلحة والخيل والسهام للغزاة ، وعدد من الضياع والاملاك ليكون في كل حصن وقلعة من الطعام والعلف والخيول ما يكفي — عند الضرورة — الف غاز أو الفين سنة كاملة .

وزادت ثمة أموال أيضا بنيت بها بأمر زبيدة مدينة مسورة بسور منيع من جهاتها الاربع على حدود « كاشغر » (١) و « بلور » (٢) و « شنكان » (٣) أطلق عليها اسم « بذخشان » (٤) ما تزال قائمة وعامرة الى اليوم (٥) . واقيم حصن اخر قبالة « راشت » (٦) و « فامر » (٧) على حدود « ختلان » باسم « واشجرد » (٨) ، ما يزال قائما عامرا أيضا ، وما تزال خيوله ومخازن أسلحته باقية على حالها . وانشيء على هذا النحو « رباط » بمساحة مدينة حصينة في « أسفيجاب » (٩) ما يزال قائما عامرا . ومن الحصون التي بنيت أيضا ، حصن على طريق خوارزم باسم « فراوه » (١٠) ، وثان في « دربند » (١١) ، واخر في

---

(١) كاشغر : كانت مدينة وقرى ورساتيق في وسط بلاد الترك يسافر اليها من سمرقند وتلك النواحي . كان اهلها مسلمين ( معجم البلدان ) .

(٢) بلور ( بضم الاول والثاني ) : اسم قديم لولاية كانت تقع في شمال كشمير الحالية ( اقبال : حاشية ٢ ص ١٧٨ ) .

(٣) شنكان : لم أعثر على شيء عن هذا الاسم .

(٤) بذخشان : جاء في « بلدان الخلافة الشرقية » ( ص ٤٧٩ ) ما يلي : « أما موضع مدينة بذخشان فلم تفصح عنه كتب المسالك التي انتهت الينا . الا انه نظرا الى مناعة اكثر هذه البلاد فمن المحتمل ، على ما يبدو ، انها كانت في الوادي حيث تقوم اليوم مدينة فيض آباد قصبة البلاد الحالية ( ما وراء النهر ) » .
ويقول عباس اقبال : « اسم ولاية في مشرق بلخ وجنوب غربي كاشغر » ، ( حاشية ٣ ص ١٧٨ ) . واشار المقدسي الى حصن زبيدة هذا في بذخشان ووصفه بانه عجيب ( أحسن التقاسيم ٣٠٣ ) .

(٥) أي أيام المؤلف .

(٦) راشت : اسم بلد بأقصى خراسان ، وهي بين جبلين . كان منها مدخل الترك الى بلاد الاسلام للغارة عليهم . يقال ان الفضل بن يحيى أقام هناك بابا محكما أيضا ( معجم البلدان ) .

(٧) فامر : مدينة من اقاليم نهر سيحون ، شرقي أشرو سنة ( بلدان الخلافة الشرقية ٥١٧ ) .

(٨) واشجر : ( بالشين المفتوحة والجيم المكسورة ) : من قرى ما وراء النهر ، في اعالي نهر القباذيان ( معجم البلدان ، وبلدان الخلافة الشرقية ٤٨٣ ) .

(٩) أسفيجاب او اسبيجاب ( بفتح الاول وسكون الثاني ) : بلدة كبيرة من بلاد ما وراء النهر في حدود تركستان ، كانت لها ولاية واسعة وقرى كثيرة . ولم يكن بخراسان ولا بما وراء النهر بلد لا خراج عليه الا هذه البلاد ، لانها كانت ثغرا عظيما ، فكانت تعفى من الخراج ، ليصرفه اهلها في ثمن السلاح ، ويكون عونا لهم على المقام بتلك الارض ( معجم البلدان ) . اما مدينة اسبيجاب فتتفق هي وموضع سيرام التي تقع على نحو من ثمانية اميال شرق جكمنت على نهر اريس او بدم ، وهو رافد من روافد سيحون اليمنى ( بلدان الخلافة الشرقية ٥٢٧ ) .

(١٠) فراوة : بليدة من اعمال « نسا » بينها وبين دهستان وخوارزم . يذكر ياقوت انه كان يقال لها =

الاسكندرية ، وعشرة اخرى كل واحد منها كالمدينة . وعلى الرغم من كل هذا العمران ، فقد زادت ثمة أموال أمرت زبيدة بتوزيعها على المساكين والمجاورين في مكة والمدينة وبيت المقدس .

## ( عمر بن الخطاب والمراة الفقيرة )

قال زيد بن اسلم (١) كنت مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اذ خرج ليلة يعسّ أحوال الرعية بنفسه . فلما تخطينا المدينة اذا بحائط خرب تنبعث منه نار . فقال لي عمر : « يا زيد ، هلم بنا الى ذلك المكان لنرى من ذا الذي يشعل نارا في منتصف الليل » . فاتجهنا صوبه ، ولما اقتربنا منه ، اذا امراة قد وضعت قديرة على النار ، وأمامها طفلان نائمان ، وهي تقول : « تعاليت يا رب ، أنصفني من عمر ، فهو شبعان ونحن جياع ! » .

لما سمع عمر منها ذلك ، قال لي : « يا زيد ، لقد وكلتني هذه المراة الى الله من بين كل خلقه ، ابق أنت هنا ، حتى اقترب منها واستفسر عن حالها » فاقترب منها ، وقال : « ماذا تعدين من طعام في الخلاء في منتصف الليل ؟ » قالت : « انني امراة فقيرة ، ليس لي في المدينة بيت أملكه ، ولا الوي على شيء . أتيت الى هذا المكان أمس خجلا من بكاء طفليّ وصراخهم جوعا ، لانني لا املك ما اقوتهم به ، ولئلا يعرف الجيران انهما يبكيان جوعا . لقد أسقط بيدي فكلما جعلا يبكيان جوعا ويطلبان طعاما أضع هذه القديرة على النار ، واقول لهما : ناما واستريحا الى أن ينضج الطعام ، فأدخل على قلبيهما السرور ، وعلى هذا الامل ينامان . وحين يستيقظان ولا يجدان شيئا يعاودان الصراخ والبكاء . ولقد أنمتهم الساعة بالحيلة نفسها . اننا لم نأكل في هذين اليومين شيئا ، أما هذه القدر فليس فيها سوى الماء » . فتألم عمر ، وقال : « انه لحق أن تدعي على عمر وتكليه الى الله تعالى » . وقال لها ، ولم تعرفه ، : « اصبري قليلا ، وابق هنا حتى اعود اليك » . وتركها وعاد ، فلما وصل الي (٢) ، قال : « هيا بنا الى بيتي » .

ولما وصلنا الى باب بيته ، وقفت عنده ، ودخل هو ثم خرج يحمل جرابين على كتفيه . فقال لي : « لنعد ثانية الى تلك المستورة » . فقلت : « ان يكن لابد من

---

= « رباط فراوة » ، وان عبدالله بن طاهر هو الذي بناها في خلافة المامون ( معجم البلدان ). ويقال ان « فراوة » تطابق مدينة « قزل أروات او ارواط » الحديثة ( هذا الاسم تحريف قزل رباط ) ، وهي المحطة الثانية من محطات سكة حديد تركمنستان الحالية بعد بحر الخزر . ( بلدان الخلافة الشرقية ٤٢١ ، وعباس اقبال حاشية ٦ ص ١٧٨ ) .

(١١) دربند : او باب الابواب ، ويقال له الباب ، غير مضاف ، أيضا . وهي دربند شروان ، كانت محكمة البناء ، موثقة الاساس ، واحد الثغور العظيمة ( معجم البلدان ) .

(١) هو أبو أسامة ، زيد بن أسلم ، مولى عمر بن الخطاب . توفى عام ١٣٦هـ . ( البستي : مشاهير علماء الامصار ، ص ٨٠ ) .

(٢) اي : الى زيد بن أسلم .

الذهاب الى هناك ، فدعني احمل الجرابين لأتكفل هذا العبء » . قال عمر : « يا زيد ، أن تتعهد هذا العبء ، فمن يتولى عبء الذنوب عن عنق عمر ؟ » .

وقطع عمر الطريق كلها بحمله الى تلك المرأة ، فأنزل الجرابين من على ظهره ووضعهما أمامها ، وكان في أحدهما دقيق ، وفي الاخر ارز وحمص ودهن والية . ثم قال لي : « يا زيد ، اجمع ما تجد هنا من شيح وقيصوم واتني به بسرعة » . ورحت اسعى في طلب الحطب وجمعه ، في حين تناول عمر الاناء واحضر ماء ، وغسل الارز والحمص ، ووضعهما في القدر ، واضاف اليهما دهنا والية ، ثم عمل من الطحين « كماجة » (١) كبيرة . واتيته بالحطب فأعد الطعام بنفسه ، وصنع الكماجة على الجمر . لما نضج الخبز والطعام ، ملأ عمر الوعاء طعاما وفت الخبز فيه ، ولما برد ، قال للمراة : « ايقظي الطفلين ليأكلا » . فايقظتهما ، ووضع الطعام أمامهما وابتعد عنهم ، ثم بسط سجادته وشرع يصلي . ولما نظر عمر اليهم، بعد مضي وقت ، فرأى انهم قد شبعوا جميعا وأن الطفلين يلاعبان الأم ، نهض من حيث هو ، وقال : « ايتها المراة ، عليك بالطفلين ، وانا بالجرابين ، وزيد بالقدر والوعاء ، وهيا بنا الى منزلك » . ففعلوا ومضوا .

لما عادت المرأة واطفالها الى البيت ووضع عمر الجرابين ، ثم هم بالعودة ، قال للمراة ، « ترفقي بعمر وارحميه ولا تكليه الى الله بعد ، فليس له طاقة على عذابه وعتابه ، عز وجل . انه لا يعلم الغيب حتى يعرف حال كل فرد . كلي انت وطفلاك مما احضرت واخبريني حال نفاذه ، لآتيك بغيره » .

## ( موسى «ع» ) والرفق بالحيوان (٢)

يقال : لما كان موسى ( عليه السلام ) يرعى الغنم يوما ، أيام كان راعيا للنبي شعيب ( عليه السلام ) ولما يأته الوحي ، انفردت شاة عن القطيع ، فأراد ان يعيدها اليه . غير ان الشاة فرت ومضت في الصحراء ، ولما لم تر القطيع استمرت في جريها من شدة الذعر . وتبعها موسى الى فرسخين او ثلاثة ، حيث اعياها الجهد فسقطت من الاعياء الى حد لم تقو معه على النهوض .

لما ادركها موسى رق لحالها ، وقال : « ايتها المسكينة ، لم كنت تهربين ، ومما كنت تخافين ؟ » . ولما رأى أن لا طاقة لها على السير اهوى اليها وحملها الى مقربة من القطيع . فما ان وقعت عليه عيناها حتى هش له قلبها ، وعادت اليها قوتها وحيويتها ، فأنزلها موسى من على عنقه . وهرعت الشاة الى القطيع وانضمت اليه . حينذاك نادى الحق ، تعالى ، ملائك السموات ، وقال : « ارايتم ترفق عبدي بتلك الشاة البكماء ، وكيف انه ، على ما تكبده من جهد وتعب ، لم

---

(١) لفظة « كماج » فارسية ، لم تذكرها المعاجم العربية ، ولم اجدها في كتب المعربات . لكن صاحب « المنجد » ذكر انها معربة عن الفارسية . والكلمة مستعملة في عدد من لهجات بلاد الشام.

(٢) وردت هذه الحكاية بشكل اخر في تاريخ البيهقي ص ٢٢٠ ( الترجمة العربية ) .

يؤذها ، بل واساها واحسن اليها ؟! وعزتي ، لأرفعنه واتخذه « كليمي » ، واجعله نبيا ، وانزل عليه الكتاب ، ليظل الناس يتحدثون عنه مدى الحياة » . ثم وهبه كل هذه الكرامات .

## الحاج المروذي والكلب الاجرب

كان في مدينة « مرو الروذ » (١) رجل يدعى « الحاج الرئيس » . لقد كان محتشما مشهورا ، وذا نعمة وضياع ومستغلات كثيرة ، ولم يكن بخراسان في زمانه من هو أشهر منه واقدر . خدم السلطانين محمودا ومسعودا . وقد كنا رايناه (٢) . لقد زاول في فتوته وشبابه ضروب الاستبداد والوحشية والتعذيب ، والشدة في تحصيل الاموال وابتزازها والمطالبة بها ، وتشتيت شمل العائلات ، فلم يكن ثمة أتسى وأكثر طيشا واستخفافا منه . غير أن الرجل صحا من سباته في نهاية الامر ، فكف عن التسلط على الناس وايذائهم ، وتحول الى فعل الخير من مثل : مواساة الفقراء ، وانشاء القناطر ومحطات الاستراحة على الطرقات . ثم حرر كثيرا من العبيد ، وسدد ديون المفلسين والمعدمين ، وكسا اليتامى ، وأمد الحجاج والغزاة ، وبنى مسجدا جامعا في مدينته ، كما انشأ مسجدا جامعا عظيما بنيسابور . وبعد أن قدم كثيرا من أعمال الخير ، مضى لاداء فريضة الحج في ايام الامير جغري (٣) ، رحمه اللـــــه .

ولما وصل الى بغداد اقام بها حوالي شهر . وفي تلك الاثناء ، خـــرج من المنزل يوما ، فرأى في ممر بالسوق كلبا شديد الجرب ، وقد تساقط شعره كله عن جسمه ، واعياه الالم واقعده . تألم الرجل لحال الكلب ، وقال « انه ذو روح ايضا ! ومن مخلوقات الله ، عز وجل » ثم قال لخادم له : « اذهب ، واحضر منوي خبز ، ورسنا » . ووقف في مكانه الى أن جاءه الخادم بما أراد ، فأخذ يفتت الخبز بيده ، ويلقي به أمام الكلب الى أن أشبعه وأمنه ، وآنذاك وضع الرسن في عنقه وسلمه الى الخادم ، وقال : « خذه الى البيت الذي ننزل فيه » . وعاد من السوق فـــــورا .

لما وصل الى البيت ، أمر بشراء ثلاثة منوات دهن واذابتها علـــى النار

---

(١) مرو الروذ : المرو الحجارة البيض تقتدح بها النار ، والـــروذ ـ بالذال المعجمــة ـ معرب « الرود » ـ بالدال المهملة ـ : النهر بالفارسية ، فكأنه مرو النهر . ومرو الروذ مدينــة كانت قريبة من مرو الشاهجان ، وكانت تقع على نهر عظيم فسميت به . (معجم البلدان). تقع في مرو الروذ اليوم مدينة « بالامرغاب » أي ( مرغاب الاعلى ) على طريق بلخ . ومرو الروذ غـــير مرو الشاهجان التي كانت تقـــع في محل « مرو » الحاليــــة ( اقبال : حاشيــة ٢ ص ١٨١ ) .

(٢) يقصد المؤلف نفسه هنا .

(٣) هو الامير جغري داود السلجوقي اخو طغرل الاول ووالد السلطان ألب أرسلان . ( اقبـال : حاشيــة ١ ص ١٨٣ ) .

واتيانه بها حالا . ثم تناول قضيبا خشبيا لف علـــــى راسه قطعة قماش قديمة وصوفا ، ونهض من مكانه واقترب من الكلب ، واخذ يغط القضيب بالوعاء الذي فيه الدهن المذاب ، ويدهن جلد الكلب بيده الى ان اتى عليه كله ، ثم قال لخادم له : « لست باكثر وقار مني ، وليس بعائبي ما قمت به ، وينبغي الا يعيبك — وانـت خادمي — ايضا . اريدك ان تدق مسمارا في الحائط تربط به الكلب ، وان تقدم له منوي خبز يوميا ، الاول صباحا ، والاخر مساء ، وان تدهن جلده بالدهن المذاب الحار مرتين في اليوم ، وتطعمه ما يتبقى على « السفرة » من العظم وفتات الخبز ، الى أن تتحسن حاله » . وشرع الخادم بتنفيذ ما امره به سيده . وبعد اسبوعين اذا الكلب ينسلخ عنه الجرب ، وينبت الشعر في جلده ويسمن جيدا ، وتتحسن حاله الى حد لم يكن من الممكن معه اخراجه — حتى بالعصا — من ذلك البيت .

ومضى الحاج الرئيس بالقافلة ، فأدى فريضة الحج ، وانفق في تلك الطريق مالا كثيرا ، ثم عاد الى مرو الروذ التي توفي فيها بعد سنوات . وبعد انقضاء مدة على وفاته رآه احد الزهاد في المنام على براق ، والحور والغلمان من خلفه وامامه ، ومن على يمينه ويساره يسوقونه ببطء فرحين ضاحكين في روضة من رياض الجنة . فهرع نحوه وسلم عليه ، فما كان من الحاج الا ان شد اليه عنان البراق ، ورد على الزاهد السلام ، فسأله الزاهد : « يا فلان ، لقد كنت في بدء حياتك رجلا مؤذيا للناس غير رحيم بهم ، متطاولا عليهم ، لكنك لما افقت من سباتك ، كففت عن ايذائهم ، وعدلت عن سيرتك الاولى ، حتى ان ما قمت به من عمل الخير ، وبذل الصدقات ، وانفاق الاموال على المستحقين لم يقم به احد ، فضلا عن ادائك فريضة الحج . قل لي باي عمل بلغت الدرجة التي انت فيها الان ؟ » . فقال : « أيها الزاهد : لقد عجبت في أمر الله تعالى ! ومن الافضل أن تعتبر انت أيضا ، ولا تتكيء على الطاعة وتغتر بالعبادة كثيرا . اعلم ان مكاني كان معدا في جهنـم للمعاصي التي كنت ارتكبها في شبابي ، وان لم تكن ثمة فائدة لما قدمت من طاعة وانفقت من خيرات بعد ذلك ، وان كل صلاتي وصومي قد رميت في وجهي وأنا في النزع الاخير ، وان الطاعات والصدقات والخيرات والمساجد والمآوي ، والجسور ، واداء فريضة الحج ، ذهبت كلها هباء منثورا ، وان اليأس بلغ بي حدا تقطعـت معه الامل في الجنة وايقنت ان لابد من عذاب النار والاصوات تتهادى الى سمعي ان : « لقد كنت كلبا من كلاب الدنيا ، لكننا غفرنا لك ، ومحونا عنك جميع معاصيك، فادخلناك الجنة ، وحرمنا عليك النار ، باحسانك الى كلب خلعت له عنك رداء الكبر ، ورحمته وترفقت به » . ثم رايت ملائك الرحمة آتين مسرعين كالبرق ، فخلصوني من ايدي ملائكة العذاب ومضوا بي الى الجنة . ان ذلـك العمل هو الوحيد الذي انتشلني — من بين طاعاتي كلها — من حال الشقاء تلك » .

لقد ذكرت هذه الحكاية، ليعلم سيد العالم — خلد الله ملكه — ان الاحسان خصلة جيدة حميدة . ففي احسان موسى ( عليه السلام ) الى الشاة ، والحاج الرئيس الى الكلب نالا ما نالا من درجات في الدنيا والاخرة . من هنا يعرف اذن ثواب الله — عز وجل — لمن يحسن الى مسلم معوز محتاج ويأخذ بيده . ولخشية

ملك الزمان ربه وتقديره عواقب الامور ، ما كان الا عادلا في كل حال ، وما كان العادل الا محسنا وكريما . وان يكن الملك على هذا النحو ، فان جميع عماله وافراد جيشه يتبعون منواله ، ويقتدون به . ولا جرم ، من أن ينعم خلق الله ، ويجنوا ثمرات هذا في الدنيا والاخرة ان شاء الله تعالى .

* * *

كان من عادة الملوك اليقظين أن يرعوا حرمة المسنين المجربين جوابي الافاق ، وأن يتعهدوا الماهرين في الاعمال ، والعارفين بشؤون الحرب ، بأن يجعلوا لكل منهم مقاما ومنزلة أثيرة لديهم . لقد كانوا يتدبرون مع الحكماء والمسنين الذين طوفوا الافاق ، الامور التي ترتبط بشؤون المملكة ومصالحها وعمرانها وابنيتها الرفيعة ، والامور التي تتصل بترقية هذا وتنحية ذاك ، واقامة علاقات مع الاخرين، والتعرف الى أحوال المملكة ، والتحقق من أمور الدين ، وامثالها . وكانوا اذا ما جد طارىء عدواني وحربي يتخذون التدابير كلها مع من مارسوا الحروب ولهم فيها خبرات وتجارب كثيرة ، فيأتي الامر وفاقا للهدف المرسوم . وكانوا اذا ما نشبت الحرب ، يرسلون اليها من خاض غمار المعارك الكثيرة ، وهزم الجيوش العديدة واحتل القلاع ، وذاع اسمه في العالم باسم « الرجل الشجاع » ، وكانوا على الرغم من كل هذا يرسلون شخصا مسنا ممن جابوا البلاد ومن ذوي الخبرات ، لتجنب الوقوع في الخطأ . لكن ما يحدث الان ، انه اذا ما طرأ طارىء يندب له من لا خبرة لهم من الاطفال والشباب المبتدئين ، ومن هنا يبرز الخطأ . انه لمن الصواب ، ــ درءا للاخطار ــ أن تتخذ الاحتياطات والمحاذير الكافية في هذا الموضوع دائما .

## فصل في الالقاب

فكثرت الالقاب كثرة هائلة ، وكلما كثرت ذهب بهاؤها ، وقلت اهميتها . كان الملوك والخلفاء يضنون دائما في المخاطبة بالالقاب ومنحها ، لان الحفاظ على القاب الاشخاص ومراتبهم وأقدارهم جزء من شرف المملكة . فاذا ما كان لقب تاجر ما أو زارع ، ولقب رجل اخر وجيه معروف واحدا ، لا يكون ثمة فرق بين الاثنين ، ويصبح مقام المعروف والمغمور واحدا اذن . واذا ما كان لقب اي امام أو عالم أو قاض « معين الدولة » ولقب اي غلام أو رئيس تركي ممن لا يدرون من العلم والشريعة شيئا ، ولا يعرفون القراءة والكتابة « معين الدولة » ايضا ، فأي فرق يبقى اذن بين العالم والجاهل ، وبين القضاة وغلمان الترك في المنزلة ؟ فلقبهم واحد ، وليس هذا بصحيح .

كانت القاب أمراء الترك دائما من مثل : حسام الدولة ، وسيف الدولة ، ويمين

الدولة ، وشمس الدولة ، وامثالها ، أما القاب «الخواجات» (١) و «العمداء» (٢) و « المتصرفين » (٣) فكانت من مثل : عميد الملك ، وظهير الملك ، وقوام الملك ، ونظام الملك ، وكمال الملك (٤) . غير أن هذا التفاوت قد زال الان ، فالاتراك يتلقبون بألقاب الفرس ، وهؤلاء يتلقبون بألقاب الترك ، دون ان يروا في هذا غضاضة . لقد كان اللقب عزيزا دائما .

## السلطان محمود وطلبه الالقاب من الخليفة

لما تولى السلطان محمود السلطنة طلب الى امير المؤمنين القادر بالله ان يمنحه لقبا ، فمنحه لقب « يمين الدولة » . وبعد أن استولى محمود على ولايتي « نيمروز » و « خراسان » ، وعلى مدن وولايات لا حد لها في الهند ، اذ وصل الى « سومنات » وجلب معه « مناة » ، كما استولى على سمرقند وخوارزم . ثم مضى الى قوهستان العراق (٥) ، ثم استولى على الري واصفهان وهمدان وطبرستان . بعد كل هذا أرسل الى أمير المؤمنين رسولا محملا بالهدايا والتحف الكثيرة ، يطلب اليه مزيدا من الالقاب ، لكن الخليفة لم يجبه الى طلبه . ويقال انه ــ اي محمود ــ بعث رسوله بالهدايا اليه أكثر من عشر مرات ، دون جدوى. لكن الخليفة منح « خاقان » (٦) سمرقند ثلاثة القاب : ظهير الدولة ، معين خليفة الله ، ملك الشرق والصين ، فغبطه محمود عليها واخذته الغيرة ، فأرسل رسوله الى الخليفة مرة اخرى ، وقال : « لقد فتحت في بلاد الكفر الفتوح ، ووطدت عز الاسلام في الهند وخراسان والعراق ، واستوليت على ما وراء النهر ، وكنت احارب بالسيف باسمك . ان الخاقان ــ وهو الان من مطيعي وعمالي ــ يمنح ثلاثة القاب ، في حين أمنح أنا لقبا واحدا بعد عديد من الهدايا والالتماسات » . فأجابه الخليفة : « اللقب تشريف للرجل يزداد به شرفا ، ويعرفه به الملأ ايضا . اعلم ان للناس اسماء وضعها لهم آباؤهم وأمهاتهم ، وكنى وضعوها هم لانفسهم ، والقابا يمنحها الملك اياهم ، وان ما زاد على هذه الثلاثة حشو وباطل وكذب ،

---

(١) الخواجات : جمع خواجة وهو لفظ فارسي بمعنى المعلم او الكاتب او التاجر او الشيخ او السيد ، استعمل في العالم الاسلامي لقبا . ( الالقاب الاسلامية ص ٢٧٩ ) .

(٢) العميد لغة السيد ، وقد أضيفت اليه كلمات فتكونت منه بعض الالقاب المركبة من مثل : عميد الملك ، عميد الدولة ، وغيرها ( الالقاب الاسلامية ص ٤٠٩ ) .

(٣) المتصرف : الحاكم والوالي ، ومن ينفذ تصرفه في الامور . استعمل لقبا ـ في حال اضافته الى ياء النسب ـ في عصر المماليك ( الالقاب الاسلامية ص ٤٤٩ ) .

(٤) راجع في هذا الموضوع : الالقاب الاسلامية ص ٦٢ ـ ٦٤ .

(٥) أي مناطق العراق الجبلية وقوهستان : معرب « كوهستان » ، كوه بمعنى جبل ، واستان بمعنى منطقة .

(٦) أصل الكلمة تركي ، هو ( قاغان ) ويقال ان اصل خاقان : « قان قان » أو « خان خان » وكان هذا اللقب يطلق على رؤساء الترك من المسلمين .
( راجع : الالقاب الاسلامية ٢٧١ وفرهنك وارهاي فارسي درزبا عربي ١٩٤ ، وفرهنك فارسي).

والعاقل لا ينطلي عليه الباطل والمحـــال . ان الناس يدعون الانسان باسمه في صغره ، وهذا ما يرضي والديه لانهما هما اللذان اختارا له هذا الاسم ، لكنه ما ان يصير رجلا يميز الحسن من القبيح جيدا ، حتى يختار بوحي عقله وفكره وعلمه كنية لنفسه ، وكما قيل : « الكنى بالمنى » . ومن ثم يدعوه الناس تعظيما لـــه بالكنية التي اختار ليفرح بهذا ويسر .

فاذا ما اظهر امرؤ لياقة ومهارة في المملكة والامة ، فان الملك يمنحه لقبـا — على سبيل التشريف — على قدره يظهره على اقرانه ويجعل له فضلا عليهم . بذا يكون من يمنحه الملك او الخليفة لقبا افضل مما منحه اياه والده ، ومما اختار هو لنفسه . ومن ثم يدعوه الناس بما خلعه عليه الملك ، وذلك هو اللقب .

ان كل ما يتخطى هذه الاشياء الثلاثة ليس سوى لقب سدى ايا يكون نوعه . ان الخاقان لقليل علمه ، وهو تركي من امراء الاطراف ، ولقد اجبناه لطلبته لقلـة علمه ورعاية لشرفه . اما انت ، فلعلى معرفة بكل علم ، ومنا قريب ، ان راينـا فيك وثقتنا بك ، واعتمادنا عليك ، وتيقننا من تدينك ، لافضل وارفع واكثر صفاء من ان تطلب الينا لقبا يجري على السنة الناس ويسطر في كتاب ، أو أن تتوقع ما يتوقعه قليلو المعرفة والعلم » .

واسقط بيد محمود لما سمع الجواب على هذه الصورة . غير انه كان ثمة امراة تركية الاصل ، تقرا وتكتب وتعرف اللغة (١) ، حلوة الحديث . وكانت هذه المراة تؤم قصر محمود باستمرار تتحدث اليه وتطايبه وتمازحه وتعاشره ، وتقرا بين يديه كتبا وحكايات فارسية ، وكانت جريئة معه الى ابعد مدى . ففي حين كانت تجالس محمودا يوما وتطايبه ، قال لها : « لقد جهدت كثيرا في ان يزيد الخليفة في لقبي ، لكنه لم يفعل ، علـــى حين ان للخاقان — وهو من مسخري — عدة القاب ، وليس لي سوى لقب واحد . لو ان شخصا يستطيع سرقـــة « عهد » الخليفة الى الخاقان او الحصول عليه ، بطريقة من الطرق ، ويأتيني به لاعطيته ما يريد » . قالت المراة : « يا مولاي ، انا الذي ساذهب واحضر العهد ، علـى ان تعطيني ما اريد » . قال محمود : « لك هذا » . قالت المراة : « ليس لدي من المال ما انفقه لتحقيق رغبة مولاي . ان تجعل لي مددا من الخزينة ، فاما ان اضحي بروحي في سبيل هذا الامر واقضي دونه ، واما ان احقق مراد مولاي » . قال : « اطلبي ما تشائين » . ثم اعطاها ما طلبت من المال والثروة والجواهر والملابس والانعام والتحف والهدايا ومؤونة الطريق .

واصطحبت المراة ابنها الذي كان في الرابعة عشرة من عمره ، والذي كانت عهدت به الى مؤدب لتأديبه وتعليمه ، ومضت من غزنين الى « كاشغر » حيـث اشترت عددا من الغلمان الترك والجواري ، واشياء كثيرة من التحـف والمسك

---

(١) ربما كان يقصد « الفارسية » .

والحرير و « الطرقو » (١) وامثالها مما كان يؤتى به من « خطا » و « الصين » (٢) ، ثم مضت في صحبة التجار الى « اوزجند » ومنها الى سمرقند . وبعد ثلاثة ايام ذهبت للسلام على الخاتون (٣) جارية تركية آية في الجمال تحمل اليها اشياء كثيرة من تحف الصين وخطا ، ثم قالت لها : « كان لي زوج تاجر يجوب العالم ويصحبني معه ، ولقد كان ينوي الذهاب الى خطا لكنه لما وصل الى « ختن » اسلم فيها الروح . حينئذ عدت من هناك وجئت الى كاشغر ، وحملت معي هدية الى « خانها » — أميرها — ، فقابلت خاتونه « زوجه » ، وقلت لها : « كان زوجي احد خدم الخاقان الاجل ، وكنت أنا جارية خاتون خاقاني . لكنهما اعتقاني وزوجاني من ذلك الرجل الذي انجبت منه هذا الصبي . وزوجي مقيم المثوى في « ختن » حيث التحق بالرفيق الاعلى . ان هذا القدر الذي خلفه بعده ليس سوى ما وهبه اياه الخاقان الاجل والخاتون . أما الان ، فانني لاتطلع الى عدل الخاقان الاجل وعلو همته بأن يشملني وهذا اليتيم بعطفه ورعايته ، فيأمر بارسالنا مع دليل جيد الى جانب « اوزجند » وسمرقند . وسوف نظل نلهج بمدحكم والثناء عليكم والدعاء لكم ما حيينا » .

لقد قال لنا « خان » كاشغر وزوجه قولا كريما واكرما وفادتنا وودعانا ، وكتبا رسالة الى « خان » اوزجند ليحسن معاملتنا ويرسلنا في صحبة حميدة الى سمرقند . وها نحن اولا نحل عقد رحالنا الان بسمرقند في ظل دولتكم ومنعتكم ، حيث لا عدل اليوم مثل عدلكم في العالم كله ، ولا انصاف مثل انصافكم . فلقد كان زوجي يقول دائما : ( ان يتح لي الوصول الى سمرقند فلن أبرحها قط ) . لقد جاء بي اسمكم وشهرتكم ، الى هنا ، فان تروا ان في مصلحتكم تبولي واحاطتي بعنايتكم وعطفكم ، احط الرحال هنا بعد ذلك ابيع ما لدي من اشياء واشتري بها منزلا وضيعة بالقدر الذي يؤمن لنا قوتنا ، واقوم على خدمتكم ، واربي هذا الصبي الذي آمل ان يهبه الله ، عز وجل ، ببركاتكم السعادة والتوفيق » . فقالت الخاتون لها : « لا تقلقي ، فلن آلو جهدا في اكرامك والاحسان اليك ، والاحتفاظ بك . سأجعل لك منزلا ورزقا على النحو الذي ترغبين ، ولن أدعك تعزيين عني لحظة ، وسأطلب الى الخاقان أن يقضي لك كل ما تطلبين وتحتاجين اليه » .

وقبلت السيدة الارض بين يدي الخاتون ، وقالت : « انت الان مولاتي ولا اعرف احدا سواك ، ارجو أن تسعي لي لدى الخاقان الاجل ، وتقدميني اليه لاطلعه

---

(١) الطرقو أو الطرغو او الترغو : نوع من الحرير ( اقبال : حاشية ٢ ص ١٨٨ ) .

(٢) الصين : معرب « جين » الفارسية . كذا جاء في نسخة شعار ( ص ٢٣٣ ) وفي نسخة دارك ( ص ٢٠٤ ) لكن الكلمة وردت « ختن » في نسخة اقبال ( ص ١٨٨ ) فتكون ترجمتها : « من خطا وختن » .

(٣) خاتون : لفظ تركي الاصل معناه السيدة ، دخل العالم الاسلامي عن طريق الاتراك . وكان يرد احيانا بجانب الاسم ، فكان يقوم في هذه الحال مقام لقب السيدة للاشارة الى الجليلات من النساء خاصة أميرات الاسر الحاكمة ( الالقاب الاسلامية ٢٦٦ ـ ٢٦٥ ) .

على حالي ، فاسمع راي مولاي الخاقان ايضا » . قالت الخاتون : « ساقدمك اليه في اي وقت ترغبين » . فقالت المراة : « أود المثول بين يديه غدا » . قالت الخاتون : « وهو كذلك » .

وفي اليوم التالي ، مضت المراة الى قصر الخاتون . ولما عاد الخاقان من البلاط وعرضت عليه الخاتون حال المراة ، امر باحضارها اليه . وجيء بها ، فقبلت الارض بين يديه ، وتقدمت اليه غلاما تركيا وجوادا جميلا واشياء من تحف مختلفة هدية ، وقالت : « لقد عرضت على الخاتون بعض حالي . وباختصار ، فانه لما مات زوجي — اطال الله بقاء مولاي — قال لي شريكه فيما يختص بما كنا نحمله من بضائع الى «خطا» : « ينبغي الا نعيده » . ومضى به اليها . اما ما تبقى . فاخذ خان الصين بعضه ، واعطينا خان كاشغر بعضه وانفقنا نحن قسما في الطريق . ومجمل القول انه لم يبق لي من كل ذلك سوى بضع تحف ، وانعام معدودة ، وهذا اليتيم . الا يقبلني الخاقان الاجل جارية له ، مثلما قبلتني الخاتون العظيمة ، لاقضي باقي عمري في هذه الخدمة الجليلة » . فما كان من الخاقان الا أن خاطبها بأدب جم ، ورد عليها ردا جميلا ، واجاب طلبتها .

واخذت المراة بعد ذلك تهدي الخاتون ، كلما ذهبت اليها كل يومين او ثلاثة ، زوج خاتم « لعل » أو « فيروزج » او مقنعة مقصبة أو تحفة ثمينة قيمة ، وتقص عليها حكايات واساطير شيقة ، حتى ان الخاقان والخاتون لم يعودا يحتملان يوما واحدا دونها . لقد اخجلتهما برفضها ما عرضاه عليها من قرية وضيعة خاصة . وكانت المراة تركب كل بضعة أيام من السراي الذي انزلاها فيه وتمضي الى القرى المجاورة التي تبعد ثلاثة او اربعة او خمسة فراسخ عن المدينة بحجة « انني أشتري ضيعة » ، وتقيم هنا كثلاثة أو اربعة أيام ثم تعود الى المدينة — دون ان تشتري — عائبة الضيعة مصطنعة الاعذار .

ولما ارسل الخاقان والخاتون في طلبها يستفسران : « لماذا قاطعتنا ولم تات الينا ؟ » ، فاجيبا بأنها : « ذهبت منذ يومين او ثلاثة لشراء ملك في القرية كذا » فرحا جدا ، وقالا : « لقد القت عصا الترحال هنا » . وقضت ستة اشهر في خدمتهما على هذا النحو اخبرتها الخاتون في خلالها عدة مرات : ( ان الخاقان يقول لي باستمرار : « انه ليعتريني الخجل حين اراها — اي أنت — ، فقد ادت الينا خدمات جلى ، وكانت تاتينا بالتحف والهدايا كل بضعة أيام ، في حين أنها لم تقبل شيئا مما عرضنا عليها . انني لم أر امراة بهذه الطيبة قط ، ما الذي ينبغي ان نقوم به نحوها ؟ » أما أنا ، فاكثر منه خجلا بألف مرة ) . اما المراة فكانت تقول : « ليس ثمة نعمة احسن عندي من رؤية مولاي ومولاتي اللذين جعل الله — عز وجل — رزقي عليهما ، انني لن اتردد في طلب اي شيء اذا ما احتجت اليه » . وراحت تعلف الخيول جيدا لتسمينها ، واعطت — سرا — ما كان لديها من ذهب وجواهر ومفروشات والبسة تاجرا كان يتردد بين غزنين وسمرقند في تجارة له ، ثم ارسلت خمسة خيالة على خمسة جياد اصيلة باتجاه طريق بلخ وترمذ ، وقالت لهم : « اريد

من كل واحد منكم ان يتوقف بجواده في منزل من منازل الطريق الى ان اصل اليه » .

بعد ذلك ، مضت الى الخاتون ، وقد كان الخاقان يجلس معها ، فبعد أن اطرتهما واثنت عليهما معا ، قالت : « جئت اليوم في حاجة ، لا ادري اتقولهـا واطلبها ام لا ؟ » قالت الخاتون : « يا له من عجب هذا الذي اسمعه منك ، كان ينبغي أن نكون قد قضينا لك مائة حاجة الى اليوم ، انطقي بحاجتك » . قالت المراة : « تعلمان انني لا املك في الدنيا سوى ابن هو محط آمالي . انني لمهتمـة بتربيته جدا ، فقد ختم القرآن ، ووكلته الى مؤدب أحسن تأديبه وتعليمه ، اذ قرا عليه كتبا ورسائل بالعربية والفارسية . واملي كبير في أن يتاح له حظ حسن في عهد مولاي ومولاتي . ليس ثمة وثيقة على وجه المعمور ، بعد كتاب الله تعالى وحديث رسوله الاكرم ، أعظم من عهد أمير المؤمنين الى الملوك ، لان كاتب عهود أمير المؤمنين افضل من جميع الكتاب ، والفاظ العهود ومعانيها احسن الكـلام واعذبه . الا يتفضل مولاي ومولاتي — ان يريا ذلك — علي بالرسالة التي تعرف بـ « عهد أمير المؤمنين » مدة ثلاثة أو اربعة ايام ، ليقراها ابني على مؤدبه بضع مرات ، انه لكثير جدا أن يتعلم منها خمسة الفاظ ، فهي كفيلة ان تمنحه ببركاتها السعادة وحسن الحظ » . فقالا لها : « اي حاجة هذه التي تريدين منا ! لم لم تطلبي مدينة أو ناحية لنهبك اياها ؟ نك لم تطلبي في خلال هذه المدة شيئا ، وتجيئين الان لتطلبي شيئا ملقى — كخمسين مثله — في خزانتنا وقد تراكم عليه الغبـار والتراب . ما قيمة قطعة من الورق ؟ ان تريدي نمنحك الرسائل كلها » . قالت المراة : « بحسبي الرسالة التي ارسلها الخليفة » . وأمر الخاقان والخاتون احد الخدم ان يصحبها الى الخزانة ويعطيها اية رسالة تريد .

وذهبت المراة الى الخزانة ، فأخذت عهد الخليفة ، ومضت به الى منزلها . وفي اليوم التالي امرت بأن تسرج الخيول وتحمل البغال ، واعلنت : « انني ماضية الى القرية كذا لشراء أملاك ، وسأبقى هناك اسبوعا واحدا » . وغادرت توا ، ونزلت تلك القرية . وكانت المراة قد حصلت من قبل على « وثيقة مفتوحة » (١) فيها : « يجب احترام هذه المراة ومن معها ، واكرام وفادتهم في كل مكان يحلون به ويقيمون فيه في ولايتي سمرقند وبخارى ، ويشترون هنـاك الاملاك ويؤسسون الضياع . وعلى الولاة والعمال والرؤساء الا يتوانوا في بذل اي عون ممكن لهم ، وتوفير كل ما يطلبون ، وتقديم ما يحتاجون اليه من الاطعمة » .

وفي منتصف احدى الليالي ، تركت المراة تلك القرية الى ترمذ مارة بمدينة « كش » (٢) على بعد ثلاثة فراسخ من سمرقند ، فوصلت اليها بعد خمسة ايام .

---

(١) هذه ترجمة للفظة « كشاده نامه » . وقد آثرت هذه الترجمة على ترجمة مترجمـي « تاريخ البيهقي » لها بـ « كتاب مفتوح » لما لهذا الاصطلاح من مفهوم معاصر خاص . ( تاريخ البيهقي . الترجمة العربية ـ كشاف المصطلحات التاريخيـة ص ٨٠٤ ) .

(٢) كش : مدينة من مدن الصغد فيما وراء النهر . لعلها هي المعروفة اليوم بكتاب ( بلـدان الخلافـة الشرقيـة ٥١٢ ) .

وكانت تعرض « الوثيقة المفتوحة » اينما احتاجت اليها ، ثم تمتطي جيادها قريرة العين . أما الخاقان فلم يستطلع خبر ذهابها إلا بعد أن عبرت « جيجون » ووصلت الى بلخ ، ولم يراوده اي شك حول « عهد الخليفة » قط .

ومضت المراة من بلخ الى غزنين تحمل « العهد » الى السلطان محمود . فما كان من محمود الا ان ارسله بيد احد العلماء من ذوي القدرة على المناظرة والجدل، وحمله عددا من الهدايا الى امير المؤمنين القادر بالله ، ورسالة تقول : « في حين كان أحد خدمي يتجول في سوق سمرقند ، مر بمسجد فيه مؤدب بيده كتاب يعلم منه الصبيان ، فوقعت عينه علـــى « عهد أمير المؤمنين » بين ايدي اطفـــال صغار يعبثون به ، فذا يشده الى طرف ، وذلك الى طرف اخر ، ويمرغونه في التراب . لما عرف الخادم العهد اخذته عليه الغيرة ، فأحضر قدرا من الزبيب اعطاه الاطفال وحصل عليه منهم بثمن بخس لا يساوي الورق الرخص ، ثم حمله الى غزنين وقدمه الي ، وهانذا ابعث به الى مولى العالم . ان يتفضل امير المؤمنين بتقدير هواي معه وخدماتي له فيمنحني مزيدا من الالقاب ، فانني ساعتز بها اكثر من اعتزازي بناظري ، واجعلها تاج راسي ، واحتفظ بها في أعز مكان في بيتي . لقد حجب مولاي الالقاب عني ، على الرغم من طاعاتي وخدماتي وتوقعاتي ، ومنحها من لم يعرفوا لاوامره وخلعه وعهوده قدرها ، بل استخفوا بها استخفاف خاقان سمرقند وأهانوا الالقاب التي منحوها » .

لما وصل العالم الى بغداد ، واوصل الهدايا وسلم الرسالة ، تملك الخليفة العجب ، فأمر بكتابة رسالة عتاب الى الخاقان . ومكث رسول محمود ستة اشهر في قصر الخليفة ، ظل يوافي القصر في خلالها برسائل يطلب فيها القابا لمحمود ، دون ان يتلقى جوابا شافيا ، الى ان كتب يوما يستفتي : « اذا ما ظهر في طرف من اطراف الدنيا ملك يشهر سيفه من اجل عزة الاسلام ويحارب الكفار والمشركين اعداء الله ، تعالى ، ورسوله الاكرم ، ويحيل بيوت الاوثان الى مساجد ، ويجعل ديار الكفر ديار اسلام ، وامير المؤمنين بعيد عنه ، تفصل بينهما الامواه العظيمة والجبال الشاهقة ، والصحاري المخوفة ، بحيث لا يستطيع ان يعرض كل مـــا قد يحدث له على الخليفة في كل حين ، ولا يتمكن من تنفيذ مطالبه واوامره ايضا ، أفيحق له ـــ والحال هذه ـــ ان ينيب عن الخليفة احد الاشراف ليرجع اليـــه في الامور أم لا ؟ » . ثم اعطى فتواه هذه شخصا يسلمها الى قاضي قضاة بغداد يدا بيد . فبعد ان قراها القاضي من الفها الى يائها قال : « يحق له ذلك » .

وأخذ العالم المذكور نسخة من فتوى قاضي قضاة بغداد ووضعها مع رسالة كتب فيها : « فقد طالت اقامتي ببغداد . ان سيد العالم يمتنع عن منح محمـــود ما يتطلع اليه من القاب ـــ على الرغم من خدماتهوطاعاته الكثيرة جدا ـــ ، ولا يحقق للسلطان الغازي ما يصبو اليه من آمال ، بل يضايقه الى هذا الحد . ان يسر محمود ، بعد الآن ، بمقتضى هذه الفتوى وحكم الشرع بخط قاضـــي قضاة بغداد نفسه ، فلا جناح عليه » . فما ان قرأ الخليفة الفتوى والرسالة حتى بعث الى وزيره بحاجب الحجاب حالا بأن « ادع اليك الآن رســـول محمود واكرمه ،

وهدىء من روعه ، ثم اعطه ما أمرنا به من خلعة ولواء ولقب واصرفه راضيا مسرورا » .

وهكذا ، اضيف الى محمود ، بعد كل خدماته المرضية ومساعيه المتواصلة ، وهواه ، وذكاء رسوله العالم ، لقب « أمين الملة » (١) الذي ظل يلقب به وبلقب « يمين الدولة » (٢) طوال حياته .

أما اليوم ، فاذا لا يكتب لاقل الناس شأنا سبعة أو عشرة ألقاب بغضب ويسخط . غير ان السامانيين الذين كانوا ملوك زمانهم لسنوات طويلة ، وحكموا بلاد ما وراء النهر من اطرافها الى اطرافها ، وخراسان والعراق وخوارزم ونيمروز وغزنين ، لم يكن لكل منهم سوى لقب واحد ، اذ اطلق لقب « ملك الملوك » على نوح ، ولقب « الامير السديد » على والده منصور ، و « الامير الحميد » على نوح والد منصور ، و « الامير الرشيد » على نصر والد نوح ، و « الامير العادل » على اسماعيل بن احمد ، و « الامير الماضي » في التواريخ ، واطلق على احمد « الامير السعيد » ، وهكذا دواليك .

يجب أن يكون اللقب مناسبا لصاحبه ، كأن تكون ألقاب القضاة والائمة وعلماء دين المصطفى ( عليه السلام ) مثل : مجد الدين ، شرف الاسلام ، سيف السنة ، زين الشريعة ، فخر العلماء ، واشباهها ، اذ ان الدين والاسلام والشريعة والسنة والعلم منوطة بالعلماء والائمة . وعلى الملوك وذوي الدراية والمعرفة بالحق والباطل الا يجيزوا لمن ليسوا بعلماء ان يتلقبوا بهذه الالقاب ، بل عليهم ردع من يقدم على هذا ومعاقبته ليعرف كل شخص قدره ومرتبته .

وكان قادة الجيش ، والامراء والمستقطعون والعمال يلقبون بألقاب اضيفت اليها لفظة « الدولة » ، ومن مثل : سيف الدولة ، حسام الدولة ، ظهير الدولة ، جمال الدولة ، شمس الدولة ، وأمثالها . اما العمداء ، والعمال ، والمتصرفون الاخيار ، فكانوا يلقبون بألقاب اضيفت اليها لفظة « الملك » من مثل : عميد الملك ، نظام الملك ، كمال الملك ، شرف الملك ، شمس الملك ، وأمثالها . ولم تجر العادة قط في ان يخلع امراء الاتراك على انفسهم لقب « خواجه » . لقد كانت الالقاب التي تضاف الى « الدين » و « الاسلام » خاصة بالعلماء ، والتي تضاف الى « الدولة » خاصة بالامراء ، والتي تضاف الى « الملك » خاصة « بالخواجات » . اما ما عدا هذا ، فلم يكن يسمح لاحد بأن يتخذ لنفسه لقبا مما يتصل بالدين والاسلام ، بل كان يعاقب لتكون فيه عبرة لمن يعتبر .

أكثر ما يكون الغرض من اللقب ، أن يعرف به صاحبه . هب أن مائة شخص في مجلس او جمع ما ، من بينهم عشرة باسم محمد ، ثم نودي : « يا محمد » . فان المحمدين جميعهم يردون : « لبيك » لظن كل منهم انه هو المعني . لكنه اذا ما كان لقب أحدهم « المختص » ، واخر « الموفق » وثالث « الكافي » وغيره

---

(١) راجع : الالقاب الاسلامية ٤١٧ .

(٢) انظر : المرجع السابق نفسه ٥٤٤ .

« الرشيد » وامثالها ، ونودي من وسط المحفل : يا أيها : « الكامل » او « الموفق »، فان محمدا صاحب هذا اللقب يعرف حالا انه المقصود .

ينبغي الا يحمل لقب « فلان الملك » احد غير الوزير والطغرائي (١) والمستوفي (٢) وعارض (٣) السلطان ، وعميد بغداد ، وعميد خراسان ، وعميد خوارزم . اما غير هؤلاء فلهم ان يتلقبوا بألقاب غير مضافة الى لفظة « الملك » من مثل : الخواجة السديد ، الخواجة الرشيد ، الخواجة المختص ، والاستاذ الامير ، والاستاذ الخطير ، والاستاذ المكين وامثالها ، لتتضح درجة العظيم ومرتبته عما دونه ، ويمتاز الصغير من الكبير ، والخاص من العام ، وليظل للديوان رونقه وبهاؤه .

فاذا ما استقامت امور المملكة ، وكان الملك عادلا يقظا يعير أعمال المملكة اهتمامه ويتابعها بنفسه ويستقري عادات الاسلاف ويفيد منها ، واذا ما قيّض الله له وزيرا فطنا فاضلا عالما عارفا بالعادات والتقاليد ، فانه يستطيع ان يدبر الامور تدبيرا حسنا ، ويجري الالقاب مجراها الحقيقي ، ويدحر العادات المبتدعة بالراي الصائب والحكم السديد ، والسيف الحديد .

---

(١) الطغرائي : رئيس ديوان الطغرى . والطغراء او الطغرى كلمة اعجمية محرفة من «الطرة» ، وهي التي كانت تكتب في اعلى المناشير فوق البسملة بالقلم الجلي، تتضمن اسم الملك وألقابه. ( راجع : فرهنك نفيسي ، ومعجم الادباء ١٠ : ٥٧ ووفيات الاعيان ١ : ٤٤٢ في ترجمة الطغرائي الحسين بن علي الاصفهاني ) .

(٢) المستوفي : المحاسب ، يتبع ديوان الاستيفاء ، وهو ديوان المحاسبة . ومن معانيه رئيس ديوان المحاسبة الذي يحاسب المحاسبين الاخرين ، أو محاسب بلد او ولاية بكاملها ( تاريخ البيهقي ـ الترجمة العربية ـ ص ٨٠٤ ، وشمار ص ٤٠٨ ) .

(٣) العارض : رئيس ديوان الجند ، وتوكل اليه نفقات الجيش وأرزاق جنده ، وله الحل والعقد والاثبات والاسقاط ( تاريخ البيهقي ٨٠٢ ، ثم انظر ص ٥٣٦ من المتن أيضا ) .

## الفصل الحادي والأربعون

## « في عدم اسناد عملين لشخص واحد ، وفي تشغيل العاطلين وعدم حرمانهم ، واسناد المناصب والأعمال الى المتدينين الحقيقيين والأصلاء ، وحرمان أصحاب المذاهب السيئة والمعتقدات الخبيثة وابعادهم »

لم يسند احد من الملوك الايقاظ والوزراء الاذكياء ، في اي عصر من العصور ، عملين الى شخص واحد ، او عملا واحدا الى شخصين قط ، فكانت شؤونهم لهذا منظمة ذات بهاء ورونق . لانه اذا ما انيط عملان بشخص واحد ، فلا مناص من أن يتسرب الخلل الى احدهما او يتوانى فيه على حساب الاخر ، اذ ان المتصدي اذا اراد القيام بواجبه نحو احدهما خير قيام وتعهده والاهتمام به بجد فلا مندوحة من تسرب الاختلال والتقصير الى الآخر ، وبالعكس . واذا امعنا النظر جيدا ، نلاحظ ان ثمة خللا وتقصيرا في عملي متصدي العملين كليهما من ناحية ، وان الشخص نفسه مناط تقصير وملامة دائما ، وان موليه اياهما في تشك وتذمر مستمر من ناحية اخرى . أما اذا وليّ شخصان عملا واحدا ، فان هذا العمل يظل دون انجاز ، لتواكل احدهما على الآخر ، قيل في الامثال : « ان وجود سيدتي بيت في المنزل مدعاة تذارته ، ووجود مشرفين عليه مدعاة دماره » . لان كلا من الشخصين لا بد ان يقول في نفسه دائما بأنه اذا ما أرهقت نفسي في القيام بواجبي في هذا العمل ، وحافظت عليه ، ولا أدع الخلل يأخذ اليه طريقه ، فان رئيسنا سيظن أن هذا ليس الا من كفاية رفيقي ومهارته ، لا نتيجة اهتمامي وجدي وتفاني وجلدي ، وهكذا الامر بالنسبة للآخر ايضا . لكنه اذا دققنا النظر نجد ان ذلك العمل في اختلال دائم ، حتى اذا ما سأل رئيسهما : « لماذا لم ينجز هذا العمل ، بل قصر فيه ؟ » . يقول احدهما : « انه تقصير رفيقي ، ويحمله مغبة ذلك » ، ويقول الاخر : « ان رفيقي سبب التقصير كله » ويلقي التبعة والجرم كله عليه . لكن اذا ما عدنا الى الاصول والعقل ، يتبين لنا ان ليس الجرم جرم هذا ولا ذاك،

بل الجرم كله على من ولاهما عملا واحدا . فمن دلائل غفلة الملك وعجز وزيره تولية احد عمال الديوان عملين او ثلاثة او خمسة او سبعة .

أما في هذه الايام ، فثمة من يتسنم سدة عشرة مناصب ، دون ان تكون فيه اية كفاية تذكر . واذا ما جد منصب جديد ، فانه لا يألو جهدا في اتخاذه لنفسه ، ولو ادى به الامر الى دفع المال مقابل ذلك ، فيولاه دون ان يحسب مولوه حسابا لما اذا كان هذا الشخص أهلا لهذا العمل أم لا ، ضليعا في الكتابة والتصرف في الامور وادارتها ام لا ، واخيرا ايستطيع أن يثبت جدارته ويقوم بما وكل اليه من اعمال أم لا ، في حين يحرم عدد كبير من الاكفاء واللائقين وذوي الجلد ، والمجربين، والمعتمدين ممن لزموا بيوتهم عاطلين ، دون ان يخطر ببال احد لو يسأل نفسه : « لماذا يعهد بعدة مناصب وأعمال الى المغمورين ممن لا كفاية ولا لياقة ولا اصل ولا فضل لهم ويحرم الاصلاء المعتمدون — خاصة اصحاب الحق على الدولة ، ممن قدموا لها خدمات جليلة ، وأظهروا فيها كفاية ولياقة فائقتين حتى من عمل واحد ، ويظلون عاطلين هكذا ؟ » . وينتابني (١) أعجب من هذا ، هو ان مولي الاعمال في كل العهود كانوا يندبون لها من هم على مذاهبهم وشركائهم في العقيدة من الاصلاء والمتقين ، حتى اذا ما رفض احدهم وأبدى تمنعا ولم يجبهم الى ذلك ، كانوا يجبرونه ويسندون العمل اليه قسرا . ولا جرم من ان المال لم يكن يذهب سدى ، وأن الرعايا كانوا في راحة واطمئنان ، وكان المستقطعون يتمتعون بسمعة حسنة ويعيشون عيشة هادئة ، وكان الملك يقضي أيامه ناعم البال رخي الحال . لكن لا وجود لهذا اليوم ، اذ يسمح لليهودي والزرادشتي والرافضي بتولي الكتابة للاتراك ( السلاجقة ) وادارة شؤونهم . لقد استولت عليهم الغفلة ، فليست فيهم حمية على الدين ، ولا شفقة على المال ، ولا رحمة بالرعية . ان الدولة وصلت الى اوج كمالها ، وانني لأخشى عليها العين ، ولست أدري الام ستؤول الامـــور ، لانه لم تكن لاي زرادشتي ومسيحي ورافضي الجراة حتى على اظهار نفسه في عهد محمود ومسعود وطغرل والب أرسلان ، او على القدوم الى أي تركي ، اذ كان كل كتبة الترك والقائمين على شؤونهم والمتنفذين فيها من خراسان ، ومـــن الحنفية او الشافعية الاطهار ، ولم يكن الترك ليفسحوا المجال امام كتبة العراق وعمال خراجها من ذوي المذاهب السيئة ، بل لم يكونوا ليجيزوا استخدامهم او توليتهم اي عمل . وكانوا يقولون : « هؤلاء على مذهب الديالمة ومن اتباعهم . فان يوطدوا اقدامهم ، يلحقوا بالاتراك الضرر ، ويحيقوا بالناس الاذى . انه لمن الخير الا يكون للاعداء وجود بين ظهرانينا » . ولا جرم من أنهم كانوا يعيشون في منأى عن المصائب والمتاعب والآفات . لكن الامور وصلت الآن الى حد انبثوا فيه في البلاط والديوان بكثرة ، حتى انه ليجري وراء كل تركي مائتان منهم . لقد تدبروا امرهم بينهم على الا يسمحوا لاي خراساني ان تطأ قدماه القصر والديوان او يتسنى له الحصول على لقمة العيش . وسيأتي يوم يصحو فيه الترك على فساد تلك الطبقة،

---

(١) أي نظام الملك نفسه .

فيتذكرون قولي من ان الديوان قد خلا من الكتاب والمتصرفين الخراسانيين . كان الاتراك اذا ما قدم عليهم من يسألهم عمل كاتب او فراش او « ركابدار » (١) يسالونه : من اية مدينة انت ، ومن اية ولاية ؟ وما مذهبك ؟ فان قال : حنفي او شافعي من خراسان وما وراء النهر ، او من مدينة سنية قبلوه ، وان قال : شيعي من قم و « كاشان » (٢) و « آبة » (٣) والري ردوه قائلين : « انصرف ، فنحن نقتل الافعى لا نربيها » . انهم لم يكونوا ليقبلوا احدا ولو بذل الاموال والنعم الوفيرة ، بل كانوا يقولون له : « اذهب مصحوبا بالسلامة ، ووفر ما تريد ان تعطيه لنا على نفسك ، واجلس في بيتك وانفقه على طعامك وشرابك » .

وكان السلطان طغرل والسلطان الب أرسلان ، اذا ما تناهى الى أسماعهما ادنى شيء بان اميرا او تركيا ما مهد سبيل أي رافضي اليه ، يغضبان عليه ويعاتبانه .

## الب ارسلان واردم الرافضي

نقل الى السلطان الشهيد الب أرسلان يوما أن أردم تخذ يحيى كبير (٤) احدى القرى كاتبا له ، فساءه ذلك لما كان يقال ان : « كبير القرية باطني » ، وقال لأردم في مجلسه : « انت عدوي ، وخصم مملكتي » ، فخر أردم على الارض ، وقال : « يا مولاي ، ما هذا الكلام ؟! انني اقل عبيدك شأنا ، اي قصور بدا مني في رضوخي وموالاتي الى الآن ؟ » . قال السلطان : « ان لم تكن عدوي ، فلم تستعمل خصمي في خدمتك ؟ » . قال اردم : « فمن ذاك ؟ » . قال السلطان : « كبير القرية الحقير كاتبك » قال : « ومن يكون هو في العالم ؟! هب انه سم كله ، فما الذي يستطيع فعله في الدولة ؟ » . فقال السلطان لبعض رجاله : « اذهبوا واحضروا ذاك الرجيل » . فذهب من أحضره في الحال . فقال السلطان له : « يا رجيل ، انت باطني تقول ببطلان حق خليفة الله » . قال الرجل : « يا مولاي ، لست بباطني ، بل شيعي امامي ، يعني رافضي » . قال السلطان : « ما أحسن

---

(١) الركابدار : القائم على الركائب واستعملت الكلمة كما هي مثلما استعملها مترجما « تاريخ البيهقي » ( راجع كشاف المصطلحات التاريخية ص ٢٠٨ ) .

(٢) كاشان : مدينة بما وراء النهر ( معجم البلدان ) .

(٣) آبة : بليدة كانت تقابل ساوه وتعرف بين العامة بآوه . كان اهلها شيعة ، واهل ساوه سنية ، وقد كانا يتحاربان على المذهب ( معجم البلدان ) .
ويقال انه كان يطلق عليها « آوه ساوه » تمييزا لها عن « آوه » القريبة من همذان ( بلدان الخلافة الشرقية ٢٤٦ ) .
و « آبة » أو « آوه » اليوم قرية من اعمال ناحية « جعفر اباد » بمحافظة « ساوه »

(٤) ترجمة للفظة « دهخدا » وهي تقابل « المختار » في عاميات بلاد الشام و « العمدة » في العامية المصرية .

الرافضية مذهبا حتى تخذتها ترسا تدرأ به عنك الباطنية !! » . وامر الحجاب بجلده ، ثم أخرج من القصر نصف ميت . والتفت السلطان بعد ذلك الى زعماء القوم ، وقال : « ليس الذنب ذنب هذا الرجيل ، بل ذنب اردم الذي استعمل كافرا في خدمته . لقد قلت لكم مرة ومرتين ومائة مرة : أنتم الاتراك جيش خراسان وما وراء النهر ، انكم لغرباء في هذه الديار . لقــد احرزنا هذه الولايـــة بالسيف والقوة ، وكلنا مسلمون انقياء . ان اغلب اهل الديلم والعراق من ذوي المذاهب والعقائد والاديان الخبيثة السيئة ، وان بين الاتراك والديالمة خلافات واحنا ليست بنت اليوم ، بل متمادية في القدم . لقد اعز الله ، عزوجل ، الترك اليوم وسلطهم على رقاب الديالمة ، لانهم مسلمون خلص اطهار لا يعرفون البدع والاهواء ، أما الديالمة فهم منشأ البدع والمذاهب الفاسدة ، وخصومنا . انهم سيظلون يدينون لنا بالطاعة والولاء ــ ما داموا عاجزين ــ ، لكنه اذا ما اشتد ساعدهم قليلا ، وآنسوا من جانبنا ضعفا ، فانهم لن يبقوا آنذاك على وجه الارض تركيا ، من حيث المذهب، ومن حيث الولاية ، فأولئك قوم ادنى من الحمير والبقر ، لا يعرفون عدوهم من صديقهم » . ثم أمر باحضار مائتي درهم من شعر الخيل ، وسل شعرة منها وقال لاردم : « اقطع هذه » فتناولها أردم وقطعها . فناوله السلطان خمس شعرات غيرها ، فقطعها ايضا ، فناوله عشرا أخرى ، فقطعها بسهولــة ويسر كذلك . ثم نادى السلطان احد الفراشين ، وقال له : « اجدل هذا الشــعر رسنا » ، فمضى وجدله رسنا من ثلاثة اذرع وأتى به الى السلطان ، فأعطاه أردم ليقطعه ، فلم يستطع ، على ما بذل من جهد وقوة. حينئذ قال السلطان له : « ان الاعداء كهذا الشعر ، يسهل قمعهم واحدا واحدا ، واثنين اثنين ، وخمسة خمسة ، لكن تصعب زحزحتهم اذا ما تكاثر عددهم ، وتفاقم امرهم ، وشــدوا أزر بعضهم . وعندئذ يصبحون شغلنا الشاغل بما يقومون به من اعمال الشغب والفتنة . ان هذا الا جواب قولك : « حتى لو كان هذا الرجيل سما كله ، فما الذي يستطيع فعله في الدولة ؟ » انهم اذا ما اخذوا يتسربون الى صفوف الترك واحدا في اثر آخر ، ويتسنمون لهم الاعمال والكتابة ، ويقفون على احوالهم من كثب ، فلن يمضي طويل وقت على ظهور التمرد والخروج والفتنة في العراق ، او على اغارة الديالمة عل ىالمملكة . فهم جميعهم متكاتفون سرا وعلانية ، يسعون فيما بينهــم الى هلاك الترك . اما وانت تركي ، فينبغي ان يكون جيشك خــراسانيا ، وان يكون عمالك وكتبتك واعوانك ، ومتصدو شؤونك خراسانيين ايضـــا ، وهكذا الامر بالنسبة للترك جميعا ، لئلا يجد الخلل له طريقا الى شؤونهم وامورهم ، ان تمد يدك الى مخالفي الملك وأعدائه فانك ترتكب خيانة بحقه وبحق نفسك ، اما ان كنت ترى انك محق فيما تقوم به تجاه نفسك من اعمال ، فالملك لا يرى ان من المناسب والحكمة كف يد الحزم وتجنب الحيطة ، والابقاء على الخونة . أنا المكلف برعايتك وحمايتك ، ولست انت الموكل بحمايتي وحفظي . فالله ، عزوجل ، ملكني عليكم ، ولم يملكم عليّ . هلا علمت ان من يصادق خصوم الملك يعد منهم ، وان من يصاحب اللصوص لص مثلهم ؟ » .

في تلك الاثناء ، وقد كان الكلام ينساب من على لسان السلطان ، كان الخواجة الامام المشطب (١) ، والقاضي (٢) لوكر حاضرين ، فالتفت اليهما السلطان ، وقال : « ما تقولان فيما أقول ؟ » . قالا : « ان ما يقول مولى العالم ، هو قول الله — عزوجل — ورسوله (ص) في الرافضة وأهل البدع والباطنية وأهل الذمة » . ثم قال المشطب :ير وي عبد الملك بن عباس (٣) ان الرسول عليه السلام قال لعلي بن ابي طالب ، رضي الله عنه ، يوما : « ان أدركت قوما لهم نبز (٤) ، يقال لهم الرافضة يلفظون (٥) الاسلام فاقتلهم ، فانهم مشركون » . وقال القاضي لوكر : يروي ابو امامة (٦) ان النبي عليه السلام ، قال : ( تظهر ) (٧) في آخر الزمان فئة يقال لهم الرافضة ، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم » . ثم قال المشطب : ( لقد كفر سفيان بن عيينة (٨) الرافضة محتجا بقوله تعالى : « ليغيظ بهم الكفار » (٩) وقوله : « اشداء على الكفار » (١٠) ، ثم قال : « ان من يقدح في احد صحابة رسول الله (ص) فهو كافر بحكم الآية المذكورة » (١١) .

---

(١) هو الفقيه المعروف ، أبو المظفر المشطب بن محمد الفرغاني ، من فقهاء الحنفية . كان يعيش في عهد السلاجقة والخواجة نظام الملك والخليفة . توفي عام ٤٨٦هـ ( اقبال : حاشية ( ص ٤٠٣ ) .

(٢) لم يستطع الذين حققوا هذا الكتاب جميعهم ان يظفروا بأية معلومات عن القاضي لوكر ، ولم استطع انا ايضا . وتحسن الاشارة الى انه جاء في نسخة اقبال ( ص ٤٠٣ ) هكذا ... وقاضي امام ابو بكر... أي القاضي الامام أبو بكر! واعترف اقبال انه لم يهتد الى شيء عنه.

(٣) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، كنيته ابو عباس . ولد قبل الهجرة بأربع سنوات، ومات بالطائف عام ٦٨هـ وقيل عام ٧٠ . وقبره هناك مشهور يزار ( مشاهير علماء الامصار ص ٩ ) .

(٤) النبز ( بفتح النون وسكون الباء ) : اللقب .

(٥) لفظ ( بفتح الفاء وكسرها ) الشيء : طرحه .

(٦) أبو امامة : هو أبو أمامة الباهلي : اسمه الصدى بن عجلان بن وهب . مات سنة ست وثمانين ، وهو ابن احدى وسبعين سنة . كان من صحابة الشام . ( مشاهير علماء الامصار ص ٥٠ ) .

(٧) اضافة يقتضيها التركيب والمعنى معا .

(٨) هو سفيان بن عيينة بن ابي عمران الهلالي . ولد بالكوفة سنة سبع ومئة . ثم انتقل الى مكة . جالس الزهري وهو ابن ست عشرة سنة ونيف . كان - رحمه الله - من الحفاظ المتقنين ، واهل الورع في الدين ممن عنى بعلم كتاب الله وكثرة تلاوته له وسهره فيه . اهتم بعلم السنن وواظب على جمعها والتفقه فيها الى ان مات . حج اكثر من سبعين مرة . توفي بمكة عام ١٩٨هـ . ( مشاهير علماء الامصار ص ١٤٩ ) .

(٩و١٠) هذان الاقتباسان من الاية الكريمة : « محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من اثر السجود ، ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع اخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ... » ( الفتح ، اية ٢٩ ) .

(١١) يقول الدكتور جعفر شعار : « لا علاقة للاية المذكورة بالرافضة . لكن المؤلف يحمل هنا وفي المواطن الاتية على الروافض بحكم تعصبه المذهبي ، ويعدهم من غير المسلمين بل =

ويقول الرسول عليه السلام : « ان الله تبارك وتعالى جعل لــي اصحابا ووزراء واصهارا ، فمن سبهم فعليه لعنة الله والناس أجمعين ، لا يقبل الله لهم عدلا ولا صرفا » (١) . ويقول الله ، عزوجل ، في أبي بكر ، رضي الله عنه : « ثاني اثنين اذ هما في الغار ، اذ يقول لصاحبه : لا تحزن ان الله معنا » (٢) .

وقال القاضي لوكر : « يروى أن عقبة بن عامر (٣) ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله (ص) : « لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب » . قال المشطب: روى جابر بن عبد الله (٤) ، رضي الله عنه ، فقال : اتي النبي (ص) بجنازة فلم يصل عليها . قالوا : يا رسول الله ما رأيناك تركت الصلاة على احد الا علــى هذا : قال : انه كان يبغض عثمان ، ابغضه الله » .

وقال القاضي لوكر : « يروي ابو الدرداء (٥) ، رضي الله عنه ، أن النبي ، عليه السلام ، قال في حق علي بن أبي طالب ، رضوان الله عليه : « الخوارج كلاب النار » . وقال المشطب : يروي عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر (٦) ، رضي الله عنهما ، أن النبي (ص) قال : « ليس للقدرية ولا للرافضة في الاسلام نصيب » . وقال القاضي لوكر : يروي سهل بن سعد (٧) ، رضي الله عنه ، أن الرسول ، عليه السلام ، قال : « القدرية مجوس هذه الامة ، ان مرضوا فلا تعودوهم ، وان ماتوا فلا تشهدوهم » . والرافضة كلهم قدريو المذهب .

---

= خارجين عليه ، ثم يغالي في مدح الخلفاء . ان اكثر هذه الاخبار ليست معتبرة لدى الشيعة » ( حاشية ٣ ص ٢٥١ ثم انظر : اقبال ، حاشية ٣ ص ٢٠٤ ) .

(١) الصرف : ( بفتح الصاد وسكون الراء ) : التوبة ، والعدل : الفدية ( اللسان ـ صرف ) .

(٢) التوبــة . ايــة ٤٠ .

(٣) هو عقبة بن عامر بن عبس الجهني ، ابو أسيد ، وقيل ابو عامر من صحابة رسول اللــه (ص) . مات وهــو وال بمصر سنة ثمان وخمسين هجريــة ( البستــي : مشاهير علماء الامصــار ص ٥٥ ) .

(٤) هو جابر بن عبد الله بن عمرو ، من بني جشم بن الخزرج . كنيته ابو عبد الله . كان ابوه من شهداء احد .شهد العقبتين مع ابيه ، ثم شهد بدرا . مات بالمدينة سنة ثمان وسبعين بعد ان كف بصره ، وكان له من العمر اربع وتسعون سنة ( مشاهير علمـــاء الامصـــار ص ١١ ) .

(٥) هو عويمر بن عامر بن زيد الانصاري . مات سنة ٣٢هـ ، وقبره بباب الصغير بدمشــق ( مشاهير علمـاء الامصار ص ٥٠ ) .

(٦) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب ، كنيته ابو عبد الرحمن . ولد قبل الوحي بسنة واحدة . كان من صالحي الصحابة وقرائهم وزهادهم ، ومن اكثرهم تتبعا لاثار رسول الله (ص) واكثرهم استعمالا لها . اعتزل الفتن ، وقعد في البيت عن الناس الا ان يخرج حاجا او معتمرا او غازيا الى ان وافته المنيـة على حالـه تلك بمكـة وهو حاج سنة ثلاث وسبعين هجرية . وبها دفن ( مشاهير علماء الامصار ص ١٧ ) .

(٧) هو سهل بن سعد بن مالك الساعدي . كان اسمه « حزنا » ، فسماه رسول الله (ص) « سهلا » كنيته ابو العباس . مات بالمدينة سنة احدى وتسعين هجرية ، وقيــل سنــة ثمان وثمانين ، وهو اخر من مات من الصحابة بالمدينة ( المصدر السابق ص ٢٥ ) .

وقال المشطب : تروي أم سلمة (١) عن رسول الله (ص) : كان عليه السلام عندي يوما ، اذ اتاه علي وفاطمة معا ليرياه ويسالاه ، فرفع ، عليه السلام ، راسه وقال : « يا علي ، ابشرك ورهطك بالجنة . لكنه يخرج بعدك قوم يدعون حبك والاخلاص اليك ، ويجرون الشهادة على السنتهم ، ويقراون القرآن ، هؤلاء هم الرافضة . فاذا ما ادركتهم فجاهد فيهم ، لانهم مشركون كفرة » . قال علي : « يا رسول الله ، ما علامتهم ؟ » . قال الرسول (ص) : « لا يقيمون صلاة الجماعة ، ولا يحضرون صلاة الجمعة ، ولا يؤدون صلاة الجنازة ، ويطعنون في السلف » . وفي هذا الموضوع أخبار وأحاديث وآيات كثيرة ، ان اذكرها جميعا ، فانها تحتاج الى كتا بوحدها . تلكم هي حال الرافضة ، فما ترى حال الباطنية ، وهي اسوا من الرافضة بكثير . انه ليس ثمة فرض أولي على أي ملك يظهر هؤلاء على عهده من محوهم من على وجه المعمور ، وتخليص مملكته من شرهم وتصفيتها منهم ، ليهنأ في ملكه ودولته ويعيش عيشة راضية .

وهكذا ينهى عن اسناد الاعمال والمناصب الى اليهود والنصارى والمجوس ، وعن توليتهم شؤون المسلمين .

## ابو موسى الاشعري والكاتب النصراني

كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — يجلس في المسجد بالمدينة وابو موسى الاشعري معه يعرض عليه حساب أصفهان مهيئا بدقة ومكتوبا بخط جميل يعجب النظار ، وينال رضاهم . وسأل عمر أبا موسى : « خط من هذا ؟ » . فقال : « خط كاتبي » . قال عمر : « ابعث في طلبه لأراه » . قال ابو موسى : « لا يستطيع دخول المسجد » . قال امير المؤمنين رضي اللهعنه : « اية جناية ؟ » . قال أبو موسى : « لا ، انه نصراني » . فغضب عمر وضرب ابا موسى على فخذه بشدة ، حتى قال أبو موسى : « احسب أن فخذي قد

---

(١) أم سلمة هي هند بنت ابي امية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشية المخزومية . كان ابوها احد ابناء قريش المعدودين ، وكان يلقب بلقب « زاد الراكب » لانه كان اذا سفار لا يترك احدا يرافقه ومعه زاد . وكانت امها عاتكة بنت عامر بن ربيعة الكنانية . تزوجها الرسول (ص) في شهر شوال من السنة الرابعة للهجرة . اما زوجها الذي مات عنها قبل ان يتزوجها الرسول فهو ابو سلمة : عبد الله بن عبد الاسد بن المغيرة الصحابي الفارسي ، ابن عمة الرسول . برة بنت عبد المطلب بن هاشم ، واخوه (ص) من الرضاعة ، ارضعتهما ثويبة مولاة ابي لهب . كان لابي سلمة وزوجه هند ماض مجيد في الاسلام . فقد كانا من بين السابقين الاولين ، وهاجرا معا الى الحبشة ، ثم قدما الى مكة ، وفرجا منها الى يثرب مهاجرين . صحبت ام سلمة الرسول في اكثر من غزوة . ( راجع اخبارها مفصلة في : الدكتورة عائشة عبد الرحمن — بنت الشاطىء — ، تراجم سيدات بيت النبوة ص ٣٠٩ — ٤١٩ ، دار الكاتب العربي . بيروت . لبنان . الطبعة الاولى ١٩٦٧م ) .

كسرت » . قال عمر : الم تقرا قول رب العزة وامره حيث يقول سبحانه : « يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء ، بعضهم أولياء بعض » (١) . قال ابو موسى : « لقد عزلته الساعة ، وأمرت بعودته الى بلاد العجم » .

وقد ضرب الحكيم (٢) مثلا بديعا في هذا المعنى ، فقال شعرا :

« ما اجمل ان يحذر المرء اعداء صديقه ، وان يصاحب اصدقاءه »

« لا تأمن لطائفتين من الناس : اصدقاء عدوك ، واعداء صديقك »

* * *

ويقال ان السلطان الب ارسلان لم يكلم اردم بعد هذا شهرا كاملا واشاح وجهه عنه ، الى أن تشفـع له كبار القوم لـدى السلطان في اوقات انبساطه ، وتكلموا معه في امره كثيرا ، حتى لان له قلبه ورضي عنه ، وتغاضى عن الموضوع .

* * *

لنعد الآن الى ما كنا فيه من حديث ، فنقول انه في اي وقت يولى فيه المغمورون وعديمو الاصل والفضل اعمال الدولة وشؤونها ، ويتـرك الاصلاء وأولو الفضل والمشهورون المعروفون عاطلين مهملين ، وتسند الـى احد الاشخاص خمسـة مناصب ، ويحرم اخر حتى من عمل واحد ، فان دل هذا على شيء ، انما يدل على جهل الوزير وعدم كفايته ولياقته . فاذا لم يكن الوزير كفؤا وعالما حكيما ، فامارة ذلك انه يبغي زوال الملك والدولة وافساد شؤونها ، فيكون بـذا الد الخصـوم واسواهم ، لانه حين يولي شخص عشرة اعمال ويحرم تسعة من اي عمل ، فان عدد العاطلين المحرومين من رعايا تلك المملكة ــ والحال هذه ــ سيزيد على عدد العاملين فيها . وحين تؤول الامور الى هذا الوضع ، فان العاطلين يشدون ازر بعضهم بعضا ، ولا يدري آنذاك ايمكن تلافي ما يحدث وتداركه أم لا ؟

من هذا القبيل ان احدهم (٣) كان يسعى الى تدمير الملك يوما بادعائه التوفير . وزعمه لسلطان الدنيا وسيدها ان العالـم صاف وأن ليس فيـه مخالف او عدو يستطيع المقاومة . لقد ادعى بناء على هذا ان لا حاجة لاربعمائة الف رجل يتسلمون رواتب في هذه الدولة ، وانه يجب ان يكتفي بسبعين الف فارس يدخرون لما قد يطرأ من احداث ومهام ، فبهذا تسترد الدولة جرايات ورواتب الجند الآخريـن

---

(١) المائدة ، ايـة ٥٢ .

(٢) يظن دارك ان نظام الملك ربما يشير الى الحكيم الموصلي الذي كان ــ فيما يقول صاحب « جهار مقاله ص ٩٨-٩٩ » « المقالات الاربع » ــ : « من طبقة المنجمين بنيسابـور ، وممن خدموا نظام الملك الطوسي الذي كان يستشيره في المهمات ، ويسترشد برأيه وتدبيره» ( تعليقات دارك ص ٣٤١ ــ ٣٤٢ ) .

(٣) يرجح دارك معتمدا على « راحة الصدور » للراوندي ( ص ١٣٣ ) ان نظام الملك يقصد هنا منافسة تاج الملك أبا الغنايم الفارسي ( المرزبان بن خسرو فيروز ) الـذي كانـت تسنده وتحميه « تركان خاتون » زوج ملكشاه السلجوقي ( تعليقات دارك ص ٣٤٢ ) .

غير السبعين الفا ، فتؤمن لخزانة الدولة في كل سنة بضعة الف الف دينار مما يؤدي الى امتلائها بالذهب والمال في مدة يسيرة » .

لما اطلعني (١) سيد الدنيا (٢) على هذا الكلام ، عرفت من صاحبه وايقنت انه لا يبغي به سوى فساد المملكة ، واجبت مولاي : « الامر ما تراه يا مولاي ، لكنه ان يكن لديك اربعمائة الف رجل ، فليس من شك في ان تستحوذ على خراسان وما وراء النهر الى حدود كاشغر ، وعلى بلاساغون » (٣) وخوارزم ، ونيمروز والعراق، والعراقيين (٤) ، وفارس ، وولاية مازندران ، وطبرستان ، وارمينيا ، واران (٥) ، وبلاد الشام الى انطاكية وبيت المقدس . لقد كنت اطمح ان يكون لك سبعمائة الف رجل بدلا من هذه الاربعمائة الف ، اذ لو كان رجالك اكثر ، لحزت غزنين والسند والهند ، وكل تركستان والصين ، والصين الاقصى (٦) ، واليمن ، والحبشة ، وبلاد البربر وارض النوبة ، ولكانت لك ثمة اشياء في المغرب والشام ، والشامات والاندلس الى القيروان ، ولحطت لك الروم عصا الطاعة . ان عدد ولايات كل ملك رهن بعدد جيشه ، تكثر بكثرته وتقل بقلته ، وكلما قل عدد الجيش تناقص عدد الولايات ، وبالعكس .

انه لا يخفى على الراي السامي انه حين يحتفظ بسبعين الف رجل من اربعمائة الف وتنسخ اسماء الآخرين من الديوان ، ان هذا العدد الاخير — على كل حال — اكثر من العدد الاول !. ان الثلاثمائة والثلاثين الف رجل ، وكلهم حملة سيوف ، اذا ما فقدوا الامل في هذه الدولة ، فانهم اما ان ان يفزعوا الى امير او ملك اخر ، او ينتخبوا رئيسا لهم ، فيجروا على الدولة من الويلات والمتاعب ما يستنزف كل ما تجمع في خزائنها لسنوات عدة دونما اطمئنان الى عواقب الامور . ان الممالك لا تصان الا بالرجال ، والرجال لا يحفظهم الا المال ، اما من يقول للملك: « صن الذهب وسرح الرجال » فليس هو في الحقيقة الا عدو الملك ، لا يبغي سوى

---

(١) يقصد نظام الملك نفسه هنا .

(٢) أي ملكشاه السلجوقي ( شعار : حاشية ص ٢٥٦ ) .

(٣) بلاساغون : بلد عظيم في ثغور الترك وراء نهر سيحون قريب من كاشغر ( معجم البلدان ).

(٤) المقصود بالعراقين هنا عراق العرب وعراق العجم . اذ كان عراق العجم يطلق على المناطق الجبلية او اقليم الجبال الممتدة من سهول العراق والجزيرة في الغرب الى مفازة فارس الكبرى في الشرق . اما عراق العرب فكان يطلق على القسم الاسفل من ما بين النهرين . ويطلق على الكوفة والبصرة ايضا ، وهذا هو الشائع المعروف ( بلدان الخلافة الشرقية ٢٢٠ – ٢٢١ ) .

(٥) اران ( بالفتح والتشديد ) : اسم اعجمي لولاية واسعة وبلاد كثيرة . كان بينها وبين اذربيجان نهر يقال له الرس ( معجم البلدان . ويراجع لمزيد من الاطلاع على هذا الاقليم : بلدان الخلافة الشرقية ص ٢٢١ ) .

(٦) بالفارسية : ماچين مخفف « مهاچين » أي چين بزرك . ويقال ان اصل الكلمة الفارسية سنسكريتي ( فرهنك نفيسي ) .

دمار الملك وفساده ، فان هذه الاموال لم تجمعها غير ايدي الرجال . ينبغي الا يصغى الى كلام ذلك الرجل أو يلتفت اليه » .

ان العاطلين والمحرومين من العمال في مزاجهم سواء ، فاذا ما كانت لبعضهم مناصب كبيرة في الدولة التي أدوا فيها اعمالا هامة ، فعرفوا بها واشتهروا ، وأصبح لهم على الدولة حق الخدمة ، فليس صحيحا ان تتجاهل حقوقهم ، وان يظلوا محرومين متروكين دون ان ينالوا نصيبهم أو أن يسند اليهم اي عمل . وليس هذا من المروءة والمصلحة في شيء ، بل الواجب يقضي بأن يولوا أعمالا ، أو يمنحوا ما يمكنهم من ان يعيشوا به عيش الكفاف ، لتقضى لهم بهذا بعض حقوقهم ، وينالوا نصيبهم في الدولة .

وهناك فريق من اهل العلم والفضل والمروءة والشرف ، ممن لهم في بيت المال نصيب ، وممن يستأهلون الاهتمام وتولي المناصب ، فلا هم يولون عملا ولا هم واجدون في الدولة اهتماما ونفعا ، ولا حتى عيشا . انهم اذا ما ظلوا محرومين ، لا نصيب لهم في الدولة ، ودالت الأيام الى عهد يصبح كل اعوان الملك فيه من الجهلة والفاسدين الذين لا يطلعونه على أحوال هؤلاء المستحقين ، ولا يولون العاملين منهم أعمالا ، ولا يجرون على الشرفاء والعلماء جرايات او يؤمنون لهم سبل معيشتهم ، فانهم يفقدون حينئذ املهم في الدولة ، ويصبحون من اعدائها والمتسقطين عيوبها ، ومن هنا يشرعون بالمجاهرة بعيوب العمال ( عمال الخراج ) والكتاب ومقربي الملك ، وبثها على الملأ بعيدا عن اسماعه . ثم يأخذون في اصطناع الاراجيف ، واخيرا يسودون عليهم من هو اكثر عدة وجيشا وثروة ، ويبداون باثارة الشغب ، ويخرجون على الملك ، فيضرمون نار الفتن والاضطراب في المملكة ، كالذي فعلوه على عهد فخر الدولة .

## حسن تدبير فخر الدولة

يقال انه كان في الري على عهد فخر الدولة ، وقد كان الصاحب بن عباد وزيرا له ، مجوسي ثري مقتدر يدعى « بزرجوميد » (١) الذي يقال انه بنى مقبرة لنفسه على جبل « طبرك » (٢) تطل على قبة فخر الدولة ما تزال قائمة الى اليوم ، وتعرف باسم « ديده سباهسالاران » ( مطل القادة ) . ولقد عانى بزرجوميد متاعب شتى ، وانفق اموالا طائلة في اقامته تلك المقبرة من طبقتين على قمة ذلك الجبل . وكان في الري محتسب اسمه « باخراسان » ، يقال انه صعد الى المقبرة بحيلة من الحيل في اليوم الذي انتهي فيه من العمل فيها ، واذن للصلاة من عليها ،

---

(١) بزرجوميد : معرب بزرك اوميد او « اميد » . وبزرك بالفارسية : كبير ، واميد : امل . وهو اسم مجوسي .

(٢) طبرك ( بفتح اوله وثانيه والراء ) : قلعة على رأس جبيل بقرب مدينة الري على يمين القاصد الى خراسان ( معجم البلدان . ثم راجع ايضا : بلدان الخلافة الشرقية ٢٤٠ و ٢٥٢ ).

فانتهك تدسيتها — على مذهبهم — وابطل حرمتها ، فاصبحت تعرف منذ ذلك الحين بـ « مطل القادة » .

وفي أخريات عهد فخر الدولة ، نقل اليه رجال بريده يوما — وقد كان صاحب بريد — : « ان ثلاثين او اربعين شخصا يخرجون باكرا كل يوم من المدينة الى « مطل القادة » ، ويظلون هناك الى ان يلفع الاصفرار الشمس » . حينئذ يهبطون وينتشرون في المدينة . واذا ما سألهم احد : « لم تذهبون الى المطل يوميا ؟ يقولون : للتنزه » . وأمر فخر الدولة بعض رجاله ان : « امضوا الى هناك ، والي بأولئك الناس ، ثم هاتوا كل ما تجدونه معهم » . فمضى عدد من رجال القصر وصعدوا الجبل اليهم ، لكنهم — حين لم يستطيعوا الوصول الى المطل — صرخوا باعلى اصواتهم من اسفله ، ليسمعوا الموجودين فيه . فلما اطل اولئك الرجال ورأوا حاجب فخر الدولة مع فريق من حاشيته ، أنزلوا لهم سلما يصعدون به اليهم . فلما صعد رجال فخر الدولة اليهم راوا عندهم شطرنجا ممدودا ، ونردا ودواة وقلما وقرطاسا ( كاغذا ) وسفرة ، وابريقي ماء ، وجرة ، وحصيرا مبسوطا. فقال الحاجب : « انهضوا ، فان فخر الدولة يستدعيكم » . ومضى بهم اليه .

وتصادف ان الصاحب بن عباد كان جالسا الى فخر الدولة حين وصولهم ، فسألهم فخر الدولة : « من انتم ، ولم تذهبون الى هذا المطل يوميا ؟ » قالوا : « للتنزه » . قال : « ان التنزه يكون في يوم او يومين او عشرة . لكنكم تترددون على هذا المكان يوميا منذ مدة طويلة . اصدقوني القول » . قالوا : « ليس بخاف على الملك ، ولا على احد اننا لسنا لصوصا ولا مجرمين ، ولا نخدع نساء الناس ونغويهن ، او نختطف اطفالهم من على الطرقات . ان احدا لم يات الملك قط في يوم من الايام يشكونا اليه عن اذى وباطل . ان يؤمنا الملك على ارواحنا وانفسنا نخبره من نحن » . قال فخر الدولة « لقد امنتكم على ارواحكم وانفسكم واموالكم » واقسم على ذلك لانه كان يعرف اكثرهم .

لما حصلوا منه على الامان ، وأمنوا على ارواحهم ، قالوا : « نحن قوم من الكتاب والمتصرفين الذين ظلوا عاطلين في عهدك ، ومحرومين من اي نصيب في دولتك . ان احدا، لم يولنا اي منصب او عمل ، او حتى يلتفت الينا . ونسمع الآن بظهور ملك بخراسان يقال له محمود يجتذب اليه ذوي الفضل والموهبة وأهل العلم ، ولا يتركهم يهيمون على وجوههم . اننا نتطلع بآمالنا اليه بعد ان فقدنا الامل في هذه المملكة ، واننا نصير الى المطل يوميا لنشكو الى بعضنا بعضا الدهر ، ونسأل كل من يصل الينا من جانب محمود عن أخباره ، ونكتب رسائل الى اصدقائنا بخراسان نطلعهم على أحوالنا ، ونستفسر منهم تمهيدا للتوجه الى هناك . فلقد اضحينا فقراء ، ونحن قوم ذوو عيال . ان الضرورة لترغمنا على ترك أوطاننا ومسقط راسنا وبيوتنا ، واختيار الغربة سعيا وراء العمل . هذه هي حالنا ، والامر الآن أمر مولانا » .

لما سمع فخر الدولة منهم هذا ، التفت الى الصاحب بن عباد ، وقال : « ماذا ترى ؟ »وما الذي ينبغي فعله ؟ » . قال الصاحب : « لقد اعطاهم الملك

الامان ، وهم اهل قلم ، وابناء اناس اصلاء ، وانني اعرف بعضهم . وبما ان امر اهل القلم منوط بي ، فليعهد الي بهم ، لاتخذ ما يلزم نحوهم ، وسأتلو على مسامع مولاي الكريمة اخبارهم غدا » . فأمر فخر الدولة الحاجب الـذي اتـى بهم بأن يأخذهم الى قصر الصاحب بن عباد وينزلهم هناك . ومضى الحاجب بهم الى حيث أمره مولاه ، ووضعهم في قصر الصاحب وعاد . لكن اولئك الرجال كانوا في حيرة واضطراب خوفا مما سينزله الصاحب بهم من عقوبة . ولما عاد الصاحب من قصر فخر الدولة الى قصره هو القى عليهم نظرة . ثم حضر اليهم احد الفراشين ومضى بهم جميعا الى حجرة كأنها الجنة في زينتها وفراشها الفاخر وماسندها المصفوفة وقال لهم ، « اجلسوا حيث تشاؤون » . فتوزعوا ، وجلسوا على تلـك المفارش . وجيء بالشراب . ولما شربوا ، جيء بالطعام ، فأكلوا وغسلوا ايديهم . ثم اعد لهم مجلس غناء وطرب ، وجـيء بالخمرة ، فـراحوا يحتسـون كؤوس الطلا ، ويستمعون الى غناء المطربين ، اذ لم يكن ثمة احد في مجلسهم ذاك سوى الفراشين الثلاثة الذين كانوا يقومون على خدمتهم ، ولم يكن احد يعلم شيئا عن حالهم تلك ، فقد كانت المدينة بأسرها رجالا ونساء في قلق عليهم وكانـت نساؤهم وابناؤهم يبكون ويندبـون .

وبعد مرور ثلاثة او اربعة ايام جاءهم احد حجاب الصاحب بن عباد ، وقال : « ان الصاحب يقول : لتعلموا ان قصري ليس سجنا ، وانكم ضيوفي اليوم والليلة. فلو اريد بكم سوء لما احضرتم الى قصري » . وبعد ان عاد الصاحب من الديوان الى قصره ، وكان منهمكا في امرهم ، امر باحضار خياط حالا ليخيط عشرين جبة من الديباج ، ثم امر بتهيئة عشرين جوادا بسرج مزركشة . ولما انتهى من اعداد هذا كله مع اشراقة صباح اليوم التالي ، دعا الصاحب الرجال جميعهم اليه والبس كل واحد منهم جبة وعمامة ، واعطاه جوادا وغطاء مزركشا لسرجه ، وعين له عمله ، وجعل لبعضهم جرايات مستمرة ، ووصلهم جميعا ، ثم صرفهم الى منازلهم فرحين مسرورين . وفي اليوم التالي حضروا عند الصاحب جميعا للسلام عليه ، فقال لهم : « لتقروا الآن عينا . فلا تكتبوا لمحمود بعد الان ، ولا تتشكوا ولا تعملوا علـى زوال مملكتنا » .

ولما مثل الصاحب بين يدي فخر الدولة ، سـأله : « ماذا فعلت مع تلـك الجماعة ؟ » قال الصاحب : « يا مولاي ، اعطيت كلا منهم جوادا مطهما ، وخلعة وصلة ، وعينت له عملا من بين الاعمال التي انتزعتها من اصحاب العملين في الدولة والديوان ، ثم صرفتهم الى بيوتهم بعد ان عرف كل عمله » . فراق لفخر الدولة ذلك واقره ، ثم قال : لو فعلت غير هذا ، لما كان فعلك صحيحا . ليتك اقدمـت على ما اقدمت عليه السنة قبل عشر سنوات ، فما كانوا ليرغبـوا في خصومنا . يجب الا يسند لاي شخص بعد الآن سوى عمـل واحـد لا عملين ، لتكون لكل المتصرفين اعمال ، وليكون للاعمال جميعها رونق وبهاء . فاذا ما ولي شخص واحد عملين او ثلاثة ، فان سبل العيش تضيق على الآخرين ، وان حكام الاطراف ومتسقطي عيوب دولتنا سيقولون : الم يبق في مملكتهم رجال حتى يعهدوا بعملين

الى رجل واحد ؟! ويحملوننا على عدم الكفاية والجدارة. ألم تر أن الحكماء قالت : « لكل عمل رجال » . ان في المملكة مشاغل كبيرة ومتوسطة وصغيرة ، فليعط كل عامل ومتصرف عملا واحدا يتناسب مع كفايته وفضله ولياقته وآلته ، وحسب . وان يكون لاحد شغل ، وجاء يطلب اخر ، فينبغي الا يلبى طلبه او يسمح له بذلك ، لكي يقضي على هذا التقليد المحدث في المملكة . فاذا ما وليّ كل عامل في المملكة عملا واحدا فقط ، فان هذا يقود — بالضرورة — الى اعمارها » .

* * *

ان الملك زينته العمال ( عمال الخراج ) وكبار الجيش ، وان لعلى راس كل العمال والمتصرفين وزيرا . فحين يكون الوزير سيئا خائنا ظالما متطاولا ، يكون العمال جميعهم كذلك ، بل اسوأ واكثر خروجا على القواعد والاصول المرعية .

واذا ما وجد ثمة عامل بارع في ادارة دفة الامور ، او كاتب ، او مستوف ، او خبير في انواع المعاملات ممن لا نظير له في المملكة من ذوي المذاهب السيئة والعقائد الفاسدة من مثل اليهود والنصارى والمجوس ، وآذى المسلمين واستخف بهم لحجة في العمل او الحساب ، فتجب تنحيته ومعاقبته اذا تظلموا منه واشتكوا، ولا يغرنك قول شفعائه : « انه لا يوجد في المملكة كلها كاتب او محاسب او عامل بكفائته . ان ينح عن عمله ، فان اضرارا بالغة ستلحق بالمعاملات جميعها ، ولا يستطيع احد ان يقوم بهذه المهمة بعده » . انهم يكذبون ينبغي الا يصغى الى كلامهم ، بل يجب استبدال ذلك الشخص مثلما فعل عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه .

## عمر بن الخطاب والعامل اليهودي

وهكذا حدث في ايام سعد بن ابي وقاص ، اذ كان عامله في سواد بغداد (١) ، وواسط ، والانبار ، وتلك النواحي الى تخوم خوزستان (٢) والبصرة يهوديا . ما حدث ان سكان المناطق المذكورة كتبوا رسالة الى أمير المؤمنين عمر يشكون اليه العامل اليهودي ويتظلمون منه ، قالوا : « ان هذا الرجل يؤذينا بذريعة العمل والمعاملة ، دون حق ، ويستهزأ بنا ويستخف . لقد عيل صبرنا . فان يكن لا بد مما ليس منه بد ، فاجعل علينا عاملا مسلما حتى لا يعاملنا بخلاف الاصول والقواعد، ولا يسومنا الاذى والعذاب لاننا على دين واحد . حتى اذا تصرف خلافا لهذا ، فانه لأحب الينا ان نتحمل وطأة الاذى والاستخفاف من مسلم لا من يهودي » .

لما قرأ أمير المؤمنين عمر هذه الرسالة ، قال : ايتسنى ليهودي يعيش على

---

(١) يرى عباس اقبال هنا ايضا ( حاشية ٣ ص ٢١٤ ) ان قول نظام الملك : « في سواد بغداد » لا معنى له في ايام سعد بن ابي وقاص ، للسبب نفسه الذي ذكر في حاشية ٣ ص ٧ .

(٢) هي محافظة خوزستان الحالية التي مركزها الاهواز .

وجه الارض سالما ان يشعر بالتفوق والفضل على المسلمين ؟! » . وامر بكتابة رسالة الى سعد ابن ابي وقاص ، تقول : « اعزل ذلـك اليهودي ، وول عمله مسلمـا » .

ولما قرا سعد الرسالة ، امر بندب خيال الى العامل اليهودي انى وجد ، والمجيء به الى الكوفة . ثم بعث برسل اخرين الى مختلف نواحي بلاد العجم ليأتوا بالعمال المسلمين من حيث يجدونهم الى الكوفة .

لما احضر اليهودي ، والعمال الآخرون جميعا ، لم ير سعد في عمال العرب والعجم من المسلمين من له القدرة والكفاية على القيام بعمل اليهودي ، ولم يجد فيهم من يعرف أصول المعاملة مثله ، أو له خبرته وقدرته على تحصيل الاموال ، والاعمار ، ومعرفة الناس والاحاطة بما حصّل وما لم يحصّل من خراج . فاضطر الى ابقائه على راس عمله وكتب الى امير المؤمنين رسالة تقول : « لقد امتثلت امر امير المؤمنين ، فاحضرت اليهودي ، وعقدت مجلسا ، جمعت فيه كـل العمال والمتصرفين في ديار العرب والعجم ، فلم يكن في العرب من له دراية بأحوال العجم وشؤونهم . أما عمال العجم ، فتبين لي بعد استقراء أن ليس فيهم من له كفايـة اليهودي ، ومهارته في المعاملة ، وحسن تصرفه وادارته ، ومعرفته الناس . لقد اضطررت الى ابقائه في عمله حتى لا يتسرب الخلل الى شتى انواع المعاملات ، ولكي يستمر تحصيل الاموال . واني في انتظار امر امير المؤمنين » .

لما وصلت الرسالة الى امير المؤمنين عمر ، وقرأها ، تملكه العجب ، فقال : « يا للعجب ! يختار غير ما اخترت ، ويرى غير ما رايت ! » . وتناول القلم وكتب في اعلى الرسالة نفسها : « مات اليهودي » . ثم أعادها الى سعد بن أبي وقاص.

ان ما عناه عمر بقوله : « مات اليهودي » هو : « هب ان اليهودي قد مات ، وكل نفس ذائقة الموت . فالموت بمثابة العزل عن العمل . واعلم ان العمل يجب الا يتوقف بموت أي عامل او عزله ، بل ينبغي ندب رجل اخر له . فلم تظل عاجزا هكـذا ؟ » .

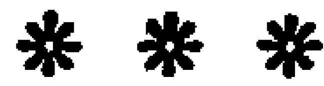
ولما تسلم سعد الرسالة وقرا توقيع عمر في اعلاها ، عزل اليهودي فورا ، وعين مسلما مكانه . وتسلم المسلم عمله ، فتبين بعد مرور سنة ان ما تم انجازه على يد العامل المسلم افضل بكثير مما تم على يد اليهودي ، وان شؤون العمران قد نمت وازدهرت . حينئذ قال سعد بن أبي وقاص لامراء العرب : « انعم بأمير المؤمنين عمر رجلا عظيما . فقد كتبت في امر ذلك اليهودي وشؤون الولاية رسالة طويلة ، لكنه اجابني بكلمتين ، فكان الامر كما قال لا كما كنت اعتقد ، ونجانا مما كنـا فيه » .

* * *

ثمة قولان مشهوران ، صدرا عن رجلين عظيمين ، كلاهما صائب مقبول ، وسوف يظلان مضرب المثل في العرب والعجم الى يوم الدين . الاول قول عمـر ابن الخطاب ، رضي الله عنه : « مات اليهودي » . فانى وجد عامل يجيد مهنـة

الكتابة (١) ، وله مهارة وخبره في ادارة الامور وتصريفها ، لكنه متطاول ظالـم ، خبيث المذهب ، وأريد لهذا تنحيته ، فيتصدى شفعاؤه ومن يحدبون عليه قائلين : « يجب الا يعزل ، فهو كاتب ممتاز ، وعامل جلد ، وليس ثمة من هو افضل منه في عمله » وامثال هذا الكلام ، فما على الحاكم الا ان يقول : « مات اليهـودي » . فبهذين الكلمتين ترد اقوالهم كلها وتبطل ، ويعزل ذلك العامل . اما القول الآخر ، فانه لما ودع نبينا (ص) الدار الفانية ، ولم يجرؤ احد من صحابته على ان يقول انه ــ عليه السلام ــ قد مات سوى ابي بكر الصديـق ، رضي الله عنه . فما ان ولي ابو بكر الخلافة ، وآلت اليه امور المسلمين بعد النبي ، عليه السلام ، حتى اعتلى المنبر وخطب في الناس ، فقال : « مات محمد » . ثم قال : « ايها المسلمون، من كان يعبد محمدا ، فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فان الله حي لا يمـوت » .

فاعجب المسلمون بقوله الذي صار مضرب المثل في العرب ، بحيث اذا مـا الت بأحدهم مصيبة عظمى ، ودع فيها عزيزا اثيرا لديه ، وأراد الناس تهوين الامر وتخفيف وقعة عليه ، فانهم يقولون له في عنفوان النازلة : « مات محمد » . فان يكن الا يموت أحد من بني آدم قط ، فليس من هو أولى من محمد المصطفى عليه السـلام .



لنعد الآن الى ما بدأنا بـه كلامنا ... قلنا ان العمال واعمالهم منوطـون بالوزير ، وان الوزير الصالح يجعل سمعة مليكه وسيرته حسنتين . فما الملوك العظام الذين دان لهم العالم ، والذين سوف تظل اسماؤهم مقترنة بذكر الخير الى يوم القيامة ، ما هم الا اولئك الذيـن كان لهم وزراء اخيار . كذا كـان الانبياء الاعاظم : فكان لسليمان ، عليه السلام ، آصف بن برخيا ، ولموسى ، عليه السلام، اخوه هارون ، عليه السلام ، ولعيسى ، عليه السلام ، شمعون ، ولمحمد المصطفى، عليه السلام ، ابو بكر الصديق ، رضي الله عنه . اما من الملوك العظام ، فكان لكيخسرو جودرز ، ولمنوجهر سام ، ولافراسياب بيران ويسـه ، ولكستاشب (٢) جاماسب ، ولرستم زواره ، ولبهرام جور خره روز ، ولأنوشروان العادل بزرجمهر. وكان لخلفاء بني العباس امثال آل برمك ، وللسامانيين البلعميون ، وللسلطـان محمود الغزنوي احمد حسن (٣) ، ولفخر الدولة الصاحب بن عباد ، وللسلطان

---

(١) بالفارسية : « دبيرى » وهي تقابل المصطلح المعاصر المعرب ( السكرتارية ) .
(٢) وتكتب جستاشب ايضا .
(٣) هو احمد بن الحسن الميمندي . كنيته ابو القاسم او ابو الحسن ، ولقبه شمس الكفاة . وزر للسلطان محمود الغزنوي وابنه مسعود . تدرج في المناصب على عهد محمود الى ان نال الوزارة . توفي عام ٤٢٤هـ ( فرهنك فارسي ).

طغرل ابو نصر الكندري (١) . وبذا اضحت سنة الانبياء ، وسيرة الملوك انشودة يترنم بها ومثلا يضرب ، ومثل هذا كثير .

أما الوزير ، فينبغي ان يكون نقي الدين ، حسن الاعتقاد ، حنفي المذهب أو شافعيا طاهرا ، كفؤا ، حسن التدبير والمعاملة ، كريما ، ومحبا للملك . وما احسن أن يكون الوزير من صلب وزير ، فذا أفضل واهيب واكثر بركة . فمنذ عهد أردشير بن بابكان (٢) الى ايام يزدجرد بن شهريار (٣) اخر ملوك العجم لم يكن الملوك الا ابناء ملوك ، والوزراء الا ابناء وزراء . وظل الامر على هذه الحال حتى ظهور الاسلام ، فلما دال ملك ملوك العجم ، ادبرت الوزارة عن الوزراء ايضا .

## سليمان بن عبد الملك وجعفر البرمكي (٤)

يقال انه لما كان سليمان بن عبد الملك جالسا للناس يوما ، وكان كبار رجال دولته وندماؤه حاضرين ، جرى على لسانه قوله : « ان لم يكن ملكي اكثر من ملك سليمان ابن داود عليهما السلام ، فليس بأقل منه ، اللهم الا انه كانت له حكومة على الريح والشياطين والجن والوحوش والطيور مما ليس لنا . أما من حيث الكنوز وادوات التجمل والزينة ، والملك ، والجيش ، ونفوذ الحكم ومنعته التي لنا ، فمن ذا الذي كان له مثلها قبلنا في عرض العالم وطوله ؟ ايعوزني شيء من مقومات الملك لا أملكه ؟ » . فقال له أحد الزعماء : « يعوزك أهم مقومات الملك وأفضلها مما لا تملكه في حين كان للملوك من قبلك » . قال سليمان : « ما الذي كان للآخرين ، ولا أملكه الآن ؟ » . قال الرجل : « ليس عندك الوزير الذي يوائمك » . قال سليمان : « وكيف ذلك ؟ » . قال الرجل : « انت ملك ابن

---

(١) هو ابو نصر محمد بن منصور الكندري ، عميد الملك ، كان وزير السلطان طغرل ، وكان عالما ، حنفي المذهب ، كان يرافق السلطان طغرل في بعض اسفاره ولقاءاته ، لكن السلطان ألب أرسلان عزله عن الوزارة عام ٤٤٥ - بتحريك من نظام الملك - وحبسه ، وما لبث ان قتل في السنة التالية ( فرهنك فارسي ) .

(٢) أردشير بن بابكان : هو ابن بابك مؤسس سلسلة الساسانيين ، اشتهر بحروبه وفتوحاته الكثيرة . ( فرهنك فارسي ) .

(٣) هو يزدجرد الثالث من اخلاف كسرى ابرويز ، وابن الامير شهريار ، كان اخر ملوك آل ساسان ، قتل عام ٣١هـ ( فرهنك فارسي ) .

(٤) يقول عباس اقبال : « ان هذه الحكاية ، فيما يظهر ، اسطورة كلها ، اذ لم يكن جعفر البرمكي معاصرا لسليمان بن عبد الملك ، ولم يكن لسليمان وزير بهذا الاسم ، وهذه الامارات ... ( حاشية ص ٢١٩ ) .

أما دارك فنبه في تعليقاته ( ص ٣٤٢ ) الى وجود الحكاية بنصها الحرفي في كتاب « تاريخ برامكه ص ٢-٩ » ( مجهول المؤلف ، الطبعة الاولى ، طهران ١٣١٢ شمسي ) مع اختلاف في اسم بطل الحكاية - ان جاز التعبير - ، فهو في سير الملوك : جعفر ، وفي « تاريخ برامكه » - وهو بالفارسية - : « برمك » . ولا يشك دارك في نقل نظام الملك لهذه الحكاية عن الكتاب المذكور .

ملك ، فينبغي ان يكون وزيرك ابن وزير ، كفؤا ومباركا » . قال سليمان : « أيوجد وزير على النحو الذي وصفت في العالم كله ؟ » . قال الرجل : « اجل » . قال سليمان : « اين ؟ » قال الرجل : « في بلـخ » . قال سليمان : « مـن ذاك الشخص ؟ » قال الرجل : « هو جعفر البرمكي الذي ورث آباؤه الوزارة كابرا عن كابر الى ايام اردشير بن بابكان. وكان « النوبهار » (١) ــ وهو معبد قديم ــ ببلخ وقفا عليهم . ولما أشرقت شمس الاسلام وخرج السلطان من يد ملوك العجم ، تخذ آباؤه بلخ دار مقام لهم وظلوا هناك . لقد كانت الوزارة وراثية فيهم ، وهم الذين صنفوا كتبا في السير ونظام الوزارة ، وكانوا حين يفرغ ابناؤهم من تعلم الخط والادب والكتابة ، يضعون تلك الكتب بين ايديهـم ليقرأوها ، ويعوا مـا فيها ، ويسيروا على هديها . لقد اقتدى الابناء بآبائهم في سيرتهم اقتداء كاملا من شتى الوجوه ، وليس في الدنيا كلها من هو اليق لوزارتك من جعفر . والامر ما يراه الخليفـة » .

فما ان سمع سليمان بن عبد الملك ــ الذي لم يكن في بني أمية وآل مروان اعظم واقدر منه ــ هذا الكلام حتى وطّن الفؤاد على استقدام جعفر من بلخ ، والعهد اليه بالوزارة . غير انـه فكر في نفسـه : « لربما ان جعفرا مـا يزال مجوسيا » ، ولكنه لما سمع بأنه كان قد ولد مسلما غمرته الفرحة ، وامر بكتابة رسالة الى والي بلخ ليرسل جعفرا الى دمشق ، ويعطيه ما يحتاج اليه من نفقات الطريق ووسائل الزينة والتجمل ولو الف دينار ، وأن يرسله الى العاصمة في اتم آيات الاجلال واكملها .

وارسل الوالي جعفرا الى دمشق ، فكان كلما وصل الى مدينة يخرج كبارها لاستقباله ، ويقيمون له المآدب ، وهكذا دواليك الى أن وصل الى دمشق . ولما وطأت قدماه ارض دمشق خرج كبراء الدولة والجيش ، الا سليمان بن عبد الملك ، عن بكرة ابيهم لاستقباله والترحيب به . واخترقوا به المدينة في اتم مظاهر الاجلال والاحترام وابهاها الى حيث أنزلوه في قصر لا يطاوله اي قصر جمالا وعظمة .

وبعد ثلاثة أيام مضوا به الى سليمان بن عبد الملك ليمثـل بين يديه . فلما دخل القصر ، ووقعت عينا سليمان عليه ، راقه منظره ومرآه . ولما دخل الى بهو المجلس صحبه الحجاب الـى المكان الذي أعـد له بالقرب مـن سرير الملك فاجلسـوه ، وعادوا .

وبعد ان جلس جعفر ، اخذ سليمان ينظر اليه بدقة وامعان ، واذا به يقطب

---

(١) « النوبهار » بالفارسية لفظة مركبة من كلمتين : « نو » بمعنى جديد « بهار » بمعنى الربيع . فمعنى « نوبهار » : اول الربيع وبواكيره .

كان « النوبهار » بناء للبرامكة في بلخ ، اتخذوه بيتا للنار ، ونصبوا حوله الاصنام وزينوه بالديباج والحرير ، وعلقوا عليه الجواهر النفيسة مضاهاة لبيـت الله الحرام في مكة .

( راجع تفاصيل اكثر عنه في : معجم البلدان ، وبلدان الخلافة الشرقية ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤ ومصادره ، ومقدمة ميرزا عبد العظيم خان محقق كتاب « تاريخ برامكة » ص ح ـ يد ) .

جبينه ، ويقول في غضب : « انهض من امامي » . فخف الحجاب على الفور ، واخذوه واعادوه ، دون ان يدري احد علة ذلك . وبعد ان صلى سليمان الظهر ، استخفه نشاط للشراب ، فحضر العظماء وجلس الندمان ، ومدت الايدي الى الصهباء ، وادبرت الكؤوس مرات ، ودب فيهم النشاط والنشوة . فلما راى من في المجلس انفراد طبع سليمان وانفراج اساريره ، قال احد الخاصة : « مولاي الملك ، لقد أمرت باحضار جعفر البرمكي من بلخ بأسمى آيات الاعزاز والاكرام لشأن عظيم ، لكن ما ان مثل بين يديك وجلس حتى ثبطت عزيمته وانفترت همته ، وامرت باخراجه . فما كان سبب ذلك ؟ فالقوم في عجب » . قال سليمان : « لو لم يكن جعفر من اسرة عريقة ، ولم يأت الينا من مسافة بعيدة ، لامرت آنذاك بضرب عنقه حالا ، لانه كان يحمل معه سما قاتلا ، اتى به هدية لي في اول مرة يلقاني فيها » . فقال احد العظماء من الندامى : « أيامرني مولاي بالذهاب اليه لبحث الموضوع معه ، والبت فيه ، فنعرف ما يقول ، ايعترف أم ينكر » . قال سليمان : « اذهب » . فقام الرجل وترك المجلس الى جعفر ، وهناك سأله : « لقد ذهبت اليوم لمقابلة سليمان ، أفكنت تحمل معك سما ؟ » . قال جعفر : « اجل ، وما يزال معي . انه هذا الذي تحت فص خاتمي ، فعلى هذا سار آبائي من قبل . لقد انتهى الي هذا الخاتم ارثا عن والدي ، لكنه لم يحدث قط ان تسببت انا او احد آبائي حتى بايذاء نملة وهلاكها ، فكيف اذا وصل الامر الى آدمي ؟! اجل ، لقد اعتدنا حمله رغبة في الحزم والحيطة في الامور ، فما اكثر ما لاقى آبائي من لدن الآخرين خسفا وتعذيبا من جراء المال والثروة . ففي الوقت الذي استدعاني فيه سليمان بن عبد الملك ، لم يطلعني احد على حقيقة الموضوع الذي كان يطلبني من اجله . لذا فكرت في نفسي بأنه اذا ما طلب الي « ثبت الكنوز » او سألني شيئا لا استطيع الوفاء به ، او سامني عذابا لا طاقة لي عليه ، فلا بد لي من ان اضع فص الخاتم في فمي وارشف سمه تخلصا من العذاب والهوان .

لما سمع الرجل حديث جعفر على هذا النحو ، عاد توا الى سليمان ، وتلا على مسامعه ما قال جعفر . فعجب سليمان لذكاء جعفر وبعد نظره ، وفرد أسارير وجهه ، وقبل عذره ، ثم أمر باحضاره الى بابه في موكب خاص . فذهب العظماء جميعهم الى باب القصر الذي كان فيه ، وأتوا به الى البلاط معززا مكرما ، وكذلك فعلوا في اليوم التالي .

ولما مثل جعفر بين يدي سليمان ، مد اليه سليمان يده مصافحا ، واخذ يسأله عن مشاق الطريق ويلاطفه بكلام جميل ، ثم أجلسه والبسه خلعة الوزارة في الحال ، ووضع الدواة أمامه ليوقع جعفر بضعة تواقيع على مراى عنه . ويقال ان سليمان لم ير قط بما كان عليه من فرح وابتهاج في ذلك اليوم .

لما خرج سليمان من مجلسه في القصر ، استخفه نشاط للشراب ، فأعد لهم مجلس زين بالذهب والجواهر ، وفرش بفرش موشحة بخيوط من ذهب ، لم ير الناس لها نظيرا قط ، ثم جلسوا للشراب . وعلى حين كان سليمان نشوان جذلا ، سأله جعفر : « كيف عرف الملك أن كان معي سم من بين آلاف الناس ؟ » . قال

سليمان : « ان معي شيئا اعز علي من كل ما املك وكل ما في الخزائن جميعها ، لا يفارقني ابدا . انهما خرزتان كالجزع (١) ، ولكنهما ليستا جزعا حقيقيا ، حصلت عليهما من خزائن الملوك ، وهما مربوطتان في ذراعي دائما . ميزة هاتين الخرزتين ، انهما اذا ما اوجستا رائحة سم في اي مكان ، أو مع اي شخص ، او في الطعام والشراب ، تتحركان فورا وتتماسان ، وتظلان في حركة واضطرام دون ان يقر لهما قرار . حينئذ اعلم ان ثمة سما في المجلس ، فأحتاط للامر وأتأهب له . فلما تخطيت انت عتبة بهو المجلس ، شرعت الخرزتان في الحركة ، وكانت حركتهما تزداد حدة وهيجانا كلما كنت تتقدم اكثر الى الامام في المجلس . ولما استقر بك المجلس امامي اخذتا تتماسان تماسا لم يدع لي مجالا للشك بأنك تحمل معك سما . ولتعلم انه لو كان ثمة شخص غيرك لما ابقيت على حياته . ولما اخرجوك ، شرعت الخرزتان بالسكون ، لكنما لم تتوقفا الا بعد خروجك من القصر » . وآنئذ كشف سليمان عن ذراعه وأراها جعفرا ، وقال : « ارايت في الدنيا شيئا أعجب من هذا في حياتك ؟ » . وكان العظماء جميعهم ينظرون الى الخرزتين في عجب . قال جعفر : « رايت في حياتي شيئين عجيبين لم ار مثلهما قط : الاول هذا الذي أراه مع الملك ، والآخر ما رايته مع ملك طبرستان » . فقال سليمان : « كيف كان ذلك ؟ اسمعني » . قال جعفر « لما وصل الى والي بلخ امر مولاي بارسالي الى دمشق ، اذعنت للامر ، وتأهبت للرحلة واعددت للطريق عدتها ، توجهت من نيسابور الى طبرستان لبضاعة كانت لي هناك . فلما وصلت الى طبرستان استقبلني ملكها وانزلني في قصره بمدينة آمل ، وبعث اليّ القرى (٢) . وكنا نلتقي يوميا في المجلس ، وعلى الخوان ، ونذهب الى امكنة مختلفة تنزها . وذات يوم قال لي في نشوة : « اتنزهت في البحر الى الان ؟ » . قلت : « لا » . قال : « انت ضيفي في نزهة بحرية غدا » . قلت : « سمعا وطاعة » . ثم امر الملاحين بأن يعدوا السفن ويهيئوها لغد .

وفي اليوم التالي ، مضى بي الملك الى ساحل البحر حيث ركبنا سفينة ، والمطربون يعزفون ويغنون ، والملاحون يقودون السفينة الى ان مضوا بنا الى لجة البحر ، في حين كان السقاة يديرون ابنة الكرم دون انقطاع . وكنا — الملك وانا — نجلس قريبين جدا اذ لم يكن بيننا أحد . لقد كان في اصبع الملك خاتم فصه من الياقوت الاحمر ، وكان جميلا الى أبعد حدود الجمال ، صافيا وملونا ، حتى انني لم أر مثله في حياتي . ولقد جعلني جماله أديم النظر فيه .

---

(١) الجزع او الجزع ( بفتح الجيم وكسرها ) : ضرب من الخرز ، وقيل : هو الخرز اليماني وهو الذي فيه بياض وسواد تشبه به العين ، كما في قول امرىء القيس :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب

سمي جزعا لانه مجزع اي مقطع بالوان مختلفة ، اي قطع سواده ببياضه ( اللسان - جزع ).

(٢) القرى ( بكسر القاف ) : طعام الضيف .

لما راى الملك انني اطيل النظر الى الخاتم ، نزعه من اصبعه ، ووضعه امامي ، فانحنيت احتراما له ، وقبلت الخاتم ووضعته امام الملك من جديد . لكنه تناوله ، ووضعه امامي مرة اخرى ، وقال : « ان خاتما خرج من اصبعي هدية وعطاء لا يعود اليها » . فقلت : « ان هذا الخاتم لا يليق الا بالملك » ووضعته امامه ، غير انه عاد فوضعه امامي . ولان الخاتم كان آية في الابداع ، وقيما ، قلت : « ان من يهب هذا الخاتم ثملا ، قد يندم على فعلته صاحيا ، فينتابه هم لذلك » . ووضعت الخاتم امام الملك ايضا ، فتناوله هذه المرة ورماه في البحر . فقلت آنذاك : « آه ، وا اسفاه على هذا الخاتم ، لو كنت اعلم ان الملك لن يعيده الى اصبعه حقا ، او انه سيلقي به في البحر لقبلته ، لانني لم ار ياقوتا كهذا قط ». قال الملك : « لقد وضعته امامك مرات ، ولما رايتك تحدق النظر فيه كثيرا ، اخرجته من اصبعي ووهبتكه . وعلى الرغم مما كان للخاتم من جمال في نظري ، فلولا انه لم يكن في عينيك اجمل لما منحتكه . لقد كان الذنب ذنبك لانك لم تقبله . اما وقد قذفت به في البحر ذهبت نفسك عليه حسرات ! الا انني سأفعل ما يعيده اليك من جديد » . وقال لاحد غلمانه : « اذهب واستقل زورقا الى الشاطىء ، ثم امتط جوادا من هناك ، وامض الى القصر مسرعا ، وقل للموكل بالخزانة (١) : « اريد الصندوق الفضي الصغير كذا . خذه ، وهاته اليّ على وجه السرعة » . وقبل ان يرسل الملك الغلام ، قال للملاح : « انزل مراسي السفينة ، ودعها تتوقف في مكانها الى ان اخبرك بما ينبغي عمله » . فنفذ الملاح ما امر به . اما نحن فاخذنا نشرب الخمر الى ان عاد الغلام بالصندوق الصغير الذي امر باحضاره ، ووضعه امام الملك . فحل الملك « هيمانه » (٢) واخرج منه مفتاحا فضيا فتح به قفل الصندوق ، ونزع غطاءه ، ومد يده فيه فأخرج سمكة ذهبية والقاها في البحر . وغارت السمكة في الماء سابحة ، وانحدرت الى قعر البحر غائبة عن الانظار . وما هي الا فترة قصيرة اذا بالسمكة تظهر على سطح الماء والخاتم في فمها . فأمر الملك احد الملاحين بأن يخف بزورق الى حيث ظهرت السمكة . فمضى الملاح والتقطها والخاتم في فمها ، واتى بهما الى الملك الذي نزع الخاتم من فمها والقى به امامي . فقبلت الارض بين يديه ، وتناولت الخاتم ووضعته في اصبعي . واعاد الملك تلك السمكة الى الصندوق وقفله ، ثم اعاد المفتاح الى مكانه ايضا » .

* * *

وكان في اصبع جعفر آنذاك خاتم ، فأخرجه ووضعه امام سليمان بن عبد الملك ،

---

(١) في الفارسية : خزينة دار .

(٢) الهميان ( بكسر الهاء وسكون الميم ) : يقال انها من الالفاظ الفارسية المعربة . وهو الكيس تجعل فيه الدراهم ويشد على الحقو . ومن معانيه الاخرى : شداد السراويل ، والتكة ( راجع : المعرب من الكلام الاعجمي ٣٤٦ ومصادر المحقق ، وفرهنك وازه هاي فارسي درزبان عربي ٧٠٧ ومصادرة ايضا ) .

وقال : « يا مولاي ، هذا هو الخاتم » . فتناوله سليمان ونظر اليه ثم رده الى جعفر ، وقال : « ينبغي الا يضيع تذكار رجل كذاك الرجل » .

* * *

ليس غرض الكتاب هذه الحكاية ، لكنني ذكرتها لانها حكاية عجيبة وغريبة ومناسبة للمقام . الا ان هدفي من هذا الفصل هو ان اشير الى أنه اذا ما بزغ فجر عهد مشرق خيِّر ، ودال زمان الضعف والانحطاط ، فامارة ذلك ظهور ملك صالح سديد الراي . في عهده ، يطمس المفسدون ، ويختار الوزير والعمال ومتصدو شؤون الدولة من الاصلاء والاخيار ، ويوكل كل عمل الى من هو اهل له ، فلا يسند عملان الى رجل واحد او عمل واحد الى رجلين ، ويرفع ذوو المذاهب النقية الطاهرة ، ويسام اصحاب المذاهب السيئة الخسف ، ويضرب على ايدي الظالمين ، وينشر الامن على الطرقات ، وتبث هيبة الملك في نفوس الجيش والرعية، ويحرم عديمو الفضل والاصل من اي عمل ، ويتصدى للاطفال (١) ممن لا خبرة لهم ولا مراس ويكبح جماحهم ، وتتدبر أمور الملك مع الكهول والشيوخ والحكماء ، وتوكل قيادات الجيش الى الكهول المجربين لا الشبان الناشئين ، ويشرى الرجال لمواهبهم لا لاموالهم ، ولا يباع الدين بالدنيا ، وتعاد الامور جميعها الى اصولها وقواعدها ، وتكون منزلة كل شخص على قدره ومستواه . كل هذا لتستقيم الامور الدينية والدنيوية ، ويكون عمل كل شخص وفقا لكفايته ، اما اذا ما خرج اي أمر على هذه القاعدة وسار على خلافها ، فان الملك لا يسمح به ، بل يعيد الامور الى نصابها بميزان العدل ، ويقومها بالسيف بتوفيق الله تعالى وحده .

---

(١) لا يشك دارك معتمدا على « راحة الصدور ص ١٢٤ » في ان نظام الملك يشير هنا الى محمود بن ملكشاه من « تركان خاتون » ويعنيه ، اذ كانت امه تعمل على ان يكون - على صغره - وليا للعهد ، في حين كان هوى نظام الملك والسلطان نفسه مع « بركيارق » ابنه من « زبيدة خاتون » . ( تعليقات دارك ص ٢٤٢ ثم راجع ايضا : راحة الصدور ص ١٢٤ ) .

# الفصل الثاني والأربعون

## في النساء وحرم القصر،وحد المرؤوسين ومراتب قادة الجيش(١)

يجب عدم تمكين من هم تحت سلطة الملك وفي خدمته بان يكون لهم نفوذ وقوة ، لما ينجم عن هذا من اخلال عظيم يذهب بجلاله وابهته وهيبته ، واخص من هؤلاء النساء . فهن محجبات مستورات ، ناقصات العقول ، الغاية منهن الانجاب لحفظ بقاء النسل . ان افضل النساء واجدرهن بالايثـــار والقبول ، احسنهن نسبا ، واكثرهن لياقة وسترا وتقوى . وفي الوقت الذي تمتد فيه ايدي نساء الملك الى السلطة ويتدخلن في شؤون الحكم ، فان دورهن لا يتعدى ما يوحي به اليهن ذوو المآرب والاطماع الخاصة ، لان ليس لهن القدرة ،مثل الرجال ، على استطلاع الاحوال في الخارج براي العين . لذا فان معظم اوامرهن تصدر بوحي من اقوال متصدري اكثر شؤونهن ، من مثل الحاجبة والخادم ، ولابد والحال هذه ، ان تأتي اغلب احكامهن واوامرهن مغايرة للحقائق والواقع . ومن هناك يتولد الفساد ، ويضار الملك في جلاله ووقاره وحرمته ، ويسام الناس الاذى والخسف ، ويتسرب الخلل الى الدين والملك ، وتصبح أموال الناس وثرواتهم عرضة للنهب والزوال ، ويلحق الاذى والهوان بكبار رجال الدولة .

انه لم ينتج عن تسلط زوج اي ملك عليه في اي عصر — على مر العصور — سوى الذل والعار والشر والفتنة والفساد . دعنا نذكر نماذج قليلـــة في هـــذا الموضوع ، علها أن تكشف عن كثير من الامور وتجلوها .

---

(١) يبدي دارك حيرته في عنوان هذا الفصل ويصفه بالغموض وانه من المعميات ، لورود عبارة « مراتب قادة الجيش » أو ما في معناها في جميع مخطوطات الكتاب سوى واحدة ، وهـو ما لا يتناسب وموضوع الفصل . ( تعليقات دارك ص ٣٤٢ ) . وقد يكون هذا ايضـا سببا في خلو عنوان هذا الفصل نفسه من العبارة المذكورة في نسخة عباس اقبال .

## ( آدم والمــراة )

كان آدم عليه السلام أول رجل أطاع المراة ، فجر عليه ذلك الخسران والعذاب والمحنة .فلما أطاع حواء واكل « الحنطة » (١) طرد من الجنة ( السماء ) ، وظل يبكي مائتي (٢) سنة الى أن عفا الله تعالى عنه ، وقبل توبته .

## قصة سياوش (٣)

كانت « سوذابه » (٤) امراة كيكاوس (٥) مهيمنة عليه . فلما بعث كيكاوس رسولا الى رستم (٦) يطلب اليه ابنه سياوش الذي كان رستم قد رباه وتعهده الى سن الرجولة ، وقال : « ارسله الي ، فاني في لهفة وشوق الى لقائه » . ارسل رستم سياوش الى ابيـــه .

لقد كان سياوش وسيما جدا . فلما راته سوذابه من وراء الحجاب فتنت به ، وقالت لكيكاوس : « مر سياوش ان يأتي الى دار الحريم لتراه اخواته » . فقال له كيكاوس : « اذهب الى دار النساء فأخواتك يرغبن في رؤيتك » . قال سياوش : « سمعا وطاعة ، لكن من الافضل أن يبقين في مكانهن ، وأبقى أنا في الايوان » . ولما ذهب الى هناك ، القت سوذابة ، بنفسها عليه ، وضمته اليها راغبة فيه . فغضب سياوش ، وخلص نفسه من بين يديها ، وخرج من دار الحريم ، وعاد الى مكانه . فخشيت سوذابة أن يخبر سياوش أباه بالموضوع ، وقالت في نفسها : « من الافضل أن أسبقه الى ذلك » . فمضت الى كيكاوس ، وقالت : « لقد هجم علي سياوش وتعلق بي راغبا في ، لكنني أفلت من يده » . وامتلأ قلب كيكاوس على سياوش ، ووصل الخوض والخطورة في الموضوع حدا قيل فيه لسياوش : « ينبغي

---

(١) هذا هو المشهور في التراث الفارسي . وفي القرآن الكريم ان ادم وحواء نهيا عن الاقتراب من « الشجرة » . يقول تعالى : « وقلنا يا ادم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » ( البقرة . اية ٣٣ انظـر : الايات ١٨-٢١ من سورة الاعراف ايضا ) .
واختلف في هذه الشجرة ، فقيل هي شجرة المحنة ، وشجرة الكافور ، وشجرة العلم - علم الخير والشر - ، وقيل السنبلة ، والحنطة ، وغير ذلك ...
( راجع : الثعلبي ، قصص الانبياء ، ص ١٩ ، والسيوطي ؛ نزهة المجالس ص ١٤ ) .

(٢) في روايات اخرى : ثلاثمائة سنة ( راجع قصص الانبياء ص ٢٣ ) .

(٣) هو سياوش بن كيكاوس احد ملوك الكيانيين . ومعنى سياوش بالفارسية : صاحب الجواد الاسود . ( فرهنك فارسي ) . وعرب في الترجمة العربية للشاهنامة : « سياوخشي » .

(٤) سوذابه ( بالذال المعجمة ) . معرب « سودابه » ( بالدال المهملة ) .

(٥) يقال ان معرب كيكاوس : قيقاوس ايضا ( فرهنك فارسي ) .

(٦) رستم او رستهم او روستم بالفارسية : القوي البنية ، الضخم . وهو رستم بن زال . بطل ايراني معروف كان له قدرة فوق قدرة البشر . خدم ثلاثة من ملوك الكيانيين ، هم : كيقباد ، كيكاوس ، وكيخسرو . ( فرهنك فارسي ) .

أن تخترق النار ليرضى عنك الملك » . قال سياوش « الامر ما يراه المليك ، فانني طوع أمره ورهن اشارته » .

وكوم الحطب في الصحراء على مساحة ربع فرسخ مربع (١) ، ثم اشعلت فيه النيران . ولما تصاعد لهيبها ، صعد كيكاوس الى راس جبل هناك ، وقال لسياوش : « اخترق النار (٢) » . فذكر سياوش ، الذي كان يمتطي صهوة فرسه « شبرنج » (٣) ، اسم ربه ، ثم وثب به في النار ، وغاب عن الانظار . وبعد مدة ، خرج من النار سالما ، دون أن تمس حتى شعرة واحدة فيه او في جواده ، باذى بمشيئة الله عز وجل ، فعجب جميع من كانوا هناك لذلك . وقبس الموبذون من تلك النار قبسا ، ومضوا به الى المعبد ، وما تزال تلك النار مشتعلة في مكانها ، لانها قضت بالحق .

بعد هذا الحكم ، ولى كيكاوس سياوش اميرا على بلخ ، وأرسله الى هناك ، لكنه كان بسبب سوذابة ممتلأ الفؤاد على والده ، فكان يقضي حياته بألم وعذاب . لقد اضمر في نفسه الا يبقى في ولاية ايران ، وراح يفكر في ان يصير الى الهند او الصين والصين الاقصى . لكن « بيران ويسه » (٤) الذي كان وزير « افراسياب » (٥) ، وقائد جيشه ، تمكن من معرفة السر الذي كان يراود نفس سياوش ، فعرض نفسه عليه ، وشرع يطري افراسياب ويثني على جميل خصاله امام سياوش ، ويلتمس اليه ، حتى قبل سياوش عرضه ورحب به ، ودخل في عهد معه . ثم قال له بيران ويسه : « البيت واحد ، والنجاد واحد . ان افراسياب يعزك ويقدرك اكثر من ابنائه ، فاني اردت أن تعيد حبل المودة بينك وبين ابيك ، يتدخل في الامر ، ويأخذ على كيكاوس عهدا محكما ، فترسل حينئذ الى ابيك بألف اعزاز واكرام .

وتحول سياوش من بلخ الى تركستان ، فزوجه افراسياب ابنته (٦) ، وكان

---

(١) أي تسعة كيلومترات مربعة .

(٢) أورد الفردوسي في الشاهنامة قصة سياوش وسوذابة مفصلة ( البيت ٥٠٢ وما بعده . ثم راجعها في الترجمة العربية ١: ١٥٥ - ١٦١ ) .

(٣) معرب : شبرنك أي الادهم . والكلمة الفارسية مؤلفة من كلمتين : « شب » أي الليل ، و « رنك » أي اللون .

(٤) بيران معرب : بيران . عرف بيران ويسه بالتعقل والحكمة . كان وزير افراسياب ومستشاره وقائد جيشه الاعلى . وهو من ابرز شخصيات الشاهنامة . ( فرهنك فارسي ، وتعليقات شعار ص ٤٤٤ ) .

(٥) افراسياب : ملك مشهور من ملوك الترك التورانيين . كان معاصرا لملوك الكيانيين . حارب الايرانيين مدة طويلة ، لكنه أسر وقتل في عهد كيخسرو . ( فرهنك فارسي . ثم انظر : حاشية ص ٤ من هذه الترجمة ) . ومعنى افراسياب « جناح الطاحونة » ( مفاتيح العلوم ٦٣ ) .

(٦) كان اسمها فرنكيز ( معرب فرنكيس ) . لما قتل زوجها سياوش ، كانت حاملا ، فأراد خصومه اسقاط الجنين ، لكن بيران ويسه حال دون ذلك ( فرهنك فارسي ) .

يكرمه ويعامله أحسن من بنيه واكثر ، مما اثار حفيظة « جرسيوز » (١) أخـي افراسياب وحسده عليه ، فانضم اليه الوشاة وقالة السوء ، واختلقوا الحيل والدسائس الى أن ألبوا افراسياب عليه ، فقتل مظلوما بتركستان . وعم ايران العويل لمقتله ، وهاج المحاربون وتأهبوا للقتال ، وجاء رستم من سجستان الى العاصمة ومضى الى دار حريم كيكاوس دونما استئذان ، وجر سوذابة من ناصيتها الى الباب وقطعها بالسيف اربا اربا ، ولم يجرؤ احد على أن يقول له : خيرا فعلت او شرا . ثم شمر القوم للحرب ، ومضوا الى تركستان انتقاما لسياوش واخذا بثأره . ودارت رحى الحرب عدة سنوات ، ذهب ضحيتها بضعة الاف من الجانبين . وكانت سوذابة سبب هذا كله ، لانها كانت مهيمنة على الملك .

* * *

لقد اختط الملوك ، واولو العزم من الرجال لانفسهم طرقا ، وعاشوا حياة لم يكن للنساء أو وصيفاتهن فيها أدنى علم بأسرارهم ، وقضوا حياتهم في منأى عن قيودهن واهوائهن واوامرهـن ، ولم يقعوا تحت ربقة نيرهـن قط ، وهكذا فعـل الاسكندر .

## الاسكندر ودارا

يحدثنا التاريخ انه لما قدم الاسكندر من بلاد الـروم ، وهزم دارا بن دارا ملك العجم ، الذي قتله احد خدمه في اثناء هزيمته ، وانه كانت لدارا ابنة جميلة جدا ، في غاية الكمال والجمال ، كذلك كانت اختها وبضع فتيات اخر كن في حماه وحرمه . يحدثنا انه قيل للاسكندر : « انه لمن المناسب أن تمر من أمام دار نساء دارا وترى الاقمار وملائك الحسن ، خاصة ابنة دارا التي لا نظير لها حسنـا وجمالا » . لقد كان غرض اصحاب هذا الكلام أن الاسكندر حين يرى ابنة دارا متنقبة بجمالها ، سيتزوجها ولا شك . غير أن الاسكندر اجابهم : « ينبغي الا تهزمنا نساؤهم بعد ان هزمنا رجالهن » . فلم يستجب لهم ، ولم يذهب الى دار حريـم دارا .

## ( خسرو وشيرين (٢) وفرهاد (٣) )

اما حديث كسرى وشيرين وفرهاد ، فرواية معروفة . اذ أحـب كسرى

---

(١) معرب : كرسيوز ، وقد عربت في الشاهنامة الى « كرسيوز » .

(٢) الشائع في المصادر العربية تعريب « خسرو » بـ « كسرى » . لكنني احتفظت بالاصل الفارسي لشهرة قصة « خسرو وشيرين » . وشيرين هي معشوقة كسرى ابرويز وزوجه أيضا ( رفهنك فارسي ) . وقد نظم قصة خسرو شيرين شعرا الشاعر نظام الكنجوي ثم قلده الشاعـر أمير خسرو الدهلوي .

(٣) فرهاد : حجار ونقاش معروف ، كان معاصرا لكسرى ابرويز ، ومنافسه في حـب شيرين ( فرهنـك فارسـي ) .

شيرين حبا قلدها فيه زمام امره واطلق لهواها العنان ، فكان ينفذ ما تقول . فلا جرم اذن انها تجاسرت ، ومالت الى فرهاد مع انها كانت زوج كسرى الملك .

* * *

## ( اقوال في الموضوع )

سئل بزرجمهر : ( ما السبب الذي كان وراء انهيار ملك آل ساسان مع أن مقاليد امرهم كانت بيدك ، في حين انه لا نظير لك اليوم في العالم كله رايا وتدبيرا وحكمة وعلما ؟ ) . فقال : « كان سبب ذلك شيئين : أحدهما ، انهم قلدوا الاعمال العظيمة الهامة للصغار الناشئين ، والاخر انهم كانوا خصوما للعلم واهله .

يجب ان يشرى العظماء والعقلاء ويقلدوا جلائل الاعمال . لقد كان عملي مع النساء والاطفال ، وهذان الصنفان لا عقل لهما ولا علم . وليعلم انه متى انيطت شؤون اية مملكة بالنساء والاطفال ، فان الملك سيزول عن تلك الاسرة » .

ويقول النبي (ص) : « شاوروهن وخالفوهن » . فلو كن تامات العقول لما حد الرسول عليه السلام على العمل بخلاف رايهن .

## راي النساء وعلمهن

ورد في الاخبار أنه لما اشتدت وطاة المرض على النبي (ص) في اخر العهد ، ووصل به الضعف الى حد انه لما حان وقت صلاة الفرض ، والصحابة بانتظاره في المسجد لادائها جماعة ، لم تسعفه طاقته على الذهاب . وكانت عائشة وحفصة — رضي الله عنهما — تجلسان انذاك عن جانبي الرسول عليه السلام ، فقالت له عائشة : « يا رسول الله ، هذا اوان الصلاة ، ولا طاقة لك على الذهاب الى المسجد . فمن تأمر من الصحابة بأن يصلي بالناس ؟ » قال : « أبو بكر » . فقالت مرة ثانية : « من تندب للصلاة بالناس ؟ قال : « أبو بكر » . فقالت الثالثة : « من تأمر بأن يصلي بالناس ؟ » قال : « ابو بكر » . وانقضت برهة ، ثم قالت عائشة لحفصة بصوت خفيض : « لقد قلت ثلاث مرات . فقولي له أنت مرة واحدة . ان أمير المؤمنين أبا بكر رجل رقيق القلب ، وهو يحبك حبا جما . فحين يرى مكانك في المحراب خاليا يغلب عليه البكاء ولا يستطيع أن يتمالك نفسه ، فتبطل الصلاة عليه وعلى الناس . لكن عمر رجل صلب قوي القلب ، فمره أن يصلي بالناس » . فلما كلمت حفصة الرسول ، عليه السلام ، بهذا الشكل ، قال (ص) : « مثلكن مثل يوسف وكرسف . لن آمر من تريدان بأن يصلي بالناس ، بل سآمر بما فيه الصواب والصلاح . قولا لابي بكر أن يتقدم ويصلي بالناس الجماعة » .

ومتن الخبر (١) : « أنتن صواحبات يوسف وكرسف » . لقد امر الرسول

---

(١) حذف الدكتور شعار هذا الخبر وتعليق المؤلف عليه لعدم مناسبته — في رأيه — لشأن النساء ( حاشية ٤ ص ٢٨٣ ) فترجمته عن نسخة دارك ( ص ٢٤٧ ) .

عليه السلام بخلاف ما ارادت عائشة على جلالها وعلمها وزهدها وتقواها ، فما ظنك براي النساء الاخريات وعلمهن ؟!!

## قصة يوسف وكرسف

يقال : كان على عهد بني اسرائيل ما ينص على ان كل من عصم نفسه عن ارتكاب الكبائر اربعين سنة ، وصام ، وادى الصلوات في اوقاتها ، ولم يؤذ احدا ، تقضى له من لدن الله ، عز وجل ، ثلاث حاجات ، يجاب فيها لاي شيء يطلبه .

وكان في ذلك العهد رجل تقي خير من بني اسرائيل اسمه يوسف ، وكانت له زوج مثله تقية مستورة اسمها كرسف . فكر يوسف هذا الذي سلخ اربعين سنة من عمره على وتيرة واحدة في طاعة الله وعبادته ، وقال في نفسه مرة : « والان ، ما الشيء الذي أسأله الله عز وجل : علي ان اتدبر الامر مع شخص اخر ليكون ما اطلبه على احسن ما يرام » . واجال فكره ، غير انه لم يهتد الى الشخص المناسب . ولما دخل الى بيته ، ووقعت عيناه على زوجه ، قال في نفسه : « ليس أحب الي في الدنيا كلها من زوجي ، فهي نصفي الاخر وام اولادي . خيري خيرها ، وهي أحب لي من الخلق جميعا . انه لصواب أن افضي اليها بالامر لنتدبره معا » . ثم قال لامراته : اعلمي انني سلخت اربعين سنة من عمري في الطاعة ، تقضى لي بها اي ثلاث حاجات اطلبها . وليس في العالم اجمع من هو احب خيرا لي منك ، فماذا تقولين ؟ ماذا اطلب الى الله عز وجل ؟ » قالت المراة : انت تعلم بأن ليس لي في هذه الحياة سواك ، وانك قرة عيني . ان النساء نزهة الرجال ومغناهم ، فلكي ينشرح قلبك لرؤيتي دائما ، وتعيش سعيدا معي أسأل الله ، تعالى ، ان يهبني انا زوجك جمالا لم يهبه اية امراة اخرى ، حتى اذا ما رايتني ، كلما دخلت علي ، بذاك الحسن والجمال ، يغتبط قلبك ، وحتى نعيش سعداء مرحين مـــا حيينـــــا .

واعجب الرجل كلام امراته ، فدعا الله ، وقال : « يا رب ، هب امراتي هذه حسنا وجمالا لما تهبه امراة غيرها » . فاستجاب الله تعالى دعاء يوسف ، واصبحت امراته في اليوم التالي غير تلك التي باتت ليلة أمس ، اذ غدت بصورة لم ير الناس لها مثيلا قط .

لما رآها يوسف على هذه الصورة من الجمال ، اصابه ذهول وحيرة وكـــاد يخرج عن جلده (١) فرحا . واخذت المراة تزداد جمالا وحسنا يوما بعد يوم . لقد بلغ حسنها في اسبوع واحد حدا بهرت فيه الناظرين ، اذ لم يستطع اي ناظر اليها ان يديم فيها النظر . لقد كانت احسن الف مرة من الشمس والقمر ، واجمل من الحور والملائك والطف . وشاع خبر جمالها في العالم ، فأخذت النساء تفد من المدن والارياف والاماكن البعيدة لرؤيتها ، وتتناقل اخبارها بتعجب شديد .

---

(١) اصل المثل الفارسي : « از شادي در بوست نمي كنجيد » .

وذات يوم ، نظرت المراة الى نفسها في المرآة ، ورات ما هي عليه من جمال تام ، وراحت تسرح النظر في تصوير وجهها وشعرها وشفتيها واسنانها وعينيها وحاجبيها ، فانتابها عجب وكبرياء ، وطغت عليها نوبة من غرور ، وقالت : « أنى بمثلي اليوم في العالم كله ، ومن ذا الذي له ما لي من حسن وجمال ؟ ماذا ينقصني حتى اكون لهذا الرجل الذي لا يأكل سوى خبز الشعير — حتى هذا الخبز لا يشبع منه شبعا كاملا — ، والذي لا يلوى من نعم الدنيا على شيء ، بل يقضي العمر في شغف وضنك ؟! انني بملوك الارض واكاسرتها (١) أليق ، فهم سيأخذونني مزينة بالذهب ، اذا ما راوني .

ودب الهوس في نفس المراة ، واخذت تلعب براسها التمنيات ، فشرعت في العناد والعصيان واللجاجة ، والمشاجرة والنزاع ، وسقط الكلام وبذئيه ، وسوء التصرف ، وشرعت تردد على مسامع زوجها في كل آن : « أنى لي أن اكون لك وانت لا تجد ما يشبعك من خبز الشعير ؟! » .

لقد كان لها من يوسف ثلاثة او اربعة اطفال ، عزفت عن الاعتناء بهم وانصرفت عن غسلهم واطعامهم وتنويمهم . ووصل عدم التوافق والتفاهم بينهما حدا خيم فيه الضجر والملل على يوسف ، واضحى حيران عاجزا جدا لا حول له ولا قوة . لكنه اتجه صوب السماء ، وقال : « يا رب ، صير هذه المراة دبة » . فاستجاب الله سبحانه وتعالى ، له وصيرها دبة في الحال نكالا بها . ولم يعد لها من شغل يومي — والماء يسيل من عينيها — سوى الطواف حول البيت ، وعدم الابتعاد عنه . أما يوسف ، فقد اضنته تربية الاطفال الصغار والعناية بهم ، وغسلهم واطعامهم وتنويمهم ، وتخلف في طاعة الله عز وجل ، وعبادته اياه بحيث لم يعد يؤدي حتى الصلاة في اوقاتها . واعيته الحيلة والعجز فاتجه الى السماء مضطرا ، ورفع يديه ، وقال : « يا رب ، أعد هذه الدبة امراة كما كانت ، والهمها الهداية بأن تعتني بتربية هؤلاء الاطفال الصغار ، وتهتم بهم كما كانت عليه من قبل ، لكي يتسنى لي ان اتفرغ لعبادتك ربي الكريم من جديد » . وفي الحال ، اعيدت الدبة امراة كما كانت ، فانصرفت الى الاهتمام بأطفالها والاعتناء بهم ، ولم تتذكر هذه الحال قط ، وخيل اليها أن ما حدث لم يكن سوى رؤيا رآتها في منامها . أما عبادة يوسف اربعين سنة فذهبت هباء منثورا ، وحبطت بهوى المرأة وتدبيرها .

وغدت هذه الحكاية مثلا في العالم ، لئلا يطيع احد امرا لامراة بعد .

## ( راي للمامون في الموضوع )

قال الخليفة المامون يوما : « لا كان ملكا ، ذلك الذي يأذن للنساء في أن تتحدث معه في شؤون المملكة والجيش والخزانة والسياسة والتدخل فيها ، أو ان يحمين أحدا . فانه اذا ما اتيح لهن المجال ، واصغى الملك اليهن فرقى شخصا

---

(١) أكاسرة : جمع كسرى ، معرب « خسرو » .

وعاقب اخر ، وولى رجلا عملا وعزل اخر ، فلا مندوحة من أن ينهال الناس على بابهن مرة واحدة ، ويحيلوا اليهن حاجاتهم ومطالبهم لامكان قضائها وتلبيتها لديهن بسرعـــــــة .

فحين يرين رغبة الناس فيهن ، ويشاهدن جموعا من الجيش والرعية في القصر ، يندفعن في تحقيق الاماني الباطلة ، ويتعهدن تدبر الاهواء الفاسدة ، فيجد الاشرار وذوو المذاهب الخبيثة طريقهم اليهن بسرعة بحيث لا يطول الامد على زوال حرمة الملك وجلاله ، وعلى اندثار رونق البلاط والديوان وحرمتهما ، فيتلاشى قدر الملك وعظمته . وحينئذ ينهال عليه اللوم من الاطراف ، وتضطرب أمور المملكة ، ويفقد الوزير سيطرته وهيبته ، وينال الجيش في كرامته .

* * *

فما الحيلة اذن للنجاة من هذا الغم كله ؟ على الملك أن ينحو ما تعارف عليه الناس ، وما سلكه الملوك العظام اولو الراي السديد من قبل . فالله ، عز وجل ، يقول : « الرجال قوامون على النساء » (١) . فلو كانت لهن القدرة على القيام بشؤون انفسهن لما وكل الله أمرهن الى الرجال . ان كل من يجعل النساء قيمات على الرجال فسيتحمل وحده جرم اي خطأ وانحراف ، لانه هو الذي سمح بذلـــك وتخطى العادة المتبعة .

## ( اقوال اخرى في الموضوع )

قال كيخسرو : « من اراد من الملوك ابقاء الملك في اسرته ، وصيانة مملكته من الدمار والخراب ، والحفاظ علـــى حرمته وعظمته من الاندثار من على وجـــــه المعمور ، فعليه الا يفسح المجال لنسائه أو يسمح لهن بالتدخل في شؤون غير من هم تحـــت اشرافهـــن وخدمهـــن والا يصدرن امرا لغير وكلائهن وعمالهن ومتولي اقطاعاتهن . فبهذا يحافظ على العادة القديمة ، ويريح فكره مما قد ينتابه » .

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه : « كلام النساء عورة مثلهن ، فكما ينبغي الا يظهرن على الملأ ، يجب الا يذاع حديثهن في الملأ ايضا » .

* * *

هذا القدر الذي ذكرت في الموضوع كاف ، وسيتجلى بوضوح في موارد كثيرة اخرى ، فيعرف حينئذ أن السداد والنفع فيما قلت .

## في المرؤوسين

خلق الله ، عز وجل ، الملك لتكون له القدرة والرفعة والعظمة على سائر

---

(١) النساء ، اية ٣٤ .

الناس ، وليكون الخلق تحت أمرته ورعايته ، يؤمن لهم سبل عيشهم ، ويقودهم الى ما فيه رفعتهم وعظمتهم . على الملك ان يصرف الخلق ويجعلهم في وضع يعرفون فيه حدود أنفسهم واقدارهم دائما ، فلا يمكنهم من القاء حلق الانقياد من آذانهم ، وشق عصا الطاعة . وعليه أن يبصرهم بعيوبهم ومحاسنهم بين الحين والحين ، لئلا يذهلوا من انفسهم ، والا يطيل لهم القياد يفعلون ما يشاؤون . بل ينبغي ان يعرف قدر كل منهم ومكانته ، وأن يكون على دراية بأحواله والتثبت منها باستمرار ، لكي لا تزل عن صراط الطاعة اقدامهم ، وحتى يؤدوا ما يؤمرون به ، وحسب .

مثال هذا ما قال بزرجمهر بن البختكان (١) لانوشروان العادل يوما : « ان الولاية للملك ، والملك هو الذي يضع زمام أمور الولاية بيد الجيش لا بيد الرعية . غير أن لا حب للولاية في نفوس الجيش وليس لهم شفقة على اهلها او رحمة ، لا هم لهم سوى جمع الاموال وكنزها ، غير مبالين بدمار الولاية وفقر ناسها واملاقهم . ومتى كانت للجيش القدرة على أن يعيث في البلاد فيعذب ويقتل ويكبل ويسجن ويغصب ويجبي ويعزل ويولي من يشاء ، فأي فرق يبقى ثمة بين الملك وبينهم ؟ ان زمام كل هذه الامور لم يكن الا بيد الملوك دائما لا بيد الجيش ، فهم لم يقبلوا قط أن تكون للجيش مثل هذه السلطة والقدرة . ان تيجان الذهب ، وركائب الذهب ، والسرر ، وضرب السكة لم تكن لغير الملوك في كل الاعصار » . ثم قال : « اذا ما اراد الملك أن يفاخر الملوك ، ويكون له الفضل عليهم اجمعين ، فليهذب اخلاقه ويصقلها » . قال أنوشروان : « انى لي ذلك ؟ » . قال بزرجمهر : « خلص نفسك من الخصال السيئة ، وتسمك بالحسنة واعمل بها » . قال انوشروان : « وما الخصال السيئة ؟ » قال بزرجمهر : « الخصال السيئة هي : الحقد ، الحسد ، التكبر ، الغضب ، الشهوة ، الحرص ، طول الامل وبعده ، اللجاجة ، الكذب ، البخل ، الخلق السيء ، الظلم ، الانانية ، التسرع ، كفران النعمة والعقوق ، والخفة والطيش . أما الخصال الحميدة فهي : الحياء : حسن الخلق ، الحلم ، العفو ، التواضع ، السخاء ، الصدق ، الصبر ، الشكر ، الرحمة ، العلم ، العقل ، والعدل . ان من يتحلى بهذه الخصال الحسنة ويطبقها ، يستطيع ان يسير الامور جميعها دون حاجة لاي مستشار او مدبر يرجع اليه في من هم تحت يده ، وفي شؤون المملكة » .

---

(١) بزرجمهر : معرب بزركمهر . يقال انه كان وزير أنوشروان العادل . ينسب اليه كتاب « يندنامه بزركمهر بختكان » ، « كتاب نصيحة بزرجمهر بن البختكان » باللغة البهلوية . ( فرهنك فارسي ) .

# الفصل الثالث والأربعون

## في عرض أحوال ذوي المذاهب السيئة أعداء هذا الملك والاسـلام

وددت أن اكتب بضعة فصول في خروج الخارجين ليعلم العالم اجمع مدى اشفاقي على هذه الدولة ، وشدة هواي وميلي لملك آل سلجوق ، خاصة لمولاي (١) ، خلد الله ملكه ، وابنائه واسرته ، جنب الله عهده شر الحسد والعين .

لم يخل اي عصر من الخارجين ، فلقد خرجوا في كل مكان في العالم علـى الملوك والانبياء ، عليهم السلام ، منذ عهد آدم ، عليه السلام ، الى يومنا هذا . وليس ثمة فرقة أكثر شؤما وتخريبا وسوءا من هؤلاء القوم (٢) ، لانهم يبيتون الشر لهذه المملكة من وراء حجاب ، ويسعون الى افساد الدين . كلهم آذان صاغيـة تنتظر نداء القيام ضد الدولة ، واعين ساهرة تترقب اشارة الخروج عليها .

واذا ما نزلت ــ والعياذ بالله ــ بهذه الدولة القاهرة نازلة سماوية ، فان هؤلاء الكلاب يظهرون من أوكارهم ومعاقلهم ، ويخرجون على دولتنا بدعوى التشيع، مستمدين أكثر قوتهم ومددهم من الرافضة والخرمية (٣) ، ولن يألوا جهدا في بث الشر ، والفساد ، والقتل ، والبدع . انهم يدعون الاسلام في الظاهر ، لكنهـم ينهجون نهج الكفار في الباطن . باطنهم خلاف ظاهرهم ، وقولهم عكس عملهم . وليس ثمة من هو الد عداوة لدين محمد عليه السلام ، أو أكثر شؤما وويلا على ملك مولانا منهم .

وفي الدولة اليوم ، ممن يتسنمون المقامات الرفيعة (٤) ولهم فيها دالة ، من يطلون برؤوسهم من أقبية الشيعة ، وليسوا منهم ، بل هم في حقيقة أمرهم من هؤلاء القوم ( الاسماعيلية ) يدبرون شؤونهم سرا ، ويدعمونهم ، ويدعون لهم ،

---

(١) اي ملكشـاه السلجوقي .

(٢) المقصود بهؤلاء القوم فرقة الاسماعيلية الذين كان أكثرهم يستوطن القــلاع ، فسمـوا « أهل القلاع » . ( اقبال : حاشية ٢ ص ٣٣٥ ) .

(٣) هم البابكية أصحاب بابك الخرمي ، ويقال لهم المحمرة أيضا فيما سيجيء .

(٤) يعرض نظام الملك هنا بمعارضيه من وزراء ملكشاه الذين لم يكن مذهبهم مذهبه ، من مثل : مجد الملك القمي الذي كان شيعيا ، وتاج الملك الشيرازي الـذي عرف بميلـه الـى

في حين أنهم يغرون سيد الدنيا ويخدعونه بأنهم انما يعملون على الاطاحة بخلافــة العباسيين . ان أكشف عن القدر غطاءها (١) ، تبن فضائحهم واعمالهم الشائنة للعيان ، لكنني بما تظاهروا به لمولاي ـ خلد الله ملكه ـ وزعموا ، حتى ملني ، لا أخوض في هذا الموضوع . هذا سبب ، وسبب اخر هو كثرة التوفيرات التي يتظاهرون بها حتى جعلوا مولاي حريصا على المال يتكالب عليه ، واظهرونــي صاحب غرض ومآرب . ان نصيحتي في هذه الحال لا تلقى قبولا، ولا تجدي فتيلا .

سيتضح للملك في اليوم الذي اتنحى فيه جانبا فسادهـــم ومكرهم وسوء فعلهم ، وسيعلم أيضا مدى ما كان لي من شفقة وهوى وميل في دولته القاهرة ، وانني لم أكن بغافل وغير مطلع على أحوال هذه الطائفة وما كان يدور في خلدها ، بل لقد كنت اعرضها على الاعتاب السامية دائما ، ولم اتركها تفوتــه وتخفــى عليه . لكنني لما رأيت أن أقوالي لم تكن تلقى لديه قبولا ، ولم يصدقها ، عزفت عن تكريرهـــا .

لكنني أدرجت في خروج هؤلاء القوم خاصة بابا موجزا في كتاب « السير » (٢) هذا ، يشتمل على أهم ما يتعلق بهم من مثل : من هم الباطنية ؟ وما مذهبهـم واعتقادهم ؟ ، اين ظهروا باديء ذي بدء ، كم مرة خرجوا ، وعلى يد من قهروا وهزموا في كل مرة ؟ . فما هذا الا تذكرة لارباب الملك وحماة الدين .

لقد خرج هؤلاء القوم الملاعين في أرض الشام واليمن والاندلس ، وعاثوا فيها قتلا ، لكنني لن أتطرق الا الى ما كان من أمرهم في ديار العجم ، على سبيل الاختصار . ومن يشأ ان يقف على جميع احوالهم ، وعلى المفاسد التي ابتدعوها في الملك ودين محمد المصطفى عليه السلام ، فليقرأ كتب التاريخ عن بكرة ابيها ، خاصة « تاريخ اصفهان » (٣) سأذكر جزءا من مائة فقط مما فعلوه في أرض العجم التي تشكل اليوم القسم الرئيس من ملك مولانا مولــى العالم ، ليكون على علم بأمرهم من بدايته الى نهايته .

---

الاسماعيلية ( اقبال : حاشية ٢ ص ٢٣٦ ) .

(١) في الفارسية : « اكر بنده نهنبن از سر آن ديك بردارد » معنى هذا مجازيا : « ان أكشف القناع عــن أسرارهـــم » .

(٢) هذه هي الاشارة الوحيدة المختصرة الى اسم الكتــاب .

(٣) أكبر الظن انه يريد كتاب حمزة بن الحسن الاصفهاني الذي ذكره ابـــن النديـم باســـم « كتاب اصفهان واخبارها » ( الفهرست ١٥٤ طبعة تجدد . طهران ١٩٧١ ) . وذكــره الامام ابو نعيم الاصفهاني وياقوت الحموي باسم « كتاب اصفهان » .

( راجع : كتاب ذكر اخبار أصفهان لابي نعيم ١ : ٣٠٠ طبعة ليدن ٩٣١ ام ومعجـم الادباء ٨ : ١٤٠ ـ ترجمة لغدة الاصفهاني ـ ) .

وذكر بروكلمان الكتاب باسم « تاريخ اصفهان » . ( تاريخ الادب العربي ٣ : ٦١ الترجمة العربية . دار المعارف بمصر ١٩٦٢م ) .

( يراجع لمزيد من الاطلاع على هذا الكتاب الذي لما يصل الينا مقال : « حمزة بن الحسن الاصفهاني » ومصادره للدكتور حسين علي محفوظ . مجلة سومر العراقية . المجلد التاسع عشر . الجزء الاول والثاني ص ٦٣ ـ ٩٥ بغداد ١٩٦٣م ) .

# الفصل الرابع والأربعون

## في خروج مزدك ، وماهية مذهبه ، وكيفية قضاء أنو شروان العادل عليه وعلى أتباعه (١)

كان أول من جاء بمذهب المعطلة (٢) في العالم كله رجل ظهر على ارض العجم في عهد الملك قباذ (٣) بن فيروز ، لقبه موبذ الموبذين (٤) ، واسمه مزدك بن بامدادان. فعزم أنوشروان العادل على ان يردم مذهب المجوسية على رؤوس اصحابه ويقضي عليه ، ثم ينشر مذهبا جديدا في العالم . كان سبب ظهور مزدك انه كان ذا معرفة جيدة بعلم النجوم ، فقد كان يستدل من مسيرها بأن شخصا سيظهر في هذا الزمان بدين يبطل الدين الزرادشتي واليهودي والمسيحي ، وعبادة الاوثان ، ويفرضه على رقاب الناس بالمعجزات والقوة ، ويظل قائما الى يوم الدين . فوقع في روعه انه المقصود بهذا ولا احد سواه .

وشرع مزدك يفكر في الطريقة التي يدعو بها الناس ، ويبحث عن سبيل جديدة لذلك . لقد تأمل الامر من جميع جوانبه ، فوجد أن له في مجلس الملك حرمة واحتراما تامين ، وانه مسموع الكلمة لدى كل رجالات الدولة وزعمائها ، وان له منزلة رفيعة جدا ، وانهم لم يسمعوا منه شيئا محالا قط قبل ان يدعي النبوة .

وبعد ان تدبر مزدك هذا ، أمر خدمه بأن يشرعوا بحفر نفق يبدأ من نقطة ما الى أن ينتهي تدريجيا ببيت النار على أن ينفذ الشق من وسط النار نفسها .

---

(١) ذهب عباس اقبال الى أن أغلب روايات هذا الفصل أسطورية وبعيدة عن الواقع التاريخي، وان اكثرها تهم ألصقها مخالفو مزدك به وبأصحابه ( حاشية ٢ ص ٢٣٨ ) .

(٢) المعطلة : الذين لا يثبتون الباري عزوجل ( مفاتيح العلوم ص ٢٥ ) .

(٣) قباذ ( بالدال المعجمة ) : معرب قباد ( بالدال المهملة ) مثل استاذ ( بالدال المعجمة ) معرب استاد ( بالدال المهملة ) الفارسية . ( انظر : مفاتيح العلوم ٢٥ ومعرب الجواليقي ٢٦٥ ) .

(٤) واستعملت : « الموابذة » أيضا .

بذا أوجد ثقبا صغيرا ينفذ من خلال المعبد ، عند المكان الذي كانت تشعل منه النار تماما . ولما فرغ من انشاء النفق ، ادعى النبوة ، وقال : « انما بعثت لابعث دين زرادشت من جديد . فقد نسي الناس معنى « الزند » (١) و « الاوستا » (٢) ، وهم لا ينفذون أوامر الله كما اتى بها زرادشت ، شأنهم في هذا شأن طائفة من بني اسرائيل اقلعوا عما جاء به موسى ، عليه السلام ، من اوامر الله — عز وجل — ونواهيه في التوراة ، فأرسل الله عز وجل نبيا بحكم التوراة ايضا (٣) ، ليزيل الخلاف بين بني اسرائيل ، ويعيد حكم التوراة من جديد ، ويهدي الخلق الى صراط مستقيم . والان ارسلني الله تعالى لابعث الدين الزرادشتي ، واهدي الناس الى سبيل الحق والصواب » .

وتناهى كلام مزدك هذا الى سمع الملـك قباذ . وفي اليوم التالي ، استدعى قباذ الموبذين والاعيان ، وجلس للمظالم ، ثم استدعى مزدك ، وقال له على رؤوس الاشهاد : « ألنت تدعي النبوة ؟ » . قال : « اجل ، وقد بعثت لتقويم الدين الذي جاء به زرادشت بعد ان افسده مخالفونا ، وادخلوا فيه الشبهات ، ولأوضح معاني الزند والاوستا التي تخبط الناس في فهمها وادراكها » . فقال قباذ : «وما معجزتك». قال مزدك : « معجزتي انني انطق النار التي هي قبلتك ومحرابك ، واسأل الله ، عزوجل ، أن يأمر النار لتشهد على نبوتي بنحو يسمعه الملك وكل من معه » . فقال الملك : « يا عظماء ايران وموابذتها ، ما تقولون بما يقول مزدك ؟ » . قالـوا : « انه يدعونا اولا الى ديننا وكتابنا ، وهو لا يخالف زرادشت في هذا ، ثم ان في الزند والاوستا اقوالا لكل منها عشرة معان ، ولكل موبذ وحكيم فيها راي وتفسير خاص ، لكن قد يأتي مزدك بتفاسير احسن وعبارات ابين وافضل . اما ما يدعيه من انه ينطق النار التي تعبد ، فشيء عجيب حقا وليس في طاقة آدمي . والراي ما يراه الملك » . حينذاك ، قال قباذ لمزدك : « ان تنطق النار اشهد لك بالنبوة » . قال مزدك : « ليعين الملك موعدا يأتي فيه ومعه العظماء والموبذون الى المعبد ، ليرى ان الله عزوجل ينطق النار بدعائي ، وان يشأ فليأت اليوم ، وفي هذه الساعة » . قال قباذ : « موعدنا جميعا المعبد غدا » .

وفي اليوم التالي ، ارسل مزدك احد غلمانه الى الثقب ، وقال له : « عليك كلما سمعتني ادعوا الله بصوت عال ، ان تتقدم وتقف تحت الثقب وتقول : ان صلاح عباد الله بأرض ايران بما يقول مزدك ، ففيه سعادتهم في الدنيا والاخرة » .

---

(١) الزند : شرح الاوستا وتفسيرها باللغة البهلوية في عهد الساسانيين . وقيل هو الكتاب الذي اظهره مزدك وزعم ان فيه تأويل الاوستا . ونسب اصحاب مزدك الى « زنـد » فقيل « زندي » ، وعربت الكلمة فقيل للواحد « زنديق » وللجماعة زنادقة ( مفاتيـح العلـوم ص ٣٦ ) .

(٢) عربت كلمة « الاوستا » بـ « الابستا » . وهو كتاب المجوس الذي جاء به زرادشـت ( مفاتيح العلوم ص ٣٦ ) .

(٣) اغلب الظن انه يعني هارون أخا موسى عليهما السلام . يقول الله تعالى : « ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا » ( مريم . آية ٥٣ ) .

وجاء الملك والموبذون الى المعبد ، ونودي على مزدك . فتقدم مزدك ووقف الى جانب النار ، ودعا الله بصوت عال ، وعظم زرادشت ، ثم سكت ، واذا صوت يخرج من خلال النار بالجملة التي ذكرنا . لما سمع الملك ومن معه ذلك تملكهم العجب، ووطن قباذ نفسه على الايمان بمزدك . ثم تركوا المعبـد .

واخذ قباذ بعد ذلك ، يقرّب اليه مزدك اكثر فأكثر يوما بعد يوم الى ان آمن به في النهاية ، ثم أمر بعمل كرسي ذهبي مرصع بالجواهر له ، يوضع على سده قاعة العرش . فكان الملك يجلس على سرير ملكه ، ومزدك على كرسيه فيبدو اكثر ارتفاعا مـن الملك .

وشرع الناس يدخلون في مذهب مزدك ، منهم من دخله عن رغبة ورضـى ، ومنهم من دخله ارضاء للملك ، ومنهم من أموا العاصمة من الولايات والاطراف ودخلوا في مذهب مزدك سرا وعلانية . غير أن أكثر العظماء والرعية والجيش ، لم يرغبوا في مذهب مزدك ، لكنهم لم يجرؤوا على قول شيء احتراما للملك . أما الموبذون ، فلم يعتنق احد منهم مذهب مزدك ، وقالوا : « لننتظر ما سيطلع علينا به مزدك من الزند والاوستـا » .

لما راى مزدك ان الملك دخل في مذهبه ، وان الناس — من بعيد وقريب — قبلوا دعوته ، طرح مسألة الاموال على بساط البحث ، وقال : « ان الاموال يجب ان توزع بين الخلق ، فكلهم عباد الله ، وابناء آدم . يجب ان ينفقوا من أمـوال بعضهم على كل ما يحتاجون اليه ، حتى يتساوى الجميع ، وحتى لا يظل ثمة احد معوزا محتاجا » .

ولما اقنع مزدك قباذ واتباع مذهبه بهذا ، ورضوا باباحة الاموال ، قال : «ان نساءكم كأموالكم ، يجب ان تعدوا نساءكم مثل اموالكم ، فكل من يرغب في اية امراة فليواصلها . ليس في ديننا غيرة وحمية ، حتى لا يظل احد دون نصيب من لـذات الدنيا وشهواتها ، وحتى تفتح أبواب الآمال والاماني على مصاريعها » . وزاد اقبال الناس — والعامة خاصة — على مذهب مزدك رغبة في اباحة النساء . ثم سـن مزدك قانونا يقضي بأنه اذا ما استضاف شخص عشرين رجلا في بيته ، واعد لهم الطعام والخمر ، ويسر لهم مجلس غناء وطرب وكل مقتضيات الضيافة ، فعلـى الضيوف ان ينهضوا واحدا واحدا ويواصلوا زوجه دونما عيب او حرج .

وجرت (١) العادة انه ما أراد شخص ان يدخل منزلا ليواصل امراة ان يضع قلنسوته على باب المنزل ، ثم يدخل حتى اذا ما جاء اخر للغرض نفسـه ، ورأى القلنسوة على الباب ، يرجع ادراجه لانه يدرك ان ثمة شخصا في شغل .

* * *

---

(١) حذف الدكتور جعفر شعار هذه الفقرة لبذائتها ، لكنني ترجمتها عن نسختي دارك وعباس اقبال مراعاة لامانـة الترجمة .

وأرسل أنوشروان رسولا الى الموبذين سرا ، وقال : « لماذا هذا الصمت المطبق ؟ ولم لا تتكلمون شيئا في أمر مزدك ، وتنصحون والدي : فأي محال هذا الذي الزم به نفسه حتى صار فريسة مكر هذا الويش الطرار (١) وغدره ؟! لقد افنى هذا الكلب — مزدك — أموال الناس ، وهتك ستر حرمهم واعراضهم ، وهيمن على عوامهم . قولوا لي : بأي حجة يفعل هذا ، ومن ذا الذي امره به ؟ ان تلوذوا بالصمت اكثر ، فانكم تعرضون اموالكم للنهب ونساءكم للهتك ، وملكنا للزوال . هبوا جميعا ، واذهبوا الى والدي ، واطلعوه على حقيقة الحال ، وانصحوه . ثم ناظروا مزدك ، وأنعموا النظر فيما يورد من حجج » . ثم بعث ايضا برسائل الى عظماء الرجال ومشهوريهم سرا ، تقول : « لقد غلب على والدي هوس فاسد ، فأخل عقله ، الى انه اضحى لا يميز ما ينفعه مما يضره . لتسعوا جادين في معالجته وتقويمه ، ولتحذروا الاصغاء الى كلام مزدك ، والعمل بما يقول ، ولا تنخدعوا مثلما انخدع ابي . ان هذا لباطل والباطل لا اساس له ، ولا نفع لكم فيه غدا » .

وخشي العظماء كلام أنوشروان وتهديده ، وتراجع له بعض من كانوا ينوون الدخول في مذهب مزدك ، وقالوا : « لننظر الام يصير امر مزدك . انى لأنوشروان هذا الكلام ؟ » . وكان عمر أنوشروان في هذا الوقت ثمانية عشر عاما .

واتفق الموبذون فيما بينهم ، وذهبوا الى قباذ ، وقالوا له : « اننا لم نقرا منذ عهد آدم ، عليه السلام ، الى الآن — في أي تاريخ من التواريخ — ، ولم نسمع عن أي نبي ممن ظهروا في بلاد الشام بمثل هذا الذي يدعي مزدك . يبدو لنا انه منكر » . قال قباذ : « كلموا مزدك في الموضوع لنرى ما يقول » . فاستدعى الموبذون مزدك ، وقالوا له : « ما حجتك على ما تدعيه ؟ » . قال : « كذا أمر زرادشت ، وجاء في الزند والاوستا ، غير ان الناس لا يعونه . فان كنتم في ريب من امري فاسألوا النار » . وذهبوا الى النار مرة اخرى وسألوها ،فخرج من خلالها صوت يقول : « الامر على ما يقول مزدك ، لا على ما تقولون أنتم » . واعترى الموبذين الخجل مرة اخرى ، وعادوا ادراجهم . وفي اليوم التالي ، تابلوا أنوشروان وشرحوا له الامر . فقال : « ان مزدك ، انما يلاقي نجاحا لان مذهبه هو مذهب المجوس بكل معانيه الا في امرين » .

وبعد مضي سنة على هذا الكلام ، سأل قباذ مزدك في خلال حديث جرى بينهما ، فقال : « ادخل الناس في هذا المذهب راغبين فيه ؟ » . قال مزدك : « لو قبل أنوشروان هذا المذهب ولم يتمرد عليه ويمنعهم من دخوله ، لدخلوا فيه دفعة واحدة » . قال قباذ : « أوليس هو على هذا المذهب ؟ » . قال مزدك : « لا » . قال قباذ : « اليّ بأنوشروان » وجيء بأنوشروان ، فلما رآه قباذ قال له: « الست على مذهب مزدك ؟ » قال أنوشروان : « كلا ، والحمد لله » . قال قباذ : « لماذا ؟ » قال أنوشروان : « لانه طرار محتال » قال قباذ : « أي محتال ينطق

---

(١) الطرار : اللص ، النشال الذي يشق كم الرجل ويسل ما فيه ، من الطر ، وهو القطع والشق ( اللسان — طرر ) .

النار ؟ » . قال أنوشروان : « ثمة اربعة اشياء متضادة ، لا لون لها : الماء والنار والتراب والهواء . قل له بأن ينطق الماء والتراب والهواء مثلما انطق النار لأؤمن به ». قال قباذ : « ان كل ما يقول مزدك يستمده من تفسير الزند والاوستا » . قال أنوشروان : « ان الذي جاء بالزند والاوستا لم يدع الى اباحة الاموال والنساء ، ولم يقل بتفسيره احد من الحكماء في السنوات المنصرمة كلها . ما الدين الا لصيانة الاموال والنساء . فاذا ابيحا ، فأي فرق يبقى ثمة بين الانسان والحيوان ؟ ان البهائم هي التي تتساوى في الرعي والضراب لا الناس العقلاء ! » . قال قباذ : « ليكن ، ولكن كيف تخالفني وانا أبوك ؟! » . قال أنوشروان : « لقد تعلمت هذا منك ، والا فلم تكن هذه عادتي من قبل . خالفتك بعد ان رأيتك خالفت والدك . اعرض عن هذا ، لأعرض انا عنه ايضا » ..

وانتهى الجدال بين الثلاثة بأن قال قباذ ومزدك لأنوشروان بكل بساطة : « هات دليلا ترد فيه هذا المذهب وتبطل دعوى مزدك ، أو ايت بمن حجته اقوى من حجة مزدك واصح ، والا ستنال جزاءك لتكون فيك عبرة للآخرين » . قال أنوشروان : « امهلاني اربعين يوما اقدم بعدها حجتي ، أو آتي بشخص يتصدى لجواب مزدك ». قالا : « لك هذا » . وتفرقوا على هذا الاساس .

لما عاد أنوشروان من عند ابيه ، ارسل في اليوم ذاته رسولا الى مدينة « جول » (١) بفارس يحمل رسالة الى موبذ حكيم طاعن في السن كان يقطن تلك المدينة . تقول الرسالة : « احضر بأقصى سرعة ، فقد جرى بيني وبين الملك ومزدك كذا وكذا » .

ولما انقضت الاربعون يوما ،جلس قباذ للناس ، واعتلى سرير الملك . وجاء مزدك فمضى الى سدة العرش ، وجلس على كرسيه . وأمر الملك باحضار أنوشروان ، ثم قال مزدك لقباذ : « سله عما اتى به الينا من جواب » . قال قباذ « بم أتيت ؟ ادل به » . قال أنوشروان : « ما ازال بصدد هذا » . قال مزدك : « لات حين تدبير . مر بمعاقبته » . ووجم قباذ . اما مزدك فأشار بأخذ انوشروان . ولما اتجه من امروا بأخذه نحوه ، ضرب بيده على زاوية الايوان (٢) ، وقال لأبيه : « يا لها من عجلة هذه التي استحوذت عليك في القضاء على أسرتك بنفسك !! ان الاجل المضروب بيننا لم ينته بعد » . قال : « وكيف ؟ » . قال أنوشروان : « لقد سألتكما اربعين يوما كاملة فيها هذا اليوم . فحين ينقضي تستطيعان ان تفعلا ما يحلو لكما » . وصاح قادة الجيش والموبذون قائلين : « حق ما يقول . لقد كان

---

(١) معرب « كول » التي جاءت بهذا الشكل في النسخ الثلاث . وقد رأى عباس اقبال ( حاشية ، ص ٢٤٣ ) وتابعه دارك وشعار ان ليس في فارس مدينة معروفة بهذا الاسم ، بل ربما تكون معرفة عن « كور » ( جور ) او فيروز آباد الحالية . فقد كان فيها معبد معروف . ( راجع تعليقات دارك ص ٣٤٣ والمصادر التي اعتمدها . ثم انظر في جور : معجم البلدان ، وبلدان الخلافة الشرقية ص ٢٩١ ) .

(٢) الايوان : فارسية معربة .

الاتفاق على أربعين يوما ، لا تسعة وثلاثين » . قال قباذ « ليطلـق سراحه هـذا اليوم » . ورفعت الايدي عن أنوشروان ، فنجا من براثن مزدك .

ولما ترك قباذ المجلس ، وتفرق الحضور ، وعاد مزدك ، ومضى أنوشروان الى بيته ، وصل الموبذ الذي أرسل انوشروان في طلبه من فارس على بعير جماز ، والذي كان يسأل الناس الى ان اهتدى الى منزل انوشروان . ونزل عن بعيره ، فدخل المنزل بسرعة ثم اسر الى احد الخدم بقوله : « اذهب ، وقل لأنوشروان : لقد وصل موبذ فارس ، وهو يريد ان يراك » . فدخل الخادم الحجرة بسرعة واخبر انوشروان .

وخرج انوشروان لفرحه من الحجرة مسرعا وعانق الموبذ ، وقال : « اعلم ايها الموبذ انني نجوت اليوم من قبضة الموت » . ثم اطلعه على كل ما جرى . فقال الموبذ : « هوّن عليك ، فالامر على ما قلت انت ، فأنت على الحق ، ومزدك على الباطل . سأتولى جواب مزدك عنك ، واجعل قباذ يندم على ما فعل ، وأعيده الى سواء السبيل . لكن ، عليك ان تسعى الآن وتيسر لي — بأية وسيلة — مقابلة الملك قباذ ، قبل ان يعلم مزدك بقدومي » . قال أنوشروان : « هذا مطلب يسير ، سأقوم بما يمكنك من مقابلة الملك وحيدا الليلة » .

ومع صلاة العصر ، مضى انوشروان الى قصر ابيه وطلب مقابلته . فلما رأى اباه اثنى عليه ، وقال : « لقد وصل الموبذ الذي سيتولى اجابة مزدك من فارس ، وقد طلب اليّ ان التمس من الملك بأن يتفضل وحيدا الليلة بالاستماع الـى كلامه والنظر في حجته . ثم يأمر بما يراه مناسبا بعد ذلك » . فقال قباذ : « حسن جدا . احضره » .

وعاد أنوشروان ، ولما جنّ الليل ، مضى بالموبذ الى الملك . فحيا الموبذ قباذ واطراه واثنى على آبائه الصيد ، وقال له : « لقد غلط مزدك ، فنبوته كاذبة وادعاؤه باطل » . قال الملك : « كيف ؟ » . قال الموبذ : « انني اعرفه جيدا ، واعرف مدى علمه . انه على معرفة بشيء من علم النجوم ، لكنه اخطأ في تقديره لاحكامها وتنبوئه بها . ان « الاقتران » (١) الحالي ينبىء بأنه سيظهر رجل يدعي النبوة ، ويأتي بكتاب ومعجزات غريبة ، ويشق القمر نصفين (٢) ، ويدعو الناس الى عبادة الله ، ويجيء بدين حق طاهر ، ويبطل المجوسية وكافة المذاهب الاخرى ، ويبشر بالجنة ، ويتوعد بجهنم ، ويحمي ، بحكم الشرع ، الاموال ، ويصون النساء ويحصنها ، ويتبرأ من الشيطان ، ويتلقى الوحي من جبريل — عليه السلام — ، ويخرب بيوت النار والاوثان ، ويبث دينه في ارجاء الارض فيبقى الى يوم الدين ، وتشهد السموات والارض على نبوتـه .

---

(١) الاقتران او « القران » ( بكسر القاف ) : هـو اجتماع زحل والمشتـري ، خاصة ، اذا اطلقت ، فاذا عني قران كوكبين اخرين قيد بذكرهما ( مفاتيح العلوم ١٣٤ ) .

(٢) اشارة الى الاية الكريمة : « اقتربت الساعة وانشق القمر » ( القمر ، اية ١ ) .

لقد منى مزدك نفسه بذلك ، وخيل له انه ذاك الرجل ولا احد غيره . في حين ان ذلك الرجل — أولا وقبل كل شيء — عربي ومزدك اعجمي ، وانه ينهي الناس عن عبادة النار وينكر زرادشت ، ومزدك يحذو حذو زرادشت ويدعو الى عبادة النار ايضا . ان ذلك النبي لا يبيح لاحد حتى النظر الى حرم الآخرين ، او اخذ ولو ذرة صغيرة من اموالهم ، انما يأمر بقطع اليد بدرهم فضة بغير حق ، اما مزدك فقد اباح النساء والاموال . ثم ان ذلك النبي يتلقى الامر من السماء ويوحى اليه عن طريق جبريل — عليه السلام — ، أما مزدك فيتحدث بوحي من النار . كما ان ذلك سيأتي بكتاب جديد ، أما مزدك فلا يصدر الا عن الزند والاوستا .

وخلاصة الامر ، ان مذهب مزدك لا اساس له . سأفضحه امام الملك غدا ، وأثبت انه على الباطل ، وانه لا يهدف الا الى ازالة « الكسروية » عن اهل بيتك ، وتبديد كنوزك ، ومساواتك مع اقل الناس شأنا . فأعجب قباذ بكلام الموبذ ، وهش له قلبه .

في اليوم التالي ، لما جاء قباذ الى المجلس ، وجلس مزدك على كرسيه ، ووقف أنوشروان أمام سرير الملك ، وحضر الموبذون وكبار القوم ، قال الموبذ لمزدك : « اتسأل انت أولا أم أسأل انا ؟ » . قال مزدك : « انا » . فقال الموبذ : « بما انك ستكون السائل وانا المجيب ، فتعال اذن الى مكاني هنا ، لاتحول انا الى مكانك هناك » . فاعترى مزدك الخجل ، وقال : « ان الملك هو الذي اجلسني هنا . سلني أجبك » . قال الموبذ : « لقد ابحت الاموال ! اوليس يبني الناس القناطر ، ويقيمون الربط (١) ، ويفعلون الخير ابتغاء الدار الآخرة ؟ » . فأجاب مزدك : « اجل » . قال الموبذ : « فاذا ما ابيحت الاموال ، فلمن يكون ثواب افعال الخير هذه في الآخرة ؟ » . وعيي مزدك عن رد الجواب . فقال له الموبذ : « لقد ابحت النساء ايضا !! فاذا ما وطيء عشرون رجلا امراة واحدة ، وحملت المراة ، فلمن يكون الوليد ؟ » . وعجز مزدك عن الاجابة ايضا . فأردف الموبذ قائلا : « لقد جئت لتبدد الاموال ، وتقرض النسل مرة واحدة . ان هذا الملك انما هو ملك يتربع على العرش لانه ابن الملك فيروز ، وعنه ورث الملك ، مثلما ورث فيروز نفسه الملك عن أبيه أيضا . فان وطيء زوج الملك عشرة مثلا ، وانجبت ولدا ، فماذا سيقال له ؟ وابن من يكون ؟ اليس هذا استئصال للنسل ؟ فاذا ما استؤصل النسل ، افلا يخرج الملك من هذه الاسرة ؟ اليست تقاس الرفعة والانحطاط بالغنى والفقر ؟ ان يكن الرجل فقيرا ، فلا مناص له — لاحتياجه وعوزه — من أن يخدم الاثرياء ويقوم على امرهم ، وهنا يمتاز العظيم عما دونه منزلة . واذا ما ابيحت الاموال ، فان الرفعة والانحطاط يمحيان من الوجود ، فيتساوى اقل الناس شأنا مع الملوك ، بل تنتفي الملوكية . ولقد جئت انت لتبدد الاموال والملك عن بيوتات ملوك العجم ! » . ولم يحر مزدك جوابا ، ولاذ بالصمت المطبق . فقال له قباذ : « اجبه » . قال مزدك :

---

(١) جمع رباط .

« جوابه ان تأمر الآن بضرب عنقه » . قال قباذ : « لا يمكن ضرب عنق اي شخص دون دليل » . قال مزدك : « لأسأل النار ما تقول ، فانني لا انطق عن الهوى » . اما الناس الذين كانوا في أشد حالات الحزن والالم على أنوشروان ، فانقلبوا فرحين مسرورين لنجاته من القتـــل .

وتغير قباذ على مزدك ، وانقلب عليه بدليل ان مزدك قال له : « اقتل الموبذ » و « اقتل أنوشروان » ، فلم يقتلهما . واما مزدك ففكر في نفسه : ان الحل الوحيد ، وقد كثر اتباعي من الرعية والجيش ، ان اتخلص من قباذ اولا ، ثم اقتل أنوشروان وغيره من المخالفين .

واتفقوا على أن يصيروا جميعا الى المعبد غدا ، ليروا ما تأمر النار ، ثـم انصرفـــوا .

ولما أرخى الليل سدوله ، استدعى مزدك اثنين من اعوانه واتباع مذهبـــه ، واغدق عليهما الذهب ، ونصحهما ، ووعدهما بأنه سيرفعهما الى مرتبـــة القيادة ، واخذ عليهما قسما بأن لا يبوحا بهذا الكلام لاحد . ثـم اعطاهما سيفين ، وقال : « عندما يحضر قباذ الى بيت النار غدا ، ويحضر العظماء والموبذون ، فعليكما ، اذا ما أمرت النار بقتل قباذ ، أن تسلا سيفيكما بسرعة وتقتلاه ، فان أحدا لن يأتي بسيف الى المعبد » . قالا : « سمعا وطاعـــة » .

وفي اليوم التالي ، ذهب قباذ ، وذهب العظماء والموبذون الى بيت النار . لكن موبذ فارس ، قال لأنوشروان : « مر عشرة من رجالك بأن يخفوا سيوفهم تحت البستهم ويأتوا معك الى بيت النار مخافة ان يكون مزدك قد بيَّت غدرا ومكرا » . فنفذ أنوشروان هذا ، ومضى الى المعبـــد .

وكان مزدك ، كلما اراد الذهاب الى بيت النار ، يلقن تلميذه ما يقول من تحت الثقب . فلقنه ما يقول هذه المرة ايضا ، ومضى الى هناك ، ثم قال لموبذ فارس : « سل النار لتتحدث اليك » . ومع كثرة سؤال الموبذ النار ، فانها لم تجبه . حينئذ ، خاطب مزدك النار بقوله : « احكمي بيننا ، واشهدي على صدق دعواي »ـــ. فارتفع من خلال النار صوت يقول : « لقد دب الضعف اليَّ مذ أمس ، اطعموني أولا من قلب قباذ وكبده لأزداد قوة ، ثم اقول لكم ما ينبغي فعله . ما مزدك الا هاديكم الـــى الراحة الابدية الخالدة » . فقال مزدك : « قووا النار واطعموها » . فشرع ذانك الرجلان سيفيهما ، واتجها صوب قباذ . فقال موبذ فارس لأنوشروان : « حذار ». فتقدم أنوشروان برجاله العشرة بسيوفهم المستلة واعترضوا سبيل ذينك الرجلين ، ولم يمكناهما من ان ينالا قباذ بالسيف . فصاح مزدك : « انما تنطق النار بأمر الله ». وانقسم الناس فريقين ، قال احدهما : « ألقوا قباذ في النار حيا او ميتا » . وقال الآخر : « ينبغي التريث في الامر ، حتى نفكر فيه اكثر وافضل » . وعادوا في نهاية ذلك اليوم ، وكان قباذ يقول : « لربما انني اقترفت ذنبا حتى ان النار تريد ان تتقوى مني . انه لأحب اليَّ ان اصطلي بنار الدنيا على ان اتلظى بنار جهنم » .

واجتمع موبذ فارس بقباذ على حدة مرة اخرى ، وحدثه عن الملوك والموبذين القدامى ، وأورد ادلة من كل المذاهب ، وعرض حججا شتى مؤداها ان : « ليس

مزدك بنبي ، بل خصم الاسرة المالكة . دليل ذلك انه اراد قتل أنوشروان أولا ، ولما لم يحالفه التوفيق والظفر تحول اليك . ما الذي ادخل في روعك ان الصوت ينبعث من النار ؟ افتكلمت النار قبلا حتى تنطق الآن ؟ سأعمل جهدي لكشف هذه الحيلة ، وابين للملك أهي النار التي تتكلم أم شخص اخر ! » وهكذا جعل الموبذ الملك يندم على ما فعل . ثم قال له ايضا : « لا تحسبن انوشروان طفلا . ان باستطاعته ان يحكم العالم ويسوده ، فاذا ما اردت دوام الملك وبقائه في أسرتك ، فلا تفوّت عليه أي رأي يراه . واياك ان تفضي الى مزدك بمكنونات قلبك وأسراره » .

ثم قال الموبذ لأنوشروان : « يجب ان تسعى الى استمالة احــد خدم مزدك وغلمانه وتغريه بالمال ، فلربما أطلعنا على حقيقة امر النار ، حتى نتمكن من اقتلاع جذور الشك من قلب ابيك دفعة واحدة » . واستطاع أنوشروان ان يعثر على شخص تمكن من ان يصادق احد خدم مزدك ، وان يأخذه الى أنوشروان بحيلة من الحيل . فجلس اليه انوشروان وحيدا ، ونثر أمامه ألف دينار ، وقال : « اني سائلك شيئا ، فان تصدقني الجواب ، امنحك هذه الالف دينار حالا ، واجعلك من مقربي ، وابوك منزلة رفيعة ، والا افصل راسك عن جسدك الآن » . فخاف الرجل ، وقال : « ان اصدقك القول ، اتفي بما قلت ؟ » . قال انوشروان : « أفي به واكثر » . قال الرجل : « اقول اذن » . قال أنوشروان : « قل لي ما الحيلة التي لجأ اليها مزدك في انطاقه النار ؟ » . قال الرجل : « ان اقل الصدق ، افتستطيع ان تحميني وتحفظ سري ؟ » . قال انوشروان : « استطيع » قال الرجل : « أعلم ان بالقرب من بيت النار قطعة ارض اشتراها مزدك ، وأحاطها بأربعة جدران عالية ، وأقام من هناك نفقا يمتد الى ما تحت النار في المعبد ، وأوجد ثقبا صغيرا جدا في وسط النار. وكان يرسل تلميذا له في كل مرة ويلقنه : « امش الى تحت النار ، وضع فمك على الثقب ، وقل كذا وكذا ... » . فكان كل من يسمع ذلك يظن ان النار هي التــي تتكلـــم » .

لما سمع انوشروان هذا الكلام من الرجل ايقن انه صحيح . فغمرته الفرحة ، ووهب الرجل الالف دينار . ولما سجى الليل ، مضى انوشروان بالرجل الى ابيه ليعيد على مسامعه ما قال له . فعجب قباذ جدا لاحتيال مزدك وتجاسره ، ونفض عن قلبه الشك دفعة واحدة . واحضر انوشروان الموبذ حالا ، فأثنـــى عليه قباذ وحياه ، ثم اطلعاه على حقيقة الحال . فقال الموبذ : « لقد قلت لموالي ، ان هذا الرجل محتال » . قال قباذ : « لقد اتضح هذا . لكن ، كيف السبيل الى اهلاكه ؟». قال الموبذ : « ينبغي الا يعلم انك قد ندمت ، وانك على علم واطلاع بحيلته . ادع الى اجتماع اخر اناظره فيه أمام من في المجلس جميعا ، والقـــي في نهايـــة المطاف ترسي ، واقر بعجزي ، ثم أعود الى فارس . بعد ذلك ، ينبغي تنفيذ كل ما يقول به انوشروان ويراه صوابا ، حتى يتم استئصال هذه الطينة الخبيثة ومحوها » .

بعد عدة ايام ، أمر الملك قباذ بحضور كبار رجال مملكته وموبذيها لمساندة موبذ فارس ، ومناظرة مزدك ، وتأمل دعوته مليا . وفي اليوم التالي ، حضر الجميع. وجلس الملك على سريره ، ومزدك على كرسيه ، وأدلى كل شخص بما عنده .

أما موبذ فارس فقال : « اني لأعجب من امر تكلم النار ! » . قال مزدك : ( لا يجوز العجب من قدرة الله وفعله . الم تر ان موسى عليه السلام جعل من عصاه حية ، وفجر من الحجر اثنتي عشرة عينا ، وقال : « لأغرقن فرعون وجنوده » (١) ؟ فأغرق ، وسخر الله ــ عزوجل ــ الارض له ، فقال : « يا أرض ابلعي قارون » فخسف به الله الارض (٢) . والم تر ان عيسى ــ صلوات الله عليه ــ كان يحيي الموتى (٣) ؟ كل هذه الاشياء ليست في قدرة بشر ، بل هي من قدرة الله عزوجل » . وهكذا شأني ، فقد ارسلني الله ، وسخر لي النار ، فان تطيعوا ما اقول وتقول النار وتعملوا به ، تنجوا في الدنيا والآخرة ، وان تعصوا ، فترقبوا عذاب الله وهلاكه » . ونهض موبذ فارس ، وقال : « انني لا اقوى على جواب رجل يتلقى كلامه من لدن الله والنار ، والنار مسخرة بأمره . وهأنذا القي ترسي (٤) أمام شخص لم استطع ان افعل ما فعل ، بل وقفت امامه عاجزا . انني ذاهب ، لان ليست لي الجراة على اكثر من هذا » . وغادر الموبذ مباشرة ، واستلم طريق فارس . وانصرف قباذ من المجلس . أما مزدك فمضى الى المعبد ليقضي سبعة ايام في عبادة النار ، وأما الناس ، فعادوا الى منازلهم ، والفرحة تغمر معتنقي مذهب مزدك منهم خاصة ، فازداد اعتقادهم وايمانهم به رسوخا واستحكاما .

ولما حل الظلام استدعى قباذ انوشروان ، وقال له : « لقد ذهب الموبذ ، واحالني عليك لانك جدير بالقضاء على هذا المذهب . فيما الحيلة الان ؟ » . قال

---

(١) الذي في القرآن الكريم انه أوحي الى موسى ان يضرب بعصاه البحر . قال تعالى : « فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم » ( الشعراء . اية ٦٣ ثم راجع : سورة الاعراف اية ١٣٦ وسورة طه اية ٧٧-٧٨ وسورة القصص اية ٤٠ وسورة الزخرف اية ٥٥ وسورة الذاريات اية ٤٠ ) . غير انه قيل في الاية السابقة ما يلي : « ويقال انه ـ البحر ـ انفلق اثني عشر طريقا ، لكل سبط طريق يسيرون فيه ، حتى قيل انه صار فيه أيضا شبابيك ليرى بعضهم بعضا ! وفي هذا نظر ... » ( أبو الفداء : قصص الانبياء ٢ : ٨١ ـ ٨٢ الطبعة الاولى . القاهرة ١٩٦٨م ) أما قصة الاثنتي عشرة عينا ، فلا علاقة لها بغرق فرعون وجنده . اذ لما جاز موسى ـ عليه السلام ـ ببني اسرائيل البحر الى الشاطىء الشرقي ولم يجدوا ماء لشربهم وسقيا دوابهم ، شكوا الى موسى ، فأمره الله ان يضرب الحجر بعصاه ، فلما ضربه انبجست منه اثنتا عشرة عينا . قال تعالى : « وقطعناهم اثنتي عشرة اسباطا أمما ، وأوحينا الى موسى ، اذ استسقاه قومه ، ان اضرب بعصاك الحجر ، فانبجست منه اثنتا عشرة عينا .... » . ( الاعراف . اية ١٦٠ ) .
( راجع في الموضوع : عبد الوهاب النجار ، قصص الانبياء ص ٢١١ مطبعة المدني . القاهرة ١٩٦٦ م ) .

(٢) قال تعالى : « فخسفنا به وبداره الارض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » ( القصص . اية ٨١ ) .

(٣) قال تعالى : « ورسولا الى بني اسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم ، اني اخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فانفخ فيه فيكون طيرا باذن الله . وأبرىء الاكمه والابرص واحيي الموتى باذن الله ... » ( آل عمران . اية ٥٠ ) .

(٤) كناية عن الاستسلام . والاصطلاح الفارسي : « سير بيوكندم » او « سير بيفكم » .

انوشروان : « ان يعهد مولاي بالامر اليّ ، ولا يفضي به الى احد سواي ، فانني لعلى استعداد ان اتكفل به سرا على نحو يتم به طمس بذور مزدك والمزدكية من على وجه الارض » . قال قباذ : « لن أبوح بهذا السر لاحد غيرك ، ولن يجاوزنا نحن الاثنين » . فقال انوشروان : « ما ان اعلن الموبذ عجزه على الملأ ، وعاد الى فارس حتى عمت الفرحة مزدك والمزدكيين ، وقويت قلوبهم ، فقالوا : « سيتحقق لنا بعد الآن ، كل ما نفكر فيه ونوطن العزم عليه » . ان قتل مزدك سهل جدا ، ولكن اتباعه كثر . فان نقتله ، يفر المزدكيون وينتشروا في بقاع الارض ويبداوا في دعوة الناس الى مذهبهم ، ويستولوا على الجبال استيلاء محكما، فيسببوا لنا ولملكتنا المتاعب والمشكلات . يجب ان نفكر في حل لا ينجو معه من سيوفنا احد منهم ، بل نهلكهم ونبدد شملهم جميعا » . فقال قباذ : « ما الطريقة الافضل في نظرك ؟ » . قال انوشروان : ( ما اراه هو ان يرفع الملك من منزلة مزدك ، ويقدره اكثر مما هو عليه الآن ، بعد ان يخرج من فترة تعبده ويمثل بين يديه .ثم يقول له — في خلال حديثه معه — عندما يختلي به : « ان أنوشروان قد لانت عريكته منذ ذلك اليوم الذي استسلم فيه موبذ فارس واقر بعجزه ، وهو الآن يوطن عزمه على الايمان بك ، ويعض اصابعه ندما على اقواله السالفة » . ولنر ما يقول ) .

ولما مثل مزدك بين يدي قباذ في ذلك الاسبوع ، اكرمه جدا وبجله وابدى له تواضعا جما ، ثم اخبره بما قال أنوشروان . فقال مزدك : « ان اكثر الناس يتلفتون الى اعمال انوشروان ، ويصغون الى اقواله . فحين يعتنق هذا المذهب المختار ، فسيدخله الناس كافة . ولقد تشفعت الى النار ، ودعوت الله تعالى بأن يجعل هذا المذهب نصيبا لانوشروان ورزقا » . قال قباذ : « اجل . ان انوشروان ولي عهدي ، وان الرعية والجيش يحبونه جدا . ففي الوقت الذي يدخل فيه في مذهبنا ، لن تبقى للناس اية حجة . انني لاعاهد الملة على ان اقيم لك انذاك منارة حجرية في وسط دجلة على راسها جوسق (١) ذهبي اسطع من الشمس مثلما شاد كشتاسب (٢) لزرادشت جوسقا من ذهب على سروة كشمر » (١) . فقال مزدك

---

(١) الجوسق : فارسي معرب عن « كوشك » ، وهو القصر ، وكل بناء رفيع عال ، وقيل الحصن. قال النعمان بن عدي بن نضلة نانضيلة – من بني عدي بن كعب والي عمر بن الخطاب على ميسان ( بين البصرة وواسط ) من ابيات ليعزله عمر :

لعل امير المؤمنين يسؤوه    تنادمنا في الجوسق المتهدم

( معرب الجواليقي ٩٦ – ٩٧ ) .

(٢) معرب كشتاسب . وعرب أيضا على « كيشتاسب » ( مفاتيح العلوم ٦٤ ) وعلى « بشتاسب » و « بشتاسف » ( فرهنك فارسي ) .

وهو كشتاسب بن لهراسب الملك الكياني . كان يرغب في انتزاع الملك من والده ، ولما لم يتسن له ذلك ، مضى الى بلاد الروم وتزوج من ابنة القيصر . ثم عاد الى ايران وتولى الملك . وفي السنة الثلاثين لحكومته ظهر زرادشت ، فقبله وامن به مما ادى الى ظهور العداء بين الكيانيين والتورانيين ( فرهنك فارسي ) وقد ذكر الفردوسي كشتاسب

لقباذ : « انصحه انت ، وانا ادعو له الله ، واني لعلى يقين من استجابة الدعاء ».

ولما اطبق الليل اطلع قباذ انوشروان على كل ما جرى . فقال انوشروان : ( ايدع مولاي مزدك بعد اسبوع ويقل له : لقد راى انوشروان رؤيا ارعبته ليلة امس ، اذ جاءني مع تباشير الصباح الباكر ، وقال : « اني رأيت في المنام ان نارا عظيمة تتقدم مني فرحت ابحث عن ملجأ ، واذا شخص وسيم الصورة يتقدم نحوي ، فقلت له : ما تريد النار مني ؟ قال : ان النار غاضبة عليك ، لانك كنت تعدها كاذبة . قلت : انى تعلم انت هذا ؟ قال : الوحي — جبريل — يعلم كل شيء . وأفقت من نومي ، وهأنذا ماض الان الى بيت النار » . ومضى يحمل معه شيئا من المسك والعود والعنبر ليلقي بها في النار ، ويتعبد عندها ثلاثة ايام بلياليها ، ويتضرع الى الله ) . واخبر قباذ مزدك بما قال انوشروان. ونفذ انوشروان ما أخذ نفسه به أيضا . ففرح مزدك فرحا عظيما .

وبعد مرور أسبوع واحد على هذا الحديث ، طلب انوشروان الى ابيه ان يقول لمزدك بأن انوشروان قال لي : ( لقد تبين لي بوضوح ان هذا المذهب حق ، وان مزدك رسول الله . انني سأعتنق مذهبه وانضم اليه ، غير ان ما يشغل بالي هو ان اكثر الناس يخالفونه . انني اخشى أن يخرجوا ويتألبوا علينا ، وينتزعوا الملك من ايدينا عنوة . ليتني ادري ما عدد اتباع هذا المذهب ومن هم . ان يكونوا

---

= واخباره في الشاهنامة ( راجع : الترجمة العربية ۱ : ۳۱۱ – ۳٦۹ ) كان لقب كشتاسب الهربذ ( بكسر الهاء وسكون الراء ) أي عابد النار . لقب به لان زرادشت أتاه بالمجوسية فقبلها . ( مفاتيح العلوم ٦٤ ) .

(۱) كشمر ( بكسر الكاف وسكون الشين ) او كاشمر : قرية من قرى اقليم قوهستان من اعمال خراسان . ذكرها القزويني باسم « كشم » خطأ ، مثلما ذكرها الثعالبي باسم « كشمير » . اما سروة كشمر ، فقصتها طويلة ومعروفة في التراث الفارسي . يقال انها احدى سروتين امر زرادشت صاحب المجوس بفرسهما . اما الاخرى فسروة « فريومد » ( من اعمال سبزوار ) . ومع هذا ، فقد اختلف فيمن غرس السروة . فقيل ان زرادشت هو الذي غرسها تخليدا لاعتناق كشتاسب المجوسية . وقيل ان كشتاسب هو الذي غرسها ، بل غرس الشجرتين . ويقال ان سروة كشمر كانت شجرة عظيمة جدا لم ير مثلها في عظمها ، حتى انها حالت دون وصول ضرر الزلازل الى كشمر . ذكرها صاحب الشاهنامة ونفر من الشعراء الفرس .

ويذكر ان الخليفة المتوكل امر بقطع هذ هالسروة العظيمة في عام ۲٤۷هـ وحملها قطعا على الجمال لرؤيتها واستعمالها في بناء قصر « الجعفرية » بسامراء ، فقطعت ولم تجد شفاعة الشافعين وتضرعهم . لكنها لما وصلت الى ضفاف دجلة كان المتوكل قد لقي حتفه غيلة على يد ابنه ، فقال علي بن الجهم :

فال سرى بسبيله « المتوكل » فالسرو يسري ، والمنية تنزل
ما سربلت الا لان امامنا بالسيف من اولاده متسربل

( راجع في سروة كشمر : نزهت القلوب ۱۸۳ ومدزيسنا وتأثير آن در ادبيات بارسي ۳۳۹ – ۳٤۳ وثمار القلوب للثعالبي ٥۹۰ – ٥۹۱ واثار البلاد للقزويني ص ٤٤٦ وبلدان الخلافة الشرقية ۳۹٥ ) .

على ما نبغي من عدد وعدة ، فبها ونعمت ، والا لاتريث حتى تشتد عودهم ، ويقوى ساعدهم ، ويكثر عددهم . وسأمدهم بما يحتاجون اليه من مؤونة وسلاح وعتاد . وحينئذ نظهر المذهب في اتم قوته ، ونفرضه على رقاب الناس عنوة وبحد السيف . فان يقل مزدك : « ان عددنا كثير » .قل له : « أعد جريدة (١) بأسماء اتباع المذهب جميعا لنعرضها عليه ــ اي أنوشروان ــ ، ليزداد قلبه بأسا وجراة ، ولكي لا تبقى له ثمة ذريعة يتذرع بها » . فبهذا نستطيع ان نعرف عدد المزدكيين ، ومن هم الذين دخلوا في مذهب مزدك ) .

ونقل قباذ هذا الكلام الى مزدك ، ففرح واستبشر ، وقال : « لقد اعتنق هذا المذهب خلق كثير » . فقال قباذ : « أعد جريدة بأسمائهم حتى لا يبقى ــ كما قلت ــ لأنوشروان اي عذر » . واعد مزدك الجريدة المطلوبة واتي بها قباذ ، فعدهم قباذ ، فاذا هم اثنا عشر الف رجل من المدن والقرى والجيش . قال قباذ : « سأدعو انوشروان الليلة ، واعرض عليه الجريدة ، وستكون علامة دخوله المذهب، انني سآمر في الحال بأن ينفخ في الابواق ، وينقر على الطبول والدفوف ، واشيع الفرحة في الخارج وكأنني رزقت طفلا . فاذا ما سمعت اصوات الزمر والنقر فاعلم ان أنوشروان اعتنق هذا المذهب » .

ولما رجع مزدك ، وجنّ الليل ، دعا قباذ أنوشروان اليه ، وأراه جريدة الاسماء واخبره بالعلامة التي اتفق مع مزدك عليها . فقال أنوشروان : « حسن جدا . مر بالنفخ في الابواق ، والنقر على الطبول . وعندما ترى مزدك غدا ، قل له : « لقد استجاب أنوشروان لنا ودخل في مذهبنا بعد أن رأى جريدة الاسماء ، وعرف عدد الاتباع ، وقال : لو كان عددهم خمسة آلاف ، فذا حسبنا ، أما وهم الآن اثنا عشر الفا ، فلا خوف علينا حتى لو صار العالم كله خصمنا . علينا من الآن فصاعدا ان نتداول نحن الثلاثة : مولاي ، ومزدك ، وأنا ، كل شيء معا . ثم ابعث شخصا يستدعيني . وبعد هزيع (٢) من الليل ، سمع مزدك اصوات الابواق والطبول ، فأخذته الفرحة ، وقال : « لقد دخل أنوشروان في مذهبنا » .

و في اليوم التالي ، ذهب مزدك الى قاعة العرش ، فجلس قباذ على السرير ، ونقل كل ما قال أنوشروان . فسر مزدك جدا . ولما تركا القاعة ، جلسا وحيدين ، وبعثا من يستدعي انوشروان اليهما . وحضر انوشروان ومعه تحف وأشياء ذهبية هدية الى مزدك . فوضعها امامه ، ونثر الذهب والدر بين يديه ، واخذ يعتذر اليه عما مضى . ثم تداولوا في كل شيء . وفي ختام حديثهم قال انوشروان لأبيه : « أنت مولى العالم ، ومزدك رسول رب العالمين . فمن الافضل اذن ان توليانى قيادة هؤلاء القوم ، لاعمل ما يجعل كل من ليس في مذهبنا وطاعتنا في العالم ، يقبل هذا المذهب رغبة وطواعية » . فقالا له : « لك ما تريد » . قال أنوشروان : « ان

---

(١) في الحديث : « كتب القرآن في جرائد » . ( اللسان ــ جرد ) . وجريدة هنا بمعنى « فهرس » أو « ثبت » .

(٢) الهزيع من الليل : الطائفة منه نحو ثلثه او ربعه . ( اللسان ــ هزع ) .

هذا الامر يتطلب ان يرسل مزدك رسلا الى اتباع مذهبه في المدن والقرى والاطراف يخبرونهم بأن عليهم ان يعدوا انفسهم من الان ولمدة ثلاثة اشهر للمجيء الى قصرنا جميعا من الاداني والاقاصي في اسبوع كذا ويوم كذا . اما نحن ، فعلينا ان نبدأ منذ الساعة والى ذلك اليوم ، باعداد الوسائل اللازمة لهم من سلاح وركائب ، بحيث لا يدري احد بما نحن فيه البتة . وحين يأزف ذلك اليوم نبسط لهم « خوانا » يتسع لهم جميعا ، بل يزيد . وبعد ان يتناولوا الطعام نحولهم من قصر الى اخر حيث مجلس الشراب ، فيشرب كل واحد منهم سبعة اقداح . وبعدئذ يلبسون الخلع — كل بما يناسبه — خمسين خمسين ، واربعين اربعين ، وثلاثين ثلاثين ، وعشرين عشرين الى أن يتم الباسهم جميعا . ومع حلول الليل ، فمن كان منهم بكامل سلاحه، فبها ونعمت ، أما من لا اسلحة لهم ، فسيفتح لهم « مستودع الاسلحة » (١) على مصراعيه ، ويعطون ما يحتاجون اليه من السلاح والدروع والزرود . ثم نخرج في تلك الليلة نفسها ، فنؤمن كل من يدخل في مذهبنا ، ونقتل كل من يأبى ذلك » .
فقال قباذ ومزدك : « هل على هذا من مزيد ؟ » . وعلى هذا انصرفوا .

وكتب مزدك رسائل الى شتى الارجاء يخبر فيها القاصي والداني بـأن : « عليكم ان تحضروا الى العاصمة في شهر كذا ويوم كذا بكامل اسلحتكم ووسائلكم، وبقلوب قوية ، فالامور في صالحنا ، والملك امامنا وقائدنا » .

وفي اليوم الموعود ، حضر الاثنا عشر الف رجل الى العاصمة ، وصاروا الى قصر الملك حيث راوا خوانا مبسوطا لم ير احد مثله قط . وجاء قباذ ، فجلس على السرير ، وجلس مزدك على كرسيه . اما أنوشروان فوقف مشمرا عن ساعـده بمعنى « انني انا المضيف » . ومزدك يكاد يخرج عن جلده فرحا » .
واخذ أنوشروان يجلس كل واحد منهم الى الخوان حسب منزلتـه الى ان اجلسهم جميعا . وبعد ان فرغوا من تناول الطعام تحولوا الى قصر اخر ، فراوا مجلس انس وطرب لم تر اعينهم مثيلا . وجلس قباذ على السرير ، ومزدك على الكرسي . واجلس الباقون بالترتيب الذي جلسوا فيـه علـى الطعام . وشرع المطربون بارهاف الاسماع ، والسقاة بادارة ابنة الكرم . وبعد ان اديرت الخمر مرتين ، دخل مائتا غلام وفراش يحملون في ايديهم اردية ديباج ومآزر قصب ، ووقفوا في اطراف المجلس ساعة ، امرهم أنوشروان بعدها ان : « المكان غاص هنا . خذوا الثياب الى ذلك القصر ، ليتسنى لنا نقل الضيوف اليه عشرين عشرين وثلاثين ثلاثين لارتداء خلعهم . ومن هناك يذهبون الى ميدان اللعب بالطبطابـة وينتظرون فيه الى ان يلبس الجميع ويأتوا اليه . وآنئذ يتوجه الملك ومزدك الى الميدان لتفقده والقاء نظرة عليه . ثم نأمر بفتح مستودع الاسلحة واحضار السلاح ».
غير أن أنوشروان : كان قد ارسل في اليوم السابق شخصا الى القرى يطلب

---

(١) في الفارسيـة: زراد خانـه .

مائتي رجل وثلاثمائة من المطوعة بمعاولهم ومساحيهم ، لكنس القصور والحدائق والميادين وازالة ما فيها من أوساخ وقاذورات وفضلات ، وتنظيفها . ولما جيء بهؤلاء ، جمعهم انوشروان جميعا في ميدان اللعب بالطبطابة ، وأمر باغلاق بوابته باحكام ، ثم خاطبهم بقوله : « اريدكم ان تحفروا في هذا اليوم وهذه الليلة اثنتي عشرة الف حفرة ، عمق كل منها ذراع ونصف ، وان تبقوا تراب كل حفرة الى جانبها » . ثم أمر الحراس ان يضعوهم في السراي الصغير في داخل الملعب ، بعد ان ينتهوا من الحفر ، والا يسمحوا لأي منهم بالانصراف . وفي الليل سلح انوشروان اربعمائة رجل خبأهم في السراي الصغير هناك ايضا ، وقال لهم : « كلما بعثت بعشرين عشرين ممن في المجلس الى القصر ، خذوهم من القصر الى السراي الصغير ، ومنه الى الميدان ، ثم عرّوهم ، والقوا كلا منهم في حفرة على رأسه الى سرته ، بحيث تبقى ارجلهم تسبح في الهواء ، ثم هيلوا عليهم التراب ، وطأوه بأرجلكم حتى يستحكم وضعهم في الحفر جيدا » .

ولما تحول الموكلون بالالبسة (١) الى القصر الذي أمرهم أنوشروان بالانتقال اليه ، أحضر مئتا جواد بقرابيس الذهب والفضة ، وأحضرت التروس وأنطقة السيوف ايضا . فأمر انوشروان كذلك : « لتؤخذ الى ذلك القصر ايضا » . فأخذت .

ثم شرع انوشروان بانهاض الرجال عشرين عشرين وثلاثين ثلاثين ، وارسالهم الى القصر الآخر حيث كان يتولاهم رجاله ، فيأخذونهم الى الميدان والسراي الصغير الذي فيه ، ثم يلقون بهم في الحفر ، ويهيلون عليهم الاتربة . وهكذا الى ان اهلكوا جميعا . وبعد ان القوا جميعهم في الحفر ، قال انوشروان لأبيه ومزدك : « لقد البس الرجال الخلع جميعا ، ووقفوا في الميدان بانتظام . ألا تنهضان لالقاء نظرة عليهم ، فستريان زينة لم تريا اجمل منها قط !! » . ونهض قباذ ومزدك كلاهما ، وصارا الى القصر الآخر ، ثم الى الميدان والسراي الصغير . وسرّح مزدك نظره ، فلم ير على ارض الملعب في شتى ارجائه سوى أرجل تلعب في الهواء . حينئذ تلفت انوشروان الى مزدك وقال له : « ليست ثمة خلع أحسن من هذه يمكننا ان نخلعها على جيش انت قائده . لقد جئت لتبديد أموال الناس وثرواتهم وهتك نسائهم ، ونزع الملك من بيتنا ! » . ولما كانت قد أتيمت بأمر انوشروان دكة عالية ، وحفرت حفرة في مقدمة الميدان ، امر بأن يساق مزدك الى الدكة ، ويلقى في الحفرة الى صدره واقفا على رجليه ، وصدره ظاهر . وصب الجص من حوله في الحفرة ليظل مصلوبا منتصبا فيه ، ثم قال انوشروان : « انظر الآن الى اتباعك ، وسرّح نظرك فيهم !! » . وقال لابيه بعد ذلك : « ارايت راي العقلاء وتدبيرهم ؟ ان مصلحتك تستوجب الآن ان تلزم القصر مدة الى ان يسكن الغضب عن الجيش والرعية ، لان منشأ هذا الفساد ضعف رأيك وتدبيرك .

---

(١) ترجمة : جامه داران ( تاريخ البيهقي ، الترجمة العربية ، كشاف المصطلحات التاريخية ص ٨٠٠ ) .

واجلس انوشروان اباه في القصر ، وامر باخلاء سبيل القرويين الذين احضروا لحفر الحفر ، وبفتح بوابة الميدان لتدخل جموع الجيش والناس للتفرج والمشاهدة. فأخذت الجموع تنتف لحية مزدك وشاربه الى ان فارق الحياة . ثم وضع انوشروان والده في السلاسل والاغلال ، واستدعى اليه أرباب الدولة وعظماءها ، ثم تبوأ العرش بالحجة والحق ، واطلق يده في العدل والبذل . وبقيت هذه الواقعة ذكرى من ذكرياتـــه .

## الفصل الخامس والأربعون

## خروج سنباذ المجوسي على المسلمين من نيسابور الى الري وفتنته

ومنذ هذه الايام — عهد انوشروان — لم يرفع احد من هؤلاء القوم راسه ، الا ما كان من أمر امراة مزدك « خرمة بنت فاده » التي كانت قد فرت مع رجلين من المدائن الى ضواحي الري واطرافها ، واخذت تدعو الناس ، والرجلان معها ، الى مذهب زوجها سرا الى ان اعتنقه خلق كثير من المجوس . واطلق الناس عليهم لقب « الخرمية » لكنهم كتموا أمرهم ، ولم يجرؤوا على اعلان مذهبهم ، بل طفقوا طوال تلك المدة يفتشون عن حجة يتسترون وراءها للخروج واظهار مذهبهم على رؤوس الاشهاد .

ولما قتل ابو جعفر المنصور الدوانيقي ابا مسلم الخراساني صاحب الدولة ببغداد عام ١٣٧ لهجرة محمد صلى الله عليه وسلم ، كان في نيسابور رئيس مجوسي اسمه سنباذ كانت تربطه بأبي مسلم صحبة قديمة ، وله في عنقه حق صداقة وخدمة سالفتين . فأبو مسلم هو الذي قرّبه ورقاه الى درجة قائد جيش . فما كان من سنباذ بعد قتل ابي مسلم الا ان اعلن تمرده وخروجه ، وتقدم بجيش من نيسابور الى الري ، واخذ يدعو مجوس الري وطبرستان ، لعلمه ان نصف أهل قوهستان والعراق كانوا رافضة ومزدكية . واراد ان يظهر الدعوة ، فعمد أولا الى قتل ابي عبيدة الحنفي عامل المنصور على الري ، واستولى على الخزائن التي كان وضعها ابو مسلم هناك . ولما قوي أمره ، خرج يطلب دم أبي مسلم مدعيا انه رسوله الى اهل العراق وخراسان ، وزعم : « ان ابا مسلم لم يقتل ، لكنه لما همّ المنصور بقتله ، دعا اسم ربه الاعلى ، عزوجل ، فصار حمامة بيضاء ، وطار من بين يديه . انه الآن في حصن من نحاس ، ومعه المهدي ومزدك ، وسيظهرون

ثلاثتهم ، يتقدمهم ابو مسلم ، ومزدك وزيره . ولقد وصل اليّ قاصد برسالة من ابي مسلـــم » .

فما ان سمعت الرافضة اسم المهدي ، وسمع المزدكيون اسم مزدك ، حتى التف حول سنباذ من الرافضة والخرمية خلق كثير . فعظم شأنه ، وتفاقم امره ، اذ وصل عدد اتباعه الى اكثر من مئة الف شخص بين خيال وراجل . وكان كلما اختلى بالمجوس ، يقول لهم : « لقد آذنت دولة العرب بالافول ، هذا ما عثرت عليه في احد كتب الساسانيين . لن اعود اذا لم ادمر الكعبة التي استعاضوا بها عن الشمس قبلة لهم . أما نحن فسنجعل الشمس قبلة لنا ، مثلما كانت الحال عليه قديما » . وكان يقول للخرمية : « ان مزدك لشيعي وهو يأمركم بأن تضعوا ايديكم في ايدي الشيعة » . وظل سنباذ يوقع على هذا النغم نفسه للمجوس ، وغلاة الشيعة ، والخرمية ، الى ان استطاع ان يكسب اليه الفرق الثلاث ويستميلها . واستطاع سنباذ بعد ذلك ، ان يقتل بضعة من قادة المنصور ، ويهزم جيوشه الى ان ندب جهور العجلي لحربه بعد سبع سنوات .

وجمع جمهور جيوش خوزستان وفارس ، وتقدم نحو اصفهان حيث ضم اليه مطوعتها ، وعرب قم ، وعجليي كرج (١) ثم مضى في سبيله الى ان وصل الـــى مشارف الري ، حيث اشتبك مع سنباذ في حرب ضارية لمدة ثلاثة ايام . وفي اليوم الرابع ، قتل سنباذ بيد جهور في اثناء نزال بينهما . فتفرقت جموعه ، وعاد كل منهم الى مكانه . واختلطت الخرمدينية بالمجوسية والتشيع وأخذ كل منهم يتصـــل بالآخر سرا ، ويقوى وينمو يوما عن يوم الى ان اخذ المسلمون والمجوس يطلقون لقب « الخرمدينية » على هذه الطائفة .

وبعد ان قتل جهور سنباذ ، دخل الري ، وقتل من وجد فيها من المجوس ، واغار على منازلهم ونهبها ، وسبى نساءهم وابناءهم وتخذهم عبيدا .

---

(١) كرج ( بفتح الكاف والراء ) : معرب « كره » . كانت تقع بين همذان وأصفهان . اول من مصرها ابو دلف القاسم بن عيسى العجلي وجعلها وطنه فعرفت بـ « كرج » أبـــي دلف » . ( معجم البلدان ) .
لا يعرف الان الموضع الحقيقي لكرج . غير ان لسترنج يذهب الى انه ينبغي البحث عن موضعها بالقرب من منابع النهر المار بساروق والملتقي بنهر قراصو الحالي ، استنادا على ماذكر من انها كانت وراء جبال راسمند ، وهي المعروفة اليوم باسم راسبند . ( بلـــدان الخلافـــة الشرقيـــة ٢٣٣ ) .

# الفصل السادس والأربعون

## ظهور الباطنية والقرامطة وايجادهم المذهب السيء ـ لعنهم الله ـ

ان سبب ظهور مذهب القرامطة ، هو انه كان لجعفر الصادق ـــ رضي الله عنه ـــ ابن اسمه اسماعيل ، مات قبل ابيه تاركا وراءه ابنا له اسمه محمد . لقد عاش محمد هذا الى ايام هارون الرشيد ، ويقال انه لما لمح احـــد الزبيريين امام الرشيد بأن جعفرا الصادق يبيت للخروج ، ويدعو الناس سرا ، ويسعى للوصول الى الخلافة بغير حق ، امر الرشيد باحضار جعفر من المدينة المنورة الى بغداد وسجنه فيها . ومات محمد هذا في السجن ، فدفن في مقبرة قريش (١) .

لقد كان لمحمد بن اسماعيل مولى حجازي اسمه « مبارك » كان يجيد الكتابة

---

(١) يذهب عباس اقبال ( حاشية ١ ص ٣٢٠ ) ـ ويوافقه الدكتور جعفر شعار وينقل عنه حرفيا ص ٣٢٢ ـ الى ما يلي : « لقد توفي الامام جعفر الصادق عام ١٤٨هـ ، في حين ان خلافـة الرشيد بدأت عام ١٧٠هـ لذا ، فان عد هذا الامام معاصرا للرشيد لخطأ تاريخي اخر من اخطاء مؤلـف سياستنامه » .

ان هذا الكلام صحيح تاريخيا ، لكن عبارات المؤلف اعلاه ، وهي واحدة في النسخ الخطية كلها ـ فيما يقول دارك ص ٢٤٣ ـ يشوبها الاضطراب والتناقض وعدم الدقة التاريخية . يقول النوبختي : « ولد موسى بن جعفر عليه السلام في سنة ثمان وعشرين ومائة ، وقـد قدم هارون الرشيد المدينة منصرفا من عمرة شهر رمضان ثم شخص هارون الى الحـج وحمله معه ، ثم انصرف على طريق البصرة ، فحبسه عند عيسى بن جعفر بن ابي جعفر المنصور ، ثم أشخصه الى بغداد فحبسه عند السندي بن شاهك ، فتوفي في حبسه ببغداد لخمس ليال بقين من رجب سنة ثلاث وثمانين ومائة ، وهو ابن خمس او اربع وخمسين سنة ، ودفن في مقابر قريش ، ويقال في رواية اخرى انه دفن بقيود ، وانه أوصى بذلك ..» ( فرق الشيعة ص ٨٤ ـ ٨٥ والمصادر التي أحال عليها محقق الكتاب أيضا ) .

أما عبد الله بن ميمون فكان يدعو الناس الى هذا المذهب في قوهستان العراق. لدعوته لقب « المباركية » وعلى بعضهم الآخر « القرمطية » .

بخط دقيق يسمى « المقرمط » ، فأطلق عليه لقب « القرمطوية » . وكان لمبارك صديق اهوازي اسمه عبد الله بن ميمون القداح ، يقال انه جلس يوما الى مبارك وحيدا ، وقال له : « لقد كان مولاك محمد بن اسماعيل صديقا لي ، والي أفضى بأسراره التي لم يبح بها لك ، ولا لاحد اخر » . فدهش مبارك لهذا ، وحرص على معرفته . واخذ عبد الله بن ميمون على مبارك يمينا بأن : « لا تفش ما اقول لك لأي شخص الا لمن هو اهل له » . ثم راح يعرض عليه اقوالا عن رموز حروف المعجم على لسان الائمة مشوبة بشيء من كلام اهل الطبائع (١) والفاظ الفلاسفة ، وقد اكثر فيها من ذكر الرسول (ص) ، والانبيا ـ عليهم السلام ـ ، والملائكة ، واللوح والقلم والعرش والكرسي . ثم افترقا ، فاتجه مبارك صوب الكوفة ، ويمم عبد الله شطر قوهستان العراق في طلب اهل التشيع .

لقد كان موسى بن جعفر سجينا (٢) ، في حين مضى مبارك في نشر دعوته سرا حتى بثها في سواد الكوفة . واطلق اهل السنة على بعض من استجابوا وكان الرجل مشعبذا بارعا ، وأستاذا في الشعبذة (٣) واجرائها . وقد أورد محمد ابن زكريا اسمه في كتاب « المخاريق » (٤) وعده في جملة اساتيذ الشعبذة. واستخلف عبد الله بن ميمون رجلا يدعى « خلف » (٥) ، وقال له : « امض الى جانب الري، وادع الى الشيعة ، فالناس في الري وقم وكاشان رافضة كلهم ، وسيستجيبون لدعوتك بسرعة ، فيعظم امرك هناك ويعلو شأنك » . أما هو فتوجه نحو البصرة خوف البلية .

ومضى خلف الى الري ، وأقام في قرية تدعى « كلين » (٦) في ناحية

---

(١) أهل الطبائع : هم الفلاسفة الدهريون الذين ينكرون وجود الله تعالى ، ويحلون الطبيعة او الدهر محله ( اقبال : حاشية ٢ ص ٣٦٠ ) .

وفي القرآن الكريم : « وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون » ( الجاثية . اية ٢٤ ) .

(٢) هذه العبارة تؤكد الاضطراب والتحريف اللذين نبهت اليهما في بداية هذا الفصل ، مما لا يدع مجالا للشك بأن كلمة « موسى » قد سقطت من النسخ الخطية .

(٣) شعبذة ( بالذال المعجمة ) معرب : « شعبده » ( بالدال المهملة ) الفارسية ( انظر : فهرست ابن النديم ٣٦٩ ) . لكنها في عربية اليوم : « شعوذه » .

(٤) لم اجد هذا الكتاب في ثبت كتب الرازي في فهرست ابن النديم . يذكر دارك نقلا عن حواشي الترجمة الانجليزية لكتاب « جهار مقاله » ان اسمه الكامل : « مفاريق الانبياء » او « حيل الانبياء » وهو من كتب الرازي المفرقة في الكفر ، ومن الكتب الاثيرة لدى القرامطة. ( تعليقات دارك ٣٤٣ وترجمته الانجليزية لكتاب سير الملوك هذا ص ٢١٤ ) .

(٥) هو خلف الحلاج الذي كان صاحب محلجة قطن ( دولة الاسماعيلية في ايران . حاشية ٢ ص ٤٤ نقلا عن مخطوط كتاب « كنز الدرر وجامع الغرر » لابي بكر محمد بن ابيك . الجزء السادس ، ورقة ٦٦ ) . وقد اشار ابن النديم اليه دون ان يذكر اسمه ، فقال : « اول من قدم من بني القداح الى الري واذربيجان وطبرستان رجل حلاج القطن ...» (الفهرست ٢٣٩).

(٦) كلين ( بضم الكاف ) : قرية كانت المرحلة الاولى من الري لمن يريد « خوار » على طريق =

« بشاوية » (١) ، واخذ يشتغل بالطرازة (٢) التي كان استاذا فيها . ومكث هناك مدة لم يستطع ان يفضي في خلالها بأسراره لاحد ، الى ان تمكن بعد جهد جهيد (٣) من ان يستميل اليه شخصا لقنه اصول المذهب ، مدعيا انه مذهب اهل البيت ، وانه سري . لكنه سيعلن على الملأ بظهور « القائم » (٤) ، وظهوره قريب الوقوع، عليك ان تتعرف على هذا المذهب ، حتى لا تكون جاهلا به عندما يظهر المهدي . بعد ذلك أخذ اهل القرية يتقفون هذا المذهب ، الى ان حدث وسمع كبير قرية « كلين » هذه في اثناء تجواله خارجها يوما ، سمع صوتا يخرج من انقاض مسجد هناك ، فاتجه صوبه وأخذ ينصت اليه ، فاذا خلف يشرح مذهبه — اي مذهب القرامطة — الى أحد الرجال .

ولما عاد كبير القرية من جولته ، قال لأهلها : ( ايها الناس ، افسدوا على هذا الرجل اباطيله وترهاته واحبطوها ، ولا تلتفوا حوله ، فانني اخشى ، بما سمعت منه ، ان يكون دمار هذه القرية على يديه . ان خلفا هذا الكن لا يقوى على تلفظ حروف : الطاء ، والراء ، والحاء . فلقد سمعته يقول : « هذا باب باتنه الرهمة » (٥) .

لما علم خلف بوقوف الناس على حقيقة امره ، فر من تلك القرية الى الري ، وفيها مات . وكان قد تمكن من أن يجر بعض اهل « كلين » رجالا ونساء الى مذهبه . وخلفه ، بعد موته ، ابنه احمد بن خلف الذي اقتفى خطى مذهبه ، دون أن يعلم احد بالري بأمرهم الى ان اهتدى احمد الى رجل اسمه « غياث » كان حاذقا جدا بالنحو والادب ، فجعله خليفته في الدعوة .

وشرع غياث هذا يوشي اصول مذهبهم بآيات من القرآن واخبار الرسول وامثال العرب والشعر . والف كتابا باسم « البيان » ذكر فيه معاني الصلاة والصوم والفاظ الشرع بشكل الغاز ومعميات (٦) . ثم دخل في مناظرة اهل السنة.

---

= الحاج ( معجم البلدان ) .

(١) بشاوية : معرب « بشاويه » الفارسية : القسم الجنوبي من ناحية غار الواقعة في حوض نهر شور ونهر كرج . ومركزها المعروف قرية « محمد علي خان » على بداية طريق قم — طهران (فرهنك فارسي ) . ويقال انها ما تزال تعرف بفشاويه . ( بلدان الخلافة الشرقية ٢٥١ ) .

(٢) يقال ان الكلمة فارسية الاصل . ( اللسان — طرز ) .

(٣) الاصطلاح الفارسي هو : « به هزار حيلت » وترجمته الحرفية : « بالف حيلة » .

(٤) القائم : لقب المهدي المنتظر .

(٥) تحريف لقوله تعالى : « ... له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ... » ( الحديد . اية ١٣ ) .

(٦) ترجمت هذه العبارة عن نسخة اقبال ( ص ٢٦٤ ) بعد ان تبين لي عدم سلامة اصلها في النسخة المعتمدة ، وفي نسخة دارك أيضا . فهي فيهما : « ودر آن كتاب معنى نماز وروزه ولفتهاي شرعي برطريق لغت يادكرد » . وهي في نسخة اقبال : « ودر آن كتاب ... بر طريق لغزياد كرده » . فقد تكون « لغت » صحفت عن « لغز » . ولما استشرت صديقي الدكتور غلا محسين يوسفي في الامر ، وافقني على ما ذهبت اليه واقره .

وشاع في قم وكاشان وآبه الخبر التالي « لقد ظهر في قرية كلين رجل مناظر يقال له غياث يبشر بأخبار جيدة سارة ، ويعلّم الناس مذهب اهل البيت » . وقصد اهل هذه المدينة غياثا وأخذوا يتعلمون عليه هذا المذهب ، الى ان لقف الفقيه « عبد الله الزعفراني » (١) الخبر ، وعرف ان المذهب بدعة ، والب اهل الري على غياث ، ففر الى خراسان . واطلق اهل السنة بالري على فريق ممن اتبعوا هذا المذهب « الخلفية » ، وعلى فريق اخر « الباطنية » . ومع حلول عام ٢٠٠هـ فشا هذا المذهب . وخرج في السنة نفسها رجل يقال له « صاحب الخال » (٢) بالشام ، واستولى على معظمها . اما غياث الذي فر من الري الى خراسان ، فأقام في « مرو الروذ » ، ودعا فيها الامير حسين بن علي المروروذي ، فاستجاب له . وقوي نفوذ حسين هذا في خراسان ، خاصة في « طلقان » (٣) و « مهنة » (٤) و « بارياب » (٥) و « عرشستان » (٦) غور . فلما اعتنق هذا المذهب ، دخله خلق كثير من تلك النواحي أسوة به .

وعين غياث خليفة له في مرو الروذ لدعوة الناس هناك ، ومضى هو الى الري ، وجعل يدعو أهلها سرا من جديد ، واتخذ له في ناحية بشاويه خليفة كان

---

(١) قد يكون المقصود بعبد الله الزعفراني ، الزعفراني المعتزلي الذي تنسب اليه فرقة « الزعفرانية » التي انفصلت عن فرقة « النجارية » ( انظر : الملل والنحل ١ : ١١٦ - ١١٨ والفرق بين الفرق ١٤٧ ، وأحسن التقاسيم ٣٩٥ ، ودولة الاسماعيلية في ايران ٤٦ ومصادره) .

(٢) صاحب الخال او صاحب الشامة . في اسمه اقوال وروايات مختلفة ، واكثرها رواجا انه عرف باسم « الحسين بن زكرويه » . لقب بصاحب الخال لخال كان على خده الايمن . والمهم ان أشير هنا الى خطأ نظام الملك تاريخيا ، الذي التفت اليه دارك قبلي ( ص ٣٤٣ ) . فقد ذكر المؤلف ان خروج صاحب الخال بأرض الشام كان عام ٣٠٠هـ ، لكن خروجه في الحقيقة كان عام ٢٩٠هـ ، وانه قد هزم وقتل على يد الخليفة المكتفي عام ٢٩١هـ ( راجع : تاريخ اخبار القرامطة ٦٩ - ٩٠ والطبري ٨ : ٢١٨ حوادث عامي ٩٠ و ٢٩١ ) .
وجاء في نسخة اقبال ( ص ٢٦٤ ) ان ذلك كان عام ٢٨٠هـ ، لكنه ند عنه .

(٣) الطالقان مدينة بخراسان . كانت تقع بين مرو الروذ وبلخ ( معجم البلدان ) . ولم يبق لهذا الاسم ذكر في الخارطة اليوم فيما يقول لسترنج ( بلدان الخلافة الشرقية ٤٦٥ ) .

(٤) مهنة ، وقيل ميهنه : كانت قصبة رستاق أبيورد ( بلدان الخلافة الشرقية ٤٣٦ ) .

(٥) بارياب : مدينة من مدن خراسان القديمة . كانت تقع بين مرو الروذ وبلخ ، وما تزال اثارها باقية الى اليوم باسم « خير آباد » . ( تعليقات جعفر شعار ص ٤٢٤ ) وذكرها ياقوت باسم « فيرياب » . ومن اسمائها أيضا « فارياب » . ( راجع : بلدان الخلافة الشرقية ٤٦٧ ) .

(٦) في الفارسية : غرجستان . وغرشستان ( بفتح العين وسكون الراء ) كانت ولاية برأسها ليس لها سلطان ولا لسلطان عليها سبيل . كانت تعرف عند البلدانيين العرب بـ « غرج الشار » . الغرج بمعنى الجبال ، والشار بمعنى الملك . أي « جبال الملك » . كان يحدها من الغرب هراة ، ومن الشرق غور ، ومن الشمال مرو الروذ ، ومن الجنوب غزنة . ( معجم البلدان ، وبلدان الخلافة الشرقية ٤٥٨ ) .

ذا معرفة واسعة بالشعر العربي ، والاحاديث الغريبة ، كنيته « أبو حاتم » (١) . ومضيا يدعوان الناس . وكان غياث وعد الناس بخراسان ان القائم الذي يدعى « المهدي » سيظهر في وقت قريب في سنة كذا . فوطن القرامطة نفوسهم على هذا . أما اهل السنة ، فبلغهم خبر عودة غياث مرة اخرى ، وانه يدعو الخلق الى مذهب « السبعية » (٢) .

وأزف موعد ظهور المهدي ، ولم يظهر . فبان كذب غياث ، واخذ السبعيون من مذهبه عليه مآخذ وعيوبا . ولهذين السببين ، غضبوا عليه ، وتفرقوا عنه . اما اهل السنة ، فمضوا في طلبه ليقتلوه ، لكنه توارى عن الانظار مضطرا ، ولم يدر اين سارت ركائبه .

بعد ذلك التف السبعيون حول سبط من اسباط خلف ، وقضوا معه حينا من الدهر . ولما شعر بدنو اجله نصب ابنه « أبا جعفر الكبير » خلفا له . لكن أبا جعفر هذا ، ابتلى بالسوداء (٣) ، فأناب عنه رجلا كنيته « ابو حاتم الكينتي » (٤) (؟) وما ان شفى أبو جعفر وتحسنت حاله ، حتى قوى مركز أبي حاتم ، فاستأثر بالرياسة لنفسه ، ولم يعر أبا جعفر أي اهتمام . وكذا خرجت الرياسة من أسرة « خلف » .

وبث ابو حاتم الدعاة في المدن المحيطة بالري من مثل : طبرستان ، وجرجان ، واذربيجان ، واصفهان ودعا الناس الى مذهبه ومقالته . فاستجاب احمد بن علي امير الري لدعوته ، واصبح باطنيا (٥) .

ثم تألب اهل ديلمان على علويي طبرستان ، وقالوا لهم : « أنتم تدعون : انما المذهب هو هذا الذي نحن عليه حسب . غير ان المسلمين يكتبون الينا من مختلف الارجاء بأن لا تصغوا اليهم — أي اليكم — فمذهبهم سيء ، وهم اهل

---

(١) جعل صاحب « دولة الاسماعيلية في ايران » أبا حاتم هذا وابا حاتم الكينتي (؟) المذكور في الصفحة ( ٢٣٩ ) التالية شخصية واحدة ، وقال : « ولا ريب ان الاشارة هنا لابي حاتم الرازي الفيلسوف المعروف وأحد دعاة الاسماعيلية المشار اليهم بالبنان ... » ( ص ٤٦ ). ومهما يكن ، فأبو حاتم الرازي ، شهرته احمد بن حمدان ، وقد توفى عام ٣٢٢هـ . وهو من كتاب الاسماعيلية والمصنفين فيها ، ومن دعاتها في الري وقد افاد من حماية مرداويج الزياري له . ولما وقف مرداويج الى جانب الاسماعيلية ، مضى أبو حاتم اليه في اذربيجان ، وفيها توفي بعد سنوات .

كان ابو حاتم معاصرا لابي زكريا الرازي ، وكانت له معارضات معه . له من الكتب : الزينة ، وكتاب الجامع ، وكتاب اعلام النبوة . وقد طبع قسم من الكتاب الاخير باعتناء بول كراوس ( فهرست ابن النديم ٢٤٠ ودائرة المعارف فارسي ).

(٢) السبعية : فرقة تنسب الى محمد بن اسماعيل . سميت بهذا لان اصحابها ينهون الامامة اليه ، وهو الامام السابع . ( راجع : فرق الشيعة ٧١ — ٧٣ ) .

(٣) السوداء والسويداء : مرض « الماليخوليا » . الهوس .

(٤) يبدو ان المحقق الدكتور شعار شك في « الكينتي » فوضع بعدها علامة استفهام ( ص ٣٢٧ ). ومما يذكر ان ابن النديم ذكره ايضا بـ « ابي حاتم الورساني » ( الفهرست ٢٣٩ ) .

(٥) راجع موضوع اعتناق احمد بن علي مذهب الاسماعيلية واحتمالات رده : « دولة الاسماعيلية في ايران » ص ٤٩ ، ومراجعه ايضا .

بدعة . انكم تحتجون بأن العلم قد خرج من آل بيتنا ، في حين ان العلم لا يمضي مع النسب . ان تتعلموا تعرفوا ، وكل من يتعلم تتاح له المعرفة ايضا . فالعلم لا يورث . ان الله — عزوجل — ارسل النبي ، صلى الله عليه ، للناس كافة ، وانه — عليه السلام — لم يجعل له في الدين قوما خاصة ، وآخرين عامة ، حتى يقال انه قال للخاصة كذا ، وللعامة كذا . لقد تبين انكم كذابون » .

ولما كان امير طبرستان شيعيا يناصر العلويين ، فقد عصوه أيضا ، وقالوا له : « ائتنا بفتوى وشهادة من بغداد ومدن خراسان وما وراء النهر — على ان يصحبك رسول منا ذهابا وايابا — تشهد على أن : مذهبكم مذهب المسلمين الاطهار ، وان ما تقولون وتفعلون هو ما أمر به الله ورسوله ، حتى نتقبلكم ونعتنق مذهبكم ، والا فالسيف بيننا وبينكم وحسب . فنحن ابناء جبال واهل ادغال » . وافاد ابو حاتم من هذه الحال فتحول من الري الى الديلم حيث قابل زعيمهم « سيار شيروي وردادوندي » (١) واعلن انضمامه اليهم ، ثم شرع ينهش لحوم العلويين (٢)، ويلتمس لهم المعايب ، وقرر ان : « دولتهم لم تكن شرعية . فالعلوي ينبغي ان يكون علوي دين لا نسب » . ووعد الديالمة بقوله : « سيظهر قريبا امام أنا على علم بدعوته ومذهبه » . فرغب اهل ديلمان وجيلان في اجابته ، وراجت بضاعته لديهم في ايام سيار شيرو (٣) ، وردحا من عهد « مرداويج بن زيار » (٤) . مساكين اهل ديلمان وجيلان ، فقد كانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار (٥) : كانوا يريدون اهل السنة (٦) ، فوقعوا في شباك اهل البدعة . ومع ذلك فقد قضوا معه شطرا من الزمن . غير انهم لما رأوا ان الوقت الذي مناهم بظهور الامام فيه قد انقضى ، قالوا : « ان هذا المذهب لا اساس له ، ولا مراء في ان هذا الرجيل لص طرار » . فانفضوا من حوله دفعة واحدة ، وصاروا الى محبة اهل بيت رسول الله (ص) ،

---

(١) كذا في طبعة شعار (ص٢٢٨)، وطبعة دارك (ص٢٨٦)، وفي طبعة اقبال: «شروين بن ورداوند» (ص ٣٦٤ ) ، وهو تصحيف « اسفار بن شيرويه » كما في المصادر المعتمدة ( راجع : المصادر التي اشار اليها صاحب كتاب « دولة الاسماعيلية في ايران » في حواشي الصفحات ٥٠ — ٥٢ وفرهنك فارسي ايضا ) .

(٢) أي يغتابهم ويشنع عليهم ، أو يأكل لحومهم امواتا فيما نص القرآن الكريم . واصل الاصطلاح الفارسي : « ودريوستين علويان افتد » .

(٣) كذا أيضا .

(٤) مرداويج بن زيار مؤسس سلسلة آل زيار التي يعود نسبها الى ملوك ايران القدماء ، والتي حكمت في نواحي طبرستان وجرجان وجيلان وغيرها من أوائل القرن الرابع الهجري الى أواسط القرن الخامس ، وانقرضت على يد الغزنويين . ( فرهنك فارسي . مرداويج ، وآل زيار أيضا ) .

(٥) أصل المثل الفارسي : « ازباران بكر يختند در ناود ان اويختند » . وترجمته الحرفية « لقد فروا من المطر ، فتلقاهم المزراب » . لكنني آثرت ترجمته بمعادله في العربية لشيوعه ورواجه .

(٦) أي كانوا يريدون اهل السنة تخلصا من علويي طبرستان واميرها فيما تقدم .

وقصدوا ابا حاتم ليقتلوه ، لكنه لاذ بالفرار ، ومات في مفره ، فتهلهل امر مذهب السبعية واصابه الوهن ، ودب فيه الضعف ، فتراجع عنه خلق كثيرون ، والتحقوا بأهل السنة ، وتابوا الى الله توبة نصوحا .

اما السبعيون فهاموا على وجوههم حينا ، لكنهم ظلوا يلتقون ويتفقون سرا الى ان آل امر المذهب في نهاية الامر الى شخصين : احدهما عبد الملك الكوكبي الذي كان يقطن في « كردكوه » (١) ، والاخر اسحاق الذي كان يقيم بالري .

## في ظهور الباطنية في خراسان وما وراء النهر

واغوت الباطنية امير خراسان نصر بن أحمد . وفي خراسان ايضا ندب حسين ابن علي المروروذي (٢) ــ الذي كان غياث قد صيره باطنيا ــ وهو يحتضر ، ندب محمدا النخشبي (٣) للدعوة وعينه خلفا له ونائبا . وكان النخشبي متكلما ، معدودا في جملة فلاسفة خراسان . وأوصى حسين المروروذي النخشبي ان يعمل ما بوسعه بأن ينيب عنه شخصا هناك ــ أي في خراسان ــ ، ويعبر جيحون الى بخارى وسمرقند لجر اهلها الى هذا المذهب ، ولاستمالة بعض اعيان أمير خراسان نصر بن احمد ، تقوية لامره .

ولما مات حسين المروروذي ، خلفه النخشبي ، فاستجاب خلق كثيرون من اهل خراسان لدعوته . ثم عين النخشبي خليفة له في مرو الروذ رجلا من زعماء الباطنية يقال له « ابن سواده » ، كان قد فر من أيدي سنيي الري الى خراسان عند حسين بن علي المروروذي . أما المروروذي نفسه ، فعبر جيحون الى بخارى، لكنه لما رأى أن لا نفع يرتجى لمذهبه هناك ، وأنه لا يجرؤ على اظهاره ، ترك بخارى الى « نخشب » . وفي نخشب استطاع ان يجتذب اليه احد ذوي قرباه « بكر النخشبي » الذي كان نديما لأمير خراسان . واستطاع بكر ان يدخل في هذا المذهب ايضا صديقا له أسمه « الاشعث » كاتب الامير الخاص الذي كان منه بمنزلة النديم. ولما دعوا « أبا منصور الجفاني » عارض الامير وزوج أخت الاشعث للدخول في المذهب ، لبى دعوتهم . ودخل في مذهبهم ايضا « آيتاش » الحاجب الخاص الذي كان صديقا لهم . ثم قالت هذه الثلة لمحمد النخشبي : « لا داعي لوجودك في نخشب . تعالى الى الحضرة (٤) بخارى ، فستصل بدعوتك الى اعنان السماء

---

(١) كردكوه : قلعة كانت في وسط الجبل ، وكانت ترى من دامغان ( نزهت القلوب ) .

(٢) نسبة الى مروالروذ .

(٣) وقيل : محمد النسفي أيضا . ونخشبي ونسفي نسبة الى « نخشب »و « نسف » ، وهما اسمان لمدينة واحدة كان يسميها العرب « نسف » والفرس « نخشب » ، كانت تقع بين جيحون وسمرقند . وقد اشتهرت في التاريخ بأنها موطن المقنع ( بلدان الخلافة الشرقية ٥١٣ ، وراجع : عن النسفي ومؤلفاته : فهرست ابن النديم ص ٤٣٩ ــ ٤٤٠ ) .

(٤) الحضرة : العاصمة ، المركز . والكلمة مستعملة في الكتب التاريخية .

في اقصر وقت ، وندخل في مذهبك العظماء والاعيان » .

وترك النخشبي نخشب الى بخارى ، واخذ يجالس فيها هو وثلته الاعيان والعظماء ويدعوهم الى مذهبه ، وكان يأخذ على كل من يستجيب له عهدا بأن : « لا تبح بشيء لاحد ما لم اقل لـــك » .

كان النخشبي يدعو الناس الى الشيعة اولا ، ثـم يجرهم تدريجيا الـــى « السبعية » الى ان دخل في مذهبه رئيس بخارى وصاحب خراجها ، ووجـــوه المدينة وتجارها . وادخل في مذهبه ايضا « حسن ملك » الذي كان من خاصـــة الامير ووالي « ايلاق » (١) ، وعليا الزراد الذي كان الوكيل الخاص . لقد كان اكثر من ذكرنا من مقربي الامير ومعتمديه .

بعد ان كثر اتباع النخشبي ، وجه اهتمامه الى الامير نفسه ، فاوعز الـــى خاصته بأن يذكروه بالخير امام نصر بن احمد في صحوه وسكره . وذكره اولئك مرات امام نصر الذي انابهم بأن ينقلوا اليه انه — اي نصر — يرغب في رؤيته ولقائه . ثم مضوا به الى نصر ، واخذوا يشيدون بعلمه ويثنون عليه امامه ، حتى شغف به امير خراسان فقربه واعزه . وكان النخشبي يلقي على مسامع الامير شيئا من مقالته في كل مرة يجلس اليه . وكان الندماء والمقربون — ممـــن اتبعوا مذهبه — يكيلون له عبارات المدح والاستحسان والاعجاب كلما فاه بشيء ، ويقولون : « هذا هو الصحيح » . واخذ نصر بن احمد يكرمه ويرفع من قدره اكثـــر فاكثر يوميا ، حتى انه اضحى لا يطيق دونه صبرا . وباختصار ، فقد انتهى الامر باستجابـــة نصر بن احمد لدعوته ، وهيمنة النخشبي ونفـــوذه حتـــى اصبـــح تعيين الوزراء وتنحيتهم رهن ارادته . وراح الامير ينفذ كل ما يقـــول .

ولما وصل امر النخشبي الى هذا الحد جاهر بدعوته ، فسانده اتباعه واظهروا مذهبهم علانية ، وازدادوا قوة وجراة ، وصار الامير يجالس السبعيين . الا ان الترك وقادة الجيش لم يرق لهم ان يتحول الامير الى القرمطية ، فقد كان لقب قرمطي يطلق في تلك الايام على من يعتنق هذا المذهب .

اما علماء المدينة وضواحيها وقضاتها فجمعوا انفسهم ، ومضوا جميعا الى القائد الاعلى للجيش ، وقالوا له : « حذار حذار ، فالاسلام في ما وراء النهر في محنة وضياع . لقد اضل هذا النخشبي الحقير الامير وجعله قرمطيا ، وحرف الناس عن سبيل الحق . ولقد آل امره الى حد يدعو فيه الناس الى مذهبه جهارا وعلانية. لا نستطيع ان نلوذ بالصمت اكثر من هذا » . فقال لهم : « اني شاكر لكم هذا . عودوا ، واهدأوا بالا . فسيأتي الله تعالى بما فيه الصلاح ان شاء الله » .

وفي اليوم التالي ، كلم قائد الجيش نصر بن احمد في الموضوع ، لكن دون جدوى . وثارت ثائرة الجند ، فقالوا : « لن نوافق — بأية حال — على ما اختار

---

(١) ايلاق : كانت من مدن بلاد الشاش المتصلة ببلاد الترك . ( معجم البلدان ) . ويقال انها مدينة كانت تقع بين فرغانة وطشقند الحالية على بعد عشرة فراسخ ( ٦٠ كيلومترا ) من الاخيرة ( اقبال : حاشيـة ٤ ص ٣٢٧ ) .

الامير ، أو نشارك فيه » . اما قادة الجيش فبدأوا يتبادلون الرسائل سرا بـأن « ما الحيلة ؟ » . واستطاعوا أن يعرفوا ما يكنه كل واحد منهم ، وهو ان قادة الجيش لن يرضوا بما اخذ الامير نفسه به . لقد كانوا كلهم من ذوي العمائم غير اميرين تركيين ممن دخلوا في هذا المذهب . وأخيرا اتفق قادة الجيش فيما بينهم على أن : « لا نريد اميرا كافرا ، سنقتل الامير ، ونجعلك انت يا قائد الجيش الاعلى اميرا ، ونقسم لك بأننا لن نتراجع عن قولنا هذا » . واستجاب القائد الاعلى لهم تدينا وطمعا في الحكم ، وقال : « ان أول ما ينبغي ان نتخذه من تدابير ، هو ان نجتمع نحن قادة الجيش معا ، ونتعاهد ، ثم نتداول في كيفية الاستيلاء علـى زمام الامور بنحو لا يدري به الامير » . فقال قائد عجوز كان يقال له « طلن أوكا » : « تدبير الامر ان تخبر ، انت يا قائد الجيش ، الامير : « ان قادة الجيش يطلبون اليّ ان اقيم لهم مأدبة » . انه — بأية حال — لن يقول لك : « لا تفعـل » ، بل سيقول : « ولم لا ان تستطع ذلك » . حينئذ قل له : « انني لست عاجزا من حيث الطعام والشراب ، لكنني لا اقدر على اعداد ما يحتاج اليه المجلس من سجاد وفراش وآلة وادوات زينة ذهبية وفضية » . وسيقول لك : « خذ ما تحتاج اليه من خزانتنا ، وبيت شرابنا ، ومخزن فراشنا » . فقل له : « انني سأقيم لهم مأدبة على ان يتجهوا بعد الطعام لغزو الكفار في بلاساغون التـي استولى عليها كفرة الترك ، وجاوز صراخ المتظلمين مداه » ، كيما لا يسيء بك الظن . ثم أعد نفسك لتهيئة مستلزمات الوليمة ، وعد الجنود ان : « استعدوا لضنك يوم كذا » . ثم استعر كل ما في خزانة الملك وبيت شرابه ومخزن فراشه من وسائل ذهبية وفضية ، وفرش الديباج والتحف ، وخذها الى قصرك . وفي اليوم الموعود ، وبعد ان يجيء الجند جميعهم الى قصرك ، اغلق بابه بحجة تراكم الناس ، ثم ادع الى احدى الحجرات قادة الجيش على سبيل شرب « الجلاب » (١) ، وهناك فاتحهم في الامر — توطئة قتل الامير ومبايعة القائد الاعلى — . اننا — ونحن الاصل — معك ، اما الآخرون ، وهم الفرع — فانهم سيوافقون — بعد ان يسمعوا رأينا — ايضا ، وينضمون الى جانبنا حينئذ نعاهدك ونغلظ لك الايمان ، ونعقد لك البيعة بالامارة ، ثم نخرج من الحجرة ونجلس الى الخوان . وبعد الطعام ، ننتقل الـى مجلس الشراب ، فيشرب كل منا ثلاثة اقداح ، ثم نهب آنية المجلس ذهبيها وفضيها قادة الجيش ، ونخرج حالا ، ونتوجه الى قصر الامير ، فنقبض عليه ونقتله ، ولا نؤمن احدا من ندمائه واتباع مذهبه ، بل نقتلهم جميعا ، ثم ننهب كل ما في خزينته واصطبله وقصره ، ونجلسك على العرش فورا . بعد ذلك نأمر الجيش بأن يشرعوا سيوفهم ويمضوا الى المدينة والريف ليقتلوا كل من يجدون من القرامطة كافـة ،

---

(١) الجلاب : معرب « كلاب » الفارسية المركبة مـن « كل » أي « الـورد » و « آب » أي « ماء » . ومعناها هنا نوع من شراب يعقد من العسل او السكر بماء الورد . ( فرهنك وازهاي فارسي در زبان عربي ١٦٠ ) .

ويحرقوهم ، وينهبوا ثرواتهم وممتلكاتهم » . فقال القائد الاعلى : « هذا هو التدبير ».
وفي اليوم التالي ، قال القائد الاعلى لنصر بن احمد : « ان قادة الجيش يريدونني ان اقيم لهم وليمة ، ويطالبونني بها يوميا » . فقال نصر : « ان تستطع فلا تقصر » . قال القائد الاعلى : « لست عاجزا من حيث الطعام والشراب ، لكنه يتعذر عليّ ان اهيىء ما يحتاج اليه المجلس من فرش وآلة وزينة ذهبية وفضية . فاما ان يولم المرء وليمة جيدة ، والا فلا » . قال نصر : « خذ ما تحتاج اليه لهذا الغرض من خزانتنا وبيوت شرابنا، وبيت فراشنا » . فقبّل القائد الارض بين يدي نصر بن أحمد وانصرف .
وفي اليوم التالي ، وعد الجند بأن : « عليكم ان تجهدوا يوم كذا » . ثم حمل كل ما في خزانة نصر بن احمد وبيتي شرابه وفراشه من اطباق الذهب والوانها ، واقام وليمة لم ير احد مثلها في تلك الايام . فأم قصره جميع قادة الجيش ، كل ونوجه .
ثم أمر القائد الاعلى باغلاق باب القصر ، ودعا اليه كبار رجال الجيش وقادته في حجرة خاصة ، ونال مبايعتهم اياه ، واخذ عليهم عهدا ، ثم خرجوا من الحجرة الى الخوان مباشرة .
غير ان احدهم تسلل من القصر عن طريق السقف ، وخف الى نوح بن نصر واخبره بما حاكه قادة الجيش الساعة . فامتطى نوح صهوة جواده حالا ، ومضى الى قصر والده على جناح السرعة ، وقال له : « علام الجلوس ، وقادة الجيش قد عقدوا البيعة والعهد للقائد الاعلى الساعة ؟! انهم سيتحولون بعد الطعام الى مجلس الشراب ، فيشرب كل منهم ثلاثة اقداح ، ثم ينهبون كل ما في المجلس من آلة الذهب والفضة ، وما اخذوه من خزانتك ، ويخرجون من هناك الى قصرنا فيقتلونك ويقتلونني ، ويقتلون كل من يجدون فيه . ان الغرض من وراء هذه الوليمة هلاكنا » . فقال نصر لنوح : « فما الحيلة الآن ؟ » . قال نوح : « الحل هو أن ترسل الآن اثنين من خاصة خدمك الى القائد الاعلى ، وقبل ان ينهض الجمع عن الطعام الى مجلس الشراب ، ليهمسا في اذنه : « يقول لك الامير : بلغني انك تكلفت كثيرا ، واقمت مأدبة في غاية البهاء والعظمة ، اما وعندنا بضعة كراس ذهبية مرصعة ، لاقبل لاحد من الملوك اليوم بها ، في مكان خارج الخزانة ، نسيت ان اقول لك بأن تحملها الى مجلسك ايضا لتضفي عليه زينة ما بعدها زينة . ان ثمنها عشرة اضعاف الف الف دينار (١) . هلم ، لأسلمك اياها يدا بيد ايضا ، قبل ان يصير الضيوف الى مجلس الشراب » . وسيأتي ، لا محالة ، طمعا بالمال. وحين يجيء نقطع راسه ، ثم نتباحث فيما يجب فعله بعد » .
وارسل نصر في الحال اثنين من خاصة خدمه يبلغان القائد الاعلى هذا . وفي حين كان المدعوون منهمكين في تناول الطعام ، قال القائد لواحد او اثنين منهم : « لأي شيء يستدعيني الامير الساعة ؟! » . قالوا له : « اذهب ، واحضر تلك

---

(١) اي عشرة ملايين دينار .

الكراسي ايضا . فكل شيء يناسبنا اليوم . ومضى القائد الى قصر الامير مسرعا . فاستدعي الى احدى الحجرات ، وأمر الامير غلمانه على الفور بفصل راسه عن جسده ووضعه في مخلاة . ثم قال نوح لابيه : « لنركب نحن الاثنين ونذهب ــ والمخلاة معنا ــ الى قصر قائد الجيش الآن . ولتتنح انت عن العرش امام قادة الجيش ، وتجعلني وليا للعهد ، لاتولى جوابهم عنك ، لكي يظل الملك في بيتنـــا . ان الجيش لن يكون على وفاق معك بعد الآن ، وانك ستنجو بهذا من قتلهم وتموت موتا طبيعيا » . وركب الاثنان كلاهما ، ومضيا الى قصر قائد الجيش على وجه السرعة . والتفت قادة الجيش ، فاذا الامير وابنه يدخلان القصر . فنهضوا جميعا، وتقدموا الى الامام ترحيبا بهما ، ولم يكن احد يدري بما جرى . وقالوا : ربما رغب الامير في حضور هذا الحفل . ونهض نصر بن أحمد وجلس في مكانه ، ووقف حملة السلاح من خلفه ، وجلس نوح من عن يمينه ، وقال : « اجلسوا جميعا ، واستمروا في تناول الطعام » . فجلسوا وعاودوا الاكل ، فالتهموا ما على الخوان . بعد ذلك ، قال نصر بن احمد : « اعلموا بأنني قد أبلغت بما حاكته أيديكـم وتواطئتم عليه . ولانني أعلم أنكم كنتم تبغون قتلي ، فقد نفر قلبي منكم . اما وان قلوبكم مني نافرة ، فانكم ضاغنون عليّ الآن ، ولن تأمنوا بعد اليوم جانبي ، او آمـن جانبكم . فاذا ما كنت قد حدت عن جادة الحق ، او اعتنقت مذهبا سيئا ، او بدا مني ذنب ، وهو ما جعلكم تتوقدون عليّ غيظا ، فها هوذا ابني نوح . افيه عيب ؟» . قالوا : « لا » . فقال نصر : « لستم بعد الآن جيشي ولست اميركم . لقد جعلت نوحا وليا لعهدي ، وهو الآن اميركم . اما انا فسأشغل نفسي ــ سواء كنت على صواب أم باطل ــ باستغفار الله ، عزوجل ، والتوبة اليه ، واما من حملكم على ما انتم فيه ، فقد نال جزاءه » . وأمر باخراج راس القائد الاعلى مـن المخلاة والقائه امامهم ، ثم نزل من على سريره ، وجلس على المصلى » . وتحول نوح الى السرير ، وجلس مكان ابيه . أما قادة الجيش ، فأخذتهم الحيرة والدهشة مما سمعوا وراوا ، ولم ياتوا باي عذر وحجة ، بل انحنوا لنوح وهنأوه تهنئة خالصة من اعماقهم ، والصقوا الجرم كله بالقائد الاعلى ، وقالوا : « انت سيدنا ، ونحن مواليك ، فالامر لك » . فقال نوح : « لتعلموا انني ، في كل شيء ، نوح لا نصر . لقد فات ما فات ، ولقد حملت خطأكم هذا محمل مائة صواب . سأحقق لكم كـل رغباتكم ، فاصدعوا لأمري ، وانصرفوا الى شؤون حياتكم ومعاشكم حسب » . ثم طلب قيدا ، وأمر بوضعه في رجلي ابيه ونقله الى « قهندز » (١) حالا ، وحبسه هناك . ثم قال : « والآن ، هيا بنا الى مجلس الشراب » .

ولما جلسوا الى الشراب ، وشرب كل منهم ثلاثة اقداح ، قال نوح : « كنتم قد عقدتم العزم ، بعد شرب ثلاثة اقداح ، على ان تنهبوا كل ما في المجلس . انني لا ارتضي النهب ولا آمر به ، لكنني وهبتكم كل ما فيه من اشياء هبة ، فخذوها جميعا وتقاسموها فيما بينكم ، كل حسب مرتبته ، لينال كل كل واحد منكم نصيبه

---

(١) قهندز : معرب « كهندز » . اي قلعة قديمة او عتيقة ( انظر : ترجمة الشاهنامة ٢ : ٢٤٣ ).

منها » . فتناولوها ، ووضعوها في « الجوالق » ، ثم ختموها واودعوها شخصا معتمدا . بعد ذلك ، قال نوح : ان كان القائد الاعلى ظن بنا ظن السوء ، فقد نال عقابه ، وان كان أبي قد حاد عن طريق الصواب ، فها هوذا الآن يتلقى جزاءه . أما أنتم ، فاتفقتم على أن تصيروا — بعد الطعام — الى غزو بلاساغون لقتال كفار الترك هناك . ان في أرضنا نحن لكفارا أولى بالغزو والقتال . هبوا الى جهادهم وغزوهم ، واقتلوا جميع من دخلوا في الالحاد واعتنقوا المذهب الذي اعتنقه ابي في ما وراء النهر وخراسان ، وحلال عليكم ثرواتهم واموالهم ونعمهم . لقد وهبتكم اليوم ما كان في المجلس من اموال والدي ، وسأهبكم غدا ما في الخزانة ، فان ثروة الباطنية ومتاعهم لا تستحق سوى النهب والاغارة . اريدكم ان تأتوني الآن بمحمد النخشبي وجلساء أبي ، وتضربوا أعناقهم ، ثم تنتشروا في المدينة والنواحي » . فحملوا حالا ، وأحضروا محمدا النخشبي الذي كان الداعية ، وضربوا عنقه ، ثم اعناق حسن ملك ، وابي منصور الجفاني ، والاشعث ، وأعناق عدد من الامراء الذين دخلوا في الباطنية . ثم انبثوا في المدينة ، وشرعوا يقتلون كل من كانوا يجدونه منهم ، اذ كانوا يعرفونهم جميعا . لأن الباطنية كانوا ، بقوة الامير وعزمه ، يجاهرون بمذهبهم ويدعون الناس اليه علانية » .

وفي اليوم نفسه ، ارسل نوح اميرا على راس جيش يعبر به جيحون الى مرو الروذ بأقصى سرعة ، للقبض على ابن سوادة وقتله . وبعد ذلك ، يشرعون سيوفهم ، فيقتلون كل من يتعرفون عليه ويجدونه من الباطنية في خراسان ، سواء كان من الجيش أم من الرعية . وأوصاهم بأن يؤمنوا الناس ، لئلا يقتل مسلم خطأ ، واقسم بأن من يقتل مسلما : « سأقتله ولا اقبل له اي عذر » .

وقضى رجال نوح سبعة ايام بلياليها يطوفون في بخارى ونواحيها يقتلون الباطنية وينهبون ثرواتهم ، حتى لم يبق منهم احد في خراسان وما وراء النهر سوى أولئك الذين لم يجرءوا على المجاهرة باعتناقهم الباطنية . وقضي على هذا المذهب بخراسان .

## قدوم الباطنية الى ارض الشام

## والمغرب وفسادهم هناك

ونأتي الى الكلام على الشام فنقول : كان لعبد الله بن ميمون ابن اسمه أحمد. فلما مضى عبد الله الى البصرة ، وأخذ يدعو الناس فيها سرا ، ثم مات هناك ، والقي بروحه الخبيثة في جهنم ، نهض ابنه احمد وصار الى الشام ، ومنها الى المغرب . ولما لم يلق فيها آذانا صاغية ، عاد الى الشام ، واقام في مدينة يقال لها

« سليمة » (١) يشتغل بالبزازة (٢) . وولد له ثمة ابن اسماه محمـدا . واسلم احمد الروح ، فمضت مسرعة الى النار ايضا . ولما كان ابنه محمد صغيرا ، خلفه أخوه سعيد بن الحسين الذي ترك الشام الى جانب المغرب حيث غيَّر اسمه الى عبد الله بن الحسين ، ثم بعث برجل من اصحابه وهو ابو عبد الله المحتسب (٣) نائبا عنه الى بني الاغلب ــ وكان اكثرهم سكان بادية ــ في النواحي التي كانوا يقطنونها . ودعا اهل تلك المناطق الى هذا المذهب ، فدخل فيه منهم عدد كبير . حينئذ امرهم بأن : « ادعوا الى المذهب بالسيف ، واقتلوا كل من لا تجدونه عليه ». فصدعوا للامر ، وتجمع خلق كثير من بنـي الاغلب ، وشرعوا يهاجمون المـدن والنواحـي ويغيـرون عليهـا ، ويدخلونهـا ، ويعيثـون فـي اهلهـا قتـلا ويستولون على المدن الواحدة تلو الاخرى الى ان دانت اكثر بلاد المغرب لهم ، وخضعـت لسيطرتهم .

فما كان من زكروية الذي كان يقال له « صاحب الخال » والذي كان يحكم بعض مدن الشام الا ان ارسل « علي وهسودان الديلمي » قائد جيشه الاعلـى ــ وكان سنيا ــ بجيش الشام الى ابي عبد الله المحتسب فجأة .. ففر ابو عبد الله ، واعمل جيش علي السيف في بني الاغلب ، وقتلوا منهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وشتتوا شملهم في بقاع الارض . اما ابو عبد الله ، فحل في مدينة من مدن بني الاغلب ، والقى عنه الطيلسـان (٤) ، وأخذ يعيش عيشـة المتعبديـن الصالحين . وكان اهل تلك المدينة يعاملونه معاملة حسنة ويكرمونه ، وصاحب الخال يرسل رسله اليهم باستمرار ليبعثوا به اليه ، لكنهم لم يرسلوه ، بل كانوا يلتمسون لذلك الاعذار ، في حين كان ابو عبد الله يخشى أن يخاف بنو الاغلب من

---

(١) كذا في نسخة شعار ( ص ٣٣٩ ) ، لكنه أثبتها في تعليقاته « سلمية » وقال : « مدينـة قرب حمص بالشام » ( ص ٤٢٨ ) . وفي نسخة دارك : « سلمى » ( ص ٢٩٦ ) وفـي اقبال : « مسلمية » ( ص ٢٧٣ ) . لكن اسمها الصحيح كما ورد في كتب البلدان والتاريخ : « سلمية » ( بفتح الاول والثاني وسكون الميم ) . ولتسميتها قصة ذكرها ياقوت . لكـن اهل الشام لا يعرفونها الا بسلمية . كانت بليدة في ناحية البرية من اعمال حماة ، وكانـت تعد من اعمال حمص ( معجم البلدان ) .
والسلمية اليوم ــ وهي التي كانت قاعدة من قواعد الاسماعيلية ــ بلدة شرقي نهر العاصي، سكانها نحو ستة آلاف نسمة . والسلمية ايضا قضاء في محافظة حماة بسورية .

(٢) البزازة : من البز ، وهي الثياب ، وقيل ضرب منها . والبزازة تجارة البزاز او حرفتـه . ( اللسـان ــ بـزز ) .

(٣) هو ابو عبد الله المحتسب الصوفي الحسين بن احمد بن محمد بن زكريا المعروف بأبـي عبد الله الشيعـي الذي قيـل انه كان مـن اهل المشرق . ( انظـر : عطا ملك الجويني ، تاريخ جهانكشاي ــ القسم الخاص بالاسماعيلية ص ١٦١ ــ ١٦٢ . « الترجمة العربية »، وحواشي ٢ و ٣ ص ١٦٢ للمترجم . وقد ترجم هذا القسم من الكتاب الى العربية الدكتور محمد السعيد جمال الدين ونشره ذيلا لكتابه « دولة الاسماعيلية في ايران » . القاهرة ١٩٧٥ ).

(٤) الطيلسان : يقال انه معرب « تالشان » ، وجمعه طيالسة . وقيل : انه ثوب يلبس على الكتف . كما قيل انه ثوب يحيط بالبدن ينسج للبس خال عن التفصيل والخياطة . ( فرهنك نفيسي ، ومعرب الجواليقي ٢٢٧ ) .

صاحب الخال ويسلموه اليه . واستقر به المقام أخيرا في جزيرة من جزر بني الاغلب وبنى له فيها منزلا . وظل بنو الاغلب يبعثون اليه بزكاتهم . ولما مات خلفه ابنه ، وظلت قاعدة المذهب واساسه هناك امدا طويلا .

## خروج الباطنية في نواحي هراة وغور وهلاكهم

وفي عام ٢٩٥ لهجرة النبي (ص) ارسل والي هراة محمد بن هرثمة الى الامير العادل اسماعيل بن احمد الساماني ، يقول : « ان رجلا يكنى بأبي بلال خرج في سفوح جبال غور وغرجه مجاهرا بمذهب القرامطة ، وان الناس — من كل الطبقات — قد التفوا حوله . لقد سمى داره « دار العدل » وهرع اليه خلق كثير مننواحي هراة يزيد عددهم على عشرة آلاف رجل لمبايعته . ان تتجاهل امره أو تهمله ، فسيلتف حوله اضعاف هذا العدد . وحينئذ يتفاقم الامر ، وتشتد البلية . ويقال ان ابا بلال هو احد ندامى يعقوب بن الليث ، وهو يدعو الى المذهب نيابة عنه » (١) .

فلما بلغ الامير اسماعيل هذا ، قال : « يبدو ان دم ابي بلال هذا يغلي (٢) »، ثم أمر « زكرى » الحاجب ان : « تخير خمسمائة غلام من بين الغلمان جميعا ، كل واحد منهم اجلد من الآخر واشجع ، وليعطوا مالا ، ثم اجعل عليهم « تيقش » قائدا، فهو غلام المعي ، وليعط عشرة آلاف درهم . وحمّل خمسمائة درع على البغال ، ثم ايت بهم غدا الى « جوي مولتان » (٣) كيما أراهم ، ولكي تذهبوا من أمامي الى هناك » . ونفذ الحاجب زكرى ما امر به . ثم أمر الامير اسماعيل ايضا بكتابة رسالة الى ابي علي المروروذي تقول : « زوّد اعوانك بالمال ، واخرج من المدينة قبل ان يصل غلماني اليك ، ثم امض معهم الى هراة ، والتحقوا جميعا بمحمد بن هرثمة هناك » .

وكتب الى محمد بن هرثمة : « جهز جيشك ، واخرج من المدينة الى ان يصل اليك تيقش وابو علي » . وقطع لتيقش عهدا على نفسه ، فقال : « سأوليك ولاية ، حين تصل اليّ من محمد بن هرثمة رسالة تنبيء بأن الفتح قد تم على يديك » . اما الغلمان الآخرون ، فخاطبهم بقوله : « ان هذه الحرب ليست كالحرب مع علي بن شروين (٤) ، أو عمرو بن الليث او محمد بن هارون (٥) ، فقد كان لنا

---

(١) أنى يكون هذا ، وقد مات يعقوب بن الليث عام ٢٦٥هـ ؟

(٢) ترجمة للمثل الفارسي : « جنان دانم كه ابو بلال راخون به جوش امده است » .

(٣) في طبعتي شعار ودارك « جوى مولتان » ( بالتاء ) ، وهو تصحيف . والصحيح « جوى موليان » ( بالياء ) كما في نسخة اقبال الذي يقول انه كان احد روافد جيحون قرب بخارى ( حاشية ١، ص ٢٧٥ ) . و ( جوى موليان ) ايضا محلة كانت ببخارى ، عرفت بنقاء جوها وحسنه ، وظلت قائمة الى عهد السامانيين ( الترشخي : تاريخ بخارى ، ص ٤٧ ـ ٤٨ ، الترجمة العربية . دار المعارف بمصر ) .

(٤) علي بن شروين : كان القائد الاعلى لجيش عمرو بن الليث الصفارى . وقد وقع في قبضة الامير الساماني اسماعيل في حربه معه ( اقبال : حاشية ٢ ص ٢٧٥ ) .

(٥) محمد بن هارون السرخسي : كان قائد الامير اسماعيل الساماني في فتح طبرستان . لكنه =

هناك عدد وعدة . لقد اعتمدتكم وحدكم في مهمة ، هي ان خارجا ظهر في سفوح جبال هراة ، واظهر مذهب القرامطة علانية . ان معظم اتباعه من الرعاة والزراع . انني ساخلع عليكم الخلع واصلكم جميعا بالصلات ، وارفع من مراتبكم ودرجاتكم بعد الانتصار والفتح الكبير » . ثم ندب كاتبا ذكيا بارعا لتولي شؤونهم الديوانية .

لما وصل تيقش بالغلمان الى مشارف مرو الروذ ، انضم اليهم ابو علي برجاله في الحال ، واستلم مفارق الطرق ، حتى لا يلقف الخارجون اخبارهم . ولما وصلوا الى هراة ، خرج محمد بن هرثمة بجيشه حالا ، واستولوا على مفارق الطـرق ، لئلا يعلم ابو بلال بأمرهم . ثم صاروا جميعهم الى الجبل ، وقضوا ثلاثة أيام بلياليها يخترقون المسالك الصعبة والمنافذ الوعرة ، والقرامطة في سبات وغفلة . وشرعوا سيوفهم ، واعملوها في القرامطة الى ان قتلوهم جميعا ، وقبضوا على ابي بلال وحمدان و « توزكارا » ، وعلى عشرة اخرين من زعمائهم . ثم عادوا الى بخارى في مدى سبعين يوما . واقتيد ابو بلال الى سجن « قهندز » ، وظل رهينة الى أن مات .

اما الآخرون (١) ، فأرسلوا الى بلخ وسمرقند وفرغانه وخوارزم ومرو ونيسابور ، وغيرها من المدن الاخرى ، واعدموا فيها شنقا . فاستؤصلت بهذا جذورهم من غور وغرجه مرة واحدة . وفي هذه السنة (٢) ايضا ، مات الامير العادل اسماعيل ، فتولى مكانه اخوه نصر بن احمد (٣) الذي اسلفنا الكلام عليه ، والذي كان قد صار الى الباطنية .

---

= بعد سنة ونصف من حكمه فيها ، اعلن العصيان على اسماعيل الذي توجه اليه عام ٢٨٨هـ لدفعه ، فغلبه اسماعيل وسيطر عليه ( اقبال : حاشية ٢ ص ٢٧٥ ) .

(١) ترجمت هذه العبارة عن نسخة اقبال ( ص ٢٧٦ ) لتناسبها مع العبارة السابقة : « وقبضوا على ابي بلال وحمدان وتوزكارا ، وعشرة اخرين ... » . اما ما جاء في نسختنا المعتمدة ( ص ٣٤٢ ) ونسخة دارك أيضا ( ص ٢٩٩ ) فعلى نقيض معها ، أي مع عبارة الاصل . وعبارة النسختين الاخريين الفارسية ، هي : « ... وبازده تن ديكر رابه بلخ وسمرقند ... فرستادند » وترجمتها الحرفية : « اما العشرة الاخرون ، فأرسلوا ايضا الى بلخ وسمرقند ...» فهذه الجملة تغفل ما حدث لحمدان وتوزكارا !!

(٢) أي سنة ٢٩٥هـ .

(٣) هذا خطأ تاريخي ايضا . فلما توفي الامير العادل اسماعيل بن احمد عام ٢٩٥هـ خلفه ابنه احمد ( ٢٩٥- ٣٠١هـ ) وتلاه نصر بن احمد عام ٣٠١هـ . لقد اختلط الامر على نظام الملك ، فخلط بين نصر بن احمد اخي اسماعيل الذي عهد له بالحكم بعده ، وبين نصر بن احمد حفيد اسماعيل ( أي نصر الثاني ) ، وهو ثاني من تولى امارة السامانيين بعد اسماعيل ، لا الثالث كما ذهب اقبال وتابعه جعفر شعار . ( انظر : اقبال حاشية ص ٢٧٦ ، وشعار حاشية ٢ ص ٣٤٢ ، وتعليقات دارك ص ٣٤٤ ) .

## خروج الباطنية من جديد بخراسان
## وما وراء النهـر وهلاكهم

لما وضع نوح بن نصر (١) والده في الاغلال والقى به في السجن ، سقاه السم هناك ، ليأمن قادة الجيش شره ويرتاحوا منه الى الابد . وظل نوح يدير دفة الحكم سنوات . ولما انتقل الى جوار ربه ، تولى ابنه منصور (٢) الحكم بعده ، وسـار سيرته . وبعد مرور خمسة عشر عاما على عهده ، أخذ الدعاة يبثون — من جديد — دعوتهم في خراسان وبخارى ، ويحرفون الناس عن سواء السبيل . فكان اكثرهم استجابة لهم ، أولئك الذين قتل آباؤهم واجدادهم في سبيل هذا المذهب .

وفي عهد الامير السديد منصور : كان ابو علي البلعمي (٣) وزيره ، والبتكين (٤) والخواجة سبكتكين (٥) قائدي جيش خراسان ، ومنصور بايقرا الحاجب الكبير ، وابو يحيى بن الاشعث واليا على فرغانة (٦) ، والسرهنك حسين واليا علـى اسبيجاب واسماعيـل واليا علـى الشاش (٧) ، وابو منصور عبد الرزاق (٨)

---

(١) أي نصر بن احمـد ( نصر الثاني ) .

(٢) هذا خطأ تاريخي اخر ، لان الذي تولى الحكم بعد نوح مباشرة ابنه الاكبر عبد الملك الذي حكم سبع سنوات خلفه منصور بن نوح بعدها . ( تعليقات دارك ص ٣٤٤ ثـم انظر : حاشية ص ١١٠ من هذه الترجمة أيضـا ) .

(٣) هو ابو علي محمد بن محمد البلعمي ، أبوه أبو الفضل البلعمي وزير السامانيين المعروف الذي وزر لاسماعيل وابنه احمد ، ونصر بن احمد . اما أبو علي فتولى وزارة السامانيين في اواخر عهد عبد الملك بن نوح ، ثم وزر لمنصور بن نوح من بعده . وكان له الفضل بأن ترجم تفسير الطبري و « تارخه » الى الفارسية . وفي وفاته اختلاف كبير . قيل عام ٣٦٣هـ ، وقيل عام ٣٨٣هـ ( دايرة المعارف فارسي ، وفرهنك فارسي ) .

(٤) البتكين : كان مملوكا سامانيا في اول امره ، لكنه وصل الى الامارة في عهـد عبد الملـك بن نوح الساماني الذي ولاه طخارستان ، وكان يرافقه سبكتكين . وبعد مدة توجه برفقة سبكتكين ايضا الى غزنين وغلب واليها وتولى حكومتها لمدة ثماني سنوات . خلفه ابنه اسحاق بعد وفاتـه ( فرهنك فارسي ) .

(٥) سبكتكين : كان غلاما تركيا ممن بيعوا الى البتكين واصبح صهره فيما بعـد . كان يلقب بناصر الدولة ، وهو مؤسس الدولة الغزنوية . توغل في الهند ، واستولـى على خراسـان وحكمها . وكانت علاقته مع السامانيين حسنة . كان أميرا شجاعا عادلا مدبرا . توفي عـام ٣٨٧هـ ( فرهنـك فارسـي ) .

(٦) فرغانة : كانت فرغانة احد اقاليم ما وراء النهر . وهو يقع اليوم في تركستان الروسية . وقد اعادت اليه الحكومة الروسية اسمه القديم بعد ان كان يعرف الى وقت قريب باسـم « خانية خوقند » ( بلدان الخلافة الشرقية ٥٢٠ وفرهنك فارسي ) .

(٧) الشاش : معرب ( جاج ) الفارسية . ناحية كانت تقع على ضفة نهر سيحـون اليمنى ، موضع الخرائب التي تعرف اليوم بطشقند القديمة مركز جمهورية ازبكستان السوفيتيـة ( بلدان الخلافة الشرقية ٥٤٣ وفرهنك فارسي ) .

واليا على طوس ، ووشمكير واليا على جرجان . أما الامراء الذين كان مقرهم البلاط ، فكانوا : ينداج (١) (؟) ، ونصر ملك ، وحسن ملك ، وابو سعيد ملك ، وحيدر الجغاني ، وابو العباس الجراح ، وبكتوزون (٢) ، وتكينك ، وخمارتكين ، واضرابهم . وباختصار ، فان « منصور بايقرا » وابا سعيد ملك ، وابا العباس الجراح ، وخمارتكين ، وتكينك ، وابا عبد الله الجيهاني (٣) ، وجعفرا ، قد صاروا الى الباطنية سرا . وكان لهذا الفريق داعيان : احدهما ، ابو الفضل رنكرز البرديجي والآخر رجل أعور اسمه عتيق .

لقد كانت شؤون القصر والبلاط والديوان ومقاليدها بيد هذه الطائفة التي كانت تمسك على ازمة الامور في المملكة . لقد كانوا يمدون يد العون الى اتباع مذهبهم سرا ، وكانوا يصرفون الاعمال بأنفسهم ، ولا يولون احدا غيرهم عملا ما لم تزد الاعمال في كثرتها وتراكمها على طاقتهم . وكانوا يشدون أزر بعضهم في الديوان وغير الديوان ، ويتعاونون ويتكاتفون . فكانوا اذا ما تورط احدهم في شيء ، يقفون الى جانبه ، ويخرجونه من ورطته تلك . فكانت النتيجة ان قوتهم وعددهم كان يزداد يوميا . لقد كان منهم واحد في كل مكان من خراسان وما وراء النهر، فاتفقوا جميعا ، وتمكنوا بمساعدتهم ان يجهروا بدعوتهم . وذاع امرهم ، فظن الناس في النواحي والاطراف ان اهل الحضر (٤) ، جميعا اصبحوا باطنية . ثم دخل ابو منصور عبد الرزاق في الباطنية ايضا .

وكتب باطنية الحضرة الى المبيضة (٥) في فرغانة وخجند (٦) وكاشان رسالة

---

(٨) هو أبو منصور محمد بن عبد الرزاق الطوسي الذي كان يرجع بنسبه الى ملوك ايران القدماء قبل الاسلام . ولي طوس مدة ، ثم تسلم قيادة جيش خراسان العليا . قتل في حربه مع ابي الحسن تيمور عام ٣٤٩ هـ او ٣٥٠ ( دائرة المعارف فارسي ، وفرهنك فارسي ) .

(١) لقد شك المحقق الدكتور جعفر شعار في رسم هذا الاسم وكتابته ، فوضع امامه علامة استفهام.

(٢) بكتوزون : اصله التركي ( بك طوسن ) ومعناه العجل القوي . كان يكنى بأبي الفوارس او ابي الحارث ، ويلقب بسنان الدولة . تولى قيادة جيش خراسان على عهد منصور بن نوح الساماني. أسره ايلك خان عام ٣٨٩هـ وارسل الى أوزجند ومات في حبسه هناك (دائرة المعارف فارسي ، واخباره في : العتبي ١ : ١٩٣ كما يذكر محقق كتاب الفرق بين الفرق . حاشية ٥ ص ١٧٢ ) .

(٣) أبو عبد الله الجيهاني : هو ابو عبد الله ، محمد بن احمد الجيهاني . تكفل تأديب وتعليم وتربية الامير نصر بن احمد الساماني وتعهد ولايته قبل ان يصل الى سن البلوغ . يقال انه لما نال الوزارة كتب رسائل الى شتى الاقطار يطلب دساتيرها وقواعد الحكم فيها لينتخب افضلها لبلاط بخارى . ويقال انه كان له كتاب في « المسالك والممالك » . وكان يتهم بالثنوية والزندقة ( دائرة المعارف فارسي ) .

(٤) الحضرة: العاصمة. مركز الخلافة او الامارة . واللفظة كثيرة الدوران في كتب التاريخ القديمة.

(٥) المبيضة ( بكسر الياء ) : هم المقنعية اصحاب المقنع ( انظر : الفرق بين الفرق ١٠٠ وما بعدها ) . سموا بذلك لتبييضهم ثيابهم خلافا للمسودة ( بكسر الواو ) من اصحاب الدولة العباسية . ( اللسان ـ بيض ) .

(٦) جيحند او خجنده : كانت اول مدن اقليم فرغانة من الغرب على ضفة سيحون اليسرى، وهي =

تقول : « لتخرجوا ، فمقالتنا ومقالتكم في اصلهما سواء ، وسنخرج نحن ايضا . لتكن خطتنا القبض على الامير اولا ، ثم ننضم الى بعضنا ، ونخضع الولايات الواقعة على هذا الجانب من جيحون ونستولي عليها ، وبعد ذلك نتوجه صوب خراسان . وتآزروا ، ووحدوا مع ابن بايقرا (١) كلمتهم ، ثم نموا على ابي علي البلعمي الوزير ، وعلى الامير بكتوزون الى الامير السديد منصور ، واوغروا صدره عليهما ، لانهما كانا مسلمين صالحين ، ولان الغلمان جميعهم كانوا بامرة بكتوزون . فما كان الا ان امر منصور بسجن الاثنين في « قهندز » ووضعهما في السلاسل والاغلال ، فاختلت بذلك شؤون الدولة أيما اختلال .

لما راى البتكين ان اكثر الامراء الخواص ، وارباب القصر ، واهل الحضرة ، قد اعتنقوا مذهب القرامطة ، وان هذين الرجلين المسلمين محبي خير الملك — كما كانوا يقولون هم — اوصدا في الاغلال بسعاية القرامطة ، ترك نيسابور الى بخارى ليطلع الامير على حقيقة الحال ، كيما يتدبر الامور ويستولي على ازمتها . غير ان أبا منصور عبد الرزاق الذي كان اميرا على طوس ، وكان ذا نفوذ وصاحب جيش عرمرم وآلات وعدة وغيرة ، سارع في التصدي لالبتكين ورصد له الطريق ليحول دون وصوله الى البلاط ، وليشتبك في حرب معه . فلما علم البتكين بهذا غيّر طريقه الى طريق « شيرورره » (٢) الى ان وصل الى ساحل جيحون ، ونزل في آموى ( آمل ) .وعاد أبو منصور عبد الرزاق ، ثم كتب « ملطفة » (٣) الى ابن يقرا ورهطه فيها « انما جاء البتكين ليفسد عليكم امركم » . فوحد القوم كلمتهم ، وصوروا للامين ان : « البتكين قد عصاك ، لانه لم يكن ليأت الى القصر قط الا بعد ان تستدعيه عدة مرات . انه انما يجيء الآن عاصيا مخالفا ، ولقد وصل الى شاطىء جيحون فجأة ، وهو ينوي العبور . كل هذا دون ان تستدعيه » . فوجه الامير بك ارسلان الحميدي وحسن ملك على راس جيش صوب جيحون ، فسحبوا السفن من الطرف الآخر للنهر حتى يفوتوا على البتكين فرصة العبور .

لما رأى البتكين انهم لن يمكنوه من العبور ، كتب الى الامير رسالة بيّن فيها سبب مجيئه ، قال : « لقد اعتنق اكثر خاصتك وارباب بلاطك وديوانك مذهب القرامطة الذي صار اليه العظيم والحقير ، وهم يدبرون للخروج . لقد كان في

---

= اليوم مركز جمهورية ازبكستان السوفياتية وعاصمتها ، ويقال لها ستالين آباد ( بلدان الخلافة الشرقية ٥٤٤ وفرهنك فارسي ) .

(١) أي منصور بن يقرا .

(٢) كذا اثبتت في نسختنا ، ونسخة دارك ( ص ٣٠١ ) ايضا . وقد وقف دارك عندها شاكا ، ولم يهتد الى موقعها ( التعليقات ص ٣٤٤ ) . وقد بحثت عنها في كتب البلدان فلم اوفق الى اي شيء ، واغلب الظن انها مصحفة .

(٣) الملطفة : كلمة فارسية تطلق على الرسائل القصيرة ، وتكون في الامور العاجلة على الاكثر ( تاريخ البيهقي . الترجمة العربية ص ٨٠٥ نقلا عن : غني - فياض ص ٣ حاشية ٤ ) . والملطفة كالتوقيعات في العربية .

دولتك كلها رجلان مسلمان ، محبان خيرك ونفعك — بقولهم هم — ، لكنك غيبتهما في السجن بوشاية القرامطة . انما جئت لأتدبر امرهم ، فاذا ما اعرضت عن كلامي والقيت الى القرامطة اذنا صاغية ، فستلقى جزاءك غدا ، اللهم اني قد بلغت الامير ، وهانذا ذاهب الى بلخ » . ثم كتب رسالة اخرى الى قاضي بخارى وعلمائها ، تقول : « لقد اشتدت شوكة القرامطة ، وان خروجهم لوشيك جدا ، والامير في غفلة . لقد كتبت اليه ، اما انتم فما عليكم الا ان تقدموا له النصح ، كيما يظل الدين والملك ثابتين على ما هما عليه » . ومضى الى جانب بلخ ، ووصلت الرسالتان .

لقد كان القاضي ابو احمد وائمة بخارى على علم بهذه الحال ، لكنهم لم يجرؤوا على قول اي شيء في الموضوع آنذاك ، لان اغلب خاصة الامير كانوا من هذه الفرقة . وقالوا : « ربما لا يصغي الامير الى اقوالنا فيهم ، فيتحولون ، ولكل منهم ولايته وجيشه ونعمه وحشمته ، الى خصوم لنا » . غير ان القاضي ابا احمد، ذهب مع صلاة العصر هذه المرة الى قصر الامير والتمس الاختلاء به ، فاستدعاه الامير وجلس اليه وحيدا . فقال القاضي : « النصح والارشاد من واجب العلماء . لقد كان ابوك الامير الحميد نوح ، رحمه الله ، يجالس العلماء دائما ، ولم يقم بأي عمل دون ان يتدبره معهم . ولا جرم ان استقام به ما كان قد اعوّج من الامور . اما انت ، فلأنك لا تجالس اهل العلم الا قليلا ، فقد اعوّج على عهدك ما قوّمه هو » . وعرض عليه رسالة البتكين ، ورسالة اخرى موقعة من الائمة في هذا المعنى ، ليعلم الامير انه — اي القاضي — لا يقول هذا الكلام من تلقاء نفسه . ثم قدم هو النصح اليه ايضا ، وحدثه في اشياء أيقظه بها من سباته . وفي اليوم التالي ، وصل خبر خروج المبيضة بفرغانة ، وانهم يقتلون من يجدون من المسلمين . وفي اليوم التالي له ، وصل من جانب خراسان خبر اعلان القرامطة مذهب السبعية في طالقان وسفوحها ، وانهم كانوا يعيثون فيها فسادا وقتلا . فما كان من الامير السديد منصور الا ان عرض الوزارة على القاضي ابي أحمد ، لكنه ابى ذلك ، وقال : « ان اتربع على الوزارة ، فأنى للامير اليوم من يقدم له النصح والارشاد خالصا لوجه الله ؟ هذه واحدة ، واخرى ان ذوي المآرب والاطماع الخاصة سيقولون : ان القاضي لم يفعل ذلك الا طمعا بالوزارة ، لا حبا في الدين والامير ». فراق منصور هذا ، وقال « كيف السبيل اذن الى الوزير الذي نريد ؟ » . قال القاضي : « ان للامير وزيرا مسلما كفؤا ، وابن وزير ، وأهلا للوزارة أيضا » . قال منصور « أين ؟ » قال القاضي : « سجين في قهندز » . فأمر منصور باحضار ابي علي البلعمي وبكتوزون من السجن . وسيّر اليهما في اليوم نفسه من اتى بهما فأعيدا الى عمليهما السابقين باتم آيات الاحترام والاعزاز والقوة .

وفي اليوم التالي ، اختلى الامير والوزير القاضي وبكتوزون ، فأحيط الامير علما بالاحوال من قريب ومن بعيد ، واتفقوا على التخلص اولا من مقنعي فرغانة

والصغد (١) الذين كانوا يعرفون بالمبيضة ، ومن قرامطة الطالقان ، ثم التفرغ الى ابي منصور عبد الرزاق ، واخيرا الى الخاصة ومتصدي سدنة القصر .

وفي اليوم الثاني ، مضى العلماء الى سراي الوزير برسائل العمال في المدينة متظلمين وطلبوا اليه ان يوافي الامير بخروج القرامطة . غير ان ابا علي تباطأ عمدا حتى قال العلماء : « انه لن يتوانى اذا لم يكن يناصرهم ويساندهم » . فأخبر ابو علي الامير امام الملأ ، فأمره باقامة محفل يحضره زعماء القرامطة والعلماء ليتناظروا فيما بينهم ، ثم تطبق عليهم ما يترتب على ذلك من احكام الشريعة والاسلام . وفي اليوم التالي ، اقام ابو علي البلعمي محفلا في قصر الامير دعا اليه ابا احمد المرغزي قاضي الحضرة ، وكافة أئمتها وأعيانها . وارسل من اتى بزعماء القرامطة والمعروفين من متكلميهم . وتبين من المناظرة انه لم تكن لدى القرامطة اقوال تتفق هي واصول الشرع ، فكان ان جلد عتيق الاعور مائة جلدة وارسل الى خوارزم ليموت في سجنها ، وجلد ابو الفضل رنكرز مائة جلدة ايضا ، وارسل ومعه زوجه واولاده الى آموي حتى يموت هناك كذلك .

ثم ارسل بكتوزون وابو القاسم الذي كان وكيلا لفارس وخوزستان (٢) بجيش الى طالقان . ولقد قبضا — علاوة على من قتلا — على اربعمائة رجل معروفين ممن اعترفوا بقرمطيتهم ، وغنما ستين الف دينار ، واتيا بمائة الف درهم الى بيت المال . وارسل الاسرى ، بأمر من القصر الى قضاة فارس وخوزستان ، الى الحضرة ، وهناك اعدم قسم منهم ، واودع القسم الاخر السجن الى ان ماتوا .

ولما فرغوا من امر طالقان ، ندبوا اسحاق البلخي وبك ارسلان الى فرغانه ، وارسل معهم الفقيه ابو محمد لتبصيرهم بأمور الشرع . وبعد الفتح ، دخلا — اسحاق البلخي وبك ارسلان — فرغانة وهزما جموع القرامطة ، فقتلوا بعضهم ، وصادروا اموال اخرين ، في حين اقر بعضهم بجهلهم وخطاهم واعلنوا توبتهم . ولما عرض عليهم الاسلام قبلوه ودخلوا فيه ، وارتدوا عن ذلك المذهب . ثم عاد الجيش الى بخارى بالغنائم الوفيرة . ولما سئل ابو محمد الفقيه : « كيف كان مذهب المقنعية ؟ » . اجاب : « كانوا يبيحون الفروج فيما بينهم دونما حرج ، وكان اذا ما اراد احدهم ان يتزوج امراة ، فلا مندوحة من ان يدخل بها رئيسهم اولا ، ثم زوجها . لقد احلوا الخمر ، ولم يكونوا يغتسلون من الجنابة ، ولقد اباحوا مواصلة الام والاخت والابنة ، وانكروا الصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد » .

---

(١) الصغد : هو الاقليم الذي كان يشمل الاراضي الخصبة في ما بين نهري جيحون وسيحون . وقيل انه كان اسما للرساتيق المحيطة بسمرقند ، لان كلا من بخارى وكش ونسف كانت كورة بذاتها . كان الصغد يعد احدى جنان الدنيا الاربع ، وقد بلغ اوج ازدهاره في النصف الاخير من الاخير من المئة الثالثة في ايام الامراء السامانيين . ( بلدان الخلافة الشرقية ٥٠٣ ) .

(٢) أبدى دارك شكه في الاصل الفارسي لهذه الجملة ، وهو « وكيل بارس وخوز بود » ، ورجح انه ربما تسرب اليها التحريف والتصحيف ( التعليقات ٣٤٤ ) .

ولما فرغوا من هؤلاء جميعا ، اجتمع الامير السديد منصور والوزير وبكتوزون والقاضي فقط للتداول في كيفية القضاء على من في البلاط والديوان وخواص الامير ممن اعتنقوا مذهب القرامطة ، وكيفية القضاء على ابي منصور عبد الرزاق ، وتطهير خراسان والعراق وما وراء النهر من القرامطة دفعة واحدة . واتفقوا — لخروج البتكين من خراسان واقامته بغزنين ، ولان ليس ثمة في خراسان اليوم من هو اقوى من ابي منصور عبد الرزاق امير طوس — على تطهير الحضرة ، التي هي مقر الامير من القرامطة ، اولا ، والتفرغ لابي منصور والاماكن الاخرى بعد ذلك . ثم اسندت قيادة جيش خراسان الى ناصر الدولة ابي الحسن سيمجور (١) ، واستدعى بجيش خراسان كله الى القصر . ولما وصل الى الحضرة استطاع الامير واعوانه ان يقبضوا ، بقوته ، على كل من صار الى القرامطة من الخاصة والكتبة جميعا . ثم سلبوهم اموالهم كافة ، وقتلوهم كلهم . بعد ذلك بعثوا ابا الحسن سيمجور بجيش خراسان لقتال ابي منصور عبد الرزاق والقبض عليه . ثم كتبوا رسائل الى أمراء الاطراف ، والى « وشمجير » (٢) ليأتي من جرجان بجيش تنضم اليه باقي الجيوش ، ثم تمضي معا لمحاصرة طوس ، والقبض على ابي منصور ، وقتل من تجده من القرامطة هناك .

لما راى ابو منصور — وقد كان مريضا — الجيوش تضرب الحصار على طوس ، فر الى جانب جرجان . غير ان وشمجير طلع له في الطريق ، فاشتبكا في قتال ضار من الضحى الى صلاة العصر ، خارت معه قوى ابي منصور وفت في عضده لضعفه ومكابدته المرض ، فنزل عن جواده ، واسند راسه الى احد غلمانه واسلم الروح حالا . فانهزم جيشه واطلق ساقيه للريح . وامر وشمجير بفصل راس ابي منصور عن جسده ، ثم اخذ جيشه يطاردون فلول المنهزمين يقتلون ويأسرون الى صلاة المغرب . واستولوا على متاع ابي منصور وخزانته جميعا ، فبعث بها وشمجير ومعها مائة وثمانون اسيرا الى الامير السديد في الحضرة . بعد ذلك اطبق ابو الحسن سيمجور على الولايات من طرف ، ووشمجير وقابوس (٣)

---

(١) هو محمد بن ابراهيم بن سيمجور . كنيته ابو الحسن ، ولقبه ناصر الدولة ، مؤسس أسرة السيمجوريين . خدم اسماعيل بن احمد الساماني ، ثم تدرج في المناصب من قائد اعلى الى حاكم ولاية ، وخاصة خراسان ، لكنه عانى من العزل أيضا . خاض غمار حروب عديدة خاصة مع العلويين ( دايرة المعارف فارسي ، وفرهنك فارسي ) .

(٢) وشمجير : معرب وشمكير أي « صائد السمان » . ( غلام حسين يوسفي : تعليقات قابوسنامه ٤٣٦ ) . ووشمجير هو ظهير الدولة ابو منصور بن زيار . حكم من سنة ٣٥٦هـ ، وتولى بعده ابنه بيستون الذي مات بعد احدى عشرة سنة من توليه ، فخلفه اخوه قابوس ( فرهنك فارسي ) .

(٣) هو قابوس بن وشمجير السالف الذكر . كنيته ابو الحسن ، ولقبه شمس المعالي . كان رابع امراء آل زيار ( ٣٦٦ – ٤٠٣هـ ) في عزاق العجم وطبرستان وكا ناشهرهم . كان اديبا عالما فاضلا حسن الخط . وهو الذي ألف له البيروني كتاب « الاثار الباقية » . كان كاتبا وشاعرا بالفارسية والعربية ، وقد خلف فيهما رسائل واشعارا . ( فرهنك فارسي ) .

ابنه من الطرف الآخر ، واخذوا يقتلون القرامطة حتى انه لم يبق في خراسان وما وراء النهر قرمطي واحد . وغار هذا المذهب في بطن الارض دفعة واحدة ، ولم يعد لاحد من معتنقيه أثـــر .

## خروج محمد البرقعي بمذهب الباطنية
## في خوزستان والبصرة بجيش من الزنج

وفي سنـــة مئتين وخمس وخمسين هجرية ( ٢٥٥هـ ) خرج محمـــد بن علي البرقعي العلوي بالاهواز ، بعـــد أن أغوى زنوج خوزستان واهـــل البصرة عدة سنوات ، ودعاهم ومناهم بالوعود . لقد خرج مفيدا من تلك الوعود ، وانضم اليه الزنوج ، فاستولى على الاهواز اولا ، ثم البصرة وخوزستان جميعها . أما الزنوج فقتلوا « خواجاتهم » ووضعوا ايديهم على ثرواتهم ونسائهم وبيوتهم ، وهزمـــوا جيوش المعتمد (١) مـــرات .

وظل البرقعي يسود على البصرة وخوزستان اربع عشرة سنة واربعة شهور وستة أيام الى ان قبض عليه في نهاية الامر ، وقضي على الزنوج جميعا . وفي اخر صفر من عام ٢٧٠هـ اقتيد محمد البرقعي الى بغداد وفيها قتل . اما مذهبه ، فكان كمذهب مزدك وبابك وأبي زكريا (٢) والخرمية والقرامطة في كل شيء .

## خروج ابي سعيد الجنابي وابنه ابي طاهر
## خذلهما الله — في البحرين والاحساء

وفي عهد المعتضد أيضا ، خرج أبو سعيد ، الحسن بن بهرام الجنابي (٣) في البحرين والاحساء ، ودعا أهلهما الى مذهب السبعية الذي نسميه نحن الباطنية ، فأضلهم . وقوى امره ، ولما استحكم شأنه هناك اخـــذ يقطع الطرق ويغير على النواحي والاطراف ، واظهر الاباحة علنا ، واستمر على هذا المنوال شطرا مـــن الزمن الى ان اغتاله احد الخد م، مما جعل هذه الطائفة لا تعتمد الخدم او تركن اليهم في البحرين والاحساء بعد ذلك .

وتولى بعد أبي سعيد ابن له كان يكنى بأبي طاهر الذي أخذ نفسه بالصلاح حينا ، وكان يعرف شيئا من مقالة السبعية . وارسل ابو طاهر الى الدعاة يستفســر عن غاية كتابهم الذي كان يوسم بـ « البلاغة السابع » (٤) ، فأرسلوه اليه . ولما

---

(١) أي الخليفة المعتمد على الله ( ٢٥٦ - ٢٧٩هـ ) .

(٢) لعله ان يكون ابن ابي زكريا الطمامي ، وهو غلام فاجر ظهر في جنابة عام ٣١٩هـ ، ودعا الناس الى ربوبيته وعبادة النار ، وكان يقطع يد من اطفا نارا ولسان من اطفاها نفخـــا ( اثار البـــلاد ص ١٨٠ ) .

(٣) نسبة الى جنابة ، وهي بليدة على ساحل بحر فارس ( اثار البلاد واخبار العباد ١٨٠ ) .

(٤) كذا في طبعات الكتاب الثلاث. غير ان ابن النديم يذكر الكتاب باسم «البلاغات السبعة»، =

عنها ، ونهبوها قطعة قطعة ، وهم يـرددون ، باستهزاء ، أشياء مـن الآيات الكريمة : « ... ومن دخله كان آمنا ... » (١) و « ... وآمنهم من خوف (٢) » ويقولون ايضا : « لماذا لم تأمنوا شر سيوفنا وقد دخلتم الكعبة ؟! لو كان لكم اله ، لوقاكم جراحات سيوفنا وامنكم من خوفها ! » وغير هذا من عبارات الكفر . ثم استولوا على نساء المكيين وابنائهم واخذوهم سبايا معهم . اما القتلى ، فتجاوز عددهم عشرين الفا ، فضلا عمن القوا بأنفسهم في الآبار احياء ، حتى هؤلاء ، أمر ابو طاهر بالقاء القتلى فوقهم ليلقوا حتفهم ايضا . واما غنائمهم ، فكانت مائة الف بعير ، ومقادير لا حصر لها من الذهب والفضة والدنانير والقصب والمسك والعنبر وطرائف اخرى ثمينة . ولما عادوا الى الاحساء، بعثوا بهدايا من هذه الاموال الى الدعاة في كـل مكان .

لقد حلت هذه الكارثة بالاسلام في عهد المقتدر سنة ثلاثمائة وسبـع عشرة هجريـة (٣) .

ثم ارسل ابو طاهر هدية الى « ابي سعيد » بالمغرب الذي كان غلاما يهوديا رباه احد ابناء عبد الله بن ميمون القداح واسمه احمد الـذي كان قد تزوج مـن امه ، ثم علمه الادب والفضيلة ، وهيأ له سبيل الجاه والثروة ، وجعله ولـي عهده ، ولقنه اصول الدعوة وبصره برموزها واماراتها .

وبعد ذلك ، مضى ابو سعيد الى المغرب واقام بمدينة « سجلماس » (٤) . وهناك تعاظم امره ، وفرض المذهب على رقاب الخلق بالسيف ، وادعى انه المهدي، وانه علوي . ثم فرض على الناس خراجا باهظا ، وأحل الخمرة ، واباح الام والاخت والابنة ، ومضى يلعن المروانيين والعباسيين على رؤوس الاشهاد ، وامر اتباعه بلعنهـم ايضا .

ويطول بنا المقام لو اخذنا نذكر الدماء التي سفكها بغير حـق ، والعادات السيئة التي سنها اذ لا يتسع لها هذا المختصر . وقد ورد في كتب التاريخ ان هؤلاء الذين يتسنمون سدة الحكم في مصر من ابناء ابي سعيد (٥) .

ولما جاء « ابو طاهر بن ابي سعيد » (٦) الى الاحساء ، جمع الكتب السماوية من قرآن وتوراة وزبور وانجيل انى وجدت ، ورمى بها في الصحراء ، وقال : « لقد

---

(١) ال عمـران . ايـة ٩١ .
(٢) قريش . ايـة ٤ .
(٣) راجع في هذه الحادثة ايضا . تاريخ اخبار القرامطة ٥٣ ـ ٥٥ ثم انظر : القزويني ، اثار البـلاد واخبار العباد ص ١١٨ .
(٤) كذا في النسخة المعتمدة ( ص ٣٥٥ ) وفي نسخة دارك ( ص ٣٠٩ ) ايضا . والصحيـح ـ وكما ضبطت في طبعة اقبال ص ٢٧٩ ـ « سجلماسة » . وهي مدينة كانت تقع في جنوبي المغرب في طرف بلاد السودان في جنوبي مدينة فاس الحالية .
(٥) يقصد بهؤلاء الخلفاء الفاطميين في مصر ( اقبال : حاشية ٢ ص ٢٧٩ ) .
(٦) كان اسم ابي طاهر سليمان ( تاريخ اخبار القرامطة ص ٣٦ واثار البلاد ص ١٨٠ ) .

قرأ الكتاب اضحى وكأنه كلب ضار ، اذ دعا كل من كان في البحرين والاحساء من الشباب وعشاق السلاح ، بقوله : « هلموا الي ، فلي بكم حاجة » . لقد كان ذلك قبيل موسم الحج فتجمع حوله خلق لا يحصون عدا مضى بهم الى مكة ووصل في وقت اداء الفريضة ، وقد كان الحجيج محرمين ، فأمر رجالــه ان : « اشهروا سيوفكم واقتلوا كل من تصادفونه ، وأطلقوا ايديكم بالمكيين والمجاورين » . واستلوا سيوفهم ، واعملوها في الناس قتلا . فلما رات الخلائق هذا فزعت الى داخل الحرم ووضعت صناديق القرآن امامها . اما المكيون فهرعوا الى السلاح ، وتأزر كل من كان لديه سلاح به ومضى الى ساحة الوغى . فلما رأى ابو طاهر الامر على هذه الحال ، اخرج الى وسط ساحة القتال رسولا يقول : « لقد جئنا للحج لا للقتال . ولقد كان الذنب ذنبكم اذ افسدتم علينا احــرامنا وقتلتم واحدا منــا دون ذنب ، فاحوجتمونا الى مد ايدينا الى الســلاح . واذا مــا ذاع في العالــم ان المكيين يتأبطون الاسلحة ويعبثون في الحجيج قتلا ، فسيعزف الناس عن الحج ، وتوصد طريقه ، وتسوء سمعتكم . لا تفسدوا علينا حجنا ، بل دعونا نؤدي الفريضة » . وخيل للمكيين صدق قوله ولم يستبعدوا ان احدا قد تحرش بهم ، فشهر سلاحه عليهم وقتل واحدا منهم . واتفقوا على ان يعيد الجانبان السيوف الى اغمادها ، واقسم الجانبان بالقرآن الكريم يمينا لا رجعة فيها بألا يعودا الــى القتال ثانية ، وان يتراجع المكيون ويعيدوا الصناديق الى امكنتها في الحرم ، حتى يتمكن الجانبان من زيارة الكعبة وتأدية مناسك الحج . واقسم المسلمون من المكيين والحجاج ، كذلك اقسم ابو طاهر ورجاله ـــ وفق ارادتهم ـــ ثم تراجعوا والقوا الســـلاح . وعاد المكيون ، ثم اعادوا الصناديق الى اماكنها ، واستأنف الحجيج تأدية مناسكهم وطوافهــم .

ولما رأى ابو طاهر ان حملة السلاح قد تفرقوا ، امر اعوانه ان : « هبوا الى السلاح ، واندفعوا الى الحرم ، واقتلوا كــل من تلقونه في داخلــه وخارجه » . واندفعوا بسيوفهم ورماحهم الى الحرم بغتة ، واخذوا يقتلون كل من يجدونه في طريقهم الى ان قتلوا المجاورين جميعا ، وخلقا كثيرين غيرهم . اما الناس فجعلوا يلقون بأنفســهم في الآبار ، ويفرون الى رؤوس الجبال خوفا من السيف .

واخرج القرامطة الحجر الاسود من الكعبة ، وصعدوا الى سطحها ، وخلعوا ميزابها الذهبي ، وهم يرددون : « بما ان ربكم صار الى السماء ، وخلى بيته ـــ الكعبة ـــ نهبا مضاعا في الارض ، فأنهبوه ودمروه » . ثــم نزعوا كسوة الكعبة

---

= ولم ينسبه لشخص بعينه . يقول : « ولهم ـ الاسماعيليــة ـ البلاغات السبعة وهــي : كتاب البلاغ الاول للعامة ، كتاب البلاغ الثاني لفوق هؤلاء قليلا ، كتاب البلاغ الثالث لمن دخل في المذهب سنة ، كتاب البلاغ الرابع لمن دخل في المذهب سنتين ، كتاب البلاغ الخامس لمن دخل في المذهب ثلاث سنين ، كتاب البلاغ السادس لمن دخل في المذهب اربع سنين . كتاب البلاغ السابع وفيه نتيجة المذهب والكشف الاكبر » . ويقول : « قد قرأته ورأيــت فيه امرا عظيما من اباحة المحظورات ، والوضع من الشرائع واصحابها » ( الفهرست ٢٤٠ ) .

دمر الناس في الدنيا ثلاثة : راعي غنم ، وطبيب ، وراعي ابل (١) . اني لفي غيظ شديد على الاخير خاصة ، فقد كان اذكاهم وادهاهم ، واكثرهم شعبذة وحيلة. ثم اباح الاخت والام والابنة ، وشق الحجر الاسود نصفين ، ووضعه على حافتي مرحاض ، فكان يضع احدى رجليه — حين جلوسه — على احد النصفين ، والاخرى على النصف الآخر . وأمر بسب الانبياء — عليهم السلام — ولعنهم علانية . رؤساء العرب جدا أمره الناس بباحة الام ومواصلتها ، حتى ان كثيرين منهم تناولوا شيئا من الزرنيخ (٢) والكبريت الاصفر (٣) طلبا للموت على ان يواصلوا امهاتهم ، الا ان اهل المغرب تلقوا — لجهلهم — هذا الامر تلقيا طبيعيا واخذوا به . وعاد ابو طاهر فهاجم قوافل الحجيج مرة اخرى ناكثا ايمانه ضاربا بها عرض الحائط ، وقتل خلقا كثيرا . غير انه لما علم ورهطه بتجمع المسلمين بخراسان والعراق وعزمهم على التوجه الى الحج برا وبحرا ، خافوا فأعادوا الحجر الاسود . ولما صار المسلمون الى مسجد الكوفة الجامع ، اذا الحجر الاسود ملقى هناك ، فأخذوه ورتقوه بتضبيب حديد وحملوه الى مكة ، واعادوه الى مكانه (٤) .

بعد ذلك ، استقدم ابو طاهر « زكيره كبر » (٥) (؟) المجوسي من أصفهان الى الاحساء وولاه الحكومة هناك . فشمر الرجل عن ساقه وقتل سبعمائة من رؤساء القرامطة ، واراد ان يقتل ابا طاهر واخوانه . فعلم ابو طاهر بالامر ، وقتله بحيلة من الحيل ، وتسلم زمام السلطة من جديد . ولو نذكر جميع مفاسد هذا الكلب وفتنه في الاسلام التي امتدت الى خلافة الراضي (٦) لناء الكتاب عن حملها . وفي عهد الراضي خرج الديالمة ايضا .

انما ذكرت هذا القدر ليعلم سيد العالم — خلد الله ملكه — حقيقة مذهب هؤلاء القوم الذين لا يركن الى وعودهم وايمانهم . فما اكثر ما قامت به الباطنية من فساد واعمال بذئية في كل الاوقات التي طالت فيها أيديهم على المسلمين ، وديار الاسلام. انهم قوم شؤم كلهم ، واعداء — اي أعداء — للاسلام والملك !!

* * *

---

(١) اي انبياء الله : موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ( إقبال حاشية ٢ ص ٢٧٩ ) .

(٢) الكلمة فارسية : ويقال ان معربها « زرنيق » (فرهنك وازهاي فارسي در زيان عربي ص (٣١).

(٣) قد تكون معربة عن « كوكرد » الفارسية ( المرجع السابق ص ٥٦١ ) .

(٤) وفي رواية اخرى ان أبا طاهر والقرامطة هم الذين اعادوا الحجر الاسود في عام ٣٣٩هـ ، بعد ان مكث عندهم اثنتين وعشرين حجة ، بتهديد من المهدي ابي عبيد الله العلوي الفاطمي بافريقية الذي انكر على ابي طاهر خلعه الحجر الاسود ، وامره برده ورد ما نهبه من الحجاج والا جند الجنود لحربه ( راجع : اخبار القرامطة ٥٤ ـ ٥٧ ) .

(٥) كذا في نسختي شعار ( ص ٣٥٦ ) ودارك (ص ٣١٠ ) ، وفي نسخة إقبال « كبرة كبر » ( ص ٢٨٠ ) . وقد شك الدكتور شعار في ضبط هذا الاسم بوضعه علامة استفهام عنده ، ولم اهتد الى ما يدل عليه او يوضحه .

(٦) أي الراضي بالله ( ٣٢٢ ـ ٣٢٩هـ ) .

وفي هذه الفترة ايضا ، خرج المقنع المرغزي (١) في بلاد ما وراء النهر ، ونفض الشريعة من ايدي قومه دفعة واحدة ، فبدأ أول الامر بالدعوة الى المذهب الذي تدعو اليه الباطنية ، مثلما يفعل ابو سعيد الجنابي ، وابو سعيد المغربي ، ومحمد العلوي البرقعي ، ودعاتهم .

لقد كان المقنع معاصرا لكل من ابي سعيد الجنابي (٢) وابي سعيد المغربي ، وكانت بينهم مكاتبات ومراسلات . لقد خرج المقنع على الناس بطلسم (٣) سحري في ما وراء النهر ، اذ اخرج من كل جبل شيئا على غرار القمر ، وكان اهل تلك النواحي يرون تلك الاشكال يوميا في موعد طلوع القمر تماما . ومضت على هذا مدة طويلة .

ولما تمكن المقنع من اخراج سكان تلك الولاية من دائرة الشريعة والاسلام وقوي شأنه ، ادعى الالوهية ، فأريقت لهذا الدماء ، وظهرت المفاسد ، وتقدمت جيوش المسلمين من شتى الاطراف لقتاله ، واشتبكت معه في حروب دامت سنوات ، لو نذكر اخبارها لاحتاجت الى مجلدات . ان اخباره واخبار كل واحد من الكلاب الذين ذكرت تحتاج الى كتاب ضخم كبير مكتوب بخط دقيق ، ولقد اكتفيت بالقدر الذي ذكرت حتى لا يخلو ذكر المقنع من بين هذه المجموعة .

* * *

لقد كان للباطنية ، في كل وقت خرجوا فيه ، اسم ولقب يختلف عنه في وقت اخر . لذا كانوا يعرفون بأسماء والقاب متفاوتة في كل مدينة وولاية ، الا انها ـ مع ذلك ـ كانت واحدة في معناها . فقد كان يقال لهم « الاسماعيلية » في حلب ومصر ، و « السبعية » في قم وكاشان وطبرستان وسبزوار (٤) ، و « القرامطة » في بغداد وما وراء النهر وغزنين ، و « المباركية » في الكوفة ، و « الراوندية » و «البرقعية » في البصرة ، و « الخلفية » (٥) في الري ، و « المحمرة » (٦) في

---

(١) وقيل المروزي . واختلف في اسمه ، فقيل عطاء ، وقيل حكيم ، والاول اشهر ، ولقب بالمقنع لانه اتخذ وجها من ذهب تقنع به . ( راجع في المقنع : وفيات الاعيان ٢ : ٤٣٦ وفي المقنعية : الفرق بين الفرق ١٥٥ ـ ١٥٦ ) .

(٢) لقد هلك المقنع الخراساني عام ١٦٣هـ ، وليس صحيحا ان يعد معاصرا لابي سعيد الجنابي ( اقبال : حاشية ص ٢٨١ ) اما ابو سعيد الجنابي فقتل عام ٣٠١هـ ( تاريخ اخبار القرامطة ص ٣٦ ) .

(٣) يقال ان لفظة « طلسم » يونانية الاصل .

(٤) سبزوار : ما تزال هذه المدينة تحتفظ باسمها وموقعها القديمين من اعمال خراسان . تقع بين نيسابور وشاهرود ، الى الغرب من مدينة مشهد . ( فرهنك فارسي ) .

(٥) ينبغي التمييز بين هذه « الخلفية » التي ربما سميت بهذا نسبة الى « خلف حلاج القطن الذي سلف ذكره والكلام عليه ، وبين « الخلفية » احدى فرق الخوارج ، وهم اتباع خلف الذي كان من خوارج كرمان ، والذي قاتل حمزة الخارجي . ( الملل والنحل ١ : ٥٧ والفرق بين الفرق ٢٠٣ ـ ٢٠٤ ) .

جرجان ، و « المبيضة » في الشام ، و « السعيدية » في المغرب ، و « الجنابية » في الاحساء والبحرين ،و « الباطنية » في اصفهان . اما هم ، فكانوا يطلقون على انفسهم « التعليمية » وامثال هذا ، وكان هدفهم تقويض دعائم الاسلام والمسلمين، والعمل على غواية الخلق وضلالهم .

---

(٦) المحمرة : همالخرمية او الخرمدينية ، الذين ظهروا في دولة الاسلام استمرارا للمزدكية قبل الاسلام . وهما فريقان : بابكية نسبة الى بابك الخرمي ، ومازيارية نسبة الى مازيار الذي كان من وجوه عسكر المعتصم ، والذي اظهر المحمرة بجرجان . سموا المحمرة لارتدائهم الثياب الحمر في عهد بابك ( الفرق بين الفرق ١٢٠ – ١٢١ ) وقيل لان علامتهم كانت الحمرة، وكان يحمرون راياتهم ( اللسان – حمر ) .

## الفصل السابع والأربعون

## في خروج الخرمدينية (١) ـ خذلهم الله ـ

واذكر الآن نبذا مختصرة في موضوع الخرمدينية ، ليكون سيد العالم ـ خلد الله ملكه ـ على علم بأحوالهم واخبارهم .

لقد كان كلما خرج الخرمية ، ينضم الباطنية اليهم ، ويشدون أزرهم ، ويقوونهم ، وكانت الخرمية تنضم الى الباطنية كلما خرجوا أيضا ، وتمدهم بالمال والرجال ، لان اصل مذهبهم واحد في موضوعه وفساده ، وموقفه من الدين .

ففي سنة مائة واثنتين وستين ( ١٦٢هـ ) في خلافة المهدي قوي جدا امر باطنية جرجان الذين كان يطلق عليهم اصحاب الرايات الحمر أي « المحمرة » ، ووحدوا كلمتهم مع الخرمية ، وقالوا : « ان ابا مسلم حي (٢) . وسنخلص نحن الملك ، ونعيده اليه ثانية » . ثم رئسوا « ابن ابي الغزا » (٣) حفيد ابي مسلم عليهم،

---

(١) الخرمدينية : هي اصل « الخرمية » . ويقال ان الخرمدينية هم « الابو مسلمية » اصحاب ابي مسلم الخراساني الذين كان بدء الغلومنهم . قيل ان الخرمدينية نسبة الى « خرم اباد » وهي قريةمن قرى الري كانوا يسكنون بها . وقيل سموا بذلك لاتباع شهواتهم، لان معنى « خرم » بالفارسية : المرح الاباحي المتوخي للملذات ، الممتلىء سرورا . والخرمية نسبة الى بابك الخرمي . ( فرق الشيعة ٣٦ و ٤٢ و ٤٧ و الفرق بين الفرق ١٦٠ ـ ١٦١ ) . ويقال ان طائفة الخرمية البابكية نشأت من الخرمية المزدكية الذين يسمون « الخرمية الاولى » لتمييزهم عن « الخرمية الثانية » الذين ظهر منهم « البابكية » اتباع بابك .
ويذكر من اسباب تسميتها « الخرمية » أيضا ، نسبتها الى « خرمة » او « خرما » امرأة مزدك التي اضطلعت بنشر عقائد هذا المذهب بعد مقتل زوجها . ( حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ٢ : ٩٥ مكتبة النهضة المصرية القاهرة الطبعة الثالثة ١٩٥٣ ) .

(٢) هو ابو مسلم الخراساني اسمه عبد الرحمان بن مسلم . قتله المنصور عام ١٣٧هـ ، وقد نسبت اليه احدى الفرق الغالية .

(٣) في اقبال : « ابو الغراء » ( ص ٢٨٤ ) ، وفي دارك : « ابو المعرا » ( ص ٢١٢ ) .

ومضوا الى الري ، فاحلوا المحرمات كلها ، واباحوا نساءهم فيما بينهم .

وكتب المهدي كتبا الى الاطراف يأمرهم فيها بالانضواء تحت لواء عمر بن العلاء الذي كان واليا على طبرستان ، والتوجه الى حرب الخرمدينية . فانصاعوا للامر ، وتوجهوا لقتالهم ، فشتتوا جموعهم .

وفي الوقت الذي كان فيه هارون الرشيد بخراسان ، خرج الخرمدينيون مرة اخرى في « ترمدين » (١) و « كابله » (٢) و « فابك » (٣) ونواح أخرى من اصفهان ، فتوجهت نحوهم اعداد كبيرة من الري وهمذان و « دشت بيه » (٤) ، والتحقت بهم ، فصار عددهم اكثر من مائة الف شخص .

وندب هارون الرشيد عبد الله بن مالك بعشرين الف مقاتل من خراسان لحربهم ، فخافوه ، وعاد كل قوم الى مكانهم . أما عبد الله ، فكتب الى الرشيد ، يقول : « لا مندوحة لي من مدد ابي دلف » . وجاءه الجواب : « لتنضو تحت لوائه » . فاتحد الطرفان . وكان الخرمدينية ، قد جمعوا ، من جديد ، عددا غفيرا من الناس بتدبير من الباطنية وخداعها ، واطلقوا ايديهم في الفساد والنهب والسلب. فما كان من أبي دلف العجلي وعبد الله بن مالك الا ان انقضا عليهم فجأة ، فالفوهم غافلين ، وقتلوا منهم خلقا لا يعد ولا يحصى ، وحملوا نساءهم وابناءهم الى بغداد، وباعوهم مزايدة .

## خروج بابك

وبعد مرور تسع سنوات خرج بابك من اذربيجان فقصده الباطنية للالتحاق به ، لكنهم لما سمعوا بأن جيشا ارسل ليعترض طريقهم ، خافوا ، وعادوا ادراجهم ، وتفرقوا . وفي عام ٢١٢هـ في ايام المأمون ، خرج الخرمدينية من نواحي اصفهان ، وترمدين (٥) ، وكابله (٦) ، وكرج ، وانضم اليهم الباطنية ، وعاثوا في البلاد فسادا ، ثم مضوا الى اذربيجان والتحقوا ببابك .

---

(١) كذا في نسخة اقبال ايضا ( ص ٢٨٤ ) وفي نسخة دارك : « برندين » ( ص ٣١٣ ) . غير انني لم اعثر على هذه أو تلك في كتب البلدان .

(٢) كذا في النسخ الثلاث . لكنني لم اعثر عليها في كتب البلدان ايضا .

(٣) كذا في النسخ الثلاث ايضا . لكنني لم اجدها في كتب البلدان والاقاليم .

(٤) كذا في نسختنا ( ص ٣٦٠ ) ونسخة دارك ( ص ٣١٣ ) ، ولكنها في نسخة اقبال « دسته » ( ص ٢٨٤ ) .

وقد تكون تحريف « دستبي » أو « دستوا » ، وهو اسم كان يطلق على كورة كبيرة كانت مقسومة في ايام الامويين بين الري وهمذان ، وكانت دار ضرب للنقود على عهدهم ايضا . ويقال انه لم يبق لها اثر على الخارطة اليوم ، لكن موضعها ينبغي ان يكون جنوب قزوين . ( معجم ما استعجم ٢ : ٥٥١ ومعجم البلدان ، وبلدان الخلافة الشرقية ٢٥٥ ) .

(٥) في دارك : « بريده » ( ص ٣١٣ ) .

(٦) كذا في دارك ايضا ( الصفحة السابقة نفسها ) .

وارسل المأمون محمد بن حميد الطائي لقتال بابك والخرمية ، وامره اولا ، بحرب زريق بن علي صدقة الذي كان قد عصى وتولى ولاية قوهستان العراق ، واخذ يغير على القوافل ويستولي عليها .

وسيَّر محمد بن حميد الطائي جيشا بماله الخاص ، ومضى به دون أن يطلب من خزانة المأمون شيئا ، وصار الى حرب زريق ، فقبض عليه ، واهلك قومه ، وشتت جمعهم . فولاه المأمون ، لذلك ، قزوين ومراغة واكثر اذربيجان .

ثم مضى محمد الى قتال بابك ، فدارت بينهما معارك ضارية استمرت ستة اشهر ، قتل محمد بن حميد في نهايتها ، دون ان يحرز على البابكية نصرا . وتفاقم امر بابك ، فأرسل خرمية اصفهان اليها . أما المأمون ، فعز عليه مقتل قائده محمد ابن حميد الطائي جدا ، وندب في الحال ، عبد الله بن طاهر الذي كان واليا على خراسان ، لحرب بابـك ، وولاه ولاية قوهستان كلهـا ، وما كان قد تم فتحـه والاستيلاء عليه من اذربيجان . وتوجه عبد الله الى اذربيجان فلم يستطع بابك ان يثبت امامه ، بل فر الى قلعة حصينة ، وتشتت جموع الخرمية .

وبحلول سنة ٢١٨هـ ، خرج خرمية فارس وأصفهان وكل قوهستان واذربيجان منتهزين ذهاب المأمون الى بلاد الروم ، وتواعدوا جميعا على ليلة بعينها ، خرجوا فيها جميعهم في كل المدن والولايات ، بايعاز من بابك وتدبيره ، فقتلوا عمال المدن واعدادا غفيرة من المسلمين ، ونهبوا منازلهم وسبوا ابناءهم واخذوهم عبيدا لهم . لكن مسلمي فارس جمعوا انفسهم ، فانتصروا على الخرمية هناك ، وقتلوا واسروا منهم كثيرا . أما خرمية اصفهان ، فجمعوا أنفسهم في « دار » (١) و « ترمدين » (٢) وحشد رئيسهم الذي كان يدعى « علي بن مزدك » عشرين الف رجل على مشارف المدينة ، ثم مضى بهم — واخوه معه — الى كرج ، وكان ابو دلف غائبا ، ولم يكن في المدينة حينذاك سوى أخيه « معقل » الذي لم يستطع ان يقاوم بخمسمائـة خيال ، ففـر الى بغداد .

أما علي بن مزدك ، فاستولى على كرج ونهبها ، وقتل من وجد فيها مـن المسلمين ، ثم سبا نساء العجليين وبنيهم واخذهم معه . وتحول من هناك الـى اذربيجان للالتحاق ببابك . ثم اخذ الخرمية يتدفقون على بابك من شتى الارجاء . المدينة التي تدعى « شارستانه » بين قوهستان واذربيجان ، وهناك التحق بهم واعمل جيش اسحاق سيوفهم واخذوا يقتلون ، فبلغ عدد القتلى من الخرمية — غير من أعطوا الامان — في معركة واحدة مائة الف . اما من قصدوا اصفهان مع عليهم بغتة ، ودارت رحى حرب انتهت بهزيمة الخرمية هزيمة نكراء ، وفرار بابك . لقد كانوا عشرة آلاف باديء ذي بدء ، ثم غدوا خمسة وعشرين الفا تجمعوا في

---

وارسل المعتصم « اسحاق » بأربعين الف فارس لحربهم ، فانقض اسحاق

(١) كذا في دارك ايضا ( ص ٣١٤ ) ، ولم اجدها في كتب البلدان .

(٢) في دارك : « برندين » أيضا ( ص ٣١٤ ) .

بابـك .

اخي علي بن مزدك فكان عددهم عشرة آلاف . وكان اخو علي هذا قد حمل معه النساء والاطفال ، وعد بيوت رؤساء المدينة ملكا له وادخلها في حسبانه سلفا . غير ان علي بن عيسى امير اصفهان كان غائبا ، فتصدى قاضي المدينة ورؤساؤها وسكانها واعيانهم لحربهم ، واطبقوا عليهم من ثلاثة جوانب ، وهزموهم ، واسروا نساءهم وابناءهم وحملوهم الى المدينة وتخذوهم عبيدا ، لكنهم ضربوا رقاب البالغين من الابناء ، والقوا بهم في الآبار .

بعد هذا بست سنوات ، تفرغ المعتصم للخرمية ، وندب الافشين لحرب بابك ، فقاد الافشين الجيوش ومضى بهم اليه . وهب الخرمية والباطنية لنجدة بابك من كل حدب وصوب . وباختصار ، فقد ظلوا يحاربون الى جانبه سنتين دارت في خلالهما رحى معارك طاحنة بين الافشين وبابك ، قتل فيها عدد لا يحصى من الجانبين . وفي النهاية ، لجأ الافشين الى الحيلة ففرق اكثر عسكره اذ قوضوا خيامهم في عتمة الليل البهيم ، وتراجعوا فرسخين ، وحطوا الرحال هناك . ثم ارسل الى بابك من يقول له : « ابعث اليّ برجل عاقل مجرب من رجالك لاكلمه في عدة امور فيها مصلحة الطرفين معا » . فأرسل اليه بابك رجلا قال له الافشين : « قل لبابك : ان لكل امر نهاية ، وان راس الآدمي ليس كراثا ينمو من جديد اذا قطع . لقد قتل اكثر رجالي ، ولم يبق حتى واحد من كل عشرة منهم ، وهكذا الحال — فيما أعلم — بالنسبة لرجالك . هيا بنا نتصالح ، فتقنع انت بالولاية التي في حوزتك وتتربع عليها بصلاح وسلام ، واعود أنا ، لأحصل لك على عهد امير المؤمنين بالولاية ، وارسله اليك ، والا فتعال نتحارب من جديد لنرى لمن يكون الظفر » . وخرج الرسول من عند الافشيين ، وهو يسرّح النظر في شتى الجهات ليرى حد الجيش ، لكنه لم ير سوى جنود خفاف ، وكأنهم يمتطون اجنحة الهزيمة .

ولما عاد الرسول الى بابك ، نقل اليه مقالة الافشين ، واخبره عن قلة عدد الجيش ، فاذا هي الاخبار عينها التي انهاها عيون بابك اليه . واتفق بابك ورهطه على ان يشعلوها حربا شعواء بعد ثلاثة ايام . اما الافشين ، فأرسل الى جيوشه التي أمرها بالتراجع ، يقول : « عليكم بالمجيء يوم النزال ليلا ، والاختفاء على بعد فرسخ ونصف من على يمين الجبال والاودية ويسارها . وحين اتظاهر بالهزيمة، وابتعد عن الجيوش مسافة بعيدة ، فان قسما من جيش بابك سيلاحقني ، ويتفرغ القسم الآخر للاغارة على المعسكر ونهبه . فما عليكم في هذه الحال الا ان تثبوا من وراء الجبال ، وتستلموا طريق الوادي لئلا يتمكنوا من العودة والوصول اليه ، وسأعود عند ذلك » .

وفي يوم الحرب ، اخرج بابك جيشه من المضيق ، وكان عدده اكثر من مائة الف خيال وراجل ، فبدا جيش الافشين حقيرا ضئيلا في اعينهم ، لانه كان قليلا بالنسبة لما كانوا قد رأوه من جيوش . ودارت المعركة ، وحارب الجانبان بضراوة وقتل منهما عدد كبير . فلما رنحت شمس الاصيل الى المغيب لاذ الافشين بالفرار عمدا ، ولما ابتعد عن المعسكر فرسخا ، قال لحامل الراية : « قف وانصب الراية هنا » . واخذ كل من يصل الى هذا المكان من الجند يتوقف عنده . اما بابك ،

فقال لجنده : « لا تشغلوا انفسكم بالغارة والغنائم قبل ان نرتاح بالا من الافشين وجيشه نهائيا » . ومضى الخيالة مع بابك في اثر الافشين ، اما الرجالة ، فعاثوا في المعسكر نهبا . عند ذلك ، خرج العشرون الف خيال من جيش الافشين من وراء الجبال عن اليمين وعن اليسار ، واذا الصحراء تموج بالخرمية ، فاستلموا طريق الوادي وقطعوها عليهم اولا ، ثم شرعوا سيوفهم . وعاد الافشين بعشرين الف خيال فحصروا بهذا بابك وجنوده بينهم ، ولم تفلح كل محاولاته في الوصول الى سبيل للفرار . ولما وصل الافشين قبض على بابك ، وظل جنده يعبثون في الخرمية قتلا الى صلا ة العصر حتى ناف ما قتل منهم على ثمانين الف رجل . بعد ذلك ، ترك الافشين على قلعة بابك غلاما بعشرة آلاف خيا لوراجل ، وعاد هو بالاسرى وبابك الى بغداد التي ادخلوه اليها موسوما بعلامة خاصة . ولما وقعت عين المعتصم على بابك ، قال له : « ايها الكلب ، لماذا اضرمت نار الفتنة في الارض ؟ ولم قتلت آلاف المسلمين ؟! » ، فلم ينبس بابك ببنت شفة . وامر المعتصم بقطع يديه ورجليه جميعا . ولما قطعوا احدى يديه ، وضع يده الاخرى في الدم ولطخ به وجهه الى أن صيره احمر كله . فقال المعتصم : « يا كلب ، اي علم هذا أيضا ؟ » . قال بابك : « ان في هذا لحكمة » . فقيل له : « قل . اية حكمة هذه ؟! » . قال : « انكم تريدون قطع يديّ ورجليّ جميعا . ان الدم هو الذي يجعل وجنات الناس حمرا ، لكنه حين ينفد من الجسم يصفر الوجه . وانا انما حمرت وجهي بالدم ، كي لا يقال — عندما ينفذ دمي — ان وجهه غدا أصفر خوفا وخشية » .

وأمر المعتصم بأن يسلخ جلد ثور بقرنيه ، ويؤتي به طريا . ولما جيء به ، وضع بابك فيه بنحو ظهر فيه قرنا الثور بمحاذاة اذنيه ، ثم خيط الجلد ، وبعد أن جف علقوه وعرضوا بابك فيه حيا على هذا الشكل الى أن مات ميتة شنعاء .

ان أمر بابك من بدء خروجه الى القبض عليه يتسع لمجلد متناه في الكبر . فلقد سئل احد جلاديه بعد أسره : « كم شخصا قتلت ؟ » . قال : « كان لبابك عدة جلادين . أما عدد من قتلتهم فثلاثة وثلاثون ألف مسلم ، فضلا عمن قتل الجلادون الآخرون من المسلمين في ساحات القتال » .

* * *

لقد تمت على يد المعتصم ثلاثة فتوح وانتصارات كانت كلها قوة للاسلام وحصنا : أولها فتح بلاد الروم ، وثانيها قضاؤه على بابك ، وثالثها واخرها انتصاره على « المازيار » (١) المجوسي بطبرستان ، ولو أن احدها لم يتم لفت في عضد الاسلام كثيرا .

---

(١) راجع عن ثورة المازيار : حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ٢ : ٩٨-٩٩ .

## ( حكاية حول المعتصم ) (١)

في حين كان المعتصم جالساً للشراب يوما ، وكان القاضي يحيى بن اكثم حاضرا ، نهض الخليفة ودخل احدى الحجرات . ثم خرج بعد فترة ، وتناول شيئا من الشراب ، ونهض من جديد ودخل حجرة اخرى . ثم نهض للمرة الثالثة ودخل غرفة ثالثة ، خرج منها بعد مدة ومضى الى الحمام ، فاغتسل ، وخرج من الحمام بسرعة وطلب مصلي ، فصلى ركعتين ، وعاد الى المجلس. بعد ذلك ، قال للقاضي يحيى « أتدري ما الصلاة التي صليتها ؟ » . قال يحيى : « لا » . قال المعتصم : « صلاة شكر لنعمة من نعم الله — عزوجل — اسبغها عليّ اليوم » . قال يحيى : « يا أمير المؤمنين ، ما تلك النعمة ؟ » . قال المعتصم : « في هذه الساعة ، فضضت ثلاث فتيات ، هن بنات ثلاثة كانوا خصوما لي : احداهما بنت ملك الروم ، والثانية ابنة بابك ، والاخرى كريمة المازيار المجوسي » .

## ( خروج الخرمية في عهد الواثق )

وفي ايام الواثق ، خرج الخرمية في ناحية اصفهان ، وعاثوا فيها فسادا ، وظلوا يخرجون الى سنة ثلاثمائة هجرية . واغاروا على كرج ونهبوها مرة اخرى ، وقتلوا خلقا كثيرا ، لكنه قضي عليهم ايضا .

وممن خرجوا ايضا « باريزدشاه » (٢) الذي تخذ من جبال اصفهان معقلا له، فالتف حوله الخرمية والباطنية واخذوا يسطون على القوافل ، ينهبون القرى ، ويقتلون الشيوخ والشباب والاطفال . ودامت فتنته ما يزيد على ثلاثين سنة ، لم تستطع الجيوش في خلالها ان تحرز اي نجاح ضده ، بل عجزت عن رده والتغلب عليه لاستحكامه في جبال جد حصينة . ولكن تم القبض عليه في نهاية المطاف ، وعلق رأسه في اصفهان ، وارسلت كتب الى شتى اقطار الاسلام تبشر المسلمين بهذا النصر .

وانه ليطول بي المقام لو ذكرت اخبارهم كلها ، فهي كثيرة ، ومهما ذكرت منها فكأنني لم اذكر شيئا . ومن يشأ الوقوف على ثورات الباطنية والخرمية ومفاسدهم فليقرأ : « تاريخ الطبري »و « تاريخ اصفهان » و « تاريخ خلفاء بني العباس » (٣) .

---

(١) حذف الدكتور شعار هذا الحكاية لانها غير مناسبة في نظره ( انظر : حاشية ٢ ص ٣٦٦ ) وقد سبقه عباس اقبال الى حذفها لعدم لياقة تدريسها في المدارس الايرانية ( حاشية ص ٢٨٧ ) . غير انني ترجمتها عن نسخة دارك ( ص ٣١٨ ) — مثلما هو الشأن في نظائرها — حرصا مني على امانة الترجمة .

(٢) اعترف دارك انه لم يستطع التعرف على هذا الاسم والتحقق منه ( التعليقات ٣٤٥ ) .

(٣) لم اوفق الى الاهتداء الى اسم صاحب هذا الكتاب الذي يبدو انه من الكتب التي لما تصل الينا.

## ( اصول مذهـــب الخرمية )

ان الركيزة التي بني عليها الخرمية مذهبهم ، هي انهم القوا عن كواهلهم كل ضروب الاجهاد والارهاق ، ونبذوا شعائر الدين الاسلامي وفرائضه من : قيام ، وصلاة ، وصيام ، وحج ، ومجاهدة اعداء الله — عزوجل — والاغتسال مـــن الجنابة ، وتحريم الخمرة ، والتمسك بالزهد والتقوى وكل ما هو فريضة .

انهملم يسعوا في امور الشريعة ، ولم يحاولوا سلوك سبيل دين المصطفى ، عليه السلام ، في شيء . لقد كان اول ما يتفوهون به في محافلهم ولقاءاتهم اظهار الاسف والحسرة على قتل ابي مسلم صاحب الدولة ، ولعن قتلته في استمرار ، والصلاة على « المهدي بن فيروز » ابن فاطمة بنت ابي مسلم ، الذي كانوا يدعونه « الطفل الحكيم » (١) او « فتى العالم » .

من هنا يتبين ان اصل المذاهب الثلاثة : المزدكية والخرمية والباطنية واحد ، وانهم كانوا يسعون دائما لتقويض دعائم الاسلام . لقد كانوا يتظاهرون بالصدق والزهد والعبادة والتقوى ومحبة آل الرسول (ص) امام المسلمين بادىء ذي بدء لايقاعهم في حبائلهم ، لكنهم كانوا يسعون بعد ان يقوى عودهم ويكثر اتباعهم الى الاطاحة بأمة محمد — عليه السلام — ودينه ، وتقويضهما ، حتى ان الكفار كانـــت تأخذهم الشفقة والرحمة على امة محمد ، عليه السلام ، اكثر من هؤلاء .

* * *

وانما ذكرت هذا القدر من اقوالهم لانهم كانوا يحفرون بئرا من ناحيـــة ، ويحاولون اخفاء امر باد (٢) ، والتستر عليه من ناحية اخرى . اما من استجابوا لدعوتهم ، فكانوا يرتبون لهم امورهم ويخدمون اغراضهم ، ويمدون اليهم يد العون، ويساند كل منهم الآخر .

لقد جعلوا سيد العالم — خلد الله ملكه — الذي له كل ما فيه ، والذي كل العالمين عبيده ، جعلوه حريصا على جمع المال ، المال الذي كانوا يسلبونه من المستحقين ويظهرونه على انه توفير !! انه لا يمكن عمل ثوب قط من قصـــاصات سترة او وصل كمين معا !! سيتذكر سيد العالم — دام سلطانه — مقالة مولاه حين يرمي هؤلاء القوم عظماء الناس واعزاءهم في البئر ، وحين تقرع اصـــوات طبولهم الاسماع ، ويظهر شرهم وفتنتهم واضحا للملأ ، وسيتذكر ابان هذا الفساد ان ما قلته هو الصواب عينه ، وانني لم اضن — ما امكنني ذلك — في تقديم النصح،

---

(١) في الفارسية : « كودك دانا » .

(٢) ترجمة معنوية للمثل الفارسي ، « طبلي مي زنند زير كليم » . وترجمته الحرفية « يضربون على الطبل تحت البساط » ، وهو كناية عما ترجمته اعلاه . ومن الجدير بالذكر ان المثـل الفارسي جاء كاملا في نسخة اقبال ( ص ٢٨٨ ) لا في نسختنا التي رجح محققها صواب ما في نسخة اقبال ( انظر : حاشية ٢ ص ٢٦٨ من الاصل الفارسي ) . والى هذا ذهب دارك ايضـــا ( التعليقـات ٣٤٤ ) .

واظهار الحدب والخشية ، ولم آل جهدا في تنفيذ شروط طاعتي وهواي لهـذه الدولة القاهرة ، ثبت الله اركانها .

وقى الله ، تعالى ، عهد مولاي عين السوء ويد الشر ، وحال بين اعدائه وبين تحقيق مآربهم وآمالهم الشريرة ، ووشح قصره وبلاطه وديوانه بأهل الدين الى يوم الدين ، ولا اخلى هذه الدولة ممن هواهم معها ، ووهـب ملكه النصر والظفر كـل يوم .

# الفصل الثامن والأربعون

## في امتلاك الخزائن والحفـاظ على قواعدها وانظمتهـا

كان للملوك دائما خزانتان : احداهما الخزانة الاصل ، والاخـرى خزانة الانفاق . لقد كانوا يحولون الاموال المتحصلة غالبا الى الخزانة الاولى ، وقليـلا ما حولوها الى الاخرى . ولم يكونـوا ينفقون من الخـزينة الاصـل الا لضرورة قصوى ، وعلى سبيل قرض يعاد اليها بعد ذلك . ولو لم يفكروا على هذا النحو ، لانفق كل ما كان يحصـّل من أموال ، حتى اذا ما احتيج الى المال بغتة ، ولم يكن متوفرا فلا يتولد عن هذا سوى الحيرة وانشغال البال ، والتقصير في مواجهـة ذلك المهم والتأخر في قضائــه .

ولم يكن أولئك الملوك ينفقون مما كان يدخل الخزانة من دخل الولاية البتة ، لكيما تؤدى النفقات في اوقاتها ، وحتـى لا يحدث اي اخـلال او تقصير في اداء الصلات والهبات والاعطيات ، وحتى تظل الخزانة عامرة باستمرار .

### آلتون تاش واحمد بن الحسن الميمندي

سمعت ان الامير آلتون تاش (١) الذي كان الامير الحاجب للسلطان محمود ندب حاكما لخوارزم ، وارسل اليها ، وكان معدل دخل حاصلات خـوارزم ستين الف دينار ، في حين كانت رواتب جيش آلتون ضعف هذا المبلغ . وذهب آلتون تاش الى خوارزم ، وبعد سنة على وجوده فيها أرسل اليه من يطلب مالا . فما

(١) قتل في حربه مع علي تكين عام ٤٢٣هـ في عهد السلطان مسعود الغزنوي ( فرهنك فارسي ) .

كان منه الا ان بعث معتمديه الى غزنين يلتمس ان : « اجعلوا هذه الستين الف دينار التي هي احمال (١) خوارزم رواتب لجندي بدلا عما سيدفع لي من الديوان ».

ولما قرأ شمس الكفاة احمد بن الحسن الميمندي ــ الذي كان وزيرا انذاك ــ الرسالة ، كتب في الحال الجواب التالي :

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم ان آلتون تاش لا يمكن ان يكون محمودا (٢) بأية حال . احمل ما تعهدت به من اموال ، وهيا بها الى خزانة السلطان ، ثم اجلس الى الناقد (٣) والوزان ، وسلم الذهب وخذ سندا بذلك . وحينئذ اطلب رواتب جندك ، حتى يكتب لك ولهم عهد بمحاصيل ( بست ) وسجستان . ومن ثم امضــوا اليهما واجلبوا محاصيلهما الى خوارزم . كل هذا ليمتاز الفرق بين المولى وسيده ، وبين محمود وآلتون تاش ، وليظهر رونق السلطان ، ويبين حد الجند . ان كلام ( خوارزمشاه ) (٤) ينبغــي ان يكون بعيدا عن الخطل ، فان التماسه لا يعدو احد امرين اثنين ، فهو اما ينظر الى السلطان بعين الصغارة والهوان ، واما يعد احمد بن الحسن الميمندي غافلا مبتدئا جاهلا . لقد عجبنا لكمال عقل خوارزمشاه وحصافته ، وقد ابدى كل من سمع التماسه عجبه ايضا . عليك بالمعذرة والتماس العفو ، فان سعي المولــى لمشاركة سيده في الملك لخطر عظيم . والسلام » .

وبعث الميمندي الرسالة بيد أحد رؤساء الحرس ، ومعه عشرة غلمان ، الى خوارزم ، فأتوا بستين الف دينار ، وزنت واودعت خزانة محمود ، واعطوا من ديوان غزنين عنها عهدا بمحاصيل بست وسجستان من البلوط وقشور الرمان والقطــن وما اليها . وذهب آلتون تاش وجماعته الى هناك فأخذوا تلك المحاصيل وباعوها ، وجاؤوا بستين الف دينار عن بست الى خوارزم .

لقد حافظ الملوك على هذا النظام وهذه القاعدة من قواعد الملك لئلا يتسرب الانفصام الى شؤون المملكة ومصالحها ، وحتى يظل صلاح الرعية وعمران الخزانة على حالهما ، وتقطع الاطماع المحالة في اموال السلطان والرعية .

---

(١) احمال هنا : جمع حمل « بفتح الحاء وسكون الميم » ، وهو ثمر الشجر . وقد ابقيتها في الترجمة لورودها في الاصل الفارسي .

(٢) اي السلطان محمود الغزنــوي .

(٣) الناقد هنا : الذي يعد النقود وينقدها .

(٤) أي حاكــم خوارزم .

# الفصل التاسع والأربعون

## في اجابة المتظلمين وقضاء مطالبهم وانصافهم

يغص القصر دائما بالمتظلمين الذيـن لا يغادرونه قبـل ان يتسلموا اجوبة شكاياتهم . ان هذا قد يبعث كل رسول او غريب يفد اليه على الظن ، عندمـا يسمع صراخ المتجمعين وجلبتهم ، بأن ظلما عظيما ينزل بالناس . فحتى يوصـد الباب دون هذا التفكير ، ينبغي ان تجمع شكاوى اهل كل مدينة وناحية من الحاضرين على حدة ، وتقيد جميعها في مكان واحد . ثم يحضر خمسة منهم الى القصر لبيان امرهم وعرض احوالهم . ثم يتلقون الجواب ويتسلمون الحكم ، بذلك ، ويعودون حالا . وهذه هي السبيل للقضـاء على الجلبـة والضوضاء والصراخ التـي لا اساس لها .

### كتاب يزدجرد الى عمر وجوابه عليه

يروى ان الملك يزدجرد ارسل الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب ـــ رضي الله عنه ـــ رسولا يقول له : « ليس في العالم اليوم مملكة اكثر سكانا من مملكتنا، وخزانة اعمر من خزانتنا ، وجيش اكثر من جيشنا ، وليس لاحد مالنا من آلة وعدة.

فأجابه عمر : « اجل ، ان مملكتك مكتظة ، لكن بالمتظلمين ، وان خزانتـك مترعة ، لكن بالمال الحرام ، وان جيشك كثير ، لكنه شاق عصا الطاعة . واذا ما دالت الدولة فان الآلة والعدة لا يغنيان فتيلا . ان في هذا كله لدليلا على انحطاط دولتكم وزوال ملككم » . وهكذا كان .

* * *

ان الطريقة الامثل ، هي ان يبدأ سيد العالم ـــ خلد الله ملكه ـــ بالانتصاف

من نفسه ، حتى يصير الجميع منصفين ، ويقطعوا دابر الطمع مما هو محال وغير حق ، مثلما فعل السلطان محمود .

## رسالة السلطان محمود الشديدة

يقال : ان تاجرا أم بلاط السلطان محمود ، وتظلم اليه من ابنه مسعود في حسرة وتوجع ، وقال : « امرؤ تاجر ، مضت عليّ مدة هنا . ارغب في العودة الى مديقتي ، لكنني لا أستطيع الذهاب ، لان الامير مسعودا اشترى مني بضاعة واقمشة بستين الف دينار دون ان يدفع ثمنها . اريد أن ترسلني والامير مسعودا الى القاضي » .

ورق قلب السلطان محمود لكلام التاجر ،وبعث رسالة شديدة الى مسعود امره فيها بأن : « اريد ان تقضي له حقه الآن ، والا تعال لتمثل معه امام القضاء ، حتى تطبق عليكما احكام الشريعة » . ومضى التاجر الى مجلس القاضي ، في حين قصد الرسول مسعودا وأدى الرسالة . واسقط بيد مسعود ، فقال للموكل بالخزانة : « انظر ما في الخزانة من الذهب نقدا » . فذهب الرجل ونظر وعاد ، فقال : « ليس ثمة اكثر من عشرين الف دينار » . قال مسعود : « خذها ، وامض بها الى التاجر ، واستمهله ثلاثة ايام لباقي المبلغ » . ثم قال لرسول السلطان : « قل للسلطان انني دفعت الى الرجل عشرين الف دينار في الحا ل، وسأوصل اليه حقه كاملا بعد ثلاثة ايام . وانني لاقف الان مرتديا قبائي ، منتعلا موذجي في انتظار ما يأمر به السلطان . فذهب الرسول ، لكنه عاد الى مسعود مرة اخرى ؛ وقال : « يقول السلطان : اما ان تتوجه الى مجلس القضاء ، واما ان تدفع مال التاجر اليه . واعلم انك لن ترى لي وجها ما لم تؤد حق الرجل اليه كاملا » . ولم يجرؤ مسعود على ان يضيف الى كلامه السابق حرفا ، وأرسل رسلا الى مختلف الجهات يطلب قرضا . فما ان ازف وقت صلاة العصر ، حتى وصلت الى التاجر الستون الف دينار . ولما تناهى هذا الخبر الى اطراف العالم ، اخذ التجار ينهالون على غزنين من الصين و « خطا » (١) ومصر وعدن ، يحملون اليها ما في العالم من تحف ونفائس . اما ملوك هذا الزمان ، فانه لو أمر أحدهم ادنى فراش او « ركابدار » بأن : « امثل في مجلس القضاء مع عميد بلخ ورئيس مرو » لما صدع لامره ، او اعاره ادنى اهتمام !

## ( جواب عمر بن عبد العزيز لعامل حمص )

كتب عامل حمص الى عمر بن عبد العزيز : « لقد انهار سور حمص ، ورمه واجب ، فبم تأمر ! » فكتب اليه عمر : « سور حمص بالعدل ، وطهر طرقاتها

---

(١) خطا او « ختا » : اسم القسم الشمالي من الصين الذي كانت تقطنه قبائل الاتراك ( فرهنك فارسي ) .

من الخوف والظلم ، ولا حاجة الى الطين واللبن والحجر والجص (١) » .

❋ ❋ ❋

وامر الله ، عزوجل ، داود عليه السلام بقوله : « يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق (٢) ... (٣) » .. ويقول تعالى : « اليس الله بكاف عبـــده .... » (٤) .

ويقول محمد المصطفى (ص): « من استعمل على المسلمين عاملا وهو يعلم ان في المسلمين من هو خير منه ، فقد خان الله ورسوله وجميع المسلمين » .

❋ ❋ ❋

ان هذا العالم صحيفة الملوك ، يذكر الاخيار منهم بالخير ويثني عليهم ، ويذكر الاشرار بالشر والسوء ويلعنهم . يقول العنصري :

« ستؤول الى حكاية وذكر ، ولو شدت سريرك في السماء » .
« ولن يبقـــى منك سوى الذكـــر ، ولو تمنطقـــت بالثريا » .
« فحاول ان تخلف ذكرا حسنا ، ما دمـــت ستؤول ذكـــرا » .
« واسع في ان تكون حكاية جيدة ، ما دمت ستصير حكاية » .

---

(١) ورد في جمهرة رسائل العرب ( ٢ : ٣٥١ ) نقلا عن كتاب « سيرة عمـر بن عبـد العزيز » ( ص ٩٠ ) لابن الجوزي ما يلـي :
كتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز اليه : « اما بعد ، فان مدينتنا قد خربت ، فان ير أمير المؤمنين ان يقطع لنا مالا نرمها به فعل » .
فكتب اليه عمر : « اما بعد ، فقد فهمت كتابك ، وما ذكرت من ان مدينتكم قد خربت ، فاذا قرأت كتابي هذا ، فحصنها بالعدل ، ونق طرقها من الظلم ، فانه مرمتها » .
(٢) في نسختنا ( ص ٣٧٢ ) وفي نسخة دارك ( ص ٣٢٧ ) ايضا : « بالعدل » ولم ينتبه المحققان الى هذا الخطأ في الاية الكريمة في حين انها جاءت صحيحة في نسخة اقبال .
(٣) ســـورة ص : ايـــة ٢٥ .
(٤) ســـورة الزمـر . ايـــة ٣٧ .

## الفصل الخمسـون

## في تدوين حساب أموال الولايات ونسق ذلك

ان فائدة تدوين حساب اموال الولايات ومعرفة الدخل والخرج تكمن في التامل الدقيق في الانفاق ، فيلغى عندئذ ، ما ليس ضروريا وبهذا . واذا ما كان لاحد راي في مجموع الدخل كان اظهر رغبة في التوفير ، فينبغي الاصغاء اليه ، حتى اذا تبين صحة ما يقول وحقيقته يجب السعي في اثر ذلك المال وتوفيره . فبهـذا يمكن القضاء على ما قد يحدث من اخلال او تبذير في الاموال وتضييعها ، وبـه ايضا ، لا يبقى ثمة شيء خافيا بعد ذلك .

اما موقف الملك ـــ اي ملك ـــ من حال الدنيا وشؤونها الاخرى فيجب ان يكون منصفا في كل حال ، وان يجري وفق السنن القديمة ، وعلى قرى الملـوك الصالحين الاخيار ، وعلى الملك ايضا الا يسن سنة سيئة ، او يرضى بالبدع . ومن واجبه كذلك مراقبة العمال وشؤون المعاملات ، ومعرفة الدخل والخرج ، والحفاظ على الاموال ، وتأسيس الخزائن ، والادخار . كل هذا لتوفير المال ، ودفع اذى الاعداء ومضارهم . لكن هذا لا يعني ان يمسك يده ويغلها الى عنقـه الى حد يصمه الناس معه بالبخل وينسبونه الى الدنيا والتكالب عليها ،. ولا يعني كذلك ان يتمادى في الاسراف فيقول عنه الناس انه مبذر للاموال مذريها . لكـن عليه ان يعرف ـــ عند العطاء ـــ للناس منازلهم واقدارهم ، فلا يهب مائة دينار من لا يستحق سوى عشرة ، او يمنح الف دينار من لا يستأهل غير مائة ، لان هذا يحط من اقدار العظماء والمشهورين ومراتبهم ، ويفسح المجال للآخرين بأن يدعوا : ان هذا الملك لا يراعي مقامات الاشخاص ومنازلهم ، ولا يعرف لأصحاب الخدمـات والفضل والمهارات والفنون اقدارهم . لذلك ، يضغنون دونما سبب ، ويقصرون في القيام بواجباتهـم .

وينبغي على الملك كذلك ، ان يحارب الاعداء حربا تبقي باب الصلح مفتوحا،

وان يصالحهم صلحا لا يوصد باب القتال ، وان يوطد علاقاته مع الصديق والعدو بنحو يمكنه من أن يفصم عراها ، او يعيد بناءها أنى يشاء .

ومما يجب عليه ايضا ، الا يشرب الخمر حبا في السكر ، والا يفرد وجهه دائما ، او يعبس دفعة واحدة . ومثلما يشغل نفسه باصيد والتنزه والشرب احيانا ، يجب ان يأخذها بين الحين والحين بالشكر وبذل الصدقات ، والصلاة بالليل ، والصيام ، واعمال الخير ، ليجمع بين الدنيا والآخرة .

وعليه ان يتوسط في كل الامور عملا بقول الرسول ، عليه السلام ، « خير الامور أوسطها » ، والا ينسى نصيب الحق تعالى في كل أمر ، لئلا يكون ذلك وبالا عليه . ومن واجبه ان يسعى في تنفيذ اوامر الله تعالى ، وتطبيق احكام الدين وشرائعه ، وان يبدي حرصه عليها ، حتى يهبه الله تعالى الكفاية في اموره الدينية والدنيوية ، ويحقق له مراد الدنيا والآخرة ، ويوصله الى ما يصبو اليه من آمال واماني .

## « النهايــة »

تمّ بعون الله تعالى وحسن توفيقه في منتصف شهر شوال سنة ثلاث وسبعين وستمائة على يدي العبد الضعيف الفقير المذنب المقر بذنبه المحتاج الى رحمة الله تعالى حسين بن زكريا بن الحاج حسين الدهستاني غفر الله له ولوالديه ولجميع المؤمنين الى يوم القيامة ، وصلى الله على سيدنا خاتم النبيين محمد المصطفى ، وعلى آله اجمعين واصحابه واتباعه وسلم عليهم تسليما كثيرا . متع الله لصاحبه بحق محمد وآله . والحمد للــه (١) .

(١) هذه الديباجة عن خاتمة الكتاب للناسخ ، وقد كتبها بالعربية ، لكن الدكتور جعفر شعار لم يثبتها في ختام الكتاب ، بل اكتفى بالاشارة اليها وترجمة مضمونها في الحاشية ( حاشية ٢ ص ٣٧٩ ) ، فنقلتها عن نسخة دارك ( ص ٣٣٠ ) .

## مصادر الترجمة ومراجعها

### اولا : العربيـــة


١ ـ آثار البلاد واخبار العباد ، زكريا بن محمد بن محمود القزويني ،
دار صادر ودار بيروت ، بيروت ١٩٦٠م ،
٢ ـ احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، المقدسي
الطبعة الثانية ، بريل ١٩٠٦م ،
٣ ـ اخبار عمر واخبار عبد الله بن عمر ، من جمع علي وناجي الطنطاوي ،
الطبعة الثالثة ، دار الفكر ، بيروت ١٩٧٣م ،
٤ ـ الالفاظ الفارسية المعربة ، أدي شير ،
المطبعة الكاثوليكية للاباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨م ،
٥ ـ الالقاب الاسلامية ، الدكتور حسن الباشا ،
مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٧م ،
٦ ـ البداية والنهاية ( الجزء الحادي عشر ) ، ابو الفداء ابن كثير ( ت ٧٧٤هـ ) ،
مطبعة السعادة ، مصر ( دون تاريخ ) ،
٧ ـ تاريخ واخبار القرامطة ، ثابت بن سنان وابن العديم ،
تحقيق الدكتور سهيل زكار ، دار الامانة ، بيروت ١٩٧١م ،
٨ ـ تاريخ الاسلام ( الجزء الثاني ) ، الدكتور حسن ابراهيم حسن ،
الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٣م ،
٩ ـ تاريخ الامم والملوك ـ الطبري ـ ( الجزء الثامن ) ، ابن جرير الطبري ،
مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ١٩٣٩م ،
١٠ ـ تحفة المجالس ونزهة المجالس ، جلال الدين السيوطي ،
تصحيح محمد بدر الدين النعمانـــي الحلبي ، الطبعـــة الاولى ، مطبعـــة السعادة ،
القاهـــرة ١٩٠٨م ،
١١ ـ تراجم سيدات بيت النبوة ، الدكتورة عائشة عبد الرحمن ( بنت الشاطيء ) ،
دار الكاتب العربي ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٦٧م ،
١٢ ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، ابو منصور الثعالبي ،
تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار نهضة مصر ١٩٦٥م ،

١٣ ـ جمهرة رسائل العرب ( الجزء الثاني ) . احمد زكي صفوت .
الطبعة الاولى . البابي الحلبي . القاهرة ١٩٣٧ م.
١٤ ـ حمزة بن الحسن الاصفهاني ( مقال ) . الدكتور حسين علي محفوظ .
مجلة سومر ( بغداد ) . المجلد التاسع عشر . الجزء الاول والثاني ١٩٦٤م .
١٥ ـ دولة الاسماعيلية في ايران . الدكتور محمد السعيد جمال الدين .
مطابع سجل العرب . القاهرة ١٩٧٥م .
١٦ ـ الفهرست . ابن النديم .
تحقيق محمد رضا تجدد . طهران ١٩٧١م .
١٧ ـ فرق الشيعة . أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي ( من القرن الثالث الهجري ) .
تصحيح محمد صادق آل بحر العلوم . المطبعة الحيدرية . النجف ١٩٣٦م .
١٨ ـ الفرق بين الفرق . ابو منصور البغدادي ( ت٤٢٩هـ ) .
تصحيح محمد زاهد بن الحسن الكوثري . القاهرة ١٩٤٨م .
١٩ ـ القاموس المحيط . مجد الدين الفيروز آبادي .
المكتبة التجارية . الطبعة الخامسة . القاهرة ١٩٥٤م .
٢٠ ـ قصص الانبياء ( الجزء الثاني ) . الامام ابو الفداء اسماعيل بن كثير ( ت ٧٧٤هـ ) .
تحقيق مصطفى عبد الواحد . الطبعة الاولى . دار التأليف ، القاهرة ١٩٦٨م .
٢١ ـ قصص الانبياء . عبد الوهاب النجار .
مطبعة المدني . القاهرة ١٩٦٨م .
٢٢ ـ كتاب ذكر اخبار اصفهان ( الجزء الاول ) . الامام ابو نعيم الاصفهاني .
نشرة ديدرنج . مطبعة بريل . ليدن ١٩٣١م .
٢٣ ـ كتاب قصص الانبياء . احمد بن محمد الثعلبي .
تصحيح لجنة من العلماء . المكتبة التجارية . القاهرة ( دون تاريخ ) .
٢٤ ـ لسان العرب . ابن منظور المصري .
الطبعة الاولى . بولاق ١٣٠٠هـ .
٢٥ ـ مشاهير علماء الامصار . محمد بن حيان البستي ( ت ٣٥٤هـ ) .
تصحيح م. فلايشهر . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٥٩م .
٢٦ ـ معجم الادباء . ياقوت الحموي ( ت ٦٢٦هـ ) .
طبعة دار المأمون الاخيرة . مصر ( دون تاريخ ) .
٢٧ ـ معجم البلدان . ياقوت الحمـوي .
طبعة صادر ببيروت . بيروت ١٩٦٥م .
٢٨ ـ معجم ما استعجم من اسماء البلدان والمواضع ( الجزء الثاني ) . عبد الله بن العزيـز البكـري ( ت ٤٨٧هـ ) .
تحقيق مصطفى السقا . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . الطبعة الاولى . القاهرة ١٩٤٥ م .
٢٩ ـ المعرب من الكلام الاعجمي . ابو منصور الجواليقي ( ت ٥٤٠ هـ ) .
تحقيق احمد محمد شاكر . طبعة الاوفست . طهران ١٩٦٦م .
٣٠ ـ مفاتيح العلوم . ابو عبد الله الكاتب الخوارزمي .
الطبعة الاولى . القاهرة ١٣٤٢هـ .
٣١ ـ الملل والنحل . الامام ابو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ( ت ٥٤٨هـ ) .
تصحيح الشيخ احمد فهمي محمد . الطبعة الاولى . مطبعة حجازي . القاهرة ١٩٤٨م .
٣٢ ـ وفيات الاعيان ( الجزء الاول والثاني ) . ابن خلكان ( ت ٦٨١هـ ) .
تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة . مصر ( دون تاريخ ) .

## ثانيا : الفارسيـــة

٣٣ ـ تاريخ ادبيات ايران • دكتر رضا زادة شفق •
انتشارات دانشكاه بهلوي • شيراز ١٣٥٢ شمسي •
٣٤ ـ تاريخ برامكه • المؤلف مجهـول •
الطبعة الاولى • طهران ١٣١٢ شمسي •
٣٥ ـ تاريخ سيستان ( سجستان ) • المؤلف مجهول •
تصحيح ملك الشعراء بهار • طهران ( دون تاريخ ) •
٣٦ ـ حدود العالم من المشرق الى المغرب • المؤلف مجهول ( ألف الكتاب عام ٣٧٢هـ ) •
باعتناء دكتر منوجهر ستوده • جابخانه دانشكاه طهران • ( مطبعة جامعة طهران )
طهران ١٣٤٠ شمســي •
٣٧ ـ دائرة المعارف فارسي ، غلام حسين مصاحب •
منشورات فرانكلين • طهران ١٣٤٥ شمسي •
٣٨ ـ راحة الصدور وآيـة السرور در تاريخ ال سلجوق • ابو بكر الراوندي •
تصحيح محمد اقبال • باهتمام مجتبي مينوي • امير كبير • طهران ١٣٣٣ شمسي •
٣٩ ـ سياست نامه : حواشي عباس اقبال •
طهران ١٣٢٠ شمسي •
٤٠ ـ سياست نامه : ( تعليقات هيوبرت دارك ) •
الطبعة الثانية • طهران ١٣٤٧ شمسي •
٤١ ـ سياست نامه ( تعليقات الدكتور جعفر شعار وحواشيه ) •
طهران ١٣٤٨ شمسي •
٤٢ ـ فرهنك ( معجم ) ادبيات فارسي • الدكتورة زهراي خانلري ( كيـا ) •
جابخانه زر ( المطبعة الذهبية ) • طهران ١٣٤٨ شمسي •
٤٣ ـ فرهنك فارسي • دكتر محمد معين •
انتشارات امير كبير • طهران ١٣٤٣ شمسي •
٤٤ ـ فرهنك نفيسي • الدكتور علي اكبر نفيسي ( ناظم الاطباء ) •
طبعة الاوفست • طهران ١٣٤٣ شمسي •
٤٥ ـ فرهنك وازهاي فارسي در زبان عربي ( معجم الالفاظ الفارسية في اللغة العربية ) •
تاليف محمد علي امام شوشتري • طهران ١٣٤٧ شمسي •
٤٦ ـ مزديسنا وتأثير آن در ادبيات بارسي ( مزديسنا وتأثيره في الادب الفارسي ) •
دكتر محمد معين • جابخانه دانشكاه • طهران ١٣٢٦ شمسي •
٤٧ ـ نزهت القلوب • محمد الله مستوفي ( ت ٧٥٠هـ ؟ ) •
الطبعة الحجرية • بومباي •

## ثالثا : المترجمـــة

٤٨ ـ بلدان الخلافة الشرقية • تأليف لسترنج • ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد •
مطبوعات المجمع العلمي العراقي • مطبعة الرابطة • بغداد ١٩٥٤م •
٤٩ ـ تاريخ الادب العربي ( الجزء الثالث ) • كارل بروكلمان •
ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار • دار المعارف بمصر ١٩٦٢م •
٥٠ ـ تاريخ البيهقي • ابو الفضل البيهقي • ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت •
دار الطباعة الحديثة • القاهرة ( دون تاريخ ) •

٥١ ـ تاريخ جهانكشاي ( القسم الخاص بالاسماعيلية ) لعطا ملك الجويني ، ترجمة الدكتور محمد السعيد جمال الدين ، وهو القسم الثاني من كتابه « دولة الاسماعيلية في ايران » الذي اثبت فيما تقدم .
٥٢ ـ الشاهنامة ، ابو القاسم الفردوسي ، ترجمة البنداري ، باعتناء واكمال الدكتور عبد الوهاب عزام ، طبعة الاوفست ، طهران ١٩٧٠م .

## محتويـات الكتـاب